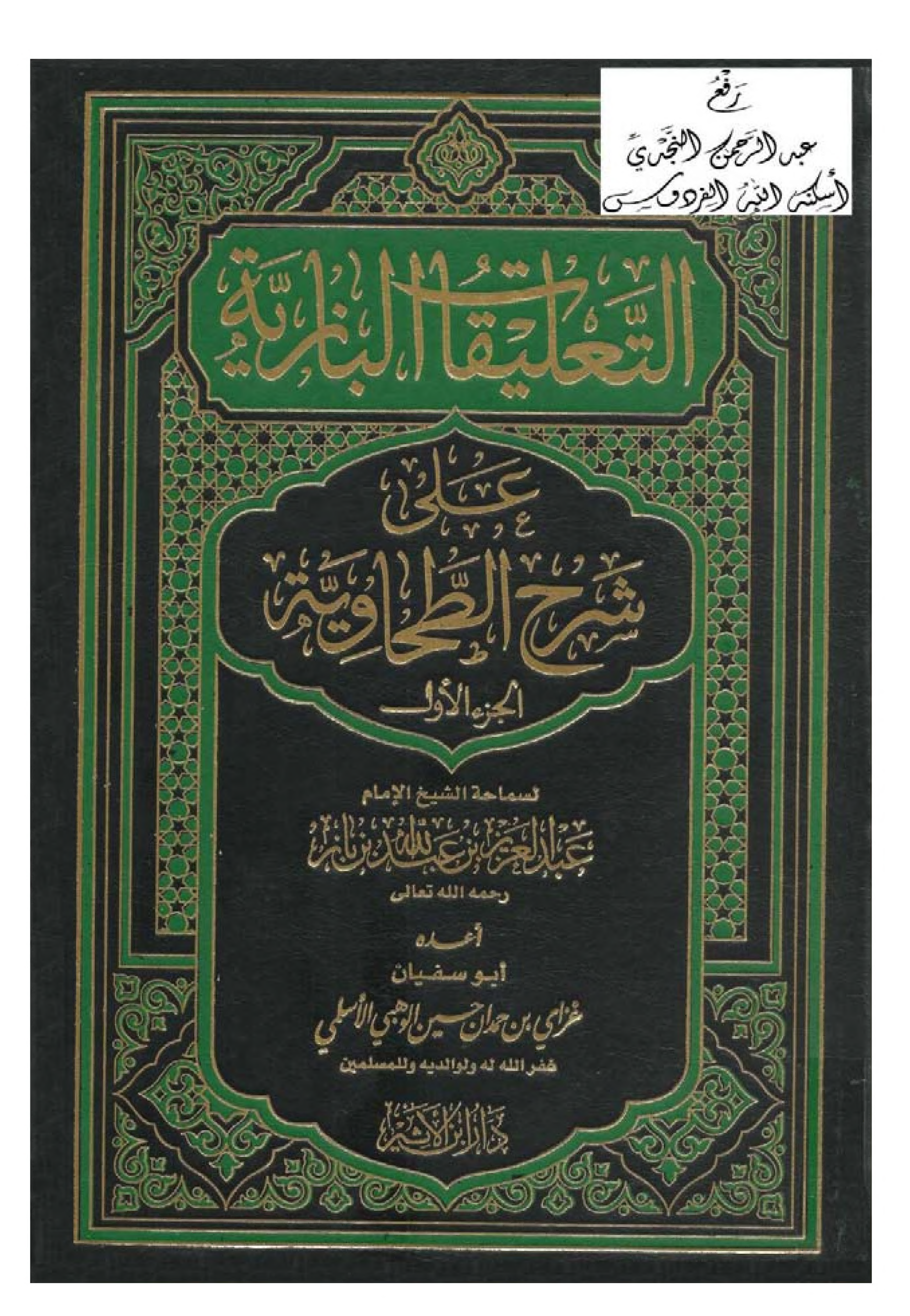


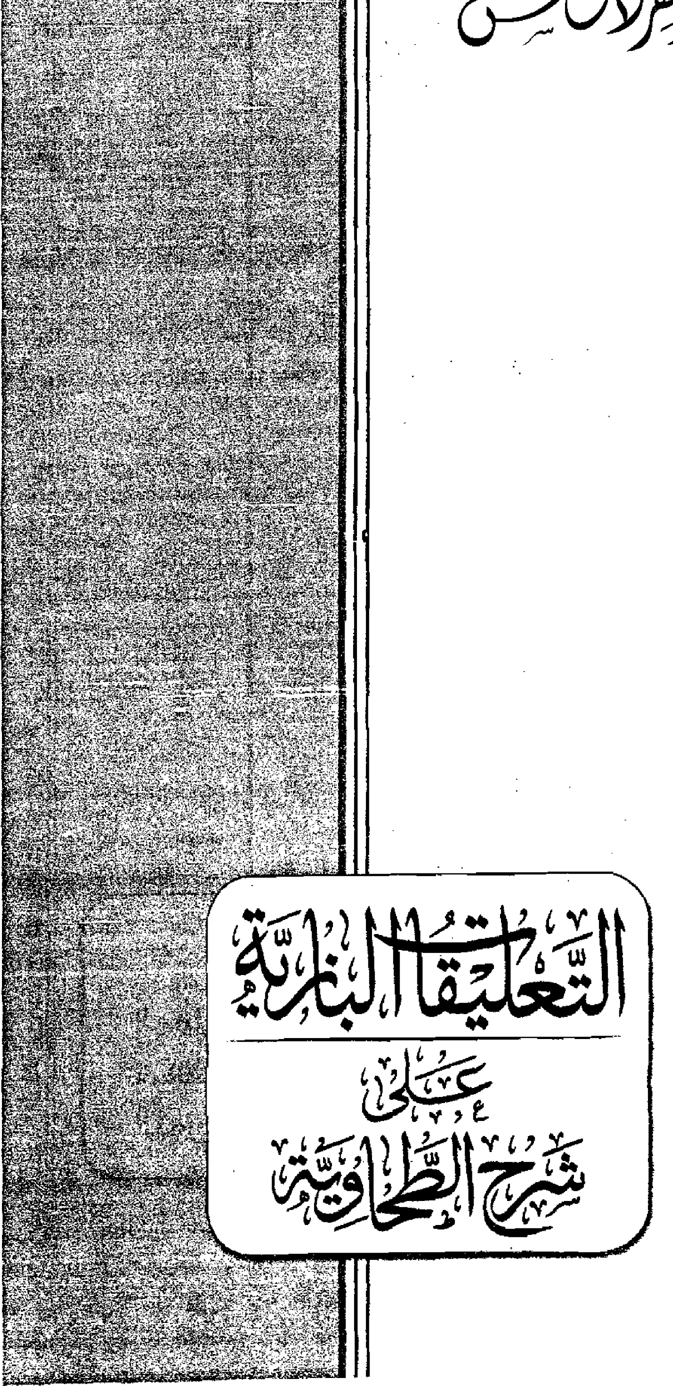
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
التعليقات البازية
على
شرح الطحاوية
الجزء الأول
لسماحة الشيخ الإمام
عبد العزيز بن عبد الله بن باز
رحمه الله تعالى
أعده
أبو سفيان
غزاي بن حمدان حسين الوهبي الأسلمي
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
دار ابن الأثير

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



التعليقات البازية

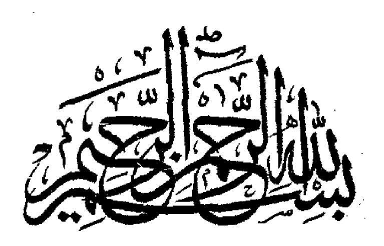
على

شرح الطحاوية

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس



الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م



دار ابن الأثير

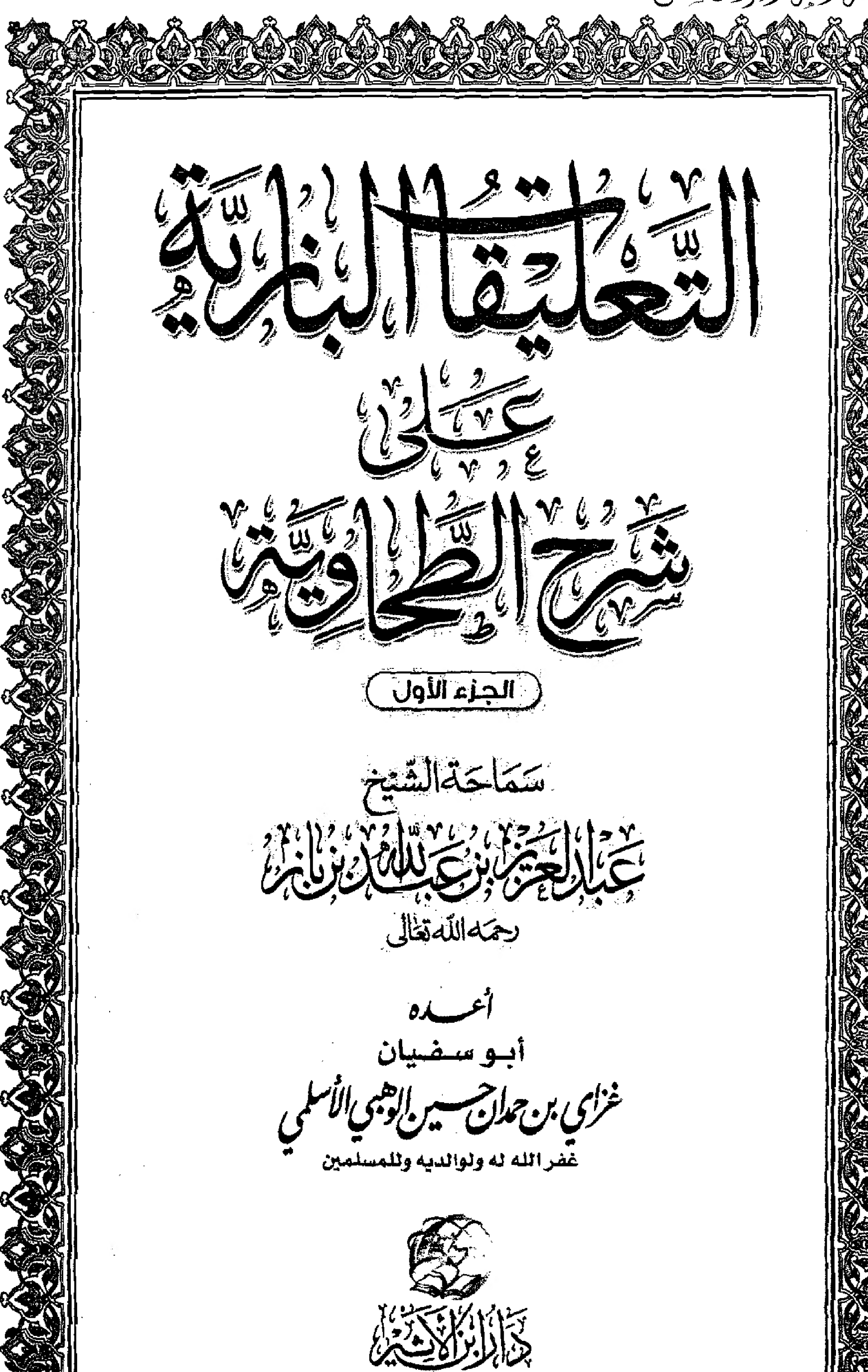
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - ص . ب ٦٤٣٧٧ الرياض ١١٥٣٦

هاتف : ٤٢٨٥٣٩٠ المعرض : ٢٦٧٧٥٨٤ فاكس : ٢٦٧٢٥٥٨

التوزيع : ٠٥٠٦١٠٨٦٦٧ - ٠٥٠٦١٠٨٧٠٧ الغربية : ٠٥٠٦٤١٦٠١٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



التعليقات البازية على شرح الطحاوية

الجزء الأول

سماحة الشيخ
عبد العزيز بن عبد الله بن باز
رحمه الله تعالى

أعده
أبو سفيان
غزاي بن حمدان حسين الوهبي الأسلمي
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دار ابن الأثير



رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

مقدمــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعــد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

فإن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ومبلغين عن الله رسالاته ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وسيد الناس في هذا المقام، بل وفي كل مقام، محمد رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان

والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً، خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساءً وليلاً ونهاراً سفراً وحضراً، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، و محمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى.

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، بعثه الله بشرع كامل عظيم، لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وذم الله من لم يعرف قدر هذه النعمة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩] والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عمم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصارى والصابئين.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي، خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبيًّا من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل في العلم بالله وشريعته، واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥] وقد أنجز الله موعده له، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه تعالى مكّن له في البلاد، وحكّمه في نواصي مخالفيه من

العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذّبه من قومه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢٠] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقال تعالى إخباراً عن رسله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥] وقد فعل الله تعالى ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنة أولاً وآخراً، باطناً وظاهراً، وصلوات الله وسلامه على رسوله دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار (١).

وقال ﷺ: «**وكان النبي يُبْعَث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»(٢) وذلك لكمال شريعته وعمومها وسعتها، واشتمالها على الصلاح المطلق، وأنها صالحة لكل زمان ومكان، ولا يتم الصلاح إلا

---

(١) من تفسير الإمام ابن كثير رحمه الله.

(٢) رواه البخاري (٣٢٨) كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

بها، وقد أسست للبشر أصولاً عظيمة، متى اعتبروها صلحت لهم دنياهم كما صلح لهم دينهم[١]، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣] أي بالعلم النافع والعمل الصالح.

وأمر سبحانه عند التنازع بالرد إليه فقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ [النساء: ٥٩] وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، ودل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك؛ فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] فهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ٣١] أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله من بركة سفارته[٢].

وقال ﷺ حين بعث معاذاً وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن: «**وتطاوعا** ـ أي توافقا في الحكم ـ **ولا تختلفا**» لأن ذلك يؤدي إلى

---

(١) بهجة قلوب الأبرار لابن سعدي رحمه الله (٦٠).

(٢) تفسير ابن كثير رحمه الله.

اختلاف أتباعكما، فيفضي إلى العداوة ثم المحاربة، والمرجع في الاختلاف إلى ما جاء في الكتاب والسنة[١].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢] تدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه، ما وسعهم إلا اتباعه والدخول في طاعته واتباع شريعته.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] وهذا إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد هنا ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] وفي الحديث: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً**

---

(١) فتح الباري ١٣/ ١٦٢.

لما جئت به»[١] ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧] والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد آذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله.

وأمر الله تعالى بالاقتداء بنبيه فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وهذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عزَّ وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين[٢].

فـ «محمد» ﷺ رسول الله إلى جميع الثقلين، إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، ملوكهم وزهادهم، الأولياء منهم وغير الأولياء، فليس لأحد الخروج عن متابعته باطناً وظاهراً، ولا عن متابعة ما جاء به من الكتاب والسنة في دقيق ولا جليل، لا في العلوم ولا الأعمال، وليس لأحد أن يقول له كما قال الخضر لموسى، وأما موسى فلم يكن مبعوثاً إلى الخضر[٣].

---

(١) الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٣٦٩ وابن بطة في الإبانة ١/ ٣٨٧ والبغوي في شرح السنة (١٠٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٥) وضعفه الألباني، وقال النووي في الأربعين النووية: حديث صحيح، وفيه نعيم بن حماد مختلف فيه.

(٢) تفسير ابن كثير رحمه الله.

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ٢/ ٢٣٤.

قال البخاري رحمه الله: وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ، ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة، فقال عمر: كيف تقاتل وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**» فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع رسول الله ﷺ، ثم تابعه بعد عمر، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ. أهـ

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ويستفاد من ذلك أن أمره ﷺ إذا ثبت لم يكن لأحد أن يخالفه ولا يتحيل في مخالفته، بل يجعله الأصل الذي يرد إليه ما خالفه لا بالعكس كما يفعل بعض المقلدين(١).

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه، أي قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رضي الله عنه، حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «**بم تحكم؟**» قال: بكتاب الله تعالى، قال ﷺ: «**فإن لم تجد؟**» قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «**فإن لم تجد؟**» قال رضي الله عنه: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ**»(٢).

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٣٣٩.

(٢) رواه أبو داود (٣٥٩٢) كتاب الأقضية / باب اجتهاد الرأي في القضاء، والترمذي (١٣٢٧) كتاب الأحكام / باب ما جاء في القاضي كيف يقضي، وضعفه الألباني.

فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله(١).

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣].

قال ابن بطال: لا عصمة لأحد إلا في كتاب الله أو في سنة رسوله أو في إجماع العلماء(٢).

ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم.

وكانوا في الجاهلية الجهلاء، يسفهون بالعقول الغراء، فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته إلى حال الأولياء وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً وأبرهم قلوباً وأقلهم تكلفاً وأصدقهم لهجة ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥١].

فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم، وقال مالك رحمه الله: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا.

---

(١) من تفسير الإمام ابن كثير رحمه الله.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٢٤٦.

وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى، أصلح الله عز وجل ظاهره للناس، فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر، نقص ظهورهم بحسبهم.

وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٧-٣٨] وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد، وقد أجرى الله الكريم عادته بأنه من قصد الخير وفق له

ويسر عليه، ومن نوى صالحاً ثبت عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩] وكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ ﴾ [الحج: ٣٠] قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة: ١١] من عصى الله في الأرض وأمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.

ـ وقد قص الله عز وجل علينا خبر قوم موسى ـ حين أمرهم بدخول بيت المقدس ـ فخالفوا وكفروا، فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات وخوراق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ، لكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم، فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مبرك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءتهم سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم، ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر، فهذا

هو الأكمل في اتباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ.

- وشتان بين جواب الصحابة رضي الله عنهم في بدر، وجواب بني إسرائيل في قتال العماليق، حين - ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء، ويقال: إنهم لما نكلوا عن الجهاد وعزموا على الانصراف والرجوع إلى مصر؛ سجد موسى وهارون عليهما السلام قدام ملأ من بني إسرائيل إعظاماً لما هموا به، وشق يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ثيابهما، ولاما قومهما على ذلك، فيقال إنهم رجموهما، وجرى أمر عظيم وخطر جليل، وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفير الذين جاؤوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف، في العدة والبيض واليلب، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسول الله ﷺ يقول: «**أشيروا علي أيها المسلمون**» وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ، فقال سعد بن معاذ: «**كأنك تعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله**» فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم**

آخره»[١] فهذا الحديث بعد الحكم بصحة إسناده، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه آكد، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ولا تعلق أساسه فيها، ولهذا قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة**»[٢] وفي لفظ: «**حتى يأتي أمر الله تعالى وهم كذلك**».

والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة، لشرف دينها وعظم نبيها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب[٣] وفي لفظ «**مع كل ألف سبعون ألفاً** ـ وفي آخر ـ **مع كل واحد سبعون ألفاً**».

ـ وقد فضل الله هذه الأمة على غيرها من الأمم، قال تعالى عن بني إسرائيل ـ ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] والمقصود أنهم كانوا أفضل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبيًّا، وأعظم ملكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزًّا[٤].

والصحابة كانوا أعلم الخلق بذلك، كما كانوا أقوم الخلق بجهاد

---

(١) المسند ٣/ ١٣٠، ورواه الترمذي (٢٨٦٩) كتاب الأدب / باب، وقال: حديث حسن غريب، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) متفق عليه من حديث جمع من الصحابة، انظر السلسلة الصحيحة (٢٧٠).

(٣) متفق عليه من حديث عكاشة بن محصن رضي الله عنه.

(٤) تفسير ابن كثير رحمه الله.

الكفار والمنافقين، كما قال فيهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «من كان منكم مستنًّا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد: كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بدينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم» فأخبر عنهم بكمال بر القلوب مع كمال عمق العلم، وهذا قليل في المتأخرين[(١)].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى وعبد الله بن عمر «مثلنا ومثل الأمم قبلنا كالذي استأجر أجراء فقال: من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم، فغضبت اليهود و النصارى، فقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقلّ عطاءً؟ قال: هل نقصتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه مَن أشاء»[(٢)] فدل الكتاب والسنة على أن الله يؤتي أتباع هذا الرسول من فضله ما لم يؤته لأهل الكتابين قبلهم[(٣)].

ومن المعلوم أن أهل الحديث والسنة أخص بالرسول واتباعه، فلهم من فضل الله وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم، كما قال بعض السلف: «أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل».

فإنه متى كان الرسول أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق وأقومهم قولاً وحالاً؛ لزم أن يكون أعلم الناس به أعلم الخلق بذلك، وأن يكون أعظمهم موافقة له واقتداء به أفضل الخلق[(٤)].

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ١٧٣.

(٢) رواه البخاري (٢٢٦٨) كتاب الإجارة/ باب الإجارة إلى نصف النهار.

(٣) تفسير ابن كثير رحمه الله.

(٤) مجموع الفتاوى ٤/ ١٣٩ـ١٤١.

قال الأوزاعي رحمه الله: «العلم ما جاء عن أصحاب رسول الله ﷺ وما لم يجئ عنهم فليس بعلم»(١).

وأخرج أبو عبيد ويعقوب بن شيبة عن ابن مسعود قال: «لا يزال الناس مشتملين بخير ما أتاهم العلم من أصحاب محمد ﷺ وأكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قبل أصاغرهم وتفرقت أهواؤهم هلكوا».

وقال أبو عبيدة: معناه أن كل ما جاء عن الصحابة وكبار التابعين لهم بإحسان هو العلم الموروث، وما أحدثه من جاء بعدهم هو المذموم، وكان السلف يفرقون بين العلم والرأي، فيقولون للسنة علم ولما عداها رأي.

وعن أحمد: يؤخذ العلم عن النبي ﷺ ثم عن الصحابة، فإن لم يكن فهو في التابعين بخير.

وعنه: ما جاء عن الخلفاء الراشدين فهو من السنة، وما جاء عن غيرهم من الصحابة ممن قال إنه سنة لم أدفعه.

وعن ابن المبارك: ليكن المعتمد عليه الأثر، وخذوا من الرأي ما يفسر لكم الخبر(٢).

قال الحافظ: والحاصل أن الرأي إن كان مستنداً للنقل من الكتاب أو السنة فهو محمود، وإن تجرد عن علم فهو مذموم(٣).

وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] وهي العدالة، لما كانت تعم الجميع لظاهر الخطاب، أشار إلى أنها من

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، رقم (٨٠٢ـ٨٠٣) ص ٢٨٣، وأورده الحافظ في فتح الباري ١٣/ ٢٩١.

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، رقم (٨٢٢) ص ٢٨٩.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٢٩١.

العام الذي أريد به الخاص، أو من العام المخصوص، لأن أهل الجهل ليسوا عدولاً، وكذلك أهل البدع، فعرف أن المراد بالوصف المذكور أهل السنة والجماعة، وهم أهل العلم الشرعي، ومن سواهم، ولو نسب إلى العلم فهي نسبة صورية لا حقيقية(١).

وحرم الله إيذاء الصحابة بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨] ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً، فهم في الحقيقة منكسو القلوب، يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين(٢).

قال البربهاري: واعلم أن من تناول أحداً من أصحاب محمد ﷺ، فاعلم أنه إنما أراد محمداً ﷺ، وقد آذاه في قبره(٣).

ـ ثم أثنى الله على اتباع الصحابة بقوله تعالى: ـ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان، فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٣١٦.

(٢) تفسير ابن كثير رحمه الله.

(٣) شرح السنة للإمام البربهاري رحمه الله، فقرة (١٤٧)

الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية(١).

ومن المعلوم لمن تدبر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف: أن خير قرون هذه الأمة ـ في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة ـ أن خيرها القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة: من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وأضله الله على علم.

وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته: «هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدى، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا»(٢).

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله :

فإن اتباع من ذكرناه من الأئمة في الأصول في زماننا بمنزلة اتباع الإجماع الذي يبلغنا عن الصحابة والتابعين، إذ لا يسع مسلماً خلافه، ولا يعذر فيه، فإن الحق لا يخرج عنهم ،لأنهم الأدلاء وأرباب مذاهب هذه الأمة والصدور والسادة والعلماء القادة ،أولوا الدين والديانة والصدق والأمانة، والعلم الوافر والاجتهاد الظاهر،،،

وقال: فإنا نعلم قطعاً أنهم أعرف قطعا بما صح من معتقد رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده، لجودة معارفهم وحيازتهم شرائط الإمامة، ولقرب عصرهم من الرسول ﷺ وأصحابه(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير رحمه الله.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ١٥٨.

(٣) مجموع الفتاوى ٤/ ١٧٩.

ثم إن العقيدة الصحيحة هي الأساس الذي يقوم عليه الدين وتصح معه الأعمال، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] فدلت الآية الكريمة على أن الأعمال لا تقبل إلا إذا كانت خالصة من الشرك، ومن ثم كان اهتمام الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بإصلاح العقيدة أولا ،،، وقد بقي النبي ﷺ في مكة بعد البعثة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى التوحيد وإصلاح العقيدة، لأنها الأساس الذي يقوم عليه بناء الدين.

وقد احتذى الدعاة والمصلحون في كل زمان حذو الأنبياء والمرسلين، فكانوا يبدءون بالدعوة إلى التوحيد وإصلاح العقيدة، ثم يتجهون بعد ذلك إلى الأمر ببقية أوامر الدين.

[و] العقيدة توقيفية، فلا تثبت إلا بدليل من الشارع، ولا مسرح فيها للرأي والاجتهاد، ومن ثم فإن مصادرها مقصورة على ما جاء في الكتاب والسنة، لأنه لا أحد أعلم بالله وما يجب له وما ينزه عنه من الله، ولا أحد بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ، ولهذا كان منهج السلف الصالح ومن تبعهم في تلقي العقيدة مقصوراً على الكتاب والسنة.

فما دل عليه الكتاب والسنة في حق الله تعالى آمنوا به واعتقدوه وعملوا به، وما لم يدل عليه كتاب الله ولا سنة رسوله نفوه عن الله تعالى ورفضوه؛ ولهذا لم يحصل بينهم اختلاف في الاعتقاد، بل كانت عقيدتهم واحدة، وكانت جماعتهم واحدة، لأن الله تكفل لمن تمسك بكتابه وسنة رسوله باجتماع الكلمة، والصواب في المعتقد واتحاد المنهج، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣] ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

ولذلك سموا بالفرقة الناجية، لأن النبي ﷺ شهد لهم بالنجاة حين أخبر بافتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، ولما سئل عن هذه الواحدة قال: «**هي ما كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[(١)].

وقد وقع مصداق ما أخبر به النبي ﷺ، فعندما بنى بعض الناس عقيدتهم على غير الكتاب والسنة، من علم الكلام وقواعد المنطق الموروثين عن فلاسفة اليونان؛ حصل الانحراف والتفرق في الاعتقاد، مما نتج عنه اختلاف الكلمة، وتفرق الجماعة، وتصدع بناء المجتمع الإسلامي[(٢)]، وتجهم الجو بظلمات البدع المتنوعة، التي كاد بها مبتدعوها الإسلام وأهله، وصاروا يتخبطون فيها خبط عشواء، ويبنون معتقداتهم على نسج العنكبوت.

والربّ ـ تعالى ـ يحمي دينه بأوليائه الذين وهبهم من الإيمان والعلم والحكمة ما به يصدُّون هؤلاء الأعداء، ويردون كيدهم في نحورهم، فما قام أحد ببدعة إلا قيض الله ـ وله الحمد ـ من أهل السنة من يدحض بدعته، ويبطلها[(٣)]، فالحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم

---

(١) قال الألباني رحمه الله: ضعيف بهذا السياق، وقد حسنه الترمذي في بعض النسخ، وهو ممكن باعتبار شواهده، ولذلك أوردته في «صحيح الجامع» (٥٢١٩) «الصحيحة» (١٣٤٨).

(٢) عقيدة التوحيد للشيخ صالح الفوزان ٦-٩.

(٣) مقدمة فتح رب البرية بتلخيص الحموية.

على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتنة المضلين.

قال أويس القرني سيد العباد بعد الصحابة :

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدع للمؤمن صديقاً، نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك معيناً من الفاسقين، حتى - والله - رموني بالعظائم، وايم الله: لا أدع أن أقوم فيهم بحقه[1].

وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية: أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعاً لها، تصديقاً وعملاً وحبًّا وموالاة لمن والاها ومعاداة لمن عاداها، الذين يردون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة، فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول، بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه[2].

---

(١) الطبقات الكبرى ٦/ ١٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٤٩.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١] قال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث لأن إمامهم النبي ﷺ.

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧] فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله، فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أُمرنا به، من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه وتفهمه وتفهيمه.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٧] وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام، وحذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره، ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد به الأمة: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ

فِي ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء والطير في الهواء؛ فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، وقد جاء في الحديث أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر(١)، وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون، واللاعنون أيضا وهم كل فصيح وأعجمي إما بلسان المقال أو الحال.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم، فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسالكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار**»(٢).

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٩] فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر

---

(١) سنن أبي داود (٣٦٤١) باب الحث على طلب العلم، الترمذي (٢٦٨٢) ما جاء في فضل الفقه على العبادة، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وصححه الشيخ الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٥٨) باب كراهية منع العلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الألباني: حسن صحيح.

الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام[١].

وقد روى أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال للكميل بن زياد: «**العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل والمال تنقصه النفقة، ومحبة العالم دين يدان به**»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «**لأن العلم ميراث الأنبياء، والعلماء ورثتهم، فمحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم، وبغض العلم بغض لميراث الأنبياء وورثتهم**» وقال: «**فإن الله سبحانه عليم، يحب كل عليم، وإنما يضع علمه عند من يحبه، فمن أحب العلم وأهله فقد أحب ما أحبه الله، وذلك مما يدان به**»[٣].

ومن المعلوم أن العقل والدين يقتضيان أن جانب النبوة والرسالة أحق بكل تحقيق وعلم ومعرفة وإحاطة بأسرار الأمور وبواطنها، هذا لا ينازع فيه مؤمن، وإذا كان الأمر كذلك فأعلم الناس بذلك أخصهم بالرسول وأعلمهم بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته ومدخله ومخرجه وباطنه وظاهره، وأعلمهم بأصحابه وسيرته وأيامه، وأعظمهم بحثاً عن ذلك وعن نقلته، وأعظمهم تديناً به واتباعاً له واقتداء به، وهؤلاء هم أهل السنة والحديث: حفظا له ومعرفة بصحيحه وسقيمه، وفقهاً فيه وفهماً يؤتيه الله إياه في معانيه، وإيماناً وتصديقاً وطاعة وانقياداً واقتداءً واتباعاً، مع ما يقترن بذلك من قوة عقلهم وقياسهم وتمييزهم وعظيم مكاشفاتهم

---

(١) تفسير ابن كثير رحمه الله.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٧٩ـ ٨٠.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ١٣٦.

ومخاطبتهم، فإنهم أسد الناس نظراً وقياساً ورأياً، وأصدق الناس رؤيا وكشفاً[(١)]، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

أي لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجره، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوا به؛ كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عملاً صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً.

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا.

قال وكيع: قال سفيان: لا بد للدين من العلم كما لا بد للجسد من الخبز.

وقال ابن بنت الشافعي: قرأ أبي على عمي أو عمي على أبي: سئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً.

قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، وقال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧] علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر[(٢)].

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٨٤ـ ٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير رحمه الله.

قال الزهري رحمه الله: كان من مضى من علمائنا يقول: الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض سريعا، فنعش العالم ثبات الدين، وذهاب العلماء ذهاب الدين كله[(١)].

قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: ٤١] قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها، وأنشد أحمد بن غزال لنفسه :

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها متى يمت عالم منها يمت طرف

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عاد في أكنافها التلف

وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨] وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام.

قال ربيعة بن أبي عبدالرحمن رحمه الله: الناس في حجور علمائهم كالصبيان في حجور آبائهم[(٢)].

و عن سلمان رضي الله عنه أنه قال: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يعلم الآخر، فإن هلك الأول قبل أن يعلم الآخر هلك الناس[(٣)].

وعن ابن شوذب قال: إن من نعمة الله على الشاب والأعجمي إذا نسكا أن يوفقا لصاحب سنة يحملهما عليها، لأن الأعجمي يأخذ فيه ما سبق إليه[(٤)].

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه**

---

(١) اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٩٤) والدارمي ١/ ٥٨.

(٢) أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢٥٩، وأورده ابن القيم في إعلام الموقعين ٢/ ١٩٦.

(٣) رواه الدارمي (٢٤٢) ١/ ٩٠.

(٤) رواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣٠)١/ ٦٠.

من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[١].

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: فتدبروا هذا الحديث، فإنه يدل على أنه لا يؤتى الناس قط من قبل علمائهم، وإنما يؤتون من قبل أنه إذا مات علماؤهم أفتى من ليس بعالم، فيؤتى الناس من قبله.

قال: وقد صرف عمر رضي الله عنه هذا المعنى تصريفاً فقال: ما خان أمين قط، ولكنه أؤتمن غير أمين فخان.

قال: ونحن نقول: ما ابتدع عالم قط، ولكنه استفتي من ليس بعالم فضل وأضل.

وكذلك فعل ربيعة، قال مالك: بكى ربيعة يوماً بكاءً شديداً، فقيل له: أمصيبة نزلت بك؟

قال: لا، ولكن استفتي من لا علم عنده، وظهر في الإسلام أمر عظيم[٢].

وعن ابن عون: ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا الناس عنه، ويدعوا الناس إلا من خير[٣].

ومن المعلوم أن كل من كان بكلام المتبوع وأحواله وبواطن أموره وظواهرها أعلم، وهو بذلك أقوم: كان أحق بالاختصاص به، ولا ريب أن

---

(١) رواه البخاري (١٠٠) كتاب العلم / باب كيف يقبض العلم، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) البدع والحوادث.

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله رقم (٨٠٠) ص ٢٨٢، وأورده الحافظ في فتح الباري ١٣ / ٢٤٨.

أهل الحديث أعلم الأمة وأخصها بعلم الرسول وعلم خاصته مثل الخلفاء الراشدين وسائر العشرة»، فعلماء الحديث أعلم الناس بهؤلاء وببواطن أمورهم، واتبعهم لذلك، فيكون عندهم العلم، علم خاصة الرسول وبطانته.

ومن المستقر في أذهان المسلمين: أن ورثة الأنبياء وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله والرسول، فهؤلاء أتباع الرسول حقًّا، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت، فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها وزكى الناس بها، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص: ٤٥] فالأيدي القوة في أمر الله، والأبصار البصائر في دين الله، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه.

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه في الدين والبصر والتأويل، ففجرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت من كنوزها، ورزقت فيها فهماً خاصًّا.

وهكذا ورثتهم من بعدهم، اعتمدوا في دينهم على استنباط النصوص، لا على خيال فلسفي ولا رأي قياسي، ولا غير ذلك من الآراء المبتدعات، لا جرم كانت الدائرة والثناء الصدق والجزاء العاجل والآجل لورثة الأنبياء التابعين لهم في الدنيا والآخرة، فإن المرء على دين خليله ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وبكل حال: فهم أعلم الأمة بحديث الرسول وسيرته ومقاصده وأحواله.

ونحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه أو كتابته أو روايته، بل نعني بهم كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهراً وباطناً، واتباعه ظاهراً وباطناً، وكذلك أهل القرآن، وأدنى خصلة في هؤلاء: محبة القرآن والحديث والبحث عنهما وعن معانيهما والعمل بما علموه من موجبهما، ففقهاء الحديث أخبر بالرسول من فقهاء غيرهم، وصوفيتهم أتبع للرسول من صوفية غيرهم، وأمراؤهم أحق بالسياسة النبوية من غيرهم، وعامتهم أحق بموالاة الرسول من غيرهم [١].

قال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله: **«وأهل السنة والحديث في كل مكان وزمان، هم محنة أهل الأرض، يمتاز أهل السنة بمحبتهم والثناء عليهم، ويعرف أهل البدع بعيبهم وشنايتهم»** [٢].

وقال الإمام أحمد رحمه الله: **«كان أحسن أمر الشافعي عندي: أنه كان إذا سمع الخبر ـ يعني الحديث ـ لم يكن عنده، قال به وترك قوله»** [٣].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف، واجتنب ما أحدثه الخلف [٤].

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: **«وإذا كانت سعادة الأولين والآخرين هي باتباع المرسلين؛ فمن المعلوم أن أحق الناس بذلك أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك، فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم، المتبعون لها، هم أهل السعادة في كل زمان ومكان، وهم**

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٩٢ـ٩٤.

(٢) الدرر السنية ٤/ ١٠٢.

(٣) مناقب الشافعي ١/ ٤٧٦.

(٤) فتح الباري ١٣/ ٢٥٣.

الطائفة الناجية من أهل كل ملة، وهم أهل السنة والحديث من هذه الأمة»[١].

وإذا تدبر العاقل وجد الطوائف كلها كلما كانت الطائفة إلى الله ورسوله أقرب، كانت بالقرآن والحديث أعرف وأعظم عناية، وإذا كانت عن الله وعن رسوله أبعد كانت عنهما أنأى!

فتأمل هذه الحكومة العادلة! ليتبين لك أن الذين يعيبون أهل الحديث ويعدلون عن مذهبهم جهلة وزنادقة منافقون بلا ريب، ولهذا لما بلغ الإمام أحمد عن «ابن أبي قتيلة» أنه ذكر عنده أهل الحديث بمكة، فقال: قوم سوء، فقام الإمام أحمد وهو ينفض ثوبه ويقول: زنديق، زنديق، زنديق، ودخل بيته.

إذ المسلمون متفقون على أن هذه الأمة خير الأمم وأكملهم، وأن أكمل هذه الأمة وأفضلها هم سابقوها، وإذا سلم ذلك، فأعلم الناس بالسابقين وأتبعهم لهم: هم أهل الحديث وأهل السنة، ولهذا قال الإمام أحمد في رسالة عبدوس بن مالك: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة ضلالة، والسنة عندنا: آثار رسول الله ﷺ».

وعيب المنافقين للعلماء بما جاء به الرسول قديم، من زمن المنافقين الذين كانوا على عهد النبي ﷺ، وأما أهل العلم فكانوا يقولون: هم الأبدال، لأنهم أبدال الأنبياء، وقائمون مقامهم حقيقة، ليسوا من المعدمين الذين لا يعرف لهم حقيقة، كل منهم يقوم مقام الأنبياء في القدر الذي ناب عنهم فيه: هذا في العلم والمقال، وهذا في العبادة

(١) الدرر السنية ٢/ ٢١.

والحال، وهذا في الأمرين جميعاً، وكانوا يقولون: هم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة، الظاهرون على الحق، لأن الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسله معهم، وهو الذي وعد الله بظهوره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً[١].

قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله: فاعلم أن السنة طريقة رسول الله ﷺ والتسنن بسلوكها وإصابتها، وهي أقسام ثلاثة: أقوال وأعمال وعقائد.

فالأقوال: نحو الأذكار والتسبيحات المأثورة.

والأفعال: مثل سنن الصلاة والصيام والصدقات المذكورة، ونحو السير المرضية والآداب المحكية، فهذان القسمان في عداد التأكيد والاستحباب، واكتساب الأجر والثواب.

والقسم الثالث: سنة العقائد، وهي من الإيمان إحدى القواعد[٢].

وقد ذم الله من عدل عن طريق الحق بقوله: ـ ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٨] وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر، قال أبو عثمان النيسابوري في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٩] «هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة»[٣]. لأن المخالف للسنة يرد بعض ما جاء به الرسول ﷺ، أو

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٩٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ١٠٨.

(٣) تفسير ابن كثير رحمه الله.

يعارض قول الرسول بما يجعله نظيراً له، من رأي أو كشف أو نحو ذلك[1].

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي إنما يأتمر بهواه، فما رآه حسنا فعله وما رآه قبيحاً تركه ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى، وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ [سبأ: ٥٤] قال قتاده: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه[2].

ـ ومما لا شك فيه أن الابتداع في الدين مما يورث الشك والريبة، لأنه قول على الله وفي شرع الله بلا علم، لذا كان من محاسن العقيدة السلفية: أنها مستقاة من مصادر الإسلام الأولى: الكتاب والسنة، وأنها تبتعد بالمسلم عن الشكوك والأوهام، وتترك في نفسه الطمأنينة الصادقة، وهو الوصف الذي ذكره الله في كتابه بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥] وأنها تجعل موقف المسلم موقف المعظِم لنصوص الكتاب والسنة، لعلمه أن كل ما فيها حق

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٨٧.

(٢) تفسير ابن كثير رحمه الله.

وصواب، وأنها تربط المسلم بالسلف العظيم فتزيده عزة وافتخاراً، بخلاف أهل البدع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «شعار أهل البدع هو ترك انتحال اتباع السلف، ولهذا قال الإمام أحمد: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي ﷺ»(١) ومن محاسنها أنها تحقق للمسلمين الوصف الذي رضيه الله تعالى لهم بقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥] ومن محاسنها أنها توحد صفوف المسلمين، وتجمع كلمتهم، لأنها عقيدة الكتاب والسنة، فهي تحقيق عملي واستجابة صحيحة لنداء الله تعالى(٢)، وعندما تفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً، واختلفت مشاربهم، وتشتت عقائدهم، تسلط عليهم أعداء الله من الكفار على سائر مللهم، فرموهم عن قوس واحدة، وساموهم سوء العذاب، وتداعوا عليهم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وهم كثير، ولكنهم غثاء كغثاء السيل، فإلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

ـ ولما كان الإحداث في الدين من القول على الله بغير علم، جعله الله في منزلة فوق منزلة الشرك الذي هو أعظم الذنوب ـ فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣] فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل،

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ١٥٥.

(٢) من تحقيق كتاب الإبانة لابن بطة، بتصرف.

يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحج: ٨] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [القمر: ٤٧] في ضلال عن الحق، وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

فليس بحمد الله لمبتدع في القرآن حجة صحيحة، لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل، مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف، لأنه من عند الله ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

لكن يعلم أن الضلال لا حد له، وأن العقول إذا فسدت لم يبق لضلالها حد معقول[2].

ـ وقد برأ الله رسوله من الأهواء وأهلها ـ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه، ـ وقضى عليهم بالإهانة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء: ١٤] لكونه غيّر ما حكم الله به، وضاد الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم

(١) تفسير ابن كثير رحمه الله.

(٢) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٥٧.

الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم(١).

وأصل الضلال اتباع الظن والهوى، كما قال الله تعالى في حق من ذمهم: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣] وقال في حق نبيه ﷺ: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:١ ـ ٤] فنزهه عن الضلال والغواية اللذين هما الجهل والظلم، فالضال هو الذي لا يعلم الحق، والغاوي الذي يتبع هواه(٢).

فإن اتباع الإنسان لما يهواه هو أخذ القول والفعل الذي يحبه، ورد القول والفعل الذي يبغضه بلا هدى من الله، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١١٩] وقال: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠] وقال تعالى لداود: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦].

فمن اتبع أهواء الناس بعد العلم الذي بعث الله به رسوله، وبعد هدى الله الذي بينه لعباده؛ فهو بهذه المثابة، ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع والتفرق ـ المخالفين للكتاب والسنة ـ أهل الأهواء، حيث قبلوا ما أحبوه، وردوا ما أبغضوه بأهوائهم بغير هدى من الله.

ومن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله، أو أوجبه بقوله أو فعله، من غير أن يشرعه الله؛ فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، ومن اتبعه في

---

(١) تفسير ابن كثير رحمه الله.

(٢) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٨٤.

ذلك فقد اتخذ شريكاً لله شرع في الدين ما لم يأذن به الله[١].

وكل من فعل أمراً موهماً أنه مشروع وليس كذلك، فهو غال في دينه مبتدع فيه، قائل على الله غير الحق بلسان مقاله ولسان حاله.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝ ﴾ [الروم: ٣١-٣٢] وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل، كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية من هم؟ فقال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[٢].

- وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان: ٢٢] أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥] وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعاً للشريعة، فيصح ظاهره بالمتابعة وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ١٨٩-١٩٠ و ١٩٥.

(٢) انظر «صحيح الجامع» (٥٢١٩) و«الصحيحة» (١٣٤٨).

الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج، أفضوا إلى دار السلام(١).

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لست تاركاً شيئا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ(٢).

وروى ابن أبي حاتم عن عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] قال: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون .

قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه وقال: ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما في نفسه(٣).

وروى الخطيب البغدادي رحمه الله بسنده إلى يحيى بن سعيد قال: سألت ابناً لعبد الله بن عمر عن مسألة ،فلم يقل فيها شيئاً، فقيل له: إنا لنعظم أن يكون مثلك ابن إمام هدى تسأل عن أمر ليس عندك فيه علم، فقال: «أعظم والله من ذلك عند الله عز وجل، وعند من عرف الله عز وجل، وعند من عقل عن الله عز وجل، أن أقول بما ليس لي به علم، أو

---

(١) تفسير ابن كثير رحمه الله.

(٢) رواه البخاري (٣٠٩٣) كتاب فرض الخمس / باب فرض الخمس، ومسلم (١٧٥٩) كتاب الجهاد والسير / باب حكم الفيء، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره.

أخبر عن غير ثقة»[١].

ـ لذلك اشتد إنكار السلف رحمهم الله على القائلين على الله وفي دين الله ما لا يعلمون، بل بخلاف الحق يقولون، فشنعوا عليهم، ونصحوا للأمة في شأنهم ـ قال عاصم الأحول: «**كان قتادة يقصر بعمرو بن عبيد، فجثوت على ركبتي، فقلت: يا أبا الخطاب: هذه الفقهاء ينال بعضها من بعض؟**

فقال: يا أحول، رجل ابتدع بدعة، فيذكر خير من أن يكف عنه»[٢] وقال رافع بن أشرس: كان يقال: «**إن من عقوبة الكذاب أن لا يقبل صدقه**» قال: وأنا أقول: «**ومن عقوبة الفاسق المبتدع أن لا تذكر محاسنه**»[٣] وعلى هذا حذر السلف من البدعة وأصحابها ووصفوهم بما يليق بحالهم فقالوا :

[الذلة للمفتري المبتدع]

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢] نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين، أبى الله إلا أن يذل من عصاه[٤].

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان بن عيينة قال: «**ليس في الأرض**

---

(١) الكفاية (٧٥).

(٢) الكفاية للخطيب البغداي (٩٠).

(٣) الكفاية للخطيب البغدادي (١٩٠).

(٤) انظر مجموع الفتاوى ١٥ / ٤٢٦.

صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه، وهو في كتاب الله، قالوا: أين؟

قال: أما سمعتم إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ ﴾ الآية، قال: يا أبا محمد، هذه لأصحاب العجل خاصة! قال: كلا، اقرأ ما بعدها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢] فهي لكل مفتر ومبتدع إلى يوم القيامة»(١).

[الاستدراك على الشريعة]

فالمبتدع إنما حاصل قوله بلسان حاله أو مقاله إن الشريعة لم تتم، وإنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها، لأنه لو كان معتقداً كمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع ولا استدرك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال الإمام البربهاري رحمه الله: فمن زعم أنه قد بقي شيء من أمر الإسلام لم يكفناه أصحاب محمد ﷺ فقد كذّبهم ،وكفى به فرقة وطعناً عليهم، وهو مبتدع ضال مضل محدث في الإسلام ما ليس فيه(٢).

[البدعة الحسنة]

قال ابن الماجشون: سمعت مالكاً يقول: **«من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم ديناً»**.

---

(١) الدر المنثور للسيوطي الآية ١٥٣.

(٢) شرح السنة، فقرة (١٠).

[المبتدع معاند للشرع ومشاق له]

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥] فإنه يزعم أن ثم طرق أخر، ليس ما حصره الشارع بمحصور، كأن الشارع يعلم ونحن أيضاً نعلم، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع أنه علم ما لم يعلمه الشارع، وهذا إن كان مقصوداً فهو كفر بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين.

[المبتدع نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع]

فهذا الذي ابتدع في دين الله، قد صيّر نفسه نظيراً ومضاهياً، حيث شرع مع الشارع ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع، قال شيخ الإسلام: ومن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله، أو أوجبه بقوله أو فعله، من غير أن يشرعه الله؛ فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، ومن اتبعه في ذلك فقد اتخذ شريكاً لله شرع في الدين ما لم يأذن به الله[1].

[البدعة اتباع للهوى]

لأن العقل إذا لم يكن متبعاً للشرع، لم يبق له إلا الهوى والشهوة ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده: الحق والهوى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠] هذه الآية صريحة في أن من لم يتبع هدى الله في هوى نفسه، فلا أحد أضل منه.

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ١٨٩-١٩٠و ١٩٥.

[البدعة لا يقبل معها عمل]

قال ابن عمر رضي الله عنهما: «**إذا لقيت أولئك ـ يعني من ينكر القدر ـ فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه، ما تقبله الله منه حتى يؤمن بالقدر**»(١).

فإن كان المبتدع لا يقبل منه عمل، فإما أن يراد أنه لا يقبل له بإطلاق على أي وجه وقع، وإما أن يراد أنه لا يقبل منه ما ابتدع فيه خاصة دون ما لم يبتدع فيه.

فأما الأول فيمكن حمله على أحد وجوه ثلاثة:

١) أن يكون على ظاهره، من أن كل مبتدع لا تقبل أعماله لحديث ابن عمر رضي الله عنهما.

٢) أن تكون بدعته أصلاً يتفرع عليه سائر الأعمال، كما إذا ذهب إلى إنكار العمل بخبر الواحد بإطلاق.

٣) أن صاحب البدعة في بعض الأمور التعبدية أو غيرها قد يجره اعتقاد بدعته الخاصة إلى التأويل الذي يصيّر اعتقاده في الشريعة ضعيفاً، وذلك يبطل عليه جميع عمله.

وأما الثاني: وهو أن يراد بعدم القبول لأعمالهم ما ابتدعوا فيه خاصة، فيظهر أيضاً بدليل «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢).

[صاحب البدعة تنزع منه العصمة ويوكل إلى نفسه]

فالله بعث رسوله رحمة للعالمين، ولم يردوا إلى تدبير أنفسهم، فإذا

(١) صحيح مسلم، وهو أول حديث في كتاب الإيمان.

(٢) رواه الشيخان.

ترك المبتدع هذه الهبات العظيمة، فقد حل يده من حبل العصمة إلى تدبير نفسه، فهو حقيق بالبعد عن الرحمة، قال سفيان الثوري: «**من أصغى بأذنه إلى صاحب بدعة خرج من عصمة الله، ووكل إليها**» ـ يعني: إلى البدع[1].

[الماشي إلى المبتدع والموقر له معين على هدم الإسلام]

فإن الإيواء يجامع التوقير، ووجه ذلك ظاهر، لأن المشي إليه والتوقير له تعظيم لأجل بدعته «**من آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**» رواه البخاري، فصار توقيره صدوداً عن العمل وإقبالاً على ما يضاده وينافيه، والإسلام لا ينهدم إلا بترك العمل به والعمل بما ينافيه، قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «**من عظّم صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام**»[2].

[مساوئ توقير المبتدع]

أن توقير صاحب البدعة مظنة لمفسدتين تعودان على الإسلام بالهدم:

الأولى: التفات الجهال والعامة إلى ذلك التوقير، فيعتقدون في المبتدع أنه أفضل الناس، وأن ما هو عليه خير مما عليه غيره، فيؤدي ذلك إلى اتباعه على بدعته دون اتباع أهل السنة على سنتهم.

الثانية: أنه إذا وقر من أجل بدعته، صار ذلك كالحادي المحرض له على إنشاء الابتداع في كل شيء.

---

(١) السنة للبربهاري، فقرة (١٧٠).

(٢) شرح السنة للبربهاري، فقرة (١٧٠).

ونقل الذهبي في التذكرة عن أبي الوليد الباجي أنه قال في كتاب فرق الفقهاء، عند ذكر أبي بكر الباقلاني: لقد أخبرني أبو ذر ـ وكان يميل إلى مذهبه ـ فسألته: من أين لك هذا؟ قال: كنت ماشياً مع الدارقطني، فلقينا أبا بكر بن الطيب القاضي، فالتزمه الدارقطني، وقبل وجهه وعينيه، فلما افترقنا قلت: من هذا؟ قال: هذا إمام المسلمين، والذاب عن الدين، القاضي أبو بكر ابن الطيّب، قال أبو ذر: فمن ذلك الوقت تكررت إليه[(١)]. أهـ ـ وكان قد تمذهب على رأي الأشعري ـ.

[صاحب البدعة ملعون على لسان الشريعة]

لقوله ﷺ: «**من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين..**»[(٢)].

[أنه يزداد بعدا من الله]

قال أيوب السختياني: «**ما ازداد صاحب البدعة اجتهاداً، إلا ازداد من الله بعداً**»[(٣)] وقوله ﷺ: «**يخرج من ضئضئي هذا قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم ـ إلى أن قال ـ يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»[(٤)] فبيّن أولاً اجتهادهم، ثم بيّن آخراً بعدهم من الله تعالى.

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٣/ ١١٠٤.

(٢) رواه البخاري (١٨٦٧) كتاب فضائل المدينة / باب حرم المدينة، ومسلم (١٣٦٦) كتاب الحج/ باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٩.

(٤) رواه البخاري (٣٦١٠) كتاب المناقب / باب علامات النبوة في الإسلام، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم (١٠٦٣) كتاب الزكاة / باب التحريض على قتال الخوارج، من حديث جابر رضي الله عنه.

[البدعة مظنة إلقاء العداوة والبغضاء بين أهل الإسلام]

لأنها تقتضي التفرق شيعاً، وقد أشار إلى ذلك القرآن ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] وفي قوله ﷺ: «**ولا تدابروا**» إشارة إلى عدم الاختلاف في الدين، إذ البدعة من أسباب الاختلاف ثم التدابر.

[أنها مانعة من شفاعة محمد ﷺ]

لما في صحيح البخاري: «**وإنه سيؤتى برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ـ إلى قوله ـ فيقال: ما زالوا مرتدين على أعقابهم، فأقول لهم سحقاً**»(١).

ويظهر أن ذلك الارتداد لم يكن ارتداد كفر لقوله: «من أمتي» ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لما نسبوا إلى أمته.

[أن على مبتدعها إثم من عمل بها إلى يوم القيامة]

لقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥] ولما في صحيح مسلم: «**من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ..**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٥٨٣) كتاب الرقاق / باب في الحوض،و (٧٠٥١) كتاب الفتن / باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾، ومسلم (٢٢٩٠) كتاب الفضائل / باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه مسلم أيضا من حديث أم سلمة رضي الله عنها (٢٢٩٥).

(٢) مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة / باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

[أن صاحبها ليس له توبة]

لقوله ﷺ: «إن الله حجر التوبة عن كل صاحب بدعة»(١).

[أن المبتدع يلقى عليه الذل في الدنيا والآخرة]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢] فهو عموم فيهم وفيمن أشبههم من حيث كانت البدع كلها افتراء على الله، وقال ﷺ: «وجعل الذل والصغار على من خالف أمري»(٢).

[البعد عن حوض رسول الله ﷺ]

لحديث الموطأ: « فليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير.. »(٣).

[الخوف عليه من أن يكون كافراً]

فلأن العلماء من السلف الأول وغيرهم اختلفوا في تكفير كثير من فرقهم مثل الخوارج والقدرية، ودل على ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

[أنه يخاف على صاحبها سوء الخاتمة والعياذ بالله]

لأن صاحبها مرتكب إثماً، وعاص لله حتماً، مصر على ما نهى الله

---

(١) انظر: السلسلة الصحيحة (١٦٢٠).

(٢) رواه أحمد في المسند ٢/ ٥٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه مسلم (٢٤٩) كتاب الطهارة / باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عنه، ومن مات مصرًّا على المعصية فيخاف عليه، قال قتاده: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

[اسوداد وجهه في الآخرة]

لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال ابن كثير: «**يعني يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة**» قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

[البراءة منه]

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما في أهل القدر: «**إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني**».

[أنه يخشى عليه الفتنة]

عن الزبير بن بكار قال: سمعت مالك بن أنس وأتاه رجل فقال: يا أبا عبدالله: من أين أحرم ؟

قال: من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ، فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد، فقال: لا تفعل، قال: فإني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر، قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة، فقال: وأي فتنة هذه؟ إنما هي أميال أزيدها !! فقال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصّر عنها رسول الله ﷺ، إني سمعت الله يقول:

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: ٦٣][١].

[صاحب البدعة لا يقبل حديثه]

روى الخطيب البغدادي عن ابن المبارك أنه قال: «**يكتب الحديث إلا عن أربعة: غلاط لا يرجع، وكذاب، وصاحب هوى يدعو إلى بدعته، ورجل لا يحفظ فيحدث من حفظه**»[٢].

[سر تسمية البدعة ضلالة والمبتدع ضالاً]

فصاحب البدعة لما غلب عليه الهوى مع الجهل بطريقة توهم أن ما ظهر له بعقله هو الطريق القويم دون، فالمبتدع من هذه الأمة إنما ضل في أدلتها حيث أخذها مأخذ الهوى والشهوة، لا مأخذ الانقياد تحت أحكام الله، وهذا هو الفرق بين المبتدع وغيره، لأن المبْتدع جعل الهوى أول مطالبه، وأخذ الأدلة بالتبع، فإذا انضم إلى ذلك الجهل بأصول الشريعة وعدم الاضطلاع بمقاصدها؛ كان الأمر أشد وأقرب إلى التحريف والخروج عن مقاصد الشرع.

[لا غيبة لأهل البدع]

روى الخطيب البغدادي رحمه الله عن الحسن البصري رحمه الله قال: «**ليس لأهل البدعة غيبة**»[٣].

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة ١/ ٢١.

(٢) الكفاية (٢٢٧).

(٣) الكفاية (٨٨).

[المجاوزة إلى تكفير المخالف]

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والخوارج هم أول من كفر المسلمين، ويكفرون بالذنوب، ويكفرون من خالفهم في بدعته، ويستحلون دمه وماله، وهذه حال أهل البدع، يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها.أهـ(١).

[رد المعتدي من أعظم الأسباب التي ترضي الله ورسوله ﷺ]

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: وكذلك من كفر المسلمين أو استحل دماءهم وأموالهم ببدعة ابتدعها ليست في كتاب الله ولا سنة رسوله، فإنه يجب نهيه عن ذلك، وعقوبته بما يزجره ولو بالقتل أو القتال، فإنه إذا عوقب المعتدون من جميع الطوائف، وأكرم المتقون من جميع الطوائف، كان ذلك من أعظم الأسباب التي ترضي الله ورسوله ﷺ وتصلح أمر المسلمين.أهـ(٢).

[عدم الإجابة بالحسنى]

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فمتى ظلم المخاطب لم نكن مأمورين أن نجيبه بالتي هي أحسن، بل قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعروة بن مسعود بحضرة النبي ﷺ لما قال: إني لأرى أوباشاً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك ـ امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه؟ أهـ(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٢٧٩.

(٢) مجموع الفتاوى ٣/ ٤٢٣.

(٣) مجموع الفتاوى ٣/ ٢٥٢.

[حسنات أهل البدع نوعان]

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فحسناتهم نوعان: إما موافقة أهل السنة والحديث، وإما الرد على من خالف السنة والحديث ببيان تناقض حججهم.أهـ[١].

[إفساد مخالف السنة أكثر من إصلاحه]

قال ابن سيرين: إن قوماً تركوا العلم ومجالسة العلماء، واتخذوا محاريب فصلوا فيها، حتى يبس جلد أحدهم على عظمه، خالفوا السنة فهلكوا، والله ما عمل عامل بغير علم إلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح[٢].

[الراد على أهل البدع مجاهد]

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لكن الموافقة التي فيها قهر المخالف وإظهار فساد قوله هي من جنس المجاهد المنتصر، فالراد على أهل البدع مجاهد، حتى كان يحيى بن يحيى يقول: الذب عن السنة أفضل من الجهاد.أهـ[٣].

[البدعة لابد فيها من حق لتنطلي على الناس]

ومن صبر من أهل الأهواء على قوله فذاك لما فيه من الحق، إذ لابد في كل بدعة ـ عليها طائفة كبيرة ـ من الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، ويوافق عليه أهل السنة والحديث ويوجب قبولها، إذ الباطل المحض لا يقبل بحال.أهـ[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ١٢.

(٢) الباعث لأبي شامة ١/ ٦٨.

(٣) مجموع الفتاوى ٤/ ١٣.

(٤) مجموع الفتاوى ٤/ ١٥.

[ما جاء عن السلف في الاتباع]

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ(١).

وعن ابن مسعود قال: اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم(٢).

وقال: يا أيها الناس: لا تبتدعوا ولا تنطعوا ولا تعمقوا، وعليكم بالعتيق، خذوا ما تعرفون ودعوا ما تنكرون(٣).

العتيق: القديم والكريم والخيار من كل شيء.

وعنه: القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة(٤).

عن أبي إدريس الخولاني قال: لأن أرى في المسجد ناراً لا أستطيع إطفاءها، أحب إليّ من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها(٥).

عن سفيان أنه كان يقول: لا يستقيم قول إلا بعمل، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا موافقاً للسنة(٦).

قال رجل لأبي بكر بن عياش: يا أبا بكر: من السني ؟

قال: الذي إذا ذكرت الأهواء لم يغضب لشيء منها(٧).

وعن مقاتل بن حيان قال: أهل هذه الأهواء آفة محمد ﷺ،

---

(١) رواه البخاري (٣٠٩٣) كتاب فرض الخمس / باب فرض الخمس، ومسلم (١٧٥٩) كتاب الجهاد والسير / باب حكم الفيء، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) السنة لابن نصر المروزي (٢٨).

(٣) مصنف عبد الرزاق ١٠/ ٢٥٢، والدارمي ١/ ٥٠، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٠٨).

(٤) الباعث لأبي شامة ١/ ١٥.

(٥) السنة لأبي نصر المروزي ١/ ٣٢، وعبد الله بن أحمد في السنة (٧١٥) ١/ ٣٣٩.

(٦) حلية الأولياء ٧/ ٣٢.

(٧) اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٥٣) ١/ ٦٥.

فأبصرهم، فإنك إن لا تكن أصبحت في بحر الماء، فقد أصبحت في بحر الأهواء الذي هو أعمق غوراً وأشد اضطراباً وأكثر صواعق وأبعد مذهباً من البحر وما فيه، ففلك مطيتك التي تقطع بها سفر الضلال؛ اتباع السنة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أصبح أهل الرأي أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يعوها وتفلتت منهم أن يرووها فاشتقوا الرأي[1].

قال سحنون: يعني البدع.

[المروق من الإسلام والسنة بأسباب]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإذا كان على عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين قد انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، حتى أمر النبي ﷺ بقتالهم، فيعلم أن المنتسب إلى الإسلام أو السنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام والسنة، حتى يدعي السنة من ليس من أهلها، بل قد يمرق منها وذلك بأسباب :

منها: الغلو الذي ذمه الله في كتابه.

ومنها: التفرق والاختلاف.

ومنها: أحاديث النبي ﷺ وهي كذب عليه باتفاق أهل المعرفة، يسمعها الجاهل بالحديث فيصدق بها لموافقة ظنه وهواه. أهـ[2].

فالانحراف عن العقيدة الصحيحة مهلكة وضياع، لأن العقيدة الصحيحة هي الدافع القوي إلى العمل النافع، والفرد بلا عقيدة صحيحة يكون فريسة للأوهام والشكوك التي ربما تراكم عليه، فتحجب عنه الرؤية الصحيحة لدروب الحياة السعيدة، حتى تضيق عليه حياته، ثم

---

(١) رواه اللالكائي (٢٠١) ١/ ١٢٣، والدار قطني (١٢) ٤/ ١٤٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٨٣.

يحاول التخلص من هذا الضيق بإنهاء حياته ولو بالانتحار، كما هو الواقع من كثير من الأفراد الذين فقدوا هداية العقيدة الصحيحة.

والمجتمع الذي لا تسوده عقيدة صحيحة هو مجتمع بهيمي، يفقد كل مقومات الحياة السعيدة، وإن كان يملك الكثير من مقومات الحياة المادية التي كثيراً ما تقوده إلى الدمار، كما هو مشاهد في المجتمعات الكافرة، لأن هذه المقومات المادية تحتاج إلى توجيه وترشيد، للاستفادة من خصائصها ومنافعها، ولا موجه لها سوى العقيدة الصحيحة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

فقوة العقيدة يجب أن لا تنفك عن القوة المادية، فإن انفكت عنها بالانحراف إلى العقائد الباطلة، صارت القوة المادية وسيلة دمار وانحدار، كما هو المشاهد اليوم في الدول الكافرة التي تملك مادة، ولا تملك عقيدة صحيحة[1].

والانحراف عن العقيدة الصحيحة له أسباب يجب معرفتها، من أهمها:

١ـ الجهل بالعقيدة الصحيحة، بسبب الإعراض عن تعلمها وتعليمها، أو قلة الاهتمام والعناية بها، حتى ينشأ جيل لا يعرف تلك العقيدة، ولا يعرف ما يخالفها ويضادها، فيعتقد الحق باطلاً والباطل حقًّا، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **«إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»**[2].

٢ـ التعصب لما عليه الآباء والأجداد والتمسك به وإن كان باطلاً،

---

(١) عقيدة التوحيد ١٠ـ١١.

(٢) ذكره شيخ الإسلام في الفتاوى ١٥ / ٥٤.

وترك ما خالفه وإن كان حقًّا.

٣ـ التقليد الأعمى بأخذ أقوال الناس في العقيدة من غير معرفة دليلها ومعرفة مدى صحتها.

٤ـ الغلو في الأولياء والصالحين.

٥ـ الغفلة عن تدبر آيات الله الكونية وآيات الله القرآنية، والانبهار بمعطيات الحضارة المادية، حتى ظنوا أنها من مقدور البشر وحده، فصاروا يعظمون البشر.

[سبل التوقي من الانحراف في العقيدة]

١ـ الرجوع إلى كتاب الله عز وجل وإلى سنة رسوله ﷺ لتلقي الاعتقاد الصحيح منهما، مع الاطلاع على عقائد الفرق المنحرفة، ومعرفة شبههم للرد عليها والتحذير منها، لأن من لا يعرف الشر يوشك أن يقع فيه.

٢ـ العناية بتدريس العقيدة الصحيحة ـ عقيدة السلف الصالح ـ في مختلف المراحل الدراسية .

٣ـ أن تقرر دراسة الكتب السلفية الصافية، ويبتعد عن كتب الفرق المنحرفة، إلا من باب معرفتها لرد ما فيها من الباطل والتحذير منها.

٤ـ قيام دعاة مصلحين يجددون للناس عقيدة السلف، ويردون ضلالات المنحرفين عنها(١) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد قررنا في قاعدة «السنة والبدعة» أن البدعة في الدين هي ما لم يشرعه الله ورسوله، وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب، فأما ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، وعلم

(١) عقيدة التوحيد للشيخ صالح الفوزان.

الأمر به بالأدلة الشرعية؛ فهو من الدين الذي شرعه الله، وإن تنازع أولو الأمر في بعض ذلك، وسواء كان هذا مفعولاً على عهد النبي ﷺ أو لم يكن. أهـ(١).

والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية كقوله: «**فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**» وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: «**نعمت البدعة هذه**»، وقال ابن جرير: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] مبدعهما، وإنما هو مفعل، فصرف إلى فعيل، كما صرف المؤلم إلى الأليم والمسمع إلى السميع، ومعنى المبدع: المنشئ والمحدث ما لا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد، قال: ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعاً، لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره، وكذلك كل محدث قولاً أو فعلاً لم يتقدم فيه متقدم فإن العرب تسميه مبتدعاً(٢).

قال الحافظ: والمحدثات بفتح الدال، جمع محدثة، والمراد بها ما أحدث وليس له أصل في الشرع، ويسمى في عرف الشرع «بدعة»، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة، فالبدعة في عرف الشرع مذمومة، بخلاف اللغة، فإن كل شيء أحدث على غير مثال يسمى بدعة، سواء كان محموداً أو مذموماً، وكذا القول في المحدثة وفي الأمر المحدث الذي ورد في حديث عائشة «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ١٠.

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٢٥٣.

وأما حديث عائشة فيدل بالمنطوق والمفهوم:

أما منطوقه: فإنه يدل على أن كل بدعة أحدثت في الدين، ليس لها أصل في الكتاب ولا في السنة، سواء كانت من البدع القولية الكلامية، كالتجهم والرفض والاعتزال وغيرها، أو من البدع العملية، كالتعبد لله بعبادات لم يشرعها الله ولا رسوله؛ فإن ذلك كله مردود على أصحابه، وأهله مذمومون بحسب بدعهم وبعدها عن الدين.

وأما مفهوم هذا الحديث: فإن من عمل عملاً عليه أمر الله ورسوله ـ وهو التعبد لله بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة: من واجب ومستحب، فعمله مقبول وسعيه مشكور (١).

ووجه التحذير، أن الذي يحدث البدعة قد يتهاون بها لخفة أمرها في أول الأمر، ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة، وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده، ولو لم يكن هو عمل بها، بل لكونه كان الأصل في إحداثها (٢).

قال الإمام البربهاري رحمه الله: واحذر صغار المحدثات من الأمور، فإن صغير البدع يعود حتى يصير كبيراً، وكذلك كل بدعة أحدثت في هذه الأمة، كان أولها صغيراً يشبه الحق، فاغتر بذلك من دخل فيها، ثم لم يستطع الخروج منها، فعظمت وصارت ديناً يدان بها، فخالف الصراط المستقيم، فخرج من الإسلام (٣).

قال الشافعي: **«البدعة بدعتان: محمودة ومذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالفها فهو مذموم»** أخرجه أبو نعيم بمعناه من طريق إبراهيم بن الجنيد عن الشافعي.

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (١١).

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٠٢.

(٣) شرح السنة، فقرة (٧).

وجاء عن الشافعي أيضاً ما أخرجه البيهقي في مناقبه قال: «المحدثات ضربان: ما أحدث يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً، فهذه بدعة الضلال، وما أحدث من الخير لا يخالف شيئا من ذلك فهذه محدثة غير مذمومة». أهـ (١)

فإن قيل لنا: فما أصل البدعة ؟

قال: قلنا: أصل هذه الكلمة من الاختراع، وهو الشيء يحدث من غير أصل سابق ولا مثال احتذي ولا ألف مثله، ومنه قولهم: أبدع الله الخلق، أي: خلقهم ابتداءً، ومنه قوله تعالى ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧].

قال: وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب وفيما تنطق به الألسنة وفيما تفعله الجوارح. أهـ

[سبب ظهور البدع في كل أمة]

قال أبو العباس ابن تيمية رحمه الله: إذ كان أئمة المسلمين - مثل حماد ابن زيد والثوري ونحوهم - إنما تكلموا بما جاءت به الرسالة، وفيه الهدى والشفاء، فمن لم يكن له علم بطريق المسلمين، يعتاض عنه بما عند هؤلاء، وهذا سبب ظهور البدع في كل أمة، وهو خفاء سنن المرسلين فيهم، وبذلك يقع الهلاك. أهـ(٢).

وقال النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»(٣) نقل الحافظ عن ابن

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٢٥٣.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ١٣٧.

(٣) رواه البخاري (٣٤٥٦) كتاب أحاديث الأنبياء / باب ما جاء عن بني إسرائيل، ومسلم (٢٦٦٩) كتاب العلم / باب اتباع سنن اليهود والنصارى، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

عبدالبر: عن هشام بن عروة قال: وكان أبي يقول: «**السنن السنن، فإن السنن قوام الدين**».

وعن الزهري قال: «**إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذي كان بأيديهم حين استقلوا الرأي وأخذوا فيه**».

وفي مصنف قاسم بن أصبغ بسند صحيح عن عمر «**فساد الدين إذا جاء العلم من قبل الصغير استعصى عليه الكبير، وصلاح الناس إذا جاء العلم من قبل الكبير تابعه عليه الصغير**».

وذكر أبو عبيد أن المراد بالصغر في هذا صغر القدر لا السن[(١)].

وإنما غير الفطرة قلة المعرفة بالحديث والسنة واتباع ذلك، مع ما يوجد في المخالفين لها من نوع تحقيق لبعض العلم، وإحسان لبعض العمل، فيكون ذلك شبهة في قبول غيره وترجيح صاحبه. أهـ[(٢)].

ولأنه لما كثرت البدع وعم ضررها، ودام الإكباب على العمل بها، والسكوت من المتأخرين عن الإنكار لها؛ صارت كأنها سنن مقررات، فإحياء السنن وقمع البدع ليس بالأمر الهين، مع أن الداخل في هذا الأمر اليوم فاقد المساعد، ينحو نحو عمر بن عبدالعزيز حيث قال: «**ألا وإني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر إليه الأعرابي، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره**». أهـ.

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: «**لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل**»[(٣)].

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٣٠١.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ١٤١.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٤٩.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فإن الفتن غالباً تنشأ عن ذلك ـ أي التبديل والإحداث ـ[١].

ولهذا كانوا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة، قال مالك رحمه الله: «**السنة مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك**» وهذا حق، فإن سفينة نوح إنما ركبها من صدق المرسلين واتبعهم، وأن من لم يركبها فقد كذب المرسلين، واتباع السنة هو اتباع الرسالة التي جاءت من عند الله، فتابعها بمنزلة من ركب مع نوح السفينة باطناً وظاهراً، والمتخلف عن اتباع الرسالة بمنزلة المتخلف عن اتباع نوح ـ وركوب السفينة معه[٢].

وقد أخرج أحمد بسند جيد عن غضيف بن الحارث قال: بعث إليّ عبدالملك بن مروان فقال: إنا قد جمعنا الناس على رفع الأيدي على المنبر يوم الجمعة وعلى القصص بعد الصبح والعصر، فقال: أما إنهما أمثل بدعكم عندي، ولست بمجيبكم إلى شيء منهما، لأن النبي ﷺ قال: «**ما أحدث قوم بدعة إلا رفع من السنة مثلها**» فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة.

قال ابن حجر: وإذا كان هذا جواب هذا الصحابي في أمر له أصل في السنة، فما ظنك بما لا أصل له فيها؟ فكيف بما يشتمل على ما يخالفها[٣]؟

قال الإمام الشافعي رحمه الله: أجمع المسلمون على أنه من استبانة

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٤.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ١٣.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٢٥٣ـ٢٥٤.

له سنة محمد ﷺ فليس له أن يدعها لقول أحد كان[(١)].

ومن اتباع سنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين؛ إنكار المنكر وإحياء السنن وإماتة البدع، ففي ذلك أفضل أجر وأجمل ذكر[(٢)].

وثبت عن ابن مسعود أنه قال: «**قد أصبحتم على الفطرة، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالهدي الأول**»[(٣)].

وقال حذيفة رضي الله عنه: «**يا معشر القراء استقيموا**»[(٤)] والإشارة إلى فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، الذين مضوا على الاستقامة، فاستشهدوا بين يدي النبي ﷺ، أو عاشوا بعده على طريقته، فاستشهدوا أو ماتوا على فرشهم[(٥)].

قال الشافعي رحمه الله: سمعت سفيان بن عيينة يقول: إن العالم لا يماري ولا يداري، وينشر حكمة الله، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله[(٦)].

عن أبي قلابة قال: قال عبدالله بن مسعود: تعلموا العلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب أهله، ألا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع وعليكم بالعتيق[(٧)].

---

(١) ذكره ابن القيم في إعلام الموقعين ٢/ ٢٨٢.

(٢) الباعث لأبي شامة ١/ ١٧.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٢٥٣ وله شاهد بلفظ «عليكم بالسمت الأول فإنا اليوم على الفطرة» أخرجه وكيع، وله طرق يتقوى بها، وأخرجه اللالكائي.

(٤) اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (١١٩) وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (١٧).

(٥) فتح الباري ١٣/ ٢٥٧.

(٦) أبو شامة الشافعي.

(٧) رواه اللالكائي في السنة (١٣٦) وابن بطة في الإبانة (١٦٩).

وعن زمعة بن صالح بن عثمان بن حاضر الأزدي قال: دخلت على ابن عباس رضي الله عنهما فقلت أوصني، فقال: نعم، عليك بتقوى الله تعالى والاستقامة، اتبع ولا تبتدع[١].

وأخرج البيهقي بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما: إن أبغض الأمور إلى الله تعالى البدع[٢].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً، فاتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم.

وأخرج الدارمي في السنن عن الحسن رحمه الله: سنتكم والذي لا إله إلا هو بينهما، بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها ـ رحمكم الله ـ فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف في أترافهم ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك فكونوا[٣].

وفي كلام عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: أوصيكم بتقوى الله والاقتصاد في أمره واتباع سنة رسوله ﷺ وترك ما أحدثه المحدثون بعده[٤].

وأخرج الدارمي عن ابن سيرين قال: ما أخذ رجل ببدعة فراجع سنة[٥].

(١) أخرجه الدارمي (١٣٩) ١/ ٦٥ باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع.
(٢) السنن الكبرى (٨٣٥٦) ٤/ ٣١٦ باب الاعتكاف في المساجد.
(٣) رواه الدارمي في السنن (٢١٦) ١/ ٨٣ باب في كراهية أخذ الرأي.
(٤) الشريعة للآجري (٢١٢).
(٥) سنن الدارمي (٢٠٨) ١/ ٨٠.

قال البربهاري: واعلم أن الناس ما ابتدعوا بدعة قط حتى تركوا من السنة مثلها، فاحذر المحدثات في الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار(١).

وأخرج أبو نعيم في حلية الأولياء عن أبي معشر قال: سألت إبراهيم عن شيء من هذه الأهواء فقال: ما جعل الله في شيء منها مثقال ذرة من خير، ما هي إلا نزغة من نزغات الشيطان، عليك بالأمر الأول.

وأخرج اللالكائي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة(٢).

وما أحسن ما قال إبراهيم النخعي رحمه الله: ما أعطاكم الله خيراً أخبئ عنهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ وخيرته من خلقه.

أشار بذلك إلى ترك الغلو في الدين، وإلى الاقتداء بالسلف الصالحين، وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ [النساء: ١٧١].

وروى ابن بطة بإسناده إلى أيوب السختياني قال: قال لي أبو قلابة: يا أيوب: احفظ عني أربعاً: لا تقل في القرآن برأيك، وإياك والقدر، وإذا ذكر أصحاب محمد ﷺ فأمسك، ولا تمكن أهل الأهواء سمعك فينبذوا فيه ما شاءوا(٣).

---

(١) شرح السنة، فقرة (٦).

(٢) أصول اعتقاد أهل السنة (١٢٦) ١/٩٢، وأبو شامة في الباعث ١/١٧.

(٣) رواه ابن بطة في الإبانة (٣٩٧) ٢/٤٤٥، ورواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٢٤٦) ١/١٣٤.

[السبب الذي لأجله افترقت المبتدعة عن جماعة المسلمين]

١ـ أن يعتقد الإنسان في نفسه أو يعتقد فيه أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين، ولم يبلغ تلك الدرجة، وعليه نبّه الحديث الصحيح «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً..**» قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه عن أصاغرهم هلكوا[١].

٢ـ اتباع الهوى، عن طاوس أن رجلاً قال لابن عباس رضي الله عنهما: الحمد لله الذي جعل هوانا على هواكم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الهوى كله ضلالة[٢].

٣ـ التصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق، عن مالك أنه قال: ليس كل ما قال رجل قولاً ـ وإن كان له فضل ـ يتبع عليه، لقول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨].

ولابد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتي أمر الله، غير أنهم لكثرة ما تناوشهم الفرق الضالة وتناصبهم العداوة، استدعاء إلى موافقتهم؛ لا يزالون في جهاد ونزاع ومدافعة وقراع، وبذلك يضاعف الله لهم الأجر الجزيل ويثيبهم الثواب العظيم.

وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف كثيراً، لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم.

---

(١) رواه اللالكائي (١٠١) ١/٨٤.

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف ١١/١٢٦، والآجري في الشريعة ١/٦٤ باب ذم الجدال والخصومات في الدين.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة، الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك[١]. - وفي رواية - وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عز وجل.

قال نعيم بن حماد: يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ[٢].

وكان عمر رضي الله عنه ينهى الإماء عن لبس الإزار ويقول: لا تشبهن بالحرائر، وقال لابنه عبدالله: ألم أخبرك أن جاريتك لبست الإزار، لو لقيتها لأوجعتها ضرباً.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: ومعلوم أن هذه سترة، ولكن فهموا أن مقصود الشرع المحافظة على حدوده، وأن لا يظن الناس أن الحرة والأمة في السترة سواء، فتموت سنة وتحيا بدعة.

وروى الطرطوشي عن سهل بن عبدالله أنه قال: آخر عقوبة يعاقب بها ضلاّل هذه الأمة: كفران النعم واستحسان المساوئ.

وعن ابن مسعود قال: إن منكر اليوم لمعروف قوم ما جاءوا بعد، وإن معروف اليوم لمنكر قوم ما جاءوا بعد[٣].

روى مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب المنكدر على صلاة بعد صلاة العصر، فقيل له: أعلى الصلاة؟ فقال: على خلاف السنة[٤].

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث/ ٢٢، واللالكائي (١٦٠) ١/ ١٠٥ سياق ماروي عن النبي ﷺ في الحث على اتباع الجماعة.

(٢) أخرجه البيهقي في كتاب المدخل، وابن عساكر في تاريخ دمشق.

(٣) الباعث لأبي شامة ١/ ٦٨ وعزاه للدارمي.

(٤) الباعث ١/ ٦٩.

فبركة اتباع السنة أكثر فائدة وأعظم أجراً[١].

عن طاوس قال: رآني ابن عباس رضي الله عنهما وأنا أصلي بعد العصر فنهاني، فقال: إنما كرهت لئلا تتخذ سلما، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة بعد العصر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦] وما أدري تعذب عليها أم تؤجر؟

قال سفيان: أن يتخذ سلماً: يقول: يصلي بعد العصر إلى الليل[٢].

وعن سعيد بن المسيب أنه رأى رجلاً يصلي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين، يكثر فيها الركوع والسجود فنهاه، فقال: يا أبا محمد: يعذبني الله على الصلاة؟

فقال: لا، ولكن يعذبك على خلاف السنة[٣].

وفي ترجمة السري السقطي الزاهد رحمه الله أنه قال: عمل قليل في سنة، خير من كثير في بدعة، كيف يقل مع عمل تقوى[٤]!؟

وعن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: إذا صلى الرجل في بيته فإنه يقيم إقامة، فقال يزيد الرقاشي: أفلا يؤذن ويقيم فيكون له أجران؟

فقال الحسن: السنة أفضل[٥].

روى القاضي أبو الوليد في المنتقى: أن ابن عمر رضي الله عنهما

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة الشافعي رحمه الله.

(٢) الباعث ١/ ٦٩.

(٣) الباعث ١/ ٧٠.

(٤) الباعث ١/ ٧٠.

(٥) الباعث ١/ ٧٠.

حضر جنازة فقال: لتسرعن بها وإلا رجعت.

قال أبو بكر: انظروا: لما ترك الإسراع وهو السنة، همّ ابن عمر رضي الله عنهما بالانصراف، ولم ير أن قيراطين من الأجر بقيا بترك سنة من سنن رسول الله ﷺ[١].

عن صفوان بن محرز قال: سألت ابن عمر رضي الله عنهما عن صلاة السفر، قال: ركعتان، من خالف السنة كفر[٢].

يعني من غير مصلحة تأولها كما تأول عثمان رضي الله عنه، وقوله «كفر» يعني: لمخالفة السنة، لأنه سلك غير سبيل المؤمنين، كقوله ﷺ: «**من رغب عن سنتي فليس مني**»[٣].

والمراد بالكفر هنا كفران النعمة التي أنعم الله بها من التخفيف.

فلله در أقوام دقت فطنهم، وصفت أذهانهم، وتعالت بهم الهمم في اتباع نبيهم، وتناهت بهم المحبة حتى اتبعوه هذا الاتباع، فبمثل هدي هؤلاء العقلاء إخواني فاهتدوا، ولآثارهم اقتفوا، ترشدوا وتنصروا وتجبروا[٤].

وروى ابن بطة بإسناده إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: إنكم لن تروا من الأمر إلا بلاءً وفتنة، ولن يزداد الأمر إلا شدة، ولن تروا من

---

(١) الباعث (٧١) فصل في إنكار من أنكر من البدع.

(٢) عبد الرزاق في المصنف (٤٢٨١) ٢/ ٥١٩ باب الصلاة في السفر، وأبو شامة في الباعث (٧٣) فصل: في إنكار الصحابة رضي الله عنهم مخالفة السنة، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٤٠ (٥٢٠٢) باب ترك التقصير والمسح على الخفين وما يكون رخصة رغبة عن السنة، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ١٨٥.

(٣) رواه البخاري (٥٠٦٣) كتاب النكاح / باب الترغيب في النكاح، ومسلم (١٤٠١) كتاب النكاح / باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) ابن بطة ١/ ٢٤٥.

الأئمة إلا غلظة، ولن تروا أمراً يهولكم ويشتد عليكم إلا حقره بعد ما هو أشد منه[١].

قال أبو عبدالله أحمد بن حنبل: اللهم رضنا، مرتين[٢].

قال ابن بطة رحمه الله: إخواني: فاستمعوا إلى كلام هؤلاء السادة من الماضين، والأئمة العقلاء من المسلمين، والسلف الصالح من الصحابة والتابعين، هذه أقوالهم والإسلام في طرافة ومطاوعة، وعنفوان قوته واستقامته، والأئمة راشدون، والأمراء مقسطون، فما ظنكم بنا وبزمان أصبحنا فيه وما نعانيه ونقاسيه، ولم يبق من الدين إلا العكر، ومن العيش إلا الكدر، ونحن في دردى الدنيا وثمادها.

قال ﷺ: «**يأتي على الناس زمان، القابض على دينه كالقابض على الجمر**»[٣].

وهذا الحديث يقتضي خبراً وإرشاداً:

أما الخبر: فإنه ﷺ أخبر أنه في آخر الزمان يقل الخير وأسبابه، ويكثر الشر وأسبابه، وأنه عند ذلك يكون المتمسك بالدين من الناس أقل القليل، وهذا القليل في حالة شدة ومشقة عظيمة، كحالة القابض على الجمر، من قوة المعارضين وكثرة الفتن المضلة، فتن الشبهات والشكوك والإلحاد، وفتن الشهوات وانصراف الخلق إلى الدنيا، وانهماكهم فيها ظاهراً وباطناً، وضعف الإيمان وشدة التفرد لقلة المعين والمساعد.

ولكن المتمسك بدينه، القائم بدفع هذه المعارضات والعوائق التي

---

(١) المروزي في الفتن ١/ ٤٠ ما كان من رسول الله ﷺ من التقدم ومن أصحابه في الفتن التي هي كائنة.

(٢) إسناده صحيح وهو موقوف على معاذ.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٣٩٠، والترمذي (٢٢٦٠) كتاب الفتن / باب وقال: حديث غريب، من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني.

لا يصمد لها إلا أهل البصيرة واليقين، وأهل الإيمان المتين، من أفضل الخلق وأرفعهم عند الله درجة وأعظمهم عنده قدراً.

وأما الإرشاد: فإنه أرشد أمته أن يوطنوا أنفسهم على هذه الحالة، وأن يعرفوا أنه لابد منها، وأن من اقتحم هذه العقبات وصبر على دينه وإيمانه ـ مع هذه المعارضات ـ فإن له عند الله أعلى الدرجات، وسيعينه مولاه على ما يحبه ويرضاه، فإن المعونة على قدر المؤنة.

وما أشبه زماننا هذا بهذا الوصف الذي ذكره النبي ﷺ، فإنه ما بقي من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، إيمان ضعيف، وقلوب متفرقة، وحكومات متشتتة، وعداوات وبغضاء للقضاء على الدين، وإلحاد وماديات جرفت بخبيث تيارها وأمواجها المتلاطمة الشيوخ والشبان، ودعايات إلى فساد الأخلاق، والقضاء على بقية الرمق، ثم إقبال الناس على زخارف الدنيا، بحيث أصبحت هي مبلغ علمهم وأكبر همهم، ولها يرضون ويغضبون، ودعاية خبيثة للتزهيد في الآخرة، والإقبال بالكلية على تعمير الدنيا، وتدمير الدين، واحتقاره والاستهزاء بأهله وبكل ما ينسب إليه، وفخر وفخفخة، واستكبار بالمدنيات المبنية على الإلحاد التي آثارها وشررها وشرورها قد شاهده العباد.

فمع هذه الشرور المتراكمة، والأمواج المتلاطمة، والمزعجات الملمة، والفتن الحاضرة والمستقبلة المدلهمة ـ مع هذه الأمور وغيرها ـ تجد مصداق هذا الحديث.

ولكن مع ذلك، فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يكون نظره مقصوراً على الأسباب الظاهرة، بل يكون ملتفتاً في قلبه كل وقت إلى مسبب الأسباب الكريم الوهاب، ويكون الفرج بين عينيه، ووعده الذي لا يخلفه، بأنه سيجعل له بعد العسر يسراً، وأن الفرج

مع الكرب، وأن تفريج الكربات مع شدة الكربات وحلول المفظعات.

فالمؤمن من يقول في هذه الأحوال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**» و«**حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا، اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**» ويقوم بما يقدر عليه من الإيمان والنصح والدعوة، ويقنع باليسير إذا لم يمكن الكثير، وبزوال بعض الشر وتخفيفه إذا تعذر غير ذلك ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق: ٢-٣-٤](١).

جعلنا الله وإياكم ممن يحيى به الحق والسنن، ويموت به الباطل والبدع، ويستضيء بنور علمه أهل زمانه، ويقوي قلوب المؤمنين من إخوانه.

وانظروا رحمكم الله من تصحبون وإلى من تجلسون، واعرفوا كل إنسان بخدنه، وكل أحد بأصحابه، أعاذنا الله وإياكم من صحبة المفتونين، ولا جعلنا وإياكم من إخوان العابثين ولا من أقران الشياطين، واستوهب الله لي ولكم عصمة من الضلال وعافية من قبيح الفعال(٢).

فهذه مقتطفات من كلام العلماء، وسادة الدين الفقهاء، بينوا فيها مكانة السنة، وعظيم فضل الله عليهم فيها والمنة، وحذروا أمة الإسلام من الشقاق والمخالفة، وذلك بالتزام ما كانت عليه القرون المفضلة السالفة.

فالواجب السير على طريقتهم، والاقتداء بهم في سيرتهم، عل الله أن يحشرنا في زمرتهم ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩].

(١) بهجة قلوب الأبرار (١٨١-١٨٢).

(٢) الإبانة لابن بطة.

ثم إن العقيدة الطحاوية للإمام الطحاوي من الكتب التي صنفت على معتقد سلفي، وكان من خير من شرحها هو الإمام ابن أبي العز الحنفي فأجاد وأفاد وأكثر في النقول، وتلقاها أهل السنة بالتسليم والقبول، وكل بني خطاء، والمعصوم من عصمه رب الأرض والسماء.

وقد اعتنى بشرحها وتدريسها جمع من أهل الفن، من الذين عرفوا بالتمسك بالأثر والسنن، ومن جملة من شرحها واعتنى بها؛ حبر زمانه، ونادرة عصر وأوانه، العلم العلاّمة، والبحر الفهّامة، صاحب الدين والديانة، والزهد والصدق والأمانة، والعلم الوافر والاجتهاد الظاهر، إمام المسلمين، والذاب عن الدين، العالم المجاهد القائد، وسماحة شيخنا الوالد، فقيه نجد والحجاز: أبوعبدالله عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، رحمه الله، وجعل الفردوس الأعلى منقلبه ومثواه، آمين.

الشيخ ابن باز ومنهجه في شرح الطحاوية:

لا يخفى اهتمام سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله في شرح كُتب العقائد التي ألَّفها أئمة الإسلام، ومن جملة هذه الكتب: العقيدة الطحاوية مع شرح ابن أبي العز الحنفي.

وقد طُبعت تعليقات بسيطة لسماحة شيخنا رحمه الله على متن الطحاوية استدرك على مؤلفها بعض الأخطاء.

أما هذا السفر العظيم فقد حوى تعليقاته وتقريراته شاملة للمتن مع تعليقاته على شرح ابن أبي العز وبالاختصار تتلخص تعليقاته على النحو الآتي:

١- الاستدراك على المؤلف والشارح في بعض الأخطاء التي لم يوفقوا فيها لإصابة منهج أهل السنة والجماعة.

٢- التعليق على المسائل التي جرى فيها خلاف بين أهل السنة والجماعة وغيرهم من الفرق والتدليل على صحة منهج أهل السنة.

٣- وكعادة الشيخ رحمه الله نجد نفسه واضحاً في الحرص على جمع كلمة المسلمين على عقيدة واحدة ونبذ الاختلاف العقدي وحرصه على أن يتناصح المسلمون فيما بينهم في بيان أمر العقيدة.

٤- يتطرق الشيخ رحمه الله في بعض الأحيان إلى الكلام على فرق ضالة معاصرة وما استجد لديها من اعتقادات وأقوال كالصوفية والرافضة مما يدل على متابعة الشيخ رحمه الله لهذه الفرق.

٥- يقرر الشيخ رحمه الله مسائل في عقيدة أهل السنة والجماعة حتى تكون واضحة جلية لكثرة ما يسوقه من الأدلة حتى يصبح قوله معتمداً عند العلماء وطلاب العلم.

٦- سهولة ألفاظ الشيخ رحمه الله وتسهيله للمسائل الصعبة حتى تكون قريبة إلى الأفهام، وابتعاده رحمه الله عن التعمق حتى لا تكون المسائل صعبة ومعقدة، يلاحظ هذا في تعليقه على المسائل الكلامية والفلسفية.

٧- يقرر الشيخ رحمه الله في طيات الكتاب أن منهج التلقي للعقيدة هو الكتاب والسنة على فهم الصحابة رضوان الله عليهم وما كان عليه أئمة القرون الثلاثة، ويدلل على هذا بما يزيد النفس طمأنينة.

٨- الشيخ ابن باز يدلي بدلوه في الحكم على الأحاديث ويعلق على تخريجات أحمد شاكر والألباني رحمهما الله ويعطي رأيه في الحكم على درجة الحديث.

وسماحة شيخنا رحمه الله بحر لا ساحل له، يعجز القلم في هذه العجالة أن يحيط بميزات الشيخ في شروحه، ولعل القارئ يجد أكثر مما قلت أثناء تصفحه وقراءته.

عملي في الكتاب:

١- تفريغ شرح الشيخ من الأشرطة وعددها (٣٣) شريطاً.

٢- الجمع بين تخريجات الشيخين أحمد شاكر والألباني رحمهما الله ورمزت لتخريجات أحمد شاكر بـ: «قال شاكر». وتخريجات الألباني: «اهـ. ألباني».

٣- خرجت الآثار التي لم يخرجها الشيخ شاكر والشيخ الألباني وعزوتها إلى مصادرها.

٤- خرجت الأحاديث والآثار التي ذكرها الشيخ ابن باز في تعليقاته.

٥- عزو الآيات إلى مصادرها.

٦- أثبت الأمثلة والمناقشة التي يناقش فيها الشيخ كل في بابه.

وأسأل الله أن يتقبل هذا العمل وأن ينفع به المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وأن يجزي المؤلف الطحاوي وشارحه ابن أبي العز وسماحة والدنا الشيخ ابن باز خير الجزاء، وأن يكتب لنا معهم الأجر والثواب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

أبو سفيان

غزاي بن حمدان الوهبي الأسلمي

* * *

ترجمة الإمام الطحاوي رحمه الله، صاحب العقيدة

هو أبو جعفر أحمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي ـ نسبة إلى قرية بصعيد مصر ـ الإمام المحدث الفقيه الحافظ.

ولد رحمه الله سنة تسع وثلاثين ومائتين، وعندما بلغ سن الإدراك تحول إلى مصر لطلب العلم، وأخذ يتلقى العلم عن خاله إسماعيل بن يحيى المزني، أفقه أصحاب الإمام الشافعي، وكان كلما اتسعت دائرة أُفقه يجد نفسه حائراً أمام كثير من المسائل الفقهية، ولم يكن ليجد عند خاله ما يشفي غليله عنها، فأخذ يتقرب ما يصنعه خاله عندما تعترضه تلك المسائل ،فإذا هو كثير التعريج على كتب أصحاب أبي حنيفة، وإذا هو يختار ما ذهب إليه أبو حنيفة في كثير منها، وقد أودع هذه الاختيارات في كتابه «مختصر المزني».

فلم يسعه بعد ذلك إلا أن ينظر في كتب أصحاب أبي حنيفة، ويطلع على منهجهم في التأصيل والتفريع، حتى إذا اكتملت معرفته بمذهب الإمام أبي حنيفة تحول إليه واقتدى به وأصبح من أتباعه.

ولم يمنعه ذلك من مخالفته لبعض أقوال الإمام وترجيح ما ذهب إليه غيره من الأئمة، لأنه رحمه الله لم يكن مقلداً لأبي حنيفة، وإنما كان يرى أن منهجه في التفقه أمثل المناهج في نظره، فكان يسير عليه ويأتم به، ولذلك تجده في كتابه «معاني الآثار» يرجح ما لم يقل به إمامه.

ومما يؤيد ما ذكرناه؛ ما قاله ابن زولاق: سمعت أبا الحسن علي بن أبي جعفر الطحاوي يقول: سمعت أبي يقول وذكر فضل أبي عبيد حربويه وفقهه فقال: كان يذاكرني في المسائل، فأجبته يوماً في مسألة

فقال لي: ما هذا قول أبي حنيفة، فقلت له: أيها القاضي: أو كل ما قاله أبو حنيفة أقول به؟

فقال: ما ظننتك إلا مقلداً، فقلت له :وهل يقلد إلا عصبي، فقال لي: أو غبي.

قال: فطارت هذه بمصر حتى صارت مثلاً وحفظها الناس.

وقد تخرج على كثير من الشيوخ وأخذ عنهم وأفاد منهم، وقد أربى عددهم على ثلاثمائة شيخ، وكان شديد الملازمة لكل قادم إلى مصر من أهل العلم من شتى الأقطار، حتى جمع إلى علمه ما عندهم من العلوم، وهذا يدلك على مبلغ عنايته في الاستفادة، وحرصه الأكيد على العلم.

وقد أثنى عليه غير واحد من أهل العلم ،ووصفوه بأنه ثقة ثبت فقيه عاقل حافظ ديّن، له اليد الطولى في الفقه والحديث.

قال ابن يونس: كان ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلاً لم يخلف مثله.

وقال الذهبي في «**تاريخه**» الكبير: الفقيه المحدث الحافظ أحد الأعلام، وكان ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلاً.

وقال ابن كثير في «**البداية والنهاية**»: هو أحد الثقات الأثبات والحفاظ الجهابذة.

وأما تصانيفه رحمه الله فهي غاية في التحقيق والجمع وكثرة الفوائد وحسن العرض.

فمن تصانيفه: «**العقيدة الطحاوية**» وهي على صغر حجمها غزيرة النفع سلفية المنهج، تجمع بين دفتيها كل ما يحتاج إليه المسلم في عقيدته.

ومنها كتاب «**معاني الآثار**» وهو كتاب يعرض فيه الأبحاث الفقهية مقرونة بدليلها، ويذكر في غضون بحثه المسائل الخلافية، ويسرد أدلتها

ويناقشها، ثم يرجح ما استبان له الصواب منها، وهذا الكتاب يدرب طالب العلم على التفقه، ويطلعه على وجوه الخلاف، ويربي فيه ملكة الاستنباط، ويكون له شخصية مستقلة.

ومنها كتاب «**مشكل الآثار**» في نفي التضاد واستخراج الأحكام منها.

ومنها «**أحكام القرآن**»و «**المختصر**» و«**شرح الجامع الكبير**» و«**شرح الجامع الصغير**» وكتاب «**الشروط**» و«**النوادر الفقهية**»و «**الرد على أبي عبيد**» و«**الرد على عيسى بن أبان**» وغير ذلك من التصانيف الجليلة المعتبرة.

توفي رحمه الله سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ليلة الخميس، مستهل ذي القعدة بمصر، ودفن بالقرافة[1].

* * *

(١) مقدمة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله.

ترجمة ابن أبي العز الحنفي رحمه الله

هو العلاّمة صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن أحمد بن أبي العز الحنفي الأذرعي الصالحي الدمشقي، ولد سنة ٧٣١، اشتغل بالعلوم، وكان ماهراً في دروسه وفتاويه، وخطب بحسبان قاعدة البلقاء مدة، ثم ولي قضاء دمشق في المحرم سنة ٧٧٩، ثم ولي قضاء مصر، فأقام شهراً ثم استعفى، ورجع إلى دمشق على وظائفه.

وذكر ابن عماد خبر اعتقاله لبيانه ما في قصيدة ابن أيبك من الشرك، وأنه أقام مقتراً عليه، إلى أن جاء الناصري فرفع أمره، فأمر برد وظائفه، ولم تطل مدته، فقد توفاه الله بعد ذلك.

وكانت وفاته بدمشق سنة ٧٩٢ عليه رحمة الله[1].

* * *

(١) مقدمة شرح الطحاوية، طبع المكتب الإسلامي.

نبذة عن سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله

تفضل سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز بإملاء نبذة عن حياته:

أنا عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله آل باز.

ولدت بمدينة الرياض في ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ، وكنت بصيراً في أول الدراسة، ثم أصابني المرض في عيني عام ١٣٤٦هـ، فضعف بصري بسبب ذلك، ثم ذهب بالكلية في مستهل محرم من عام ١٣٥٠هـ، والحمد لله على ذلك، وأسأل الله جل وعلا أن يعوضني عنه بالبصيرة في الدنيا، والجزاء الحسن في الآخرة، كما وعد بذلك سبحانه على لسان نبيه محمد ﷺ، كما أسأله سبحانه أن يجعل العاقبة حميدة في الدنيا والآخرة.

وقد بدأت الدراسة منذ الصغر، وحفظت القرآن الكريم قبل البلوغ، ثم بدأت في تلقي العلوم الشرعية والعربية على أيدي كثير من علماء الرياض، من أعلامهم:

١ـ الشيخ محمد بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمهم الله.

٢ـ الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، قاضي الرياض، رحمهم الله.

٣ـ الشيخ سعد بن حمد بن عتيق (قاضي الرياض).

٤ـ الشيخ حمد بن فارس (وكيل بيت المال بالرياض).

٥ـ الشيخ سعد وقاص البخاري (من علماء مكة المكرمة) أخذت عنه علم التجويد في عام ١٣٥٥هـ.

٦ـ سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ، وقد لازمت حلقاته [صباحاً ومساءً، وحضرت كل ما يقرأ عليه، ثم قرأت عليه جميع المواد التي درّسها في الحديث والعقيدة والفقه والنحو والفرائض، وقرأت عليه شيئاً كثيراً من التفسير والتاريخ والسيرة النبوية] نحواً من عشر سنوات، وتلقيت عنه جميع العلوم الشرعية، ابتداءً من سنة ١٣٤٧هـ إلى سنة ١٣٥٧هـ حيث رشحت للقضاء من قبل سماحته.

جزى الله الجميع أفضل الجزاء وأحسنه، وتغمدهم جميعاً برحمته ورضوانه.

[مذهب الشيخ رحمه الله]

مذهبي في الفقه هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وليس على سبيل التقليد، ولكن على سبيل الاتباع في الأصول التي سار عليها، أما في مسائل الخلاف، فمنهجي فيها هو ترجيح ما يقتضي الدليل ترجيحه والفتوى بذلك، سواء وافق مذهب الحنابلة أم خالفه، لأن الحق أحق بالاتباع، وقد قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩].

[أعمالــه]

وقد توليت عدة أعمال هي:

١ـ القضاء في منطقة الخرج مدة طويلة استمرت أربعة عشر عاماً وأشهراً، وامتدت بين سنتي ١٣٥٧هـ إلى عام ١٣٧١هـ، وقد كان التعيين

في جمادى الآخرة من عام ١٣٥٧هـ، وبقيت إلى نهاية ١٣٧١هـ.

٢- التدريس في المعهد العلمي بالرياض سنة ١٣٧٢هـ، وبكلية الشريعة بالرياض بعد إنشائها سنة ١٣٧٣هـ في علوم الفقه والتوحيد والحديث، واستمر عملي على ذلك تسع سنوات، وانتهت في عام ١٣٨٠هـ.

٣- عينت في عام ١٣٨١هـ نائباً لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وبقيت في هذا المنصب إلى عام ١٣٩٠هـ.

٤- توليت رئاسة الجامعة الإسلامية في سنة ١٣٩٠هـ بعد وفاة رئيسها شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله في رمضان عام ١٣٨٩هـ، وبقيت في هذا المنصب إلى سنة ١٣٩٥هـ.

٥- وفي ١٤/ ١٠/ ١٣٩٥هـ صدر الأمر الملكي بتعييني في منصب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برتبة «وزير» ولا أزال إلى هذا الوقت في هذا العمل.

أسأل الله العون والتوفيق والسداد.

وإلى جانب هذا العمل في الوقت الحاضر عضوية في كثير من المجالس العلمية والإسلامية، من ذلك:

١- عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة.

٢- رئاسة اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في الهيئة المذكورة.

٣- عضوية رئاسة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.

٤- رئاسة المجلس الأعلى العالمي للمساجد.

٥- رئاسة المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة التابع لرابطة العالم الإسلامي.

٦ـ عضوية المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٧ـ عضوية الهيئة العليا للدعوة الإسلامية في المملكة.

[مؤلفاته]

أما مؤلفاتي فمنها :

١ـ الفوائد الجلية في المباحث الفرضية.

٢ـ التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة «**توضيح المناسك**» [وهو أهمها وأنفعها، كنت جمعته في عام ١٣٦٣هـ وأنا في قضاء الخرج، ثم زدته وبسطته بعد ذلك، وطبع مرات كثيرة، وهو الآن في أيدي الناس، وقد نفع الله به كثيراً، وقد ترجم إلى عدة لغات].

٣ـ التحذير من البدع، ويشتمل على أربع مقالات:

- حكم الاحتفال بالمولد النبوي .
- وليلة الإسراء والمعراج.
- وليلة النصف من شعبان.
- وتكذيب الرؤيا المزعومة من خادم الحجرة النبوية المسمى: الشيخ أحمد.

٤ـ رسالتان موجزتان في الزكاة والصيام.

٥ـ العقيدة الصحيحة وما يضادها.

٦ـ وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها.

٧ـ الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة.

٨ـ وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه.

٩ـ حكم السفور والحجاب ونكاح الشغار.

١٠ـ نقد القومية العربية.

١١ـ الجواب المفيد في حكم التصوير.

١٢ـ الشيخ محمد بن عبدالوهاب «دعوته وسيرته».

١٣ـ ثلاث رسائل في الصلاة:

أ ـ كيفية صلاة النبي ﷺ.

ب ـ وجوب أداء الصلاة في جماعة.

ج ـ أين يضع المصلي يديه حين يرفع من الركوع.

١٤ـ حكم الإسلام فيمن طعن في القرآن أو في الرسول ﷺ.

١٥ـ حاشية مفيدة على فتح الباري، وصلت فيها إلى كتاب الحج.

١٦ـ رسالة الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب.

١٧ـ إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين.

١٨ـ الجهاد في سبيل الله.

١٩ـ الدروس المهمة لعامة الأمة.

٢٠ـ فتاوى تتعلق بأحكام الحج والعمرة والزيارة.

٢١ـ وجوب لزوم السنة والحذر من البدعة. أهـ[١]

أضف إلى ذلك السفر النفيس: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة.

[أعمال إسلامية أخرى لسماحته رحمه الله]

ولسماحة الشيخ رحمه الله أعمال جليلة أخرى، واهتمامات بأمور المسلمين في كل مكان، منها:

وقوفه إلى جانب المؤسسات والمراكز التي تقوم بأمر التعليم

(١) من كتاب: فتاوى وتنبيهات ونصائح لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

والدعوة إلى الله في شتى بقاع العالم، وتعضيده للمسلمين المجاهدين في فلسطين وأفغانستان والفلبين وغيرها، مع دعوته المسلمين القادرين إلى مساعدتهم.

ومن أعماله المهمة: عنايته بالتوحيد والعقيدة التي التبس على كثير من المسلمين فهمها، يدرك ذلك كل من حضر إلى دروسه أو استمع إلى محاضراته وأحاديثه وقرأ مؤلفاته.

يولي سماحته تعليم القرآن العظيم اهتماماً خاصًّا، ويحث إخوانه وتلاميذه رؤساء وأعضاء الجماعات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم على مضاعفة الجهود، ويشاركهم في كل ما من شأنه تقوية هذه الجماعة واستمرارها.

[أخلاقه وسجاياه]

من أبرز صفات الشيخ رحمه الله السكينة والوقار والسماحة والرفق والكرم والزهد فيما أيدي الناس، إلى جانب الشجاعة في قول الحق، وهذا ما يفسر حب الجميع له وازدحام الناس حوله أينما حل للاستفادة من علمه وفضله[1].

لم ينقطع عن طلب العلم - إلى حين وفاته - حيث لازم البحث والتدريس ليل نهار، ولم تشغله المناصب عن ذلك، مما جعله يزداد بصيرة ورسوخاً في كثير من العلوم، وقد عني عناية خاصة بالحديث وعلومه، حتى أصبح حكمه على الحديث من حيث الصحة والضعف محل اعتبار، وهي درجة قل أن يبلغها أحد، خاصة في هذا العصر، وقد ظهر أثر ذلك على كتاباته وفتواه، حيث كان يتخير من الأقوال ما يسنده الدليل.

---

(١) كتاب الدعوة، الجزء الأول.

كانت حلقاته مستمرة، ولديه طلاب متفرغون لطلب العلم، من أبرزهم:

١ـ الشيخ عبدالله الكنهل.

٢ـ الشيخ راشد بن صالح الخنين.

٣ـ الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك.

٤ـ الشيخ عبداللطيف بن شديد.

٥ـ الشيخ عبدالله بن حسن بن قعود.

٦ـ الشيخ عبدالرحمن بن جلال.

٧ـ الشيخ صالح بن هليل[1].

وغيرهم كثير.

[وفاته]

ألم به مرض في آخر أيامه رحمه الله، إلا أن ذلك لم يثنه عن مواصلة مسيرة الخير والبذل والعطاء، رغم توصيات الأطباء له عن التوقف عن جميع الأعمال والخلود إلى الراحة التامة، خاصة مع تقدمه في السن، ولكنه ـ رحمه الله ـ أصر على الاستمرار في جميع أعماله، من تدريس وفتيا وتوجيه وشفاعات للناس، غير مكترث بقول الأطباء، ولله در القائل:

إذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

اختاره الله إلى جواره فجر يوم الخميس في الثامن والعشرين من شهر الله المحرم لعام عشرين وأربعمائة وألف من الهجرة في مدينة

(١) فتاوى اللجنة الدائمة.

الطائف، وأعلنت الصلاة عليه يوم الجمعة في المسجد الحرام، فازدحمت المطارات بالناس للسفر إلى مكة المكرمة للصلاة على الشيخ، وتهافت أهل الفضل على العلماء في بيوتهم يعزونهم، فكأني بالناس يوم ذاك وهم يعزون أنفسهم ومن يرونه بوفاة الشيخ، أعظم الله أجرك، ولله ما أخذ وله ما أعطى، وكأن الناس لم يرزؤا بمصيبة قبل هذا، وصلي على الشيخ رحمه الله بعد صلاة الجمعة في المسجد الحرام، وأمّ المصلين إمام المسجد الحرام فضيلة الشيخ محمد السبيل حفظه الله، فلو رأيت بكاء الناس ونحيبهم آنذاك لعلمت مقدار حبهم لهذا العالم الجليل، فالله يرحمه ويغفر له، ولو رأيت نعشه إذ حمل ولا يكاد يثبت على الأيدى لاستبان لك صدق قول الإمام أحمد رحمه الله حين قال: يا أهل البدع: بيننا وبينكم شهود الجنائز، وصلي عليه صلاة الغائب في جميع مساجد البلاد وكذا في بعض البلدان الأخرى، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه على ما قدّم للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

❊ ❊ ❊

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله، نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع، ولهذا سمى الإمام أبو حنيفة رحمة الله عليه ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين: الفقه الأكبر، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، لأنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم ولا طمأنينة، إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها، بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه.

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم، وزبدة رسالتهم، معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها.

ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان:

أحدهما: تعريف الطريق الموصل إليه، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

والثاني: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا المقام مقام عظيم، وهو مقام التعريف بالله وصفاته وعظيم حقه على عباده، والرسل بهذا بعثوا ولهذا خلق الله الخليقة وبها أمر الله الخليقة، وهو أن يعبدوه وحده لا شريك له، بعد معرفتهم إياه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ولهذا يسمى هذا الأصل العظيم، يسمى الفقه الأكبر، لأن الأحكام تابعة لذلك، الواجبات والمحرمات تابعة لهذا الأصل، فمن أتى بها بدون الأصل ما نفعته، وإنما تنفعه في هذا الأصل.

فالأصل العظيم هو توحيد الله والإخلاص له ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة حقه الذي أوجب، حتى تسير إليه على بصيرة، وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن الشهادة أن لا إله إلا الله تعريف به سبحانه بصفاته وعظيم حقه، والشهادة بأن محمداً رسول الله فيه الإيمان بالرسوْل المبين والموجه إلى الطريق السوي، والموضح لما للسامعين والمنقادين من العاقبة الحميدة.

فالرسل جاءت بأمور ثلاثة:

الأول: جاءت بالتعريف بالله وبيان أسمائه وصفاته، وهكذا جاءت الكتب المنزلة من السماء.

الثاني: تعريف الطريق الموصل إليه، والسبيل الموصل إليه من الأحكام والأحوال فعلاً وتركاً.

الثالث: بيان ما لهم عنده إذا وصلوا إليه، ما هو الجزاء؟ ما هو الغاية؟ ما هو الثمرة لمن سلك السبيل وأخذ في الطريق ؟

وأن الثمرة والغاية هي الوصول إلى الله ودخول جنته ونيل كرامته، والسلامة من غضبه وعقابه، هذه وظيفة الرسل.

مما جاءت به الرسل هذه الأمور الثلاثة :

الأول: التعريف بالله وبأسمائه وصفاته وعظيم حقه سبحانه وتعالى.

الثاني: بيان الطريق الموصل إليه، وهي الشريعة المطهرة التي جاءت بها الرسل.

الثالث: مالهم عنده؟ ما جزاؤهم؟ ماذا يحصل لهم إذا ماتوا وانتقلوا إليه وماذا يكون؟

وأنهم يجازون بالجزاء الحسن، ويجازون بغفران الذنوب وحط الخطايا، ويجازون بدخول الجنة والنجاة من النار، والمقصود بالفقه هنا: الأحكام الكبرى ليست القابلة للاجتهاد، وهو الاستفادة من العلوم والأصول.

واستفقه يعني تعلم واستفاد، فقه هذا يعني فهمه، والمراد بالفقه: معرفة الأحكام الشرعية نفسها، والمراد بالفقه الأكبر معرفة أصل الدين وأساس الملة، فالإنسان يعرف توحيد الله وأسمائه وصفاته، هذا هو الأساس، وهو الفقه الأكبر، وهو الأحكام الكبرى، ثم بعد ذلك تأتي أمور أخرى، أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج والطلاق والنكاح والعتاق والجنايات وأشباهها، كل هذه تابعة.أهـ

* * *

فأعرف الناس بالله عز وجل أتبعهم للطريق الموصل إليه، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه، ولهذا سمى الله ما أنزله على رسوله روحاً، لتوقف الحياة الحقيقية عليه، ونوراً لتوقف الهداية عليه فقال الله تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] وقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

ولا روح إلا فيما جاء به الرسول، ولا نور إلا في الاستضاءة به،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا أمر عظيم، يبين لك أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من الهدى ودين الحق قد اجتمع فيه أمران:

الأمر الأول: أنه روح تحصل به الحياة، فمن فقد هذا الإيمان وهذا الهدى فهو مع الأموات، ولو كان يعيش مع الناس ويتصرف، فهو مع الأموات، لأنه لم يعرف ربه ولم يعرف ما بعث به رسوله عليه الصلاة والسلام، بل هو في ضلاله وظلمته التي خلق عليها، ليس عنده علم ولا هدى ولا نور.

الأمر الثاني: أنه يحصل به النور والبصيرة والهداية، فمن لم تحصل له هذه الروح لم يحصل له النور والهداية، بل كان في ضلاله وعماه وفي ظلمة جهله وطبعه حتى يُهدى لهذا الحق، وحتى يتبصر بما جاء به الرسول ﷺ، وحتى يستنير به، ولهذا قال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:١٥] الروح الحياة، الكتاب والسنة هما الروح، قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢] فجعل الله ما جاء به من الروح نوراً يهدي به من يشاء سبحانه وتعالى.

فالعلم الشرعي المحتوي على علم الأصول والفروع؛ هو الروح وهو الهدى، وهو الهدى ودين الحق، وهو طريق النجاة وسبيل السعادة، فمن خلا منهما وفقدهما فهو ميت مع الأموات، في ظلمات الجهل والضلال، كما قال سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام:١٢٢] فالكافر ميت القلب، في ظلمته وفي جهالته، ليس له بصيرة وليس عنده بصيرة توصله إلى السعادة والنجاة، والمؤمن الموفق المتبصر قد يُعطى النور والروح جميعاً، الذي قد وفقه الله وتبصر في دينه وأسلم؛ فهو على نور وعلى هدى وعلى حياة طيبة تطمئن بها القلوب وترتاح لها النفوس، وتصير يشتد بها العزم إلى ربه على غاية من الهدى والثبات والراحة والأنس بما هو عليه وبما يستقبله.أهـ.

❊ ❊ ❊

وسماه الشفاء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] فهو وإن كان هدى، وشفاء مطلقاً، لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنين، خصوا بالذكر.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الكتاب والسنة هدى وروح وسعادة لأهل الإيمان، وهو في الحقيقة روح للجميع ونور للجميع لو أخذوا به، وهدى لهم وشفاء لهم، لكن من أخذ به حصل له الهدى والشفاء والروح والنور، ومن لم يأخذ به فلا هدى ولا شفاء ولا حياة ولا نور، بل فقد هذا كله بإعراضه وكبره وغفلته وعدم أخذه بهذا الخير، ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾

[فصلت:٤٤] هو لهم هدى وشفاء، ولغيرهم لو أخذوه، فهو هدى وشفاء لجميع أهل الأرض، لجميع العرب والعجم والجن والإنس هو هدى وشفاء، لكن لما كان أهل الإيمان هم الذين أخذوا به واستضاءوا به وانتفعوا به؛ صار كأنه خاص بهم، وهو غير خاص بهم، كل من أسلم ودخل في الدين دخل معهم، فهو نور للجميع وهدى للجميع ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣] فهو مرسل للجميع بالهدى ودين الحق، فالهدى هو العلم والبصيرة وما جاء به من الأخبار الصادقة، ودين الحق ما جاء به من الشرائع المستقيمة والأحكام العادلة.أهـ.

* * *

والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فلا هدى إلا فيما جاء به.

ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً عاماً مجملاً، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية، فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله، وداخل في تدبر القرآن وعقله وفهمه، وعلم الكتاب والحكمة، وحفظ الذكر، والدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين، فهو واجب على الكفاية منهم.

وأما ما يجب على أعيانهم: فهذا يتنوع بتنوع قُدَرِهم، وحاجتهم ومعرفتهم، وما أمر به أعيانهم، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك، ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها،

ويجب على المفتي والمحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك.

وينبغي أن يُعرف أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق، فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول، وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه، أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآيات.

وكما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتن، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[1] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث، الدالة على مثل هذا المعنى.

---

(١) قال الشيخ الألباني رحمه الله: هذا حديث جميل المعنى، ولكن في إسناده ضعف، فيه الحارث الأعور وهو لين، بل اتهمه بعض الأئمة بالكذب، ولعل أصله موقوف على علي رضي الله عنه، فأخطأ الحارث فرفعه إلى النبي ﷺ، وقد ضعفه مخرجه الترمذي نفسه فقال: «لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال». أهـ.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا الحديث رواه الترمذي بإسناد ضعيف، وقال فيه الحافظ الذهبي رحمه الله: إن الأشبه أنه موقوف على علي.

وهذا الكلام كلام عظيم تشهد له النصوص بالحق، جاءت النصوص تشهد لهذا المعنى في وصف كتاب الله جل وعلا بوصوف أخرى تشهد لمعناه بالحق، وأنه من كلام الرسول ﷺ، ومما دلت عليه النصوص الأخرى، فهو كلام عظيم، وشواهده في الكتاب والسنة كثيرة، وإن كان هذا الطريق فيه ضعف، لأنه من رواية الحارث الأعور، وهو ضعيف عن علي، ولكن مثل ما قال الحافظ الذهبي رحمه الله: أشبه أنه من كلام علي، قاله من الأدلة الأخرى والنصوص الأخرى التي تشهد له بالصحة.أهـ.

* * *

ولا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً يدينون به، إلا أن يكون موافقاً لدينه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم السلام.

وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصفه العباد، **إلا ما وصفه به المرسلون** بقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢] **فنزه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون، ثم سلم على المرسلين، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف** التي يستحق عليها كمال الحمد.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: سبق في كلام المؤلف أن الله بعث الرسل وأنزل الكتب لأمور ثلاثة:

الأمر الأول: التعريف بنفسه، والدلالة على أنه سبحانه هو المسمى بالأسماء الحسنى والصفات العلى، وأنه المستحق لأن يعبد دون كل ما سواه، وأن المعبودات من سواه باطلة، هذا الأمر الأول، يبين أسماءه وصفاته حتى يعرفه العباد ويعبدوه على بصيرة، ويبين حقه لهم وأنه المستحق لأن يعبد جل وعلا دون كل ما سواه، ومن هذا الباب وفي هذا المعنى نزل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] وقوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٠] وما جاء في هذا المعنى من آيات الصفات.

والأمر الثاني: بيان الطريق الذي يجب على العباد أن يسلكوه وأن يسيروا عليه وأن يلزموه حتى يصلوا إلى ربهم جل وعلا، وهذا هو الصراط المستقيم، وهو الشرائع التي بعث الله بها الرسل، وهي الطريق الموصل إلى الله، فالرسل والكتب رسمت الطريق وأوضحت الطريق، وهو طاعة الأوامر وترك النواهي إخلاصاً لله ومحبةً له وتعظيماً له، هذا هو الطريق، هذا الأول الذي هو توحيد الله والإيمان بأسمائه وصفاته، والشرائع التي أمر بها عباده من الأوامر والنواهي والحلال والحرام، من اعتقاد وقول وعمل، هذا الطريق الموصل إلى الله، وسماه الله الصراط المستقيم، سماه طريقاً، قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة:٦] وقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢].

والأمر الثالث: ما هو الجزاء لمن سلك هذا الطريق؟ وما عاقبته وما نهايته؟ وما هو الجزاء لمن خالف هذا الطريق ولم يسلكه ؟

فبينت الرسل والكتب أن جزاء من سلك الطريق الجنة والكرامة والفوز بالنعيم المقيم والرضا من الله والنظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة، هذا جزاء من استقام على الصراط وسار على الطريق، الإيمان بالله والإيمان بأسمائه وصفاته عن إخلاص له في العبادة وتوحيد له سبحانه، وأن جزاء من خالف الطريق وحاد عن السبيل المرسوم، جزاؤه النار وغضب الله عز وجل والعذاب المهين الدائم والمستمر أبد الآباد ودهر الداهرين.

هذه الأمور الثلاثة هي الزبدة، زبدة ما جاءت به الرسل، وحقيقة ذلك هذه الأمور الثلاثة:

الأمر الأول: ما يتعلق بالتعريف به سبحانه وتعالى وبيان أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة.

الأمر الثاني: بيان الشرائع التي يسلكها الناس ويستقيم عليها الناس ويلزمونها في هذه الدنيا، وبها تصلح أحوالهم في الدنيا وتحصل لهم النجاة في الآخرة، كل رسول على حسب ما جاء به من الشرائع.

والأمر الثالث: جزاء هؤلاء السالكين للصراط وجزاء من خالف الصراط، جزاء من استقام على طاعة الله ولزم الطريق واستقام على السبيل، وجزاء من حاد عن ذلك واستكبر عن ذلك وأعرض عن ذلك.

فيدخل في الأول كل ما يتعلق بالتوحيد وأسماء الله وصفاته.

ويدخل في الثاني كل الشرائع، من الأوامر والنواهي والحلال والحرام والبدع وغيرها.

ويدخل في الثالث كل ما وعد في الجنة والنار والحساب والجزاء إلى غير ذلك.

وبهذه الأمور الثلاثة يدخل جميع ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وكل ما جاءت به الرسل وكل ما دلت عليه الكتب، كله داخل في هذه الأمور الثلاثة.أهـ.

* * *

ومضى على ما كان عليه الرسول ﷺ خير القرون، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يوصي به الأول الآخر ويقتدي فيه اللاحق بالسابق، وهم في ذلك كله بنبيهم محمد ﷺ مقتدون، وعلى منهاجه سالكون، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] فإن كان قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ معطوفاً على الضمير في ﴿أَدْعُوٓا۟﴾ فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله، وإن كان معطوفاً على الضمير المنفصل، فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون غيرهم، وكلا المعنيين حق .

وقد بلغ الرسول ﷺ البلاغ المبين، وأوضح الحجة للمستبصرين، وسلك سبيله خير القرون.

ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا أهواءهم، وافترقوا، فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصول دينها، كما أخبر الصادق ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم»[1].

وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين: الإمام أبو جعفر أحمد

(١) متفق عليه من حديث جمع من الصحابة، الصحيحة (٢٧٠).أهـ. ألباني.

ابن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، تغمده الله برحمته، بعد المائتين، فإن مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة[١].

فأخبر رحمه الله عما كان عليه السلف، ونقل عن الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وصاحبيه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الحميري الأنصاري، ومحمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنهم، ما كانوا يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به رب العالمين.

وكلما بعد العهد، ظهرت البدع، وكثر التحريف، الذي سماه أهله تأويلاً ليقبل، وقل من يهتدي إلى الفرق بين التحريف والتأويل، إذ قد يسمى صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله اللفظ في الجملة تأويلاً، وإن لم يكن ثم قرينة توجب ذلك، ومن هنا حصل الفساد، فإذا سموه تأويلاً قبل وراج على من لا يهتدي إلى الفرق بينهما.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني وهو تحريف، تحريف الكلم عن مواضعه، وتغيير اللفظ عن وجهه وصرفٌ له عن مقتضاه، لكن سموه تأويلاً حتى يقبل، وحتى يحصل به التلبيس.

والتأويل أقسام ثلاثة:

القسم الأول: التأويل بمعنى التفسير، كما يقول ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا يعني تفسيره، وهو بيان معنى

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: تجد ترجمته مفصلة في تذكرة الحفاظ ٣/ ٢٨-٢٩، وتاريخ ابن كثير ١١/ ١٧٤، والمنتظم لابن الجوزي ٦/ ٢٥، وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٨، واللباب لابن الأثير ٢/ ٨٢، والجواهر المضيئة لأبي الوفاء ١/ ١٠٢-١٠٥، والفوائد البهية ٣١-٣٤، ولسان الميزان ١/ ٢٧٤-٢٨٢، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢/ ٥٤-٥٥ وابن خلكان ١/ ٥٣-٥٥ طبعة مكتبة النهضة بمصر .أهـ.

الألفاظ، وإيضاح معنى الألفاظ، يقال له تأويل ويقال له تفسير.

والمعنى الثاني: التأويل بمعنى العاقبة، بمعنى الشيء الذي يؤول إليه الشيء وينتهي إليه، مثل تأويل الشرائع؛ الأوامر والنواهي تأويلها ما يحصل لأهلها من الجنة والسعادة، وما يحصل لمن خالفها من النار، كما قال عز وجل: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ [الأعراف:٥٣] يعني نهايته وما يؤول إليه، فنهاية هذه الأمور الجنة للمتقين والنار للكافرين، هذا تأويلها ونهايتها، ومنه تأويل الأحلام، يعني ما تؤول إليه الأحلام وما تنتهي إليه، عاقبتها.

والتأويل الثالث: هو التأويل الذي تستعمله المبتدعة من نفاة الصفات، يسمون تحريفهم وصرفهم الكلام عن ظاهره تأويلاً، فالتأويل المبتدع المذموم؛ هو صرف الألفاظ عن ظاهرها والأدلة عن ظاهرها إلى معانٍ أخرى توافق ما أرادوا من التحريف وتوافق ما أرادوا من الباطل، فيسمون هذا تأويلاً للتلبيس، وليدسوه على الناس ويلبسوا به الأمر، وهو ليس في الحقيقة تأويل ولكنه تحريف.

ولا يجوز هذا التأويل الثالث إلا بدليل ـ يعني صرف الكلام عن ظاهره ـ إلا بدليل يدل على ذلك، فإن جاء دليل من الكتاب والسنة أنه يجوز صرف ذلك النص عن ظاهره حتى يوافق أدلة أخرى صحيحة عن الله وعن رسوله؛ فهذا تفسير وتأويل بمعنى صحيح، حتى لا يحصل اختلاف النصوص وتضارب الأدلة، وإلا فهو باطل وتحريف وتغيير للكلام عن حقيقته، حتى يقبل ممن ضعفت بصيرته، وهذا الذي سلكه أرباب الكلام وأهل البدع.أهـ.

* * *

فاحتاج المؤمنون بعد ذلك إلى إيضاح الأدلة، ودفع الشبه الواردة عليها، وكثر الكلام والشغب، وسبب ذلك إصغاؤهم إلى شبه المبطلين، وخوضهم في الكلام المذموم الذي عابه السلف، ونهوا عن النظر فيه والاشتغال به والإصغاء إليه، امتثالاً لأمر ربهم حيث قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨] فإن معنى الآية يشملهم.

وكل من التحريف والانحراف على مراتب: فقد يكون كفراً، وقد يكون فسقاً، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأً.

فالواجب اتباع المرسلين، واتباع ما أنزله الله عليهم، وقد ختمهم الله بـ محمد ﷺ، فجعله آخر الأنبياء، وجعل كتابه مهيمناً على ما بين يديه من كتب السماء، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين، الجن والإنس، باقية إلى يوم القيامة، وانقطعت به حجة العباد على الله، وقد بين الله به كل شيء، وأكمل له ولأمته الدين خبراً وأمراً، وجعل طاعته طاعة له، ومعصيته معصية له، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى غيره، وأنهم إذا دعوا إلى الله والرسول ـ وهو الدعاء إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ صدوا صدوداً، وأنهم يزعمون أنهم إنما أرادوا إحساناً وتوفيقاً، كما يقوله كثير من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم: إنما نريد أن نحس الأشياء بحقيقتها، أي ندركها ونعرفها، ونريد التوفيق بين الدلائل التي يسمونها العقليات، ـ وهي في الحقيقة: جهليات ـ وبين الدلائل النقلية المنقولة عن الرسول، أو نريد التوفيق بين الشريعة والفلسفة.

وكما يقوله كثير من المبتدعة، من المتنسكة والمتصوفة: إنما نريد

الأعمال بالعمل الحسن، والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدعونه من الباطل، الذي يسمونه: حقائق وهي جهل وضلال، وكما يقوله كثير من المتكلمة والمتأثرة: إنما نريد الإحسان بالسياسة الحسنة، والتوفيق بينها وبين الشريعة، ونحو ذلك .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وغالب الكلام هذا منقول من كلام ابن القيم رحمه الله، المؤلف نقل كثيراً من كلام ابن القيم رحمه الله في هذا الكتاب.

قوله: «**وكما يقوله كثير من المتكلمة**» الظاهر المتملكة، أما المتملكون فمعناه الذين لهم الحكم والملك، الذين تأثروا بالأشياء التي يزعمونها سياسة وهي ليست سياسة، وإنما هي اتباع للهوى وتحريف للحق، وكثيراً ما يفعل أهل الكلام التحريف من الصوفية وغيرهم، ويفعلها من الملوك والرؤساء ومن يزعمون أنهم يريدون سياسة الملك وسياسة الدولة بما ينفع الدولة ونحو ذلك، قد يعصون الأوامر بزعمهم أن هذا من السياسة.

والحاصل من هذا كله أن أصناف المخالفين للشرع، من ممتنعة ومن إباحية ومن أصحاب الهوى والملك والرئاسة وغير ذلك؛ كلهم إذا حادوا عن الحق يسمون بعدهم عن الحق وتأويلهم للحق شيئاً يزهده على الناس ويلبسون به على الناس؛ هؤلاء يسمون عملهم إحساناً وتوفيقاً، جمعاً بين الأدلة وتوفيقاً للأدلة التي زعموا أنها أدلة من خواطرهم وأوهامهم، وما يسمونه حقيقة أو باطنياً، الأدلة الباطنية أو ما أشبه ذلك، وبين ما هو الظاهر من الشرع، فالصوفية لهم بحث، والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة والأشعرية والفلاسفة وغيرهم لهم بحث وتأويل،

والذين يعصون الرسول ﷺ ويخالفون الأوامر من الملوك والرؤساء لتحصيل مآربهم قد يخطئون في هذا عمداً، وقد يخطئون جهلاً، وقد يتأوله لهم غيرهم، فيزعمون أنهم إنما أرادوا إحساناً وتوفيقاً، إلى غير ذلك، فهذه أشياء واقعية من دهر طويل، من عهد الصحابة إلى يومنا هذا، ولكن الصراط المستقيم والحق الواضح المبين؛ هو لزوم الطريق السوي الذي رسمه الله لعباده ودعت الرسل إليه، وهو الأخذ بالأوامر على ظاهرها، وترك النواهي على ظاهرها، والوقوف عند الحدود على ظاهرها، وترك التأويل والتلبيس الذي لا وجه له ولا دليل عليه.أهـ.

* * *

فكل من طلب أن يحكم في شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول، ويظن أن ذلك حسن، وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه؛ فله نصيب من ذلك، بل ما جاء به الرسول كاف كامل، يدخل فيه كل حق، وإنما وقع التقصير من كثير من المنتسبين إليه، فلم يعلم ما جاء به الرسول في كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية، ولا في كثير من الأحوال العبادية، ولا في كثير من الإمارة السياسية، أو نسبوا إلى شريعة الرسول، بظنهم وتقليدهم، ما ليس منها، وأخرجوا عنها كثيراً مما هو منها.

فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم، وبسبب عدوان أولئك وجهلهم ونفاقهم، كثر النفاق، ودرس كثير من علم الرسالة.

بل إنما يكون البحث التام، والنظر القوي، والاجتهاد الكامل، فيما جاء به الرسول ﷺ، ليعلم ويعتقد، ويعمل به ظاهراً وباطناً، فيكون قد تلي حق تلاوته، وأن لا يهمل منه شيء .

وإن كان العبد عاجزاً عن معرفة بعض ذلك، أو العمل به، فلا ينهى عما عجز عنه مما جاء به الرسول، بل حسبه أن يسقط عنه اللوم لعجزه، لكن عليه أن يفرح بقيام غيره به، ويرضى بذلك، ويود أن يكون قائماً به، وأن لا يؤمن ببعضه ويترك بعضه، بل يؤمن بالكتاب كله،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني إذا عجز عن إيضاح الحق لقصور علمه أو لمشاغله أو نحو ذلك مما قد يصعب له الحق؛ فالواجب عليه أن يفرح بمن أظهر الحق ونصر الحق وبيّنه وتفرغ لذلك، وأن لا يحمله الحسد والبغي على معاداة ذلك أو تكفير ذلك أو تجهيله أو ما أشبه ذلك، ظلماً وعدواناً وحسداً وبغياً.

فالمؤمن إما أن ينصر الحق بنفسه ويقوم بما يجب، وإما أن يساعد من قام بذلك ويفرح بمن قام بذلك ويكون عوناً له على الخير، ولا يكون ضداً لذلك جهلاً وحسداً وبغياً ونحو ذلك، أو لئلا يقال إن غيره أظهر الحق وعمل ما لم يعمله هذا الشخص أو ما أشبه ذلك.

فالمؤمنون فيما بينهم يتعاونون ويتناصرون في اتباع الحق، ويفرح كل واحد بما يقوم به أخوه من نصر الحق وتأييد الحق وإظهاره في بلده أو في ناحيته أو في قبيلته أو في أي مكان كان، فينبغي له أن يشجعه على ذلك بالمكاتبة والكلام ونحو ذلك مما يعينه، ويشفق على إظهار الحق والدعوة إليه، وإيضاح الباطل والتحذير منه.أهـ.

❊ ❊ ❊

وأن يصان عن أن يدخل فيه ما ليس منه، من رواية أو رأي، أو يتبع ما ليس من عند الله، اعتقاداً أو عملاً، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢].

وهذه كانت طريقة السابقين الأولين، وهي طريقة التابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة، وأولهم السلف القديم من التابعين الأولين، ثم من بعدهم، ومن هؤلاء أئمة الدين المشهود لهم عند الأمة الوسط بالإمامة.

فعن أبي يوسف رحمه الله تعالى أنه قال لبشر المريسي[١]: العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل: زنديق، أو رمي بالزندقة[٢].

أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته، فإن ذلك علم نافع، أو أراد به الإعراض عنه أو ترك الالتفات إلى اعتباره، فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله فيكون علماً بهذا الاعتبار، والله أعلم.

وعنه أيضاً أنه قال: من طلب العلم بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب[٣].

---

(١) هو بشر غياث المريسي أبو عبد الرحمن، فقيه معتزلي يرمى بالزندقة، أخذ الفقه عن أبي يوسف، وهو رأس الطائفة المريسية، قال عنه في «اللسان»: مبتدع ضال لا ينبغي أن يروى عنه ولا كرامة.

(٢) رواه أبو إسماعيل الهروي في ذم الكلام وأهله (١٠١٠) ٤/ ٢١٠، وابن بطة في الإبانة (٦٦٨) ٢/ ٥٣٦، وذكره ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ٤/ ٦٤.

(٣) رواه أبو إسماعيل الهروي في ذم الكلام وأهله (١٠٠٩) ٤/ ٢١٠، وابن بطة في الإبانة (٦٧١) ٢/ ٥٣٨، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣٠٥) ١/ ١٤١ سياق ما روى عن النبي ﷺ في الحث على اتباع الجماعة، وكذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية ١/ ٢٥٨، و مجموع الفتاوى ٤/ ٦٤ والخطيب البغدادي في الكفاية (٢٢٥).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، يطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام[1].

وقال أيضاً رحمه الله تعالى (شعراً) :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وذكر الأصحاب في الفتاوى: أنه لو أوصى لعلماء بلده: لا يدخل المتكلمون، وأوصى إنسان أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم، فأفتى السلف أن يباع ما فيها من كتب الكلام، ذكر ذلك بمعناه في الفتاوى الظهيرية .

فكيف يرام الوصول إلى علم الأصول، بغير اتباع ما جاء به الرسول؟! ولقد أحسن القائل:

أيها المغتدي ليطلب علماً ... كل علم عبد لعلم الرسول

تطلب الفرع تصحح أصلاً ... كيف أغفلت علم أصل الأصول

ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والأخروية على أتم الوجوه، ولكن كلما ابتدع شخص بدعة اتسعوا في جوابها، فلذلك صار كلام المتأخرين كثيراً، قليل البركة، بخلاف كلام المتقدمين، فإنه قليل، كثير البركة، لا كما يقوله ضلال المتكلمين وجهلتهم: إن طريقة القوم من المنتسبين إلى الفقه: إنهم لم يتفرغوا لاستنباط الفقه وضبط قواعده وأحكامه اشتغالاً منهم بغيره!

---

(١) رواه أبو إسماعيل الهروي في ذم الكلام وأهله (١١٤٢) ٤/ ٢٩٤، والذهبي في سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩ وقال: لعل هذا متواتر عن الإمام.

والمتأخرون تفرغوا لذلك، فهم أفقه!!

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعمق علومهم، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم، وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء، فالمتأخرون في شأن، والقوم في شأن آخر، وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

وقد شرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء، ولكن رأيت بعض الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم، واستمد منهم، وتكلم بعباراتهم.

والسلف لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معان صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضاً الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها الكتاب والسنة، ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين، فضلاً عن علمائهم.

ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل، كثر المراء والجدال، وانتشر القيل والقال، وتولد لهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال، وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله: «فمن رام علم ما حظر عنه علمه».

وقد أحببت أن أشرحها سالكاً طريق السلف في عباراتهم، وأنسج على منوالهم، متطفلاً عليهم، لعلي أن أنظم في سلكهم، وأدخل في

عدادهم، وأحشر في زمرتهم ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] ولما رأيت النفوس مائلة إلى الاختصار، آثرته على التطويل والإسهاب، ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

[هو حسبنا ونعم الوكيل]

قوله: (نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله أن الله واحد لا شريك له).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: تكلم عن توحيد العبادة، شيء بدأ به كل رسول دعوته يدل على أهميته، شيء اتفقت عليه الرسل يدل على أهميته.أهـ .

* * *

ش: اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥] وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣] وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً

رسول الله»[١] ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله ،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ولهذا مكث رسول الله عشر سنين في مكة يدعو إلى تحقيق لا إله إلا الله، وتصديق أنه رسول الله. أهـ.

❊ ❊ ❊

لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: بعضهم يقول: أول واجب الشك، صحيح أن الله أمر بالنظر، يدعى إليه لأجل الاقتناع، يدعى من شك وتوقف، فهو حجة للمعاند، وقولهم: يشك ثم يسعى لإزالة الشك، غلط. أهـ.

❊ ❊ ❊

كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقب بلوغه،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يكفيه في صلاته وترديده الأذان. أهـ.

❊ ❊ ❊

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من الأصحاب، وهو مخرج في الصحيحة (٤٠٦). أهـ ألباني.

بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لو أدى الصلاة قبل البلوغ ثم بلغ لا يعيدها، خلافاً لبعض العلماء.أهـ.

* * *

ولم يوجب أحد منهم على وليه أن يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين، وإن كان الإقرار بالشهادتين واجباً باتفاق المسلمين، ووجوبه يسبق وجوب الصلاة، لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا الذي قاله الشارح ـ من أن التوحيد هو زبدة قول الرسل، وهو الخلاصة، وهو المهمة الأولى من مهمات الرسل ـ هو الحق، فإن أول ما يجب على المكلف هو توحيد الله والإيمان برسوله عليه الصلاة والسلام، وهذا هو معنى الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، هذا أول واجب، فإذا نشأ عليها الولد من صغره يقولها ويعتقد معناها فقد أدى ما عليه، فلا يؤمر بالتجديد، بل هو مستمر على ذلك، يؤمر بالاستمرار والثبات على هذا الخير العظيم، وهو الإيمان بالله وتوحيده والإخلاص له، والإيمان برسوله محمد ﷺ وأتباعه.

ومن قال من أهل الكلام: إن الواجب النظر في الموجودات والمخلوقات والاستدلال بالعقل، أو قال: الواجب القصد إلى النظر قبل كل شيء، قبل أن يشهد أن لا إله إلا الله .. إلخ، أو قال: الواجب الشك، يشك في كل شيء ثم بعد ذلك ينظر في التوحيد وفي حق الله؛ كل هذه أقوال فاسدة، كلها أقوال باطلة، بل هو مأمور بداراً بغاية المبادرة وبغاية

الفورية أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، كما جاءت الرسل بذلك، فهم مأمورون، وغيرهم من المكلفين مأمورون بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بداراً، ويتفقهوا في معناهما ويعلموا معناهما، هذا هو الواجب قبل كل شيء، ثم الصلاة والزكاة والصيام والحج وفروع الشريعة، هذا هو الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام كما في الآيات، كل نبي يقول لقومه: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ أول شيء، ونبينا خاتم النبيين والمرسل إلى جميع الناس عليه الصلاة والسلام بدأ قومه بقوله: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»(1) هكذا بدأهم، ما قال لهم انظروا في هذا وانظروا في هذا، أو اطلبوا للنظر في هذا، أو كونوا شاكِّين في كل شيء ثم بعد هذا انظروا، كل هذه أشياء لا أساس لها، دخلت على أهل الكلام ممن قبلهم من الفلاسفة وأرباب الكلام الباطل وأرباب الفطر المنحرفة والعقول الفاسدة فظنوها صواباً.

والله جل وعلا إنما خاطبنا أول شيء بالأمر بالتوحيد ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩] ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل:٣٦] ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾ [الذاريات:٥٦] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

(1) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٢و ٤/ ٣٤١، وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٢١٦ ذكر دعاء الرسول ﷺ قبائل العرب في الموسم، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ باب قول الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ قال الذهبي في التاريخ: إسناده قوي، وقال الأرنؤوط في حاشية الهدي: وسنده حسن، وله شاهد عند ابن حبان (١٦٨٣) من حديث طارق بن عبدالله المحاربي.

ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء:٢٢] إلى غير ذلك.

فالواجب في هذا على جميع المكلفين من جن وإنس وعرب وعجم وذكور وإناث، الواجب عليهم قبل كل شيء وأول شيء أن يخصوا الله بالعبادة ويؤمنوا به، وأنه ربهم وإلههم، وهذا يتضمن النظر والتفكير بهذه المعاني، لا يبدأوا بها، بل يجب أن يبدأوا بتوحيد الله والمبادرة إلى عبادته وحده دون كل ما سواه، وينظروا بعد ذلك في هذه المعاني، وفي خصوص هذه المعاني، وينظروا فيها حتى يكون إيمانهم على بصيرة.أهـ.

* * *

وهنا مسائل تكلم فيها الفقهاء:

كمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين، أو أتى بغير ذلك من خصائص الإسلام، ولم يتكلم بهما، هل يصير مسلماً أم لا؟

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذه مسألة فرضها غير صحيح.أهـ.

* * *

والصحيح أنه يصير مسلماً بكل ما هو من خصائص الإسلام، فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[1] وهو أول واجب وآخر واجب.

---

(١) حسن أو صحيح، رواه الحاكم وغيره، وقد خرجته في «إرواء الغليل» رقم (٦٨٧).أهـ ألباني.

فالتوحيد أول الأمر وآخره، أعني: توحيد الإلهية، فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع:

أحدها: الكلام في الصفات.

والثاني: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء.

والثالث: توحيد الإلهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذه الأقسام أحيلت بالاستقراء والنظر في الأدلة، استنبط توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية وتوحيد الأسماء والصفات، استنبطت من الأدلة، والنظر فيها بالأدلة، ولهذا قسم العلماء التوحيد إلى هذه الأقسام، فإذا درس طالب العلم الأدلة الواردة في الكتاب والسنة نتج له هذه الأقسام الثلاثة.

أما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، هذان توحيدان أقر بهما المشركون، وعرفوا أن الله ربهم وخالقهم ورازقهم ونحو ذلك، وأنه له الكمال في صفاته جل وعلا وأسمائه، هذا أقر به المشركون، وإن وجد من بعضهم جحد لشيء من الصفات، فهو من باب المكابرة ومن باب الجهل الذي قد قبض لعلم غيره، كما أنكرت قريش الرحمن مكابرة وهم يعرفون ذلك.

فالحاصل أن هذين التوحيدين أمرهما معلوم عند الأمم، قد أقرت بهما الأمم، وكل من شذ ممن لا يعتبر بخلافه وشذوذه.

أما توحيد العبادة فهو الأمر الذي تنازعت فيه الأمم ولم يقر به إلا القليل، وجعلوا لهم آلهة يعبدونهم من دون الله، منهم من جعل الشمس والقمر، ومنهم من جعل بعض النجوم، ومنهم من جعل الأصنام، ومنهم

من جعل الأموات، ومنهم من جعل بعض الأشجار، إلى غير ذلك، وهم في عباداتهم متفاوتون ومتعددون ومتنوعون أنواعاً لا تحصى، فبعث الله الرسل لهذا القسم، لتوحيد الإلهية والعبادة، وأمر الناس بأن يعبدوا الله وحده، كما أنه خالقهم وربهم يجب أن يكون هو معبودهم سبحانه وتعالى، وكما أنهم يعلمون أنه ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى وأنه الكامل؛ فالواجب أن يعبدوه وحده دون كل ما سواه.

هذه دعوة الرسل تذكرهم بما أقروا به، فالرسل مذكرون: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية:٢١] يعني يذكرونهم ما فطر الله عليه عباده من الإيمان بالله وأنه رب الجميع وخالق الجميع ورازق الجميع، فيذكرونهم بهذا الإيمان وبهذا الأساس الذي خلقوا عليه وفطروا عليه، ليعبدوا الله وحده ويخصوه بالعبادة دون كل ما سواه، فهم مفطورون على توحيد العبادة وعلى توحيد الأسماء والصفات وعلى توحيد الربوبية، هم مفطورون على هذه الأمور، فالرسل جاءت تذكرهم بما فطروا عليه وبما خلقوا عليه من التوحيد والإيمان، كما قال النبي ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة** - يقصد إلا على هذه الملة - **فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1] فالشيطان دخل عليهم في باب توحيد العبادة، دخل عليهم بأشياء، وقال لهم: هذا ربكم وهو العظيم وهو ذو الأسماء والصفات، وأنتم ضعفاء مذنبون محل الجرائم محل كذا محل كذا، فلا يليق بكم أن

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩) كتاب الجنائز/ باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ و(١٣٨٥) باب: ما قيل في أولاد المشركين، و(٤٧٧٥) كتاب التفسير/ باب: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ و(٦٥٩٩) كتاب القدر/ باب: الله أعلم بما كانوا عاملين، ومسلم (٢٦٥٨) كتاب القدر / باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تباشروه بالعبادة، بل يجب أن تتخذوا وسائط وشفعاء بينكم وبينه، لأنكم لستم أهلاً لأن تباشروا العبادة بأنفسكم، ولستم أهلاً لأن تقرّبوا إليه بأنفسكم، لأن عندكم من الجرائم والظلم وكذا وكذا، وكذا وكذا، فيلبس عليهم هذه الأمور، وأن هذا من باب التأدب ومن باب التنقص للنفس، حتى لا نتوجه إلى الله بأنفسنا، بل نتوجه إلى الأموات أو الأشجار أو الأحجار أو الكواكب أو الأصنام للواسطة بيننا وبين ربنا، هذا عمل الشيطان الذي زين لهم، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] فجعلوا الأصنام والأشجار والأحجار وغير ذلك وسائط ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس:١٨] فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يعلم شيئاً في السماوات ولا في الأرض شريكاً لله عز وجل، فشيء لا يعلمه الله لا وجود له، وهكذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر:٣] فهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ فهم يزعمون أنهم عبدوا هذه الأشياء للتقريب والشفاعة، لا لأنها تخلق أو ترزق أو تدبر أو تتصرف في الكون، لا، يعلمون أن هذا لله وحده، ولكنهم عبدوها لأنها تشفع، لأنها تقربهم إلى الله زلفى، فزعموا أنهم ناقصون وأنهم يذنبون وأنهم ضعفاء وأنهم مذنبون، وأنهم يحتاجون إلى أن يتخذوا هذه الوسائط من الأصنام والأموات، فأبطل الله ذلك عليهم وقال: ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ ﴾ يعني

تخبرون الله ﴿ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨] وفي الآية الأخرى قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر:٣] فجعلهم كذبة وكفرة بهذه الدعوى، كذبة بقولهم تقربنا زلفى وأنها تشفع، وكفرة بهذا العمل وبهذا الإجراء وبهذا الاعتقاد.

وبهذا يعلم أنه كما أنه ربنا وخالقنا ورازقنا .... [(١)].أهـ.

* * *

أما الأول: فإن نفاة الصفات أدخلوا نفي الصفات في مسمى التوحيد، كجهم بن صفوان ومن وافقه، فإنهم قالوا: إثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني تعدد الواجب في الوجود، يعني الله هو الواجب في الوجود الذي قبل كل شيء سبحانه وتعالى، فإذا أثبت الصفات وأنه حي قيوم وأنه سميع بصير، سمعه قديم وبصره قديم، لم يزل سميعاً لم يزل بصيراً، تعددت الواجبات، هذا واجب السمع وهذا واجب البصر وهذا واجب الحياة وهذا واجب القيومية وهذا واجب القدرة، تكون الصفات نوعاً من الآلهة الأخرى، لأنها واجبة الوجود، فنجرده من جميع ذلك ونجعلها منفية باطلة، كأنه ذات مجردة عن الصفات.

---

(١) فراغ، ولعل تتمة الجملة: وبهذا يعلم أنه كما أنه ربنا وخالقنا ورازقنا فهو المستحق لأن يعبد وحده دون كل ما سواه. والله أعلم.

وهل يعقل هذا؟ هذا لا يعقله عاقل، أهنا ذات مجردة عن الصفات؟

بل هو العدم، ولهذا قالوا بالعدم، أفضى بهم هذا القول إلى عدم إثبات الله عز وجل، أقوال شنيعة نسأل الله العافية، حتى قال خواصهم: لا داخل العالم ولا خارجه ولا مبايناً ولا محايثاً ولا فوقه ولا تحته ولا عن يمينه ولا عن شماله إلى آخر ذلك، هذا لو أن أحداً أراد أن يعرّف العدم ما استطاع أن يأتي بأكثر من هذا.

أما أهل السنة والجماعة فقالوا: إنه سبحانه وتعالى موجود بصفاته، يعني كامل بصفاته، يعني قديم بصفاته، لم يزل موصوفاً بصفات الكمال أبداً، وأنه فوق الخلق مستغن عن الخلق بائن من خلقه فوق العرش، ليس في خلقه شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من خلقه سبحانه وتعالى، فهو فوق الجميع وهو خالق الجميع ورازق الجميع، وهو فوق العرش فوق جميع الخلق سبحانه وتعالى، كما قال ابن المبارك رحمه الله: «**نعرف ربنا فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه**»(١) سبحانه وتعالى. أهـ.

سؤال/ التقسيم إلى واجب الوجود وجائز الوجود ؟

أجاب سماحته/ هذا من اصطلاحاتهم ـ أهل الكلام ـ ولكن معناه صحيح، معناه أن الموجودات قسمان:

القسم الأول: واجب لا يزال أبداً ولا يمكن فناؤه ولا عدمه، هذا هو

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في السنة ١/ ١١١ قول ابن المبارك في الجهمية، وقال محققه: إسناده صحيح وأخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٨) والدارمي في الرد على الجهمية (٢٣) وصححه ابن تيمية في الحموية (٤١) وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٨٤) انتهى، وكذا أورده ابن القيم كما في تهذيب السنن ٧/١٠٨و ١١٤ وعزاه إلى الحاكم والأثرم، ورواه ابن بطة في الإبانة (١١٢) ٣/ الرد على الجهمية، باب الإيمان بأن الله عز وجل على عرشه بائن من خلقه وعلمه محيط بجميع خلقه.

صفة الرب عز وجل، بل هو واجب لم يزل موجوداً حياً قيوماً سميعاً بصيراً، لم يكن عدماً محضاً سابقاً، ولا يكون عدماً في اللاحق، فهو موجود دائماً ولم يزل موجوداً.

والقسم الثاني: يعتريه العدم، فهو كان عدماً ثم وجد، كبقية المخلوقات، فهي غير واجبة الوجود بل ممكنة الوجود، فلهذا يتجدد وجودها شيئاً فشيئاً، الحيوانات والأشجار والأحجار والجبال، وغيرها كلها موجودة بعدما كانت عدماً.أهـ.

سؤال/ القول بأنه واجب الوجود ألا يلزم منه أن واجب الوجود تابعة للوجود؟

أجاب سماحته/ لا، معنى أن الوجود له واجب لم يزل، واجب الوجود من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، فالمعنى أنه واجب الوجود لم يزل ولن يزال في المستقبل.أهـ.

سؤال/ أول من قال به ؟

أجاب سماحته/ الظاهر أنه من عمل الفلاسفة القدامى، دخل على الناس من هذا الشيء، فاحتاجوا أن يتكلموا بها لرد الباطل، والرب جل وعلا قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد:٣] سبحانه وتعالى.أهـ.

* * *

وهذا القول معلوم الفساد بالضرورة، فإن إثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج، وإنما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله، وهذا غاية التعطيل، وهذا القول قد أفضى بقوم إلى

القول بالحلول والاتحاد، وهو أقبح من كفر النصارى، فإن النصارى خصوه بالمسيح، وهؤلاء عموا جميع المخلوقات.

ومن فروع هذا التوحيد: أن فرعون وقومه كاملو الإيمان، عارفون بالله على الحقيقة.

ومن فروعه: أن عباد الأصنام على الحق والصواب، وأنهم إنما عبدوا الله لا غيره.

ومن فروعه: أنه لا فرق في التحريم التحلبل بين الأم والأخت والأجنبية،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني إذا قالوا: إن الله حال في كل شيء، وإن الموجودات بذاتها في الإله، يعني ماهنا افتراق بين الأنبياء وغيرهم، نسأل الله العافية، لأنهم قالوا بالحلول.أهـ.

* * *

ولا فرق بين الماء والخمر، والزنا والنكاح، والكل من عين واحدة، لا بل هو العين الواحدة .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني من فروع القول بوحدة الوجود، قول أهل الاتحاد، نسأل الله العافية.أهـ

* * *

ومن فروعه: أن الأنبياء ضيقوا على الناس .

تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وأما الثاني: وهو توحيد الربوبية، كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا

ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضة طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقناً به في الباطن، كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ولهذا لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ على وجه الإنكار له تجاهل العارف، قال له موسى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤-٢٨].

وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهماً عن الماهية، وأن المسؤول عنه لما لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب، وهذا غلط، وإنما هذا استفهام إنكار وجحد، كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحداً لله نافياً له، لم يكن مثبتاً له طالباً للعلم بماهيته .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ولهذا قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] منكراً لوجود الله سبحانه وتعالى، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨] ويعلم في الباطن أنه كاذب،

وأن رب العالمين هو الله وحده سبحانه وتعالى، ولكن وجد همجاً رَعاعاً لا بصيرة لهم فكذب عليهم وقال هذا الكلام، وهكذا يحكى عن النمرود أنه فعل ذلك أيضاً.أهـ.

* * *

فلهذا بين لهم موسى أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو؟ بل هو سبحانه أعرف وأظهر وأبين من أن يجهل، بل معرفته مستقرة في الفطر أعظم من معرفة كل معروف، ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: أن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال، فإن الثنوية من المجوس، والمانوية القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما: متفقون على أن النور خير من الظلمة، وهو الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة، هل هي قديمة أو محدثة؟ فلم يثبتوا ربين متماثلين.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وكلامهم كلام من لا يعقل، كلام المجوس كلام من لا يعقل، فإن النور والظلمة وصفان وليسا إلهين، ليسا إلهين ولا ذاتين، وإنما النور والظلمة وصفان، كل واحد يأتي عن غيره وينوب عن غيره، النور يأتي بأسباب النور، والظلمة تأتي بأسباب الظلمة وهو عدم النور، فليسا أصلين وليسا ذاتين، وإنما يكونان أوصافاً، فمن جهلهم وضلالهم قولهم إن أصل الأشياء النور والظلمة، وأن النور هو الإله المحمود، والظلمة إله الشر، هذا كلام فاسد قد صدر من عقول فاسدة، ولهذا فطر الله العباد على الإيمان بوجود الله، وأن هذا العالم له رب وله صانع وله خالق وله مدبر يصرف شؤونه، هكذا فطر الله العالم على ذلك.أهـ.

* * *

وأما النصارى القائلون بالتثليث، فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون: باسم الإبن والأب وروح القدس إله واحد .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ولهذا ضحك بهم العقلاء، وقالوا عنهم إنهم فاسدوا العقول فاسدوا التصرف، كيف يكون إلهاً واحداً وهو مكون من ثلاثة أشياء؟

هذه مكابرة، فعيسى ومريم والله هذا ليس واحداً، هذا ثلاثة، ولهذا صار دين النصارى الذي أحدثوه من أفسد الأديان ومن أبينها بطلاناً، ولهذا كل عاقل يربأ بعقله وبنفسه عن هذا الدين، ويعلم أنه دين فاسد باطل، ولكن يحمله على البقاء عليه إما طلب الرئاسة، وإما خوف القتل، وإما أموال يأخذها، وإما أشياء أخرى، فلهذا يسعى للبقاء عليه، وإلا فكل عاقل يعلم فساد هذا الدين.أهـ.

* * *

وقولهم في التثليث متناقض في نفسه، وقولهم في الحلول أفسد منه، ولهذا كانوا مضطربين في فهمه، وفي التعبير عنه، لا يكاد واحد منهم يعبر عنه بمعنى معقول، ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ولهذا قال العلماء: لو اجتمع عشرة من النصارى في درس إلههم لتفرقوا على أحد عشر قولاً[1]، يعني أن المبالغة في اختلافهم أنهم قد ينقسمون إلى أقوال أكثر

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير سورة النساء، آية (١٧١) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾.

من عدد الموجودين، من باب المبالغة في اختلافهم.

وممن لخص هذا وبين أباطيلهم أبوالعباس ابن تيمية رحمه الله في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» وكذلك ابن القيم رحمه الله في «هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى» وكذلك ملخص كتاب ابن معمر، كتاب «رد ابن معمر النفيس على عباد الصليب» عبدالعزيز بن معمر رحمه الله، أحد علماء الدعوة في الدرعية في القرن الثالث عشر، قد طبع.أهـ.

* * *

فإنهم يقولون: هو واحد بالذات، ثلاثة بالأقنوم! والأقانيم يفسرونها تارة بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: بالخواص يعني ما يختص به كل واحد من الأقانيم، هذا خاصته كذا، وهذا خاصته كذا، يعني روح القدس خاصته كذا، ومريم خاصتها كذا، وعيسى خاصته كذا، مما يتخذون في كتبهم.أهـ.

* * *

وقد فطر الله العباد على فساد هذه الأقوال بعد التصور التام، وبالجملة فهم لا يقولون بإثبات خالقين متماثلين .

والمقصود هنا: أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين، مع أن كثيراً من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في إثبات هذا المطلوب وتقريره، ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل، وزعم أنه يتلقى من السمع.

والمشهور عند أهل النظر إثباته بدليل التمانع، وهو: أنه لو كان

للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته: فإما أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع، لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، وهو ممتنع، ويستلزم أيضاً عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلهاً، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان هذا هو الإله القادر، والآخر عاجزاً لا يصلح للإلهية.

وتمام الكلام على هذا الأصل معروف في موضعه، وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الإلهية الذي بينه القرآن، ودعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس الأمر كذلك، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] ومثل هذا كثير في القرآن، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شفعاء، ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب، قال تعالى حكاية

عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] وقد ثبت في صحيح البخاري، وكتب التفسير، وقصص الأنبياء وغيرها، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره من السلف، أن هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، وأن هذه الأصنام بعينها صارت إلى قبائل العرب، ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما قبيلة قبيلة(١)، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أمرني أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته(٢).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذه الأصنام والأوثان التي درجت عليها الأمم، كلها أخذوها بالتقليد الأعمى وعدم النظر بما جاءت به الرسل، كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣] فتأسى آخرهم بأولهم في عبادتها من دون الله، على أنها شفعاء، على أنها وسائط، لا أنها تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها، فإنهم لا يعتقدون هذا، بل يعلمون أن الله سبحانه هو الخالق الرازق، مدبر الأمور، منزل الأمطار، المحيي المميت، إلى غير ذلك، ولكنهم زعموا أن هذه الأصنام والأوثان تشفع لهم عند الله وتقربهم لديه ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]

(١) صحيح، وهو موقوف في حكم المرفوع.أهـ ألباني.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم وأحمد وغيرهما، وله طرق ذكرتها في «إرواء الغليل» و«أحكام الجنائز» ص (٢٠٧).أهـ ألباني.

فاستوى هذا عند أولهم وآخرهم، وتبع آخرهم في ذلك أولهم، وصار ذلك شائعاً فيهم مستحسناً فيهم، حتى قاتلوا عليه وناضلوا عليه، وجرى لقريش مع نبينا ﷺ ما جرى على هذه الشركيات وهذه الأوثان والأصنام التي لا أساس لها إلا الباطل، فانظر كيف كانت عقول الناس؟

هذه العقول التي أصابها الدمار والخراب بسبب التقليد الأعمى، حتى قاتلوا وسفكوا الدماء وأتلفوا نفوسهم وأموالهم على باطل، هذه حال الأمم فيما يقع منها من الشر والفساد والشرك والكفر، كله بالتقليد الأعمى وعدم النظر بما جاءت به الرسل وعدم التواصي بالحق، فجرهم إلى هذا الشرك العظيم والبلاء الوخيم، تقليد لا أساس له، واتباع باطل، وإحسان ظن بالأولين على غير هدى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا ما جرى لهذه الأمة من تعظيم القبور التعظيم غير الشرعي، واتخاذ المساجد عليها والقباب عليها والبناء عليها، حتى عظمها العامة وحتى طافوا بها واستغاثوا بها وطلبوها المدد، كل هذا من التقليد الأعمى.

وهكذا ما وقع الآن من احتفالات الموالد وتعظيمها وجعلها أعياداً أعظم من عيد الأضحى والفطر، كله بسبب التقليد الأعمى وعدم البصيرة ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٣] وقد كان السلف الصالح في عهد نبينا ﷺ وفي عهد صحابته وفي عهد القرون المفضلة الثلاثة؛ لا يعرفون هذه الاحتفالات وهذه الموالد التي زعموها، ولكن بسبب التقليد الأعمى الذي وقع من المتأخرين ممن فعل ذلك من الشيعة وغير الشيعة، شاع هذا الشيء وانتشر واستمر الناس عليه حتى ظنوه سنة، وظنوا من أنكره وبين بطلانه

أنه هو المخطئ وهو الغالط، هذه حال الناس، هذه حال الناس إذا اعتادوا شيئاً ومشوا عليه وساروا عليه، تبع آخرهم أولهم، وظنوا أن ما فعلوه هو الصواب والخير، وأن هذا هو الطيب، وأنه أحسن مما كان عليه السلف الصالح، ثم تعللوا لذلك بالعلل الفاسدة.

ثم الآن زاد الأمر، حتى صار كل واحد يجعل لأمه عيداً أو لولده عيداً أو لبنته عيداً أو لأبيه عيداً أو لنفسه عيداً بالسنة، تقليداً للنصارى واليهود، والله المستعان.أهـ

* * *

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال في مرض قبل موته: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[(١)] يحذر ما فعلوا، قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً، وفي الصحيحين أنه ذكر له في مرض موته كنيسة بأرض الحبشة، وذكر من حسنها وتصاوير فيها، فقال: «إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»[(٢)] وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال قبل أن يموت بخمس: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[(٣)].

ومن أسباب الشرك عبادة الكواكب واتخاذ الأصنام.

---

(١) صحيح، وهو من حديث عائشة وأبي هريرة رضي الله عنه، وله شواهد كثيرة خرجتها في «تحذير الساجد» وفي «أحكام الجنائز» ص (٢١٦).أهـ ألباني.

(٢) صحيح، وهو من حديث عائشة، خرجته في المصدر المذكور ص (٢١٨).أهـ ألباني.

(٣) صحيح، ورواه أبو عوانة في صحيحه أيضا وغيره، وهو مخرج فيه أيضا ص (٢١٧).أهـ ألباني.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: العبارة هذه فيها نظر، الصواب أن يقال: ومن أنواع الشرك، بدلاً من أسباب، الصواب: ومن أنواع الشرك، هذه ليست أسباباً، بل هذا هو نفس الشرك، فالعبارة هذه فيها نظر فالصواب: ومن أنواع الشرك بدل: ومن أسباب الشرك... إلخ.أهـ.

❊ ❊ ❊

بحسب ما يظن أنه مناسب للكواكب من طباعها.

وشرك قوم إبراهيم ـ كان فيما يقال ـ من هذا الباب وكذلك الشرك بالملائكة والجن واتخاذ الأصنام لهم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا من جهلهم، لما رأوا الكواكب وعظمتها وسبحها في الفضاء، فبعدها وقع في قلوبهم أن لها شيئاً، ولهذا عبدوها من دون الله، هذا هو الجهل الشديد الذي وقع فيه غالب الصابئة.أهـ

❊ ❊ ❊

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع، وأنه ليس للعالم صانعان، ولكن اتخذوا هؤلاء شفعاء، كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا نص واضح في أن المشركين الأولين ما كانوا يعتقدون أن هذه المخلوقات لها تصرف ولها تدبير في الكون، بل ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، كما اعترفوا بهذا في مواضع، وأنهم إنما تعلقوا بها يزعمون أنها وسائط وأنها شفعاء، وبهذا تعلم أن ما يقوله بعض مشركي العصر، وما يتعلق به مشركوا العصر، من أنا لا نعتقد فيها النفع والضر، وإنما هي وسائط، أن هذا هو نفس ما قاله المشركون الأولون، فليس العلة في الشرك الأول أنهم اعتقدوا النفع والضر، لا، العلة أنهم اتخذوها وسائط وصرفوا لها العبادة، فالذي فعله أولئك وقصده أولئك، هو الذي قصده الآن عباد البدوي وعباد الحسين وعباد الكاظم وعباد عبدالقادر وعباد كذا وعباد كذا، هو القصد، قصدهم أنهم يشفعون لهم وأنهم يتوسطون لهم، وأنهم ليسوا بذاك حتى يتقدموا بالعبادة لله، وهم منافقون وهم مذنبون، وهؤلاء صلحاء فنجعلهم وسائط، وقد وقع هؤلاء المتأخرون فيما هو أشد من هذا، فزادوا على الأولين، حتى اعتقد بعض المتأخرين أن هذه الوسائط تنفع وتضر وتصرف الكون وتدبر أمر العالم، فصاروا بهذا أقبح من الأولين، صاروا بهذا الاعتقاد الأخير أقبح من شرك الأولين بشركهم وضلالهم، لكن قصراء هؤلاء، قصراؤهم إذا تحسنوا بعض التحسن ـ قصراؤهم ـ أن يكونوا مثل الأولين، يعتقدون في هذه الوسائط أنها تشفع وأنها تقرب، لا أنها تدبر ولا أنها تتصرف في الكون، أما بعض هؤلاء الصوفية المتأخرين وعباد القبور فلهم اعتقادات عريضة في هؤلاء المعبودين من دون الله، من تصريف الكون وتدبير الأمور والتصرف في ذرات الدنيا، هذه من المسائل الكبيرة، نسأل الله العافية، والله المستعان.

حتى ذكر الخميني الآن المعروف الذي هو رئيس الدولة الإيرانية، ذكر في كتابه «الحكومة الإسلامية» قال: إن أئمتنا ـ يعني الإثنا عشر، الذين أولهم علي وآخرهم تحت السرداب ـ إن أئمتنا بلغوا منزلة ما بلغها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأنهم يتصرفون في الذرات ـ ذرات الكون ـ.

هذا شرك في الربوبية، وجعلهم فوق الرسل أيضاً، وجعلهم يعلمون الغيب، نسأل الله العافية، قد صرح بهذا في كتابه. أهـ.

سؤال/ الصوفية كذلك يقولون: هناك العامة ومنهم الأنبياء والرسل، وهناك الخاصة ؟

أجاب سماحته/ هذا قول كثير من الصوفية، أن الولي متوسط فوق الرسول ودون النبي، لهم اعتقادات خبيثة ومتناقضة. أهـ.

❊ ❊ ❊

وكذلك كان حال الأمم السالفة المشركين الذين كذبوا الرسل، كما حكى الله تعالى عنهم في قصة صالح عليه السلام عن التسعة الرهط الذين تقاسموا بالله، أي تحالفوا بالله، لنبيته وأهله، فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا بالله عند قتل نبيهم وأهله، وهذا بين أنهم كانوا مؤمنين بالله إيمان المشركين.

فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية، الذي يتضمن توحيد الربوبية، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا

لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣٦].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: العلماء يقولون: إن توحيد الإلهية يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، يعني يلزم وجوباً من الإقرار بهذا الإقرار بهذا، وأما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فيستلزمان توحيد الإلهية ويوجبان ذلك ويقتضيانه، ولهذا يحتج بهما على من كفر بالله وأشرك به، فيقال لهم، يقال لكثير من الغالين الذين قصدوا القربة والشفاعة من الآلهة، يقال لهم: إذا كنتم مقرين بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، وأنه ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ فإنه يلزمكم بذلك توحيد المعبود، هذا الإقرار يستلزم ويقتضي ويوجب أن يكون المقصود بهذه الصفات هو المستحق لأن يعبد ويطاع ويعظم ويخضع له ويمتثل لما أمر به وما نهى عنه، لأن كونه يتصرف في الكون ويدبر الأمور، هذا يوجب الخضوع له والتعلق به، فتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات يستلزمان ويقتضيان ويوجبان توحيد الله بالعبادة، ولهذا احتج الله على المشركين بما أقروا به في توحيد الربوبية ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٥] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ [العنكبوت:٦١] ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم ﴾ [يونس:٣١] كل هذا احتجاج عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية والأسماء والصفات، احتجاج عليهم أن يقروا بما جاءت

به الرسل من توحيد العبادة، ولا يتوقفوا في ذلك.

وأما توحيد الإلهية فيتضمن، يعني في ضمنه توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وأن الإله الذي يعبد ويستحق أن يدعى ويصلى له ويسجد له ويتعلق به؛ لابد أن يكون متصفاً بأنه خلاق رزاق مدبر عالم للغيب إلى غير ذلك، فيتضمن توحيد الإلهية الإيمان بهذه الأشياء التي هي من حقيقة توحيد الربوبية والأسماء والصفات، إذ لا يكون إلهاً صالحاً لأن يعبد وهو عاجز لا يقدر على دفع ضر أو جلب خير، لا يصلح أن يكون إلهاً يعبد وهو لا يسمع دعاء الداعين، كيف يجيب دعاءهم وهو لا يسمعهم؟

فمن مقتضى هذا التوحيد أن يكون هذا المدعو وهذا المرجو يعلم المغيبات ويعلم ما في القلوب ويسمع الدعاء، حتى يقضي حاجة المحتاجين العابدين له.

فعلم بذلك أن الإيمان بتوحيد الإلهية يقتضي أن يكون المألوه عليماً سميعاً بصيراً قادراً خالقاً رازقاً، إذ يتمكن بهذه الصفات من قضاء حوائج المحتاجين ودعاء الداعين واستغفار المستغفرين واسترزاق المسترزقين إلى غير ذلك.

وهذا هو الفرق بين التضمن وبين الالتزام والاقتضاء والإيجاب.

نعيدها مرة أخرى: توحيد الألوهية الذي هو توحيد العبادة يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، إذ يستحيل أن يكون إلهاً صحيحاً وإلهاً مستحقاً للعبادة وهو لا يعلم ولا يقدر ولا يدبر الأمور ولا يسمع، إلى غير ذلك.

وأما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فيستلزمان ويوجبان ويقتضيان توحيد الإلهية والعبادة، وبهذا احتج الله على المشركين بهذين النوعين.

وقد يسميان نوعاً واحداً، لأن الناس انقسموا، المعرفين للتوحيد منهم من جعله قسمين، ومنهم من جعله ثلاثة أقسام بالاستقراء، بالاستقراء للكتاب والسنة، فمن جعلهما نوعين، جعل توحيد الربوبية والأسماء والصفات نوعاً واحداً، وجعل توحيد الألوهية نوعاً مستقلاً، فيقول: توحيده بالقصد والطلب، هذا توحيد الإلهية والعبادة، وتوحيد في المعرفة والإثبات، وهذا توحيد الربوبية والأسماء والصفات، بمعرفة الله وإثبات أسمائه وصفاته وكونه سميعاً بصيراً، بالنسبة لكونه مدبراً خالقاً رازقاً فكلها صفات له، كلها صفات له، فلا مانع من أن تكون قسماً واحداً مستقلاً، ويكون توحيد الألوهية قسماً واحداً، فعلى هذا يكون التوحيد قسمين:

القسم الأول: يسمى توحيد الإلهية، وهو توحيد القصد والطلب.

والقسم الثاني: يسمى التوحيد العلمي الخبري، توحيد المعرفة والإثبات، توحيد الربوبية والأسماء والصفات، عبارات متقاربة.

القول الثاني من تقسيم أهل السنة، يقسمون التوحيد إلى ثلاثة أقسام من باب الإيضاح، من باب الإيضاح ومن أجل التفسير.

توحيد الربوبية: هو الإيمان بأن الله الخلاق الرزاق المدبر للأمور.

توحيد الأسماء والصفات: هو إثبات أسمائه وصفاته الأخرى، ويشمل الخلاق والرزاق .. إلخ.

وتوحيد الإلهية والعبادة: هو كونه المستحق لأن يعبد وأن يدعى وأن يصلى له وأن يسجد له وأن يتقرب إليه.

هذا هو التوحيد على أقسامٍ ثلاث من باب الإيضاح، وإلا فتوحيد الأسماء والصفات داخل في الربوبية وهو جزء منه، ولهذا جُعلا قسماً واحداً، فعبر عنهما بالتوحيد العلمي الخبري، التوحيد في المعرفة

والإثبات، توحيد الربوبية والأسماء والصفات كقسم واحد.أهـ

سؤال/ من أول من قسم التوحيد إلى هذا التقسيم ؟

أجاب سماحته/ ما أعرف أول من قال بهذا.أهـ.

سؤال/ أقسام التوحيد مرة ثانية ؟

أجاب سماحته/ التوحيد يُقسَّم إلى قسمين، بمعنى أن توحيد الإلهية والعبادة هو التوحيد الذي جاءت به الرسل وحصل به النزاع، حصل به النزاع بين الرسل والأمم، وهو تخصيص الله بالعبادة وإفراده بها، وهو معنى لا إله إلا الله، هذا واحد.

القسم الثاني: توحيد المعرفة والإثبات، وإن شئت قلت: التوحيد العلمي الخبري، وهو التوحيد لله في أفعاله من خلقه ورزقه وتدبيره، وفي صفاته من كونه سميعاً بصيراً عليماً قادراً رحيماً جواداً كريماً إلى غير ذلك.

هذا التوحيد الواحد يسمى التوحيد بالمعرفة والإثبات، ويسمى التوحيد العلمي الخبري، والأول يسمى توحيد العبادة، ويسمى توحيد الألوهية، ويسمى التوحيد في القصد والطلب، وهو معنى لا إله إلا الله، وهو التوحيد الذي أنكره المشركون وأشركوا فيه، وهو التوحيد الذي جاءت الرسل بالدعوة إليه وبيانه للناس، وكان النزاع بينهم وبين الأمم في ذلك.

ومن درج على أقسام ثلاثة قال: التوحيد ثلاثة أقسام:

توحيد في الإلهية والعبادة والقصد والطلب، وتوحيد من جهة إثبات أفعال الرب وتدبيره للعالم وخلقه للعالم، وتوحيد في بيان أسمائه

وصفاته كلها وأنه موصوف بها، وأنه لا شبيه له فيها سبحانه وتعالى.أهـ

سؤال/ ألا يقال إن توحيد الإلهية يستلزم الإقرار؟

أجاب سماحته/ يتضمن، لا يقتضي، يتضمن يعني في ضمنه ذلك، لأنهم إنما وحدوه لإيمانهم بهذه الأشياء.أهـ

* * *

وقال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(١) ولا يقال: أن معناه يولد ساذجاً لا يعرف توحيداً ولا شركاً، كما قال بعضهم ـ لما تلونا، ولقوله ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل: «خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين» الحديث(٢).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا الحديث رواه مسلم في الصحيح من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن النبي ﷺ قال: **«يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وأحلت لهم ما حرمت عليهم»** هذا الحديث القدسي عظيم، رواه مسلم في الصحيح في آخر الصحيح، وهو من رواية عياض بن حمار، بعض الكتّاب يصحفه و يجعله «حماد»، لا، غلط، عياض بن حمار بالراء.أهـ

* * *

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وهو مخرج في «إرواء الغليل» (١٢٢٠).أهـ ألباني.

(٢) رواه مسلم وأحمد من حديث عياض بن حمار.أهـ ألباني.

وفي الحديث المتقدم ما يدل على ذلك، حيث قال: «يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» ولم يقل: ويسلمانه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لأن الأصل إسلامه.أهـ

* * *

وفي رواية «يولد على الملة»[١] وفي أخرى: «على هذه الملة».

وهذا الذي أخبر به ﷺ هو الذي تشهد الأدلة العقلية بصدقه، منها، أن يقال: لا ريب أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقاً، وتارة ما يكون باطلاً، وهو حساس متحرك بالإرادات، ولا بد له من أحدهما، ولا بد له من مرجح لأحدهما، ونعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدق وينتفع وأن يكذب ويتضرر، مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع، وحينئذ فالاعتراف بوجود الصانع الإيمان به هو الحق أو نقيضه، والثاني فاسد قطعاً، فتعين الأول، فوجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به، وبعد ذلك: إما أن يكون في فطرته محبته أنفع للعبد أو لا، والثاني فاسد قطعاً، فوجب أن يكون في فطرته محبة ماينفعه.

ومنها: أنه مفطور على جلب المنافع ودفع المضار بحسه، وحينئذ لم تكن فطرة كل واحد مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج إلى سبب معين للفطرة، كالتعليم ونحوه، فإذا وجد الشرط وانتفى المانع استجابت لما فيها من المقتضي لذلك .

* * *

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٧/ ٣٥٥ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٦٠) وسنن الترمذي ٤/ ٤٤٧ وقال الترمذي: حسن صحيح.

سؤال/ إطلاق الصانع على الله؟

أجاب سماحة الشيخ: يعني صانع العالم، من باب الإثبات لا من باب أنه موصوف، يقال: الصانع، ولو قال الخالق لكان أفضل، لأن الشريعة جاءت بالخالق، وجاءت بالفعل للصانع ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨] لكن الصانع ما نعلم أنه جاء ذكره، لكن عبروا به، مثل ما يقال الموجود، والشيء من باب نفي الحجة.

وقد يقال من باب الإيضاح للعقول، الله جعل للناس عقولاً يفهمون بها ويعقلون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فالعباد يعرفون أي يخضعون، يخضعون لهذا المدبر لهذا الكون والقائم بهذا الكون، ففي فطرة الإنسان تعظيم هذا الذي خلق هذا الكون ودبر هذا الكون وجعل فيه ما جعل، فلا يزال هذا العقل ينمو ويزداد خضوعاً ويزداد ذُلاً لهذا الذي خلق هذا العالم، والإنابة إليه والتعلق به إلى أن تكمل المعرفة، فجاءت الرسل لتكميل هذه المعرفة وتأييدها ونصرها وتفصيلها، حتى يكون هذا الإنسان العاقل وهذا الجني العاقل أكمل ما كان في بصيرته بخالقه وصانعه، وأداء حقه وترك ما يغضبه، فإن نفوس العباد وعقولهم مفطورةٌ على هذه الأشياء، على الخضوع وعلى الذل والتقرب لمن بيده التدبير والإعطاء والمنع، فالعقل يخضع لهذا الشيء، فليس هناك إلا صانع هذا العالم وهو الله سبحانه وتعالى.أهـ

سؤال/ هذه الأدلة العقلية كأن فيها ضعفاً ؟

أجاب سماحته/ إليها جاءت الرسل، لضعفها وعدم تفصيلها جاءت الرسل.أهـ

* * *

ومنها: أن يقال: من المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق، ومجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة، لولا أن في النفس قوة تقبل ذلك، وإلا فلو علم الجهال والبهائم وحضضا لم يقبلا .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: صوابه الجمال، لأن الجاهل لو علم فإن فيه قوة تقبل، لكن الجمال وبقية البهائم، الجمال والغنم والبقر وسائر الحيوانات، ما فيها أهلية لأن تقبل العلوم، فلعل صوابها (الجمال) أهـ.

* * *

ومعلوم أن حصول إقرارها بالصانع ممكن من غير سبب منفصل من خارج، وتكون الذات كافية في ذلك، فإذا كان المقتضي قائماً في النفس وقدر عدم المعارض، فالمقتضي السالم عن المعارض يوجب مقتضاه، فعلم أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها ما يفسدها، كانت مقره بالصانع عابدة له .

ومنها: أن يقال، إنه إذا لم يحصل المفسد الخارج ولا المصلح الخارج، كانت الفطرة مقتضية للصلاح، لأن المقتضي فيها للعلم والإرادة قائم، والمانع منتف.

ويحكى عن أبي حنيفة رحمه الله: أن قوماً من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية، فقال لهم: أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة، تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسي بنفسها، وتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يدبرها أحد؟!! فقالوا: هذا محال لا يمكن أبداً! فقال لهم: إذا كان هذا محالاً في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله!! وتحكى هذه الحكاية أيضاً عن غير أبي حنيفة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا العالم الذي يسير بنظام متقن، شمس وقمر ونجوم وسماء ثابتة وأرض مستقرة وحيوانات مصرفة مدبرة، تذهب وتأتي في مصالحها وحاجاتها، وعالم مختلف متنوع بعلومه وعقله وغير ذلك لا يكون له مدبر ولا يكون له صانع ولا يكون له مسير، وأما السفينة فيمتنع في حقها ذلك ؟!! هذا من أمحل المحال ومن أعظم البلاء، والله المستعان.

بل أقل من السفينة، لو سئل عاقل عن ملعقة أو كوب من أكواب الشاي أو القهوة أو غير ذلك، هل هذا أوجد نفسه؟

لقال: هذا مستحيل، هذا له صانع على هذه الكيفية، هذه ملعقة وهذا كوب وهذا إبريق وهذا إناء آخر معين، لابد أن يكون له صانع صنعه على هذه الكيفية، فكيف بصانع السماوات وخالق السماوات والأرض وخالق الجبال والأشجار والأحجار والبحار والأنهار وغير ذلك، تدل عن خالق عظيم قادر حكيم عليم سبحانه وتعالى.

ولكن الرسل وضحوا هذا الصانع وبينوا صفاته، وأنه الله الحكيم العليم القادر على كل شيء، فكانت البيانات والإيضاحات التي جاءت بها الرسل أكمل بيان وأوضح بيان وأصدق بيان.أهـ.

* * *

فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية، الذي يقر به هؤلاء النظار، ويفنى فيه كثير من أهل التصوف، ويجعلونه غاية السالكين، كما ذكره صاحب «منازل السائرين» وغيره،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: تعبير الصوفية بالفناء معناه الشغل بالشيء دون غيره، فني بهذا يعني شغل به دون غيره، فكأنه

عدم إلا في هذا الشيء، يفنى بمشاهدة الخالق عن المخلوقين، ويفنى بمشاهدة حبه وجماله وصفاته عن كل شيء سواه، حتى وقعوا في الوحدة، وحدة الوجود، يعني شغلوا بالنظر في صفة الخالق وتدبيره لهذا العالم وفنوا به، يعني فنوا عن كل شيء، كأنهم حجبوا عن كل شيء إلا من هذا النظر والمشاهدة، وصار هذا من أسباب كفرهم وضلالهم وارتدادهم، ونسيانهم الأوامر والنواهي والفرض الذي بعث الله به الرسل، فنشأ عن هذا وحدة الوجود، وأن العالم واحد ليس هناك عابد ومعبود، وليس هناك آمر ومأمور، وليس هناك خالقٌ ومخلوق، ففنوا في مشاهدة الخالق والصانع والمدبر عن المخلوقين والمصنوعين والمدبرين، وعن الأوامر وعن الرسل وعن كل شيء، فصاروا إلى وحدة الوجود، وصاروا إلى الكفر والضلال والإلحاد والفساد.

هذه ثمرة هذا الفناء الذي شرعوه وسموه فناءً ودعوا إليه وزعموا أنه غاية التوحيد، فالله المستعان.

والواجب أن يكون للإنسان مشاهدتان:

يشهد الخالق بتبجيله وعظمته وقدرته واستقلاله بالأمور فيعظمه ويعبده.

وينظر إلى ما جاءت به الرسل، مما أمر به هذا الواحد الخالق سبحانه وتعالى، ويعظم ذلك أيضاً ويأخذ به، ويفرق بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال وبين الأوامر والنواهي وبين الخالق والمخلوق.

فلا يستقل ويكتفي بمشاهدة الخالق فقط وصفاته وعظمته عن مشاهدة أمره ونهيه وما جاءت به الرسل، ولا يستقل بمشاهدة ما جاءت به الرسل من الأوامر والنواهي عن مشاهدة عظمة الخالق والتفكر بما يجب له وما هو من صفاته العظيمة، فلا يشغل بهذا عن هذا ولا بهذا عن

هذا، وهذا هو طريق النجاة وهو الذي جاءت به الرسل.

يقول ابن القيم رحمه الله في النونية :

فلواحد كن واحداً في واحد أعني طريق الحق والإيمان

فلواحد: وهو الله سبحانه وتعالى المستحق للعبادة جل وعلا.

كن واحداً: يعني: اجمع نفسك في طاعته وتوحيده والاستقامة على أمره، ولا تكن متفرقاً ولا موزعاً، بل كن صادق العبادة صادق اللهجة صادق الاستقامة، فإذا وحدت جهدك وخلقك وخُلُقك وعبادتك و جميع تصرفاتك.

في واحد: يعني في سبيل الحق والإيمان، واحد وهو الصراط المستقيم، الطريق الذي رسمه الله لك وهو سبيل الله، حتى تقوم بذلك وقد عبدته وأديت حقه، وبعدت عما يغضبه سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

وهو مع ذلك إن لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه ـ كان مشركاً من جنس أمثاله من المشركين.

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلاً على الثاني، إذ كانوا يسلمون في الأول وينازعون في الثاني، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده، وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرهم، لا شريك له في ذلك، فلم تعبدون غيره، وتجعلون معه آلهة أخرى؟

كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ الآيات [النمل: ٥٩-٦٠] يقول الله تعالى في آخر كل آية: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ﴾ أي أإله مع الله فعل هذا؟

وهذا استفهام إنكار، يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتج عليهم بذلك، وليس المعنى أنه استفهام هل مع الله إله، كما ظنه بعضهم، لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩] وكانوا يقولون: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] لكنهم ما كانوا يقولون: أن معه إلهاً ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾ [النمل: ٦١] بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا، وهكذا سائر الآيات. وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

وكذلك قوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ﴾ [الأنعام: ٤٦] وأمثال ذلك.

وإذا كان توحيد الربوبية، الذي يجعله هؤلاء النظار، ومن وافقهم من الصوفية هو الغاية في التوحيد ـ: داخلاً في التوحيد الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، فليعلم أن دلائله متعددة، كدلائل إثبات الصانع ودلائل صدق الرسول، فإن العلم كلما كان الناس إليه أحوج كانت أدلته أظهر، رحمة من الله بخلقه.

والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقاً عليها، استدل بها، ولم يحتج إلى الاستدلال عليها .

والطريقة الصحيحة في البيان أن تحذف، وهي طريقة القرآن،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني تحذف المقدمتان وتبقى النتائج، بخلاف ما عليه أرباب أهل الكلام والمناطقة، فهم يأتون بالمقدمات ثم يعطون النتيجة، ليستدلوا على نتيجتهم بالمقدمات، فجعلوا العالم حادثاً، وكل حادث مخلوق، فالعالم حينئذ مخلوق، العالم حادث وكل حادث مخلوق، فالعالم حينئذ مخلوق، يعني النتيجة .أهـ.

* * *

بخلاف ما يدعيه الجهال، الذين يظنون أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية، بخلاف ما قد يشتبه ويقع فيه نزاع، فإنه يبينه ويدل عليه .

ولما كان الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم، باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالقاً خلق بعض العالم، كما يقوله الثنوية في الظلمة، وكما يقوله القدرية في أفعال الحيوان، وكما يقوله الفلاسفه الدهرية في حركة الأفلاك أو حركات النفوس، أو الأجسام الطبيعية، فإن هؤلاء يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله إياها، فهم مشركون في بعض الربوبية، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئاً

من نفع أو ضر، بدون أن يخلق الله ذلك .

فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجوداً في الناس، بين القرآن بطلانه، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فتأمل هذا البرهان الباهر، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه، لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه، إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه، فلا بد من أحد ثلاثة أمور :

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه .

وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره، من أدل دليل على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا واضح كل الوضوح من أمر العالم وتدبيره وتسييره لهذا العالم الذي خلقه الله إلى يومنا هذا من نظام وإحكام في كل شيء، وما فطر الله عليه العباد من

الخضوع لإله واحد وخالق واحد ومدبر واحد سبحانه وتعالى.أهـ.

* * *

كما قد دل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد، لا رب غيره ولا إله سواه، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان.

فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته، مستقر في الفطر معلوم بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل إلهية اثنين، فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية.

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره، وهو أنه لو كان للعالم صانعان إلخ، وغفلوا عن مضمون الآية، فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقل أرباب.

وأيضاً فإن هذا إنما هو بعد وجودهما، وأنه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا .

وأيضا فإنه قال: ﴿لَفَسَدَتَا ﴾ وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا، ودلت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة، بل لا يكون الإله إلا واحد، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى، وأن فساد السموات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره، فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد

نظامه كله، فإن قيامه إنما هو بالعدل، وبه قامت السموات والأرض.

وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد.

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس، فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزاً، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً. قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١] وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧] وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢].

وفيها للمتأخرين قولان: أحدهما: لا تخذوا سبيلاً إلى مغالبته، والثاني، وهو الصحيح المنقول عن السلف، كقتادة وغيره، وهو الذي ذكره ابن جرير ولم يذكر غيره ـ: لاتخذوا سبيلاً بالتقرب إليه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [المزمل: ١٩] وذلك أنه قال: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ [الإسراء: ٤٢] وهم لم يقولوا: إن العالم له صانعان، بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء، وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] بخلاف الآية الأولى.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: كما تقوله العرب وأشباههم، إنهم اتخذوا الوسائط والشفعاء، لو كانت صحيحة لتقربت إليه وخضعت له سبحانه وتعالى، وصارت واسطة واضحة بينة لأولئك، يستمدون منه لهم ويشفعون لديه، فعلم بذلك بطلان هذه الأشياء، لأن هذا لا وجود له، والله جل وعلا أمر بأن يعبد وحده، ولم يقل لعباده بأن يتخذوا إلهاً آخر لقضاء حاجاتهم، ولم يقل لهم إن هناك وسطاء بيني

وبينكم فاتصلوا بهم، فعلم بذلك أنه ليس هناك شيء، ولهذا نبه سبحانه وتعالى في الآية الأخرى: ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨] وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر:٣] كاذب فيما قال في دعوى الآلهة، كفار بما فعل من عبادتها والتعلق بها والخضوع لها ونحو ذلك.

والأرباب هم الخالقون الرازقون المدبرون، والآلهة يعبدون، يخضع لهم بقصد الشفاعة وبالقرب، فالإله هو المعبود والرب هو المدبر الخالق.

فلو قال الأرباب هنا، لكان في الخلق والرزق وتدبير الأمور، وهم ما يقولون هذا، يقولون آلهة الشفاعة فقط والتقرب إليه، والمشركون إنما قالوا ما قالوا من جهة التقرب إليه، وهذا ألصق بالآلهة، وإن سموا أرباباً في بعض الأحيان، لكنه ألصق بالآلهة، ولهذا في الآية الأخرى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] يعني آلهة، فالأرباب قد تأتي بمعنى الآلهة، لأن المشركين معروف أنهم لم يعبدوا معه ربًّا يعتقدون أنه يضر وينفع ويخلق ويرزق، بل يعلمون أن هذا كله لله وحده، وإنما عبدوهم بمعنى أنهم شفعاء ووسطاء.أهـ.

سؤال/ هناك شبهة على قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ يقتضي أن هناك آلهة تعبد من دون الله؟!

أجاب سماحة الشيخ: لو كان فيهما آلهة حق في السماوات، وإلا فالمعبودات كلها باطلة، لو كان فيهما آلهة بحق لتنازعوا واختلفوا، أما

الآلهة التي يدعون كلها باطلة مالها من الأمر شيء، فالآية حجة عليهم وعلى بطلانها.أهـ

* * *

[أنواع التوحيد الذي دعت إليه الرسل]

ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله ﷺ، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، كما في أول (الحديد) و(طه) وآخر (الحشر) وأول (آلم تنزيل السجدة) وأول (آل عمران) وسورة (الإخلاص) بكمالها، وغير ذلك.

والثاني: وهو توحيد الطلب والقصد، مثل ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ وأول سورة (تنزيل الكتاب) وآخرها، وأول سورة (يونس) وأوسطها وآخرها، وأول سورة (الأعراف) وآخرها، وجملة سورة (الأنعام).

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل سورة في القرآن.

فالقرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري.

وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا كله كلام ابن القيم رحمه الله في المدارج وغيرها، والمقصود أن هذا الكلام من أحسن الكلام وأوضحه وأبينه لمن يريد أن يفهم جيداً حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنزل الله به الكتب، وصارت الخصومة بين الرسل والأمم في شأنه، فالتوحيد أقسام ثلاثة من وجه، وقسمان من وجه.

فالخلاصة أن الرسل جاءت بالدعوة إلى توحيد الله، هذا أهم مقاصد الدعوة وأعظمها ولبها، الدعوة إلى توحيد الله، فما يتعلق بتوحيد العبادة فهو المقصود بالذات، وما يتعلق بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات هو داخل في ضمن ذلك، لأنهم مقرون به، لكن يدعون إليه لكونه حجة عليه، ولأنهم أقروا به، فهو حجة عليهم في إلزامهم بتوحيد الله جل وعلا في العبادة، وإبطال ما هم عليه من الشرك في عبادة الأصنام والأوثان، إذ كيف يكون رب السماوات ورب الأرض ورب كل شيء، الذي يعرفون أنه خالقهم ورازقهم؛ كيف يكون هذا الخالق العظيم والرب العظيم شريكاً للمخلوق الذليل الضعيف ؟

وكيف يتقرب إلى هذا وإلى هذا؟ أو يقصد الضعيف بالعبادات بزعم أنه واسطة أو شفيع ؟

هذا من أبطل الباطل.

ولهذا قال: التوحيد قسمان: توحيد المعرفة والإثبات، ويقال لهذا: التوحيد العلمي الخبري، يعني مداره العلم والخبر من الله عز وجل ومن رسوله عليه الصلاة والسلام، وذاك يقتضي الإيمان والتصديق.

وهناك قسم آخر وهو التوحيد القصدي الطلبي، وهو توحيد العبادة، وهوتخصيص الله بعباداتك وأفعالك التي هي محض التقرب إلى الله، وهذا يقال له توحيد العبادة، ويسمى التوحيد القصدي الطلبي، يعني مضمونه إخلاص القصد لله وإخلاص الطلب لله، يقال: القصدي الطلبي، ويقال: الإرادي الطلبي، والمعنى واحد، الإرادي والقصدي واحد، هذا إذا جعلته قسمين، وأدخلت توحيد الأسماء والصفات في توحيد الربوبية، وجعلتهما جميعاً التوحيد في المعرفة والإثبات، أو التوحيد العلمي الخبري.

وإن شئت جعلتها أقساماً ثلاثة:

الأول: توحيد العبادة الذي جاءت به الرسل وعنيت به وصارت الخصومات فيه بينها وبين الأمم.

والثاني: توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأفعال الرب وتدبيره العوالم.

والثالث: توحيد الأسماء والصفات، يعني أن تؤمن بأن الله جل وعلا موصوف بصفات عظيمة كثيرة، ومسمى بأسماء حسنى معروفة معلومة، تؤمن بها على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى.

هذه أنواع التوحيد الثلاثة، وإن شئت قلت نوعا التوحيد، هذه تحتاج إلى عناية وتحتاج إلى تدبر وتعقل، حتى تعرف الفرق بين أهل الشرك وبين أهل الإيمان وأهل التوحيد، وحتى تعرف الفرق بين أهل السنة وبين أهل البدعة في هذا الباب، فإن من أتى بهذه الأنواع على الوجه الذي

يجب، فارق أهل الشرك من عباد الأوثان والمجوس والنصارى واليهود وغيرهم، وفارق أهل البدع الذين منهم من نفى الصفات، ومنهم من نفى الأسماء والصفات، ومنهم من نفى بعضها دون بعض وتأول بعضها دون بعض، فبإثباتها كلها والإيمان بها كلها على الوجه اللائق بالله، فارقت جميع أهل البدع، وبالإيمان بتوحيد العبادة وبأنه المستحق للعبادة سبحانه، فارقت جميع أهل الشرك، وبالإيمان بأن الإيمان يزيد وينقص ويضعف ويقوى وأن الطاعات تزيده والمعاصي تنقصه، فارقت بقية أهل البدع من المرجئة والخوارج والمعتزلة في هذا الباب، فأهل السنة والجماعة وسط في الأبواب التي تصرف بها قوم جفاء وتفريطاً، وقصر فيها آخرون إفراطاً وغلواً، وأهل السنة والجماعة وفقوا للوسط، فلا غلو ولا إفراط، ولا تقصير وجفاء وتفريط، ولكنهم توسطوا، وهكذا الأمة هي الوسط، وهم أهل السنة والجماعة، فآمنوا بالله وآمنوا بأسمائه وصفاته وآمنوا بأنه ربهم وإلههم الحق، وآمنوا بكل ما جاء به رسوله عليه الصلاة والسلام بما يتعلق بجميع أبواب الدين، باب الإيمان والعمل، باب القدر، باب الأسماء والصفات، أبواب ما يتعلق بأصحاب الرسول ﷺ، إلى غير ذلك من الأبواب الدينية التي وفق فيها أهل السنة والجماعة للحق واستقاموا عليه وثبتوا عليه، وحاد فيها قوم آخرون عن الحق والصواب، فما بين غال كالخوارج في تكفير أهل الذنوب، والمعتزلة في جعلهم خالدين في النار، وكالخوارج أيضاً في جفائهم في حق الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وجفاء المعتزلة في حق أهل التوحيد وأهل الإسلام الذين عندهم بعض المعاصي، وكغلو الشيعة في أهل البيت وإفراطهم حتى عبدوهم من دون الله، وحتى جعلوهم يعلمون الغيب مع الله عز وجل، وكجفاء الذين نفوا الصفات وفرطوا فيها وعطلوها، وغلو الذين

أثبتوها حتى شبهوا الله بخلقه، فالطريق الوحيد السليم الموفق الموافق للعلم والفضل والحكمة والنصوص كلها، هو طريق أهل السنة والجماعة، بإثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى، والإيمان بتوحيده والإخلاص له في العبادة، والإيمان بأسمائه وصفاته على الوجه اللائق بالله عز وجل، والإيمان بما تقتضيه الأدلة من زيادة الإيمان ونقصانه وضعفه وقوته، ومن عدم خروج المسلم من التوحيد والإسلام بمجرد المعصية، وعدم تخليد المسلم بالمعصية النار، بل الإيمان يزيد وينقص ويضعف ويقوى، والعاصي لا يخلد في النار إذا مات على التوحيد والإسلام، ولكنه يعذب على قدر معاصيه ثم يخرج منها إلى الجنة.

فهذه جملة عظيمة يجب على أهل العلم والإيمان أن تكون منهم على بال، وأن يحذروا ما دخل على كثير من الناس من أبواب الشر بسبب أهل البدع والغلو والتفريط والجفاء، فإنهم بين أمرين: بين غال مفْرط زائد، وبين جاف مفرّط مضيع خاطئ، نسأل الله السلامة.أهـ.

* * *

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، فـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ توحيد، ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ توحيد، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الذين فارقوا التوحيد .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ توحيد؛ بمعنى أنك وحدت ربك إذ أثنيت عليه وخصصته بالحمد والثناء، وآمنت بأنه رب العالمين، وهذا حق، بخلاف من شرّك مع الله غيره بالتصرف والتدبير.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد؛ لأنك أخصصت ربك بأنه موصوف بهذه الصفات العظيمة، خلافاً لأهل البدع من الغلاة الذين شبهوا الله بخلقه، وجعلوا صفاته كصفات خلقه، ومن الجفاة الذين سلبوا الرب صفة الرحمة، وقالوا: إن الرحمة المراد بها إرادة الإنعام، ونفوا وجود الرحمة.

وكذلك ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، لإيمانك بأنه رب الجميع ومدبر الأمور.

و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد؛ لأنك خصصته بالعبادة والاستعانة.

و﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ توحيد؛ لأنك خصصته بالدعاء، وطلبت منه أن يهديك صراط أهل التوحيد، وهو صراط المنعم عليهم الذين عبدوا الله وحده وسلكوا سبيله وحده، وتركوا سبيل المغضوب عليهم والضالين، هذا وجه هذا التقسيم.أهـ.

* * *

وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾

[آل عمران: ١٨-١٩].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ يدخل فيه الأنبياء والرسل ثم العلماء بعدهم، كلهم شهدوا له سبحانه وتعالى بالوحدانية، كما شهدت الملائكة بجبلتهم على اختلاف طبقاتهم، شهدوا له سبحانه بالوحدانية، فهكذا أهل العلم من الرسل والأنبياء وأتباعهم وورثتهم من أهل العلم، كلهم شهدوا له بالوحدانية سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود به.

وعبارات السلف في ﴿شَهِدَ﴾ تدور على الحكم، والقضاء، والإعلام، والبيان، والإخبار، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها: فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه.

فلها أربع مراتب: فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، وإن لم يعلم به غيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع: علمه بذلك سبحانه، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

فأما مرتبة العلم، فإن الشهادة تضمنتها ضرورة، وإلا كان الشاهد

شاهداً بما لا علم له به، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وقال ﷺ: «على مثلها فاشهد»[1] وأشار إلى الشمس.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: استدلاله بهذا فيه نظر، لأن الحديث ضعيف، ولو قال: وروي عنه ﷺ أنه قال: «على مثلها..» لكان أليق به وأنسب، فحديث ابن عباس ضعيف في هذا الباب.أهـ.

* * *

وأما مرتبة التكلم والخبر، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم .

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل، وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر: تارة يعلمه به بقوله، وتارة بفعله، ولهذا كان من جعل داره مسجداً وفتح بابها وأفرزها بطريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها ـ: معلماً أنها وقف، وإن لم يتلفظ به، وكذلك من وجد متقرباً إلى غيره بأنواع المسار، يكون معلماً له ولغيره أنه يحبه، وإن لم يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس، وكذلك شهادة الرب عز وجل وبيانه وإعلامه، يكون بقوله تارة، وبفعله أخرى، فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه، وأما بيانه وإعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره

(١) ضعيف، أورده الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام من أدلة الأحكام بلفظ: «على مثلها فاشهد، أو دع» وقال: «أخرجه ابن عدي بإسناد ضعيف، وصححه الحاكم فأخطأ» وقد خرجته في «الإرواء» (٢٦٦٧).أهـ ألباني.

العجيب وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو[1].

وقال آخر:

وفي كـــل شيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلى أنـــه واحـــد

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا الذي ذكره المؤلف رحمه الله كلام جيد عظيم فيما يتعلق بالشهادة، فإن الله عز وجل في كتابه العظيم في آيات كثيرة جداً، يخبر عن نفسه بأنه لا إله إلا هو، وأنه مستحق العبادة جل وعلا، وأن عبادة غيره باطلة، وأن المعبودات من سواه باطلة، هذا كله يتضمن هذه الأمور الأربعة التي ذكرها المؤلف، تتضمن الإخبار عن نفسه بذلك، وعلمه بذلك، وإعلامه لعباده بذلك، وإلزامه لهم بذلك، وهكذا الرسل جاءت بهذا، وهكذا الدعاة إلى الله عز وجل، هذه الأمور الأربعة كلها معلومة مما أخبر الله به في كتابه العظيم، وإما جاء على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام، وهكذا الناس في أمورهم فيما بينهم التي يأمرون بها ويلزمون بها، سواء كانوا ملوكاً أو أمراء، أو من له شأن من الشئون فيما بينه وبين التابعين من ذرية وأهل وغير ذلك، فإن المتكلم عما لا يعلم يعد كاذباً، فالله عز وجل أخبر عن نفسه بأنه هو الواحد الأحد، وبأنه هو المستحق للعبادة، وهذا يتضمن العلم بذلك وأنه يعلم سبحانه وتعالى أنه الواحد الأحد، وأنه مستحق لأن

---

(١) ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٦٢ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وذكره ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ١٤/ ١٧٤، وابن القيم في مدراج السالكين ٣/ ٤٥٤ باب التوحيد: قال الله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

يعبد جل وعلا، وما ذاك إلا لكمال أسمائه وصفاته وكمال أفعاله، فهو الخلاق العليم وهو الرزاق للعباد، وهو الذي خلق هذا الكون وأوجده على ما فيه من العجائب والغرائب والحكم والأسرار، هذا يدل على علمه العظيم، ولهذا قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وهكذا تكلمه بذلك وإخباره لعباده بذلك: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨] ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المؤمنون:١١٦] ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [المزمل:٩] إلى غير ذلك، فهو يخبر عباده أنه المستحق للعبادة جل وعلا، وأن العبادات الأخرى باطلة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج:٦٢] وفي إخباره وتكلمه بذلك إعلام في هذا الكلام، والإخبار في ضمنه الإعلام للأمة والتوجيه لهم وإرشادهم إلى هذا الخير العظيم قولاً وفعلاً، قولاً بما تكلم به سبحانه وتعالى في كتابه العظيم وما نقلته عنه الرسل، وفي الكتب السماوية الماضية، وفعلاً بما أوجد سبحانه وتعالى من الدلائل الخلقية الفعلية على وحدانيته، ما وجد في السماوات وفي الأرض وما بينهما، وفي هذه العجائب الأرضية التي يشاهدها الناس، وفي أنفس الناس، وما خلق فيهم من عقول وأسماع وأبصار وأدوات وغير ذلك شيء لا يحصى ولا يعد، إذا تأمله العبد عرف أنه دال على قدرة الله وعظمته، وأنه المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، ولهذا أكثر الشعراء المتبصرون في هذا المعنى:

فوا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ويقول آخر:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك

إلى آخره، فالمقصود أن هذه الأشياء إذا تأملها العاقل وتبصر فيها عرف أنها صنع الله عز وجل، وأنه الواحد الأحد، وأنه المستحق لأن يعبد سبحانه وتعالى، هذه المخلوقات المتقنة المتنوعة المشتملة على أنواع من العجائب والغرائب والأسرار والحكم، والعجائب التي لا تحصى في كثرة المخلوقات وخصائصها، وبين جمادها وناطقها ونافعها وضارها ونفيسها وما هو أدنى من ذلك، كلها حجج وكلها بينات على أنه سبحانه هو المستحق لأن يعبد جل وعلا.

وأما أمره للعباد وإلزامه لهم فهذا أمر واضح، فقد أمرهم وألزمهم بحقه في كتبه وعلى ألسنة رسله، أمرهم بما ينفعهم وألزمهم به وفرضه عليهم، ونهاهم عما يضرهم وحذرهم منه، فهو سبحانه وتعالى يأمر بما فيه صلاحهم وينهى عما فيه مضرتهم، يأمر بما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة، وينهاهم عما يضرهم في الدنيا والآخرة.أهـ.

* * *

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل، قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] فهذه شهادة منهم على أنفسهم(١) بما يفعلونه.

والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه، ودلالتها إنما هي بخلقه وجعله.

(١) أسقطت هذه العبارة وكلمة: (بالكفر) من الآية، من الأصل.أهـ ألباني.

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به، وأن مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر وألزم عباده به، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١] وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢ و٣٩] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وبين وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله، أو إلهية ما سواه باطلة، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلها، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلها، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يفهمه المخاطب الفاهم العاقل للغة التي يسمعها.أهـ.

* * *

كما إذا رأيت رجلاً يستفتي رجلاً أو يستشهده أو يستطبه وهو ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب، المفتي فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان، فإن هذا أمر منه ونهي.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: أمر منه أي من القائل.أهـ.

* * *

وأيضاً: فالآية دلت على أنه وحده المستحق للعبادة، فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحق الرب تعالى عليهم، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا لو تجردت النصوص عن الأوامر وكانت مجرد أخبار لكان ما ذكره المؤلف واضحاً، ولكن مع هذا كله جاءت الأوامر صريحة بذلك، مع ما تقتضيه الأخبار من وجوب إخلاص العبادة له سبحانه وتعالى، فلم يكتف، فقد أمر ونهى ولم يكتف بهذا الشيء، بل جمع الأدلة ونوعها وكثرها حتى لا تبقى حجة للناس، فقد جاءت الأوامر بعبادته، وجاء النهي عن الشرك به ومعصيته، وجاءت الأخبار بأنه مستحق لهذا، وجاءت الأخبار بأنه أهلك من عصى وخالف الرسل في هذا الأمر، وجاءت النصوص بأنه نصر من أطاع الله في هذا ووحده وأيدهم ووعدهم بالجنة والكرامة، فالأنواع التي تدل على الإلزام بهذا الشيء متنوعة كثيرة.أهـ.

* * *

وأيضا: فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجملة الخبرية، ويقال للجملة الخبرية: قضية، وحكم، وقد حكم فيها بكذا، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤] **فجعل هذا الإخبار**

المجرد منهم حكماً، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦] لكن هذا حكم لا إلزام معه.

والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمن الإلزام، ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها، ولم ينتفعوا بها، ولم تقم عليهم بها الحجة، بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها، لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة.

وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها، فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفنا إياه من صفات كماله كلها، الوحدانية وغيرها، غاية البيان، لا كما يزعمه الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة ومعطلة بعض الصفات من دعوى احتمالات توقع الحيرة، تنافي البيان الذي وصف الله به كتابه العزيز ورسوله الكريم، كما قال تعالى: ﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١، ٢] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١] ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢] ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وفي النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] وقال في سورة الزمر:

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٥] معنى مبين أي يبين ما يجب، أي يبين المطالب، من أَبان يبين، اسم الفاعل من أبان من الرباعي، ما قال بيّن، بل قال: مبين، أي يبين ما يحتاجه العباد، يبين المطالب العالية، يوضح المقاصد التي قصدها الرب عز وجل في كتابه العظيم، يبين الشرائع، يبين الأحكام، يبين الأسماء، يبين الصفات، يبين كل المطالب المطلوبة، ولهذا عدل الرب عن كتاب بين إلى كتاب مبين، كتاب عربي مبين.

والمقصود من هذا هو أنه يُوضح، ولو قال كتاب بيّن فقط، فهو بيّن في نفسه، ومع ذلك يبين غيره، يبين للناس ما يحتاجون إليه.أهـ.

* * *

وكذلك السنة تأتي مبينة أو مقررة لما دل عليه القرآن، لم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأي فلان، ولا إلى ذوق فلان ووجده في أصول ديننا.

ولهذا نجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لأنه ما عندهم أصول، ولهذا من خالف الأصول حرم الوصول ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ق:٥] مختلف، فمن تمسك بالأصول استقام أمره واتحدت كلمته، ومن خالف الأصول واعتمد الرأي أو القياس ومجرد ما في النفوس أو الذوق والوجد وما أشبه ذلك ـ كما قالت الصوفية، أو ما أشبه ذلك ـ مرج أمره واختلف ولم يرجع إلى قاعدة، فلهذا تجد المتصوفين والمتكلمين في أمر مريج مخالفين مختلفين ،لأن أصولهم مضطربة مختلفة، فهكذا اختلفت الفروع، لأن اختلاف الأصول

يوجب ذلك، نسأل الله السلامة، وليس هناك عصمة من هذا البلاء إلا بالرجوع إلى الكتاب والسنة، الرجوع إلى الآيات الواضحات المحكمات في باب الأسماء والصفات، وفي باب التوحيد والشرك، وفي باب الأحكام، وهكذا السنة المطهرة الرجوع إليها، لأنها المفسرة المبينة لمعاني كلام الله، والموجهة لما قد يخفى من ذلك، فمن رجع إلى هذين الأصلين واعتمد عليهما، وبذل وسعه في التعرف على كل ما يشكل عليه من ذلك بالطرق المعروفة التي رسمها أهل العلم في كتبهم العظيمة؛ هدي إلى الصراط المستقيم، مع صلاح النية ومع بذل الوسع، أما من أراد أن يذهب إلى أصول أخرى وإلى مراجع أخرى، ويحكّم رأيه وعقله وشيخه وجده وعمه؛ فإنه يهلك ويضطرب ويقع في الحيرة، نسأل الله السلامة.أهـ.

* * *

بل قد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣] فلا يحتاج في تكميله إلى أمر خارج عن الكتاب والسنة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وكثير من هؤلاء الذين يخالفون الكتاب والسنة تجدهم يحتجون بالمجملات وعلى العمومات، ويتركون الواضحات المفصلات، وهذا شأن أهل الزيغ، فإن أهل الزيغ يتبعون ما تشابه منه ويتركون المحكم ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران:٧] وأما أهل البصائر والإيمان والتقوى فإنهم يرجعون إلى المحكمات

الواضحات، وما خالفها فيما قد يظهر أو فيما قد يدعيه بعض الناس رد إلى المحكم، ولا يخالف المحكم من أجل رأي فلان أو رأي فلان، بل يجب رد ما اختلف إلى المحكمات الواضحات التي ليس فيها لبس ولا شبهة.أهـ.

* * *

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبوجعفر الطحاوي فيما يأتي من كلامه من قوله: «لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ».

وأما آياته العيانية الخلقية:

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: مصدر عاين عياناً، مثل جادل جدالاً، قاتل قتالاً، وهذه القاعدة في هذه المصادر، لها مصدران: فعال ومفاعلة، عاين عياناً ومعاينة، قاتل قتالاً ومقاتلة، جادل جدالاً ومجادلة، عاينته عياناً وعاينته معاينة.أهـ

* * *

فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية، والعقل يجمع بين هذه وهذه، ويجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني ما يشاهده الناس ويعاينونه من آيات الله الدالة على قدرته العظيمة وحكمته سبحانه وتعالى، ما يشاهدونه في أنفسهم، لماذا جعل هذه العين في الوجه؟ لماذا جعل هذا الأنف مقدم؟ لماذا جعل هذا اللسان ينطق؟ لماذا جعل الأذن

هنا وهنا تسمع؟ لماذا ما جعل لها غطاء يغطيها؟

حتى تسمع الأصوات من حين يقع الصوت، لو كان لها غطاء محكم ربما فاتت الأصوات قبل أن يرفع الغطاء، فجعلها مفتوحة تسمع الصوت من حين يقع الصوت، وجعل العين ميسرة فتحها وتغميضها بسهولة، حتى ترى وتبصر ما أمامها وعن يمينها وشمالها وخلفها، لماذا جعل الأسنان، ما هي الحكمة؟ لماذا جعل هذه الأسنان بعضها كذا وبعضها كذا؟ بعضها يقطع وبعضها يطحن لماذا جعلها؟ الحكمة ظاهرة، لماذا جعل هذا اللسان يتكلم ويعبر عما في الجوف؟ لماذا جعل العقل في القلب يعقل به الأشياء؟ لماذا جعل الأصابع؟ لماذا جعل للأصابع أظفاراً؟

للأظفار تشبه بالحجر والظفر، كل يعرف هذه الأمور، إذا تأملها عرف أنها حاجة، وكذلك في أصابع الرجلين، لماذا جعلها هكذا مفرجة؟ لماذا جعل فيها أظفاراً؟

وهكذا بقية الأشياء في نفس الإنسان ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١] كذلك ما جعل في هذه الجبال، من دخل فيها من ناس أو حشرات على حسب قوتها، تقيهم الحر تقيهم الشمس تقيهم المطر، لماذا جعل هذه الأنهار وهذه العيون الجاريات في أنحاء الأرض؟ لماذا جعل هذه الأشجار العظيمة في أنحاء الأرض في الصحراء؟ لماذا جعل فيها هذه الفواكه؟ وجعل فيها الفوائد؟ الرمان كذا العنب كذا التمر كذا النوع الآخر كذا؟ تجد ستة ألوان من الطعوم والفوائد، هذه خلقت عن عبث؟ عن صدفة؟

كلها لحكمة عظيمة، وعن علم وعن بصيرة وعن قدرة، إذا فكر

الإنسان في هذه الأمور يعجب العجب العظيم، يعرف أن هذا الشيء صدر عن حكيم عليم بصير بأحوال العباد، بصير بمصالحهم، عالم بما ينفعهم وما يضرهم، له الحكمة البالغة والحجة الدامغة والقدرة الكاملة والعلم الكامل، سبحان الله ما أعظم شأنه.أهـ.

* * *

فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعذر وإقامة الحجة؛ لم يبعث نبياً إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤] **وقال تعالى:** ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣] **وقال تعالى:** ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤] **وقال تعالى:** ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧] **حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود، حتى قال له قومه:** ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ **ومع هذا فبينته من أوضح البينات لمن وفقه الله لتدبرها، وقد أشار إليه بقوله:** ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] **فهذا من أعظم الآيات: أن رجلاً واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جزع ولا فزع ولا خوار، بل هو واثق بما قاله، جازم**

به، فأشهد الله أولاً على براءته من دينهم وما هم عليه، إشهاد واثق به معتمد عليه، معلم لقومه أنه وليه وناصره وغير مسلط لهم عليه. ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون عليها ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتهم لها، ثم أكد ذلك عليهم بالاستهانة لهم واحتقارهم وازدرائهم، ولو يجتمعون كلهم على كيده وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه ثم قرر دعوتهم أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالى وربهم الذي نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا يخذل من توكل عليه وأقر به، ولا يشمت به أعداءه.

فأي آية وبرهان أحسن من آيات الأنبياء عليهم السلام وبراهينهم وأدلتهم؟

وهي شهادة من الله سبحانه لهم بينها لعباده غاية البيان.

ومن أسمائه تعالى المؤمن وهو في أحد التفسيرين: المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فإنه لا بد أن يري العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغه رسله حق قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي القرآن، فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [فصلت: ٥٢] ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ما جاء به حق، ووعد أنه يري العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضاً، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك كله وأجل، وهو شهادته سبحانه بأنه على كل شيء

شهيد، فإن من أسمائه الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته، واستدلاله بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: كيف يستدل بأسمائه وصفاته، فإن الاستدلال بذلك لا يعهد في الاصطلاح ؟

فالجواب: أن الله تعالى قد أودع في الفطرة التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيه والتمثيل، أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما يعرفونه منه، ومن كماله المقدس شهادته على كل شيء واطلاعه عليه، بحيث لا يغيب عنه ذرة في السموات ولا في الأرض باطناً وظاهراً، ومن هذا شأنه كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا غيره ويجعلوا معه إلهاً آخر؟

وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده ويعلي شأنه ويجيب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على دينه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب غير مفتر؟!

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الصواب: كاذب عليه مفتر، يعني ما يليق بالرب عز وجل أن ينصر من هذا شأنه، لا يليق به أن ينصر ويقر ويظهر على دينه كذا وكذا، وهو في نفس الأمر كاذب عليه مفتر، يعني لا يليق بحكمة الله ذلك، بل من كان بهذه المثابة فهو جدير بأن يعاقب وتعجل له العقوبة ويذهب، ويُظهر الله على كذبه وباطله من

الدلائل ما يعلم العقلاء أنه كاذب، كما جرى لمسيلمة والمختار بن أبي عبيد والأسود العنسي وأشباههم، مما ظهر من دلائل الكذب والفساد والاضطراب والبهرج ما دل على باطلهم وكذبهم.

والمقصود من هذا أن أسماءه الحسنى وصفاته العلى تدل على عظمته واستحقاقه العبادة وأنه رب العالمين، فيستدل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى لمن فطره الله على الحق، على أنه الحق سبحانه وتعالى، وما فطر العباد على الإيمان بهذا الذي كوّن هذا الكون وأبدع فيه ما أبدع وجعل فيه ما جعل، فالقلوب مفطورة على الإيمان بهذا العظيم الذي خلق هذا الكون ودبر شؤونه وأحكمه، وجعل فيه من المنافع والمصالح ما جعل، فالله فطر القلوب والعقول على الإيمان بهذا وتعظيم من هذا شأنه، فجاءت الرسل تذكرهم بهذا الشيء وتؤيد هذا الشيء، وتبين أن هذا الذي خلق العالم وجعل فيه ما جعل، وجعل في نفس الإنسان ما جعل أيضاً، هو المستحق لأن يعبد ويعظم، وهو رب العالمين وهو خالق العالمين، ولا يليق بعاقل أن يعبد معه سواه، أو يشرك معه في خلقه وتدبيره أو في عنايته أو في أسمائه وصفاته غيره سبحانه وتعالى.

العقول عاجزة عن التفصيل، فجاءت الرسل تبين أن هذا الذي خلق العالم هو الله، يسمى الله، يسمى الرحمن، يسمى الرحيم، يسمى الخلاق، يسمى الخالق، يسمى الرازق، يسمى الغفور، يسمى المصور، يسمى الباري، يسمى السميع، يسمى البصير، يسمى رب العالمين، يسمى مالك يوم الدين، جاءت الرسل بهذه الأشياء التي تقر بها العقول والفطر السليمة وتشهد بها، لما وقع فيها ولما فطرت عليه من تعظيم مكون هذا الكون وخالقه ومدبره، ولما فطرت عليه من تعظيم خالقها وبارئها، الذي جعل فيها ما جعل من عقل وسمع وبصر، وجعل فيها مخارج ومداخل

لحاجتها، وجعل فيها ما جعل من العقل للأمور والتمييز بين الضار والنافع، وبين الخير والشر، وبين ما يناسبها وما لا يناسبها، إلى غير ذلك سبحانه وتعالى.

ثم اللغات مختلفة، فلغات العرب جاءت بهذه العبارات الصريحة، واللغات الأخرى جاءت بذلك، بما يعقله أصحابها في عبرية سيريانية، اللغات الأخرى القديمة في عهد إبراهيم، وعهد هود، وعهد صالح، إلى غير ذلك، جاءت الرسل وجاءت الرسالات بلغات تناسب أهل ذاك الزمان، ويعقلونها ويفهمونها ويستفيدون منها ما تقوم به الحجة عليهم.أهـ.

* * *

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء وقدرته وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك، ومن جوز ذلك فهو من أبعد الناس عن معرفته.

والقرآن مملوء من هذه الطريق، وهي طريق الخواص،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: طريق الخواص من عباده وأوليائه، بخلاف الجهمية والمعتزلة وأشباههم الذين نبت قلوبهم وعقولهم، تعرت قلوبهم وعقولهم من إثبات الصفات والأسماء، فصارت عقولهم وفطرهم منحرفة زائغة، رأوا أن الكمال في نفي هذه الصفات وعدم الإقرار بها، هذه عقول زاغت وقلوب فسدت وزاغت، فلا عبرة بها ولا يلتفت إليها، وكذلك عقول وقلوب من رأى التشبيه لله بخلقه، وقال في أسماء الله وصفاته ما يقوله في صفات المخلوقين، كالجواربي وأشباهه ممن مالوا إلى التشبيه وجعلوا الله كخلقه، هؤلاء كفار وهؤلاء كفار، ولم يسلم من هذا البلاء وهذا الفساد وهذا التعطيل

والتشبيه إلا الحنفاء، إلا اتباع الرسل، إلا أهل السنة والجماعة، الذين قبلوا عن الله ما أخبر به وحملوه على أحسن المحامل، ولم يذهبوا مذهب المشبهة ولا مذهب المعطلة، بل أثبتوا لله صفات كماله وأسماءه الحسنى، إثباتاً بريئاً من التعطيل وبريئاً من التشبيه والتمثيل، أما أولئك المشبهون فغلوا في الإثبات، وأما أولئك المعطلون فغلوا في التنزيه وهلكوا، ولكن أهل السنة والجماعة أثبتوا بلا تمثيل ونزهوا بلا تعطيل، ففازوا بالسلامة وفازوا بالتوفيق.أهـ

* * *

يستدلون بالله على أفعاله وما يليق به أن يفعل ولا يفعله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وسيأتي لذلك زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

ويستدل أيضاً بأسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشرك،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني من خلق هذا العالم وهو الله؛ جدير بأن يكون سميعاً بصيراً حكيماً عليماً قادراً، ومن كان بهذه الصفات فهو جدير أيضاً بأن يستحق العبادة سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣] **وأضعاف ذلك في القرآن، وهذه الطريق قليل سالكها، لا يهتدي إليها إلا الخواص، وطريقة الجمهور الاستدلال**

بالآيات المشاهدة، لأنها أسهل تناولاً وأوسع، والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنه الدليل والمدلول عليه، والشاهد والمشهود له، قال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ولاشك أن القرآن العظيم فيه الحجة البالغة والآية العظمى والمعجزة الكبرى على أنه من عند الله، وعلى أن محمداً رسول الله عليه الصلاة والسلام، فإنه كتاب عظيم مشتمل على أخبار صادقة وعلوم نافعة وأحكام عادلة، وتوجيه إلى الخير وإرشاد إلى أسباب النجاة، وبيان ما ينبغي للعبد أن يسير عليه، فمن تدبره وتعقله عرف أنه أنزل بالحق وأنه كلام الرب عز وجل، وأنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤] ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩] ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت:٥١] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] فمن تعقله وتدبره عرف حقًّا

أنه كتاب الله، وأنه منزل من عند الله، وأنه كلام الله، وأنه بعيد عن كل ما رماه به أعداء الله وافتراه عليه أعداء الله، ولكن الهوى والحسد والبغي والعناد، كلها تحمل أهلها على ما لا ينبغي، وعلى ما يعلم كل عاقل بطلانه ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام:٣٣] فالأهواء المنحرفة والنفوس الظالمة والمقاصد الخبيثة كلها تحمل على كل شر، وعلى ما هو معلوم بالبداهة بطلانه، نسأل الله السلامة.أهـ.

* * *

وإذا عرف أن توحيد الإلهية هو التوحيد الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب، كما تقدمت إليه الإشارة، فلا يلتفت إلى قول من قسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع، وجعل هذا النوع توحيد العامة، والنوع الثاني توحيد الخاصة، وهو الذي يثبت بالحقائق، والنوع الثالث توحيد قائم بالقدم، وهو توحيد خاصة الخاصة،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا كلام ليس بمظهور، بل نهايته الإلحاد والتعطيل، فمن جعل توحيد الرسل توحيد العامة، فقد ألحد في آيات الله وأسمائه وصفاته، فإن هذا التوحيد هو الذي جاءت به الرسل وهو الذي نزلت به الكتب، فمن جعله توحيد العامة، وأن هناك توحيداً آخر للخاصة؛ فما عرف الشريعة وما عرف ما جاءت به الرسل، وتوحيد العامة هو توحيد الرسل، وهو إفراد الله بالعبادة، والإيمان بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، وأنه الحق، وأنه المعبود بالحق، وأنه مدبر الأمور، وأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة لغيره، وما سواه مخلوق مربوب.

أما توحيد القدم والتوحيد الذي يثبت بالحقائق أو يثبت بالحقائق الباطنية، التي معناها تعطيل الصفات، ويشابه الفناء المطلق ولا يشاهد إلا الله وحده، وأن ما سواه ليس بشيء، فهذا يفضي بأهله إلى الإلحاد الكامل وإلى وحدة الوجود، وإلى إنكار ما جاءت الرسل بإثباته من الفرق بين العابد والمعبود وبين الإله والآله العابد، وبين الحق والمخلوق الذي هو عابد مربوب مدبر مصرف، وكذلك فيه أيضاً صد عن سبيل الله وتكذيب للرسل وإنكار لما جاءوا به، فإنهم جاءوا بأحكام وأوامر ونواهي، وبيان الإله الذي يستحق العبادة، وبيان للعباد أنهم يستحقون أن يعبدوا ربهم ويقوموا بحقه وأن يخضعوا له، فهذا التوحيد الذي عندهم، الذي هو الفناء في الخالق ونسيان المخلوقين والشغل عنهم وعدم الالتفات إليهم، وألا يشاهد إلا ذاتاً مجردة؛ كل هذا من أبطل الباطل، نسأل الله العافية.أهـ

* * *

فإن أكمل الناس توحيداً الأنبياء صلوات الله عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكملهم توحيداً، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلى الله وسلم عليهم أجمعين، وأكملهم توحيداً الخليلان: محمد وإبراهيم، صلوات الله عليهما وسلامه، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما علماً، ومعرفة، وحالاً، ودعوة للخلق وجهاداً،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وقد استنبط العلماء أن هؤلاء الخمسة هم أولو العزم، استنبطوا من آيتين من كتاب الله، من قوله عز وجل في سورة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب:٧] ومن قوله

في سورة الشورى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴾ [الشورى:١٣] قالوا: فذكرهم بهاتين الآيتين الكريمتين دليل على الخصوصية، وأنهم أولو العزم من الرسل، يعني أولو القوة الكاملة التي يعطاها الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأفضلهم الخليلان: إبراهيم أبوالأنبياء خليل الرحمن، وخاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام، فكل من الرسل والأنبياء له فضله وله منزلته عند الله العظيمة وله خصائصه، عليهم الصلاة والسلام.أهـ.

* * *

فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه، ولهذا أمر سبحانه نبيه أن يقتدي بهم فيه، كما قال تعالى، بعد ذكر مناظرة إبراهيم قومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد وذكر الأنبياء من ذريته: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم، وكان ﷺ يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»(١) فملة إبراهيم: التوحيد، ودين محمد ﷺ: ما جاء به من

---

(١) حديث صحيح، أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥/ ١٢٣) عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبي بن كعب قال: «**كان رسول الله ﷺ يعلمنا إذا أصبحنا: أصبحنا على فطرة الإسلام..الحديث**». وفي آخره: وإذا أمسينا مثل ذلك. وسنده ضعيف، لكن أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦-٤٠٧) والدارمي (٢/ ٢٩٢) وابن السني في «**اليوم والليلة**» رقم (٣٢) من طريقين آخرين عن عبد الرحمن بن أبزى قال: «**كان النبي ﷺ إذا أصبح قال**» فذكره، وسنده صحيح.أهـ ألباني

عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً، وكلمة الإخلاص: هي شهادة أن لا إله إلا الله، وفطرة الإسلام: هي ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة.

فهذا توحيد خاصة الخاصة، الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١] وكل من له حس سليم وعقل يميز به، لايحتاج في الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة، بل ربما يقع بسببها في شكوك وشبه يحصل له بها الحيرة والضلال والريبة، فإن التوحيد إنما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك، وهذا هو القلب السليم الذي لا يفلح إلا من أتى الله به.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يشير إلى قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩] أهـ.

* * *

ولا شك أن النوع الثاني والثالث من التوحيد الذي ادعوا أنه توحيد الخاصة وخاصة الخاصة، ينتهي إلى الفناء الذي يشمر إليه غالب الصوفية، وهو درب خطر، يفضي إلى الاتحاد.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني اتحاد الخالق والمخلوق، وهو الإلحاد، وهو وحدة الوجود، نسأل الله العافية.

ومعنى الفناء: هو أن يفنى عن غير الخالق بالخالق، ويفنى بتوحيده عن اسم غيره وعن مشاهدة غيره، فلا يشاهد إلا الله وحده فقط، ولهذا يفضي إلى وحدة الوجود وعدم الفرق، والله بعث الرسل بالفرق بين الله والمخلوقين، وبين توحيد العبادة وبين المعصية والشرك، وبين الطاعات والمعاصي، وبين الخير والشر، فهؤلاء الذين يزعمون أن الفناء هو الغاية؛ معناه أنهم ضيعوا كل شيء ولم يشاهدوا إلا واحداً، والرسل جاءت بالفرق، جاءت بالأمرين، بالخالق والمخلوق، بالهدى والضلال، بالخير والشر، بالنافع والضار، بالتوحيد والشرك، بالطاعة والمعصية، فمن فني عن الفرق بالجمع، ويسمونه الجمع، وهو جمع الهمة وجمع القلب على الله وحده، من دون أن يشاهد غيره ومن دون أن ينظر إلى غيره مما جاءت به الرسل؛ فقد هلك وأهلك، نسأل الله العافية.أهـ.

* * *

انظر إلى ما أنشد شيخ الإسلام أبوإسماعيل الأنصاري رحمه الله تعالى حيث يقول:

ما وحد الواحد من واحد ... إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته ... عارية أبطلها الواحد

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: توحيد من عن نعته ينطق، أقرب إلى إقامة شعره.أهـ

* * *

توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا من أبياته الفاسدة

والخبيثة، قد تُوهِم الشر، وقد تكلم عليها ابن القيم رحمه الله وأطال عليها المداري، تعذّر عن أبي إسماعيل بعض الأعذار، هي أبيات لا وجه لها وموهمة شرًّا.أهـ.

* * *

وإن كان قائله رحمه الله لم يرد به الاتحاد، لكن ذكر لفظاً مجملاً محتملاً جذبه به الاتحادي إليه، وأقسم بالله جهد أيمانه أنه معه، ولو سلك الألفاظ الشرعية التي لا إجمال فيها كان أحق، مع أن المعنى الذي حام حوله لو كان مطلوباً منا لنبه الشارع عليه ودعا الناس إليه وبينه، فإن على الرسول البلاغ المبين، فأين قال الرسول: هذا توحيد العامة، وهذا توحيد الخاصة، وهذا توحيد خاصة الخاصة؟ أو ما يقرب من هذا المعنى؟ أو أشار إلى هذه النقول والعقول حاضرة؟

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني ما أتى بهذه النقول الفاسدة ولا بهذه العقول الفاسدة، فإن المقام يقتضي هذا، هذه العقول التي رأت هذا الشيء، وهذه النقول التي أُبهم بأنهم نقلوها، لم يأت بها النبي ﷺ، ولم يأت بها الصحابة ولم يعرفوها، وهم خير الأمة وأفضلها وأعلمها، ثم كلام الله ورسوله من شأنه البيان وعدم الإفضاء إلى الباطل، وهذه كلمات أقرب إلى الألغاز وأشبه بالألغاز، تفضي إلى كل باطل، ويجرها المبطل إلى ما يريد، فليس هذا من شأن أهل البيان، وليس من شأن أهل الحق، فإن أهل الحق يوضحون ويبينون ولا يلغزون.

(أو أشار إلى هذه النقول والعقول حاضرة) العبارة فيها نظر.أهـ.

* * *

فهذا كلام الله المنزل على رسوله ﷺ، وهذه سنة الرسول، وهذا كلام

خير القرون بعد الرسول، وسادات العارفين من الأئمة، هل جاء ذكر الفناء فيها، وهذا التقسيم عن أحد منهم؟

وإنما حصل هذا من زيادة الغلو في الدين، المشبه لغلو الخوارج، بل لغلو النصارى في دينهم، وقد ذم الله تعالى الغلو في الدين ونهى عنه، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقال ﷺ: «لا تشددوا فيشدد الله عليكم، فإن من كان قبلكم شددوا فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» رواه أبو داود[1].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ويناسب المقام أيضاً حديث ابن عباس «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» أخرجه أحمد وبعض أهل السنن بإسناد جيد، وهو أظهر في هذا المقام «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» لما لقط له الحصى مثل حصى الخذف وقال: «أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» خرجه أحمد وغيره بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما[2]،

---

(١) رقم (٤٩٠٤) وفيه سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء، لم يوثقه غير ابن حبان، ولم يرو عنه سوى اثنين، وقد خرجته في «الضعيفة» (٣٤٦٨).أهـ ألباني

(٢) رواه أحمد١/ ٢١٥، ٣٤٧ والنسائي ٥/ ٢٦٨ المناسك/ باب التقاط الحصى، وابن ماجه (٣٠٢٩) المناسك/ باب قدر حصى الرمي، وصححه ابن خزيمة (٢٨٦٧) وابن حبان (٣٨٧١) والحاكم ١/ ٤٦٦ وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، لكن قال النـووي =

وهذا يدل على أن الغلو في الدين منكر، وأنه وسيلة إلى الشرك، ووسيلة إلى الوقوع في البدع والمنكرات، والغلو هو الزيادة، من غلت القدر إذا زادت، اشتد غليانها بسبب النار، والغالي الزائد الذي يزيد ما لم يشرعه الله سبحانه وتعالى، ومنه الإطراء، لكن الإطراء يكون في الأقوال، والغلو أعم «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله**»(١).

وحب الأنبياء وحب الصالحين دين، حب الأنبياء وحب الصالحين من الدين، فالغلو فيه غلو في الدين، فمن الغلو أن يوصفوا بما لا يليق بهم، أو يعارضوا بما لا يليق بهم، فيوصفوا بأنهم غوث الأمة، بمعنى أنه يستغاث بهم، أو أنهم قطب الأقطاب، أو أنهم أقطاب، يعني يستغاث بهم وينذر لهم ويذبح لهم، كما قال الصوفية وأشباههم، ومن الغلو فيهم أن يبنى على قبورهم، ويبنى عليها القباب والمساجد، هذا من الغلو ومن وسائل الشرك، ومن الغلو فيهم أن يُدعوا مع الله، وأن يستغاث بهم، وأن ينذر لهم، وأن يذبح لهم، وأن يطلب منهم المدد، كل هذا من الغلو الذي ذمه الله، ومن هذا الباب حديث ابن مسعود الذي عند مسلم «**هلك المتنطعون هلك المتنطعون هلك المتنطعون قالها ثلاثاً**»(٢) هذا يوجب

= في المجموع ٨ / ١٣٧: إسناده صحيح على شرط مسلم، وكذا قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم (١٠٦) ورواه ابن أبي عاصم في السنة (٩٨) والطبراني في الكبير (١٢٧٤٧) والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ١٢٧ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣/ ٢٧٨.

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ و(٦٨٣٠) كتاب الحدود / باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، عن عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٧) كتاب العلم/ باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعه والنهي عن الاختلاف في القرآن، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

على أهل الإسلام الحذر من الغلو.

ومن الغلو الاحتفال بالموالد، للرسول وغيره، فإنه زيادة لم يشرعها الله، يدعو إليها الحب، فهي زيادة لم يشرعها الله، فتكون من البدع ومن الغلو.

ويدل على معنى سددوا، الحديث في الصحيحين «**سددوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أنه لن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»[1]. أهـ

* * *

قوله: (ولاشيء مثله).

ش: اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على الممثلة المشبهة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على النفاة المعطلة، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق، فهو المشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق، فهو نظير النصارى في كفرهم، ويراد به أنه لا يثبت لله شي من الصفات، فلا يقال: له قدرة، ولا علم، ولا حياة، لأن العبد موصوف بهذه الصفات! ولازم هذا القول أنه لا يقال له: حي، عليم، قدير، لأن العبد يسمى بهذه الأسماء،

---

(١) رواه البخاري (٣٩) كتاب الإيمان/ باب:الدين يسر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٨١٨) كتاب صفات المنافقين/ باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وكذلك كلامه وسمعه وبصره وإرادته وغير ذلك.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا هو التعطيل، هذا هو التعطيل الذي ذمه السلف وعابوه، وصار الناس الآن طرفين ووسطاً، طرفين على الباطل، ووسطاً على الحق.

وهذه قاعدة: أن أهل السنة والجماعة بين باطلين وبين طرفين، والحق هو الوسط.

فالباطل الأول باطل أهل التشبيه، يشبهون الله بخلقه، كداود الجواربي وأشباهه ممن سار على نهجه من المشبهة.

والطرف الثاني طرف التعطيل نفاة الصفات، ليس بكذا وليس بكذا بزعمهم، يفرون من التشبيه فيقعون في التعطيل.

أما أهل السنة والجماعة فقد أثبتوا صفات الله وأسماءه كما جاء في القرآن الكريم وفي السنة الصحيحة، إثباتاً بريئاً من التمثيل، يثبتونها لله من دون أن يشبهوا الله بخلقه، يثبتونها على الوجه اللائق به، كما أخبر عن نفسه سبحانه وتعالى، وينزهون الله عن مشابهة خلقه تنزيهاً بريئاً من التعطيل، فلا هم مع هؤلاء ولا هم مع هؤلاء، ولكنهم توسطوا الحق، كما قال جل وعلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] ونبه أبوالعباس ابن تيمية رحمه الله في كتابه العقيدة الواسطية على هذا، قال: «**فهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية وبين أهل التمثيل المشبهة**» هذا شأنهم في كل باب من أبواب الحق يكونون وسطاً، لا مع الغالين ولا مع الجافين، والناس في أمور الدين بين غلو وبين جفاء، وأهل الحق وهم الصحابة، أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان هم الوسط، فليسوا مع الغالين المفْرطين، وليسوا مع الجفاة المفرطين،

ولكنهم على الحق والهدى والتوسط الذي شرعه للأمة ومدحهم به سبحانه وتعالى.

الجفاء التقصير، الجافي المقصّر المُفَرط.أهـ

* * *

وهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود، عليم قدير، حي، والمخلوق يقال له: موجود حي عليم قدير، ولا يقال: هذا تشبيه يجب نفيه، وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل، ولا يخالف فيه عاقل، فإن الله سمى نفسه بأسماء، وسمى بعض عباده بها، وكذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى صفات خلقه، وليس المسمى كالمسمى، فسمى نفسه: حياً، عليماً، قديراً، رؤوفاً، رحيماً، عزيزاً، حكيماً، سميعاً، بصيراً، ملكاً، مؤمناً، جباراً، متكبراً، وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ومعلوم أنه لا يماثل الحي الحي، ولا العليم العليم، ولا العزيز العزيز، وكذلك سائر الأسماء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني

أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: عاجل أمري وآجله ـ فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به» قال: ويسمي حاجته[1]، رواه البخاري.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والمراد بالأمور هنا، التي عنده فيها شيء من الريب والشك، أو في كيفية السبيل إليها، أو في وسائلها أو ما أشبه ذلك، أما الأمور التي ليس فيها ريب ولا شك، بل هي مطلوبة مأمور بها، فليست محل الاستخارة.

قوله: «**في الأمور كلها**» في الأمور كلها التي فيها شيء من التردد، أو في الطريق إليها أو في عواقبها أو ما أشبه ذلك، وأما الشيء الواضح الذي ليس فيه شيء، بل معروف أنه خير محض، كالصلاة وصوم رمضان والحج والجهاد الذي يعرف أنه مشروع، وما أشبه ذلك كبر الوالدين وصلة رحمك والصلاة الراتبة والوتر، لا يصلي الاستخارة.أهـ

* * *

وفي حديث عمار بن ياسر الذي رواه النسائي وغيره، عن النبي ﷺ،

(١) صحيح، وحسبك أن البخاري أخرجه في صحيحه، وقول أحمد في أحد رواته: «روى حديثاً منكراً» يعني هذا، لا يضره بعد قول أحمد فيه «لا بأس به» وإنما يضر ذلك فيما إذا خالف من هو أوثق منه، وليس شيء من ذلك هنا، ثم وجدت له شاهدا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه صححه ابن حبان، وقد خرجته في «الضعيفة» (٢٣٠٥) لزيادة فيه عنده.أهـ ألباني.

أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الغنى والفقر، وأسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[(١)].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا حديث عظيم جليل، ودعوات عظيمة ينبغي حفظها والدعاء بها، فإنها دعوات عظيمة ينبغي للمؤمن حفظها.أهـ

❊ ❊ ❊

فقد سمى الله ورسوله صفات الله علماً وقدرة وقوة، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ ومعلوم أنه ليس العلم كالعلم، ولا القوة كالقوة، ونظائر هذا كثيرة، وهذا لازم لجميع العقلاء، فإن من نفى صفة من صفاته التي وصف الله بها نفسه، كالرضى والغضب، والحب والبغض، ونحو ذلك، وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم!

قيل له: فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر، مع أن ما تثبته

---

(١) حديث صحيح، وأخرجه الحاكم أيضا وصححه ووافقه الذهبي، وهو مخرج في «الكلم الطيب» (١٠٥) و«ظلال الجنة في تخريج السنة» (١٢٩).أهـ ألباني

له ليس مثل صفات المخلوقين، فقل فيما نفيته وأثبته الله ورسوله مثل قولك فيما أثبته، إذ لا فرق بينهما.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني من باب التناقض، هذا رد على الأشاعرة، وهو في الحقيقة رد على جميع المعطلة، فإنه لابد لهم من شيء يثبتونه، فيقال لهم فيما أثبتوا نظير ما فروا منه سواء بسواء، فإذا أثبتوا شيئاً ولو صفة واحدة، ولو صفة الوجود، يقال لهم هل وجوده كوجود غيره؟

سيقولون: لا، فهكذا بقية الصفات سواء بسواء، فلازمهم أن يلزمهم فيما أثبتوه نظير ما فروا منه سواء بسواء، قلّ ما أثبتوه أو كثر ما أثبتوه.

فالجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم كلهم مفلوجون وكلهم متناقضون، ولا يسلم من ذلك إلا أهل السنة والجماعة، كل من خالف الحق فهو مفلوج ومتناقض ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝﴾ [ق:٥] وأبو العباس ابن تيمية رحمة الله عليه في بعض كلامه، إنه يلتزم أن كل صاحب باطل يحتج بحجة صحيحة على باطله؛ أن في نفس الحجة ما يدل على بطلان ما ذهب إليه، نفس حجته التي احتج بها.أهـ

* * *

فإن قال: أنا لا أثبت شيئاً من الصفات! قيل له: فأنت تثبت له الأسماء الحسنى، مثل: عليم، حي، قادر، والعبد يسمى بهذه الأسماء، وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما يثبت للعبد فقل في صفاته نظير قولك في مسمى أسمائه .

فإن قال: وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى، بل أقول: هي مجاز، وهي أسماء لبعض مبتدعاته، كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة!

قيل له: فلا بد أن تعتقد أنه موجود وحق قائم بنفسه، والجسم موجود قائم بنفسه، وليس هو مماثلاً له.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئاً، بل أنكر وجود الواجب.

قيل له: معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه، وإما غير واجب بنفسه، وإما قديم أزلي، وإما حادث كائن بعد أن لم يكن، وإما مخلوق مفتقر إلى خالق، وإما غير مخلوق ولا مفتقر إلى خالق، وإما فقير إلى ما سواه، وإما غني عما سواه، وغير الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه، والحادث لا يكون إلا بقديم، والمخلوق لا يكون إلا بخالق، والفقير لا يكون إلا بغني عنه، فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلي خالق غني عما سواه، وما سواه بخلاف ذلك، وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن، والحادث لا يكون واجباً بنفسه، ولا قديماً أزلياً، ولا خالقاً لما سواه، ولا غنياً عما سواه، فثبت بالضرورة وجود موجودين: أحدهما واجب، والآخر ممكن، أحدهما قديم، والآخر حادث، أحدهما غني، والآخر فقير، أحدهما خالق، والآخر مخلوق، وهما متفقان في كون كل منهما شيئاً موجوداً ثابتاً، ومن المعلوم أيضاً أن أحدهما ليس مماثلاً للآخر في حقيقته، إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع، وأحدهما يجب قدمه وهو موجود بنفسه، والآخر لا يجب قدمه ولا هو موجود بنفسه، وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق، وأحدهما غني عما سواه، والآخر فقير.

فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم،

موجوداً بنفسه غير موجود بنفسه، خالقاً ليس بخالق، غنياً غير غني، فيلزم اجتماع الضدين على تقدير تماثلهما، فعلم أن تماثلهما منتف بصريح العقل، كما هو منتف بنصوص الشرع.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا كله على سبيل التنزل مع أهل الكلام والخوض معهم، وإلا فعلى ما قال أهل السنة لا خوض معهم ولا كلام معهم، بل يجب إنكار ما يقولون والإعراض عنهم، وأن خوضهم في هذه المسائل من أسباب شكهم وريبهم وضلالهم وبعدهم عن الهدى، ونصوص الكتاب والسنة ونصوص الأئمة كلها واضحة فيما دلت عليه النصوص من وجوب وجود الله جل وعلا واتصافه بالصفات العلى وتسمّيه بالأسماء الحسنى.

والعقول الصحيحة الصريحة والفطر السليمة كلها مؤمنة بأن هذا العالم له موجد خالق رازق مستقل قائم بنفسه ليس قبله شيء ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ ﴾ [الحديد:٣] سبحانه وتعالى، فهذه الأمور المعلومة المقطوع بها التي دلت عليها الرسالات، ودلت عليها الكتب السماوية، كافية شافية لمن له أدنى عقل وبصيرة، ولا حاجة للخوض مع هؤلاء فيما يخوضون فيه.أهـ

❊ ❊ ❊

فعلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه، واختلافهما من وجه، فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلاً قائلاً بالباطل، ومن جعلهما متماثلين كان مشبهاً قائلاً بالباطل، والله أعلم.

وذلك لأنهما وإن اتفقا في مسمى ما اتفقا فيه، فالله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته، والعبد لا يشركه في شيء من ذلك،

والعبد أيضاً مختص بوجوده وعلمه وقدرته، والله تعالى منزه عن مشاركة العبد في خصائصه.

وإذا اتفقا في مسمى الوجود والعلم والقدرة، فهذا المشترك مطلق كلي يوجد في الأذهان لا في الأعيان، والموجود في الأعيان مختص لا اشتراك فيه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني جنس الموجود مشترك، مثل الوجود مشترك، هذا سمع وهذا سمع، هذا بصر وهذا بصر، هذه حياة وهذه حياة، ولكن الموجود في الأعيان والبارز في الأعيان مختص، فالذي لله والذي للمخلوق للمخلوق ليس مشتركاً، فوجود الله وحياته وعلمه وسمعه وبصره ونحو ذلك، كلها صفات مستقلة لائقة به سبحانه وتعالى، مختصة به عز وجل، ليس للمخلوق فيها شركة، وكذلك صفات المخلوق من حياته وعلمه وقدرته ونحو ذلك صفة مختصة به، ناقصة ضعيفة لائقة بالمخلوق، الله الذي خلقها وأوجدها له سبحانه وتعالى، فليست صفات الخالق هي صفات المخلوق، أما صفات الخالق الموجودة التي هو متصف بها، فهي صفات مستقلة ليس للمخلوق فيها شركة، بل صفات كاملة لها الكمال من كل الوجوه، وصفات المخلوقين لها النقص ويطرأ عليها الزوال والذهاب والاضمحلال، كما قد يعمى الإنسان ويصيبه عور ويصيبه صمم ويصيبه الأمراض، وتختل قوته وقدرته، وتذهب حياته بالموت، فصفات المخلوقين يعتريها ما يعتريها من هذه الآفات، بخلاف صفات الخالق فإنها كاملة سالمة لا يأتيها نقص بوجه من الوجوه، فلها البقاء التام والاستمرار.أهـ

❊ ❊ ❊

وهذا موضع اضطراب فيه كثير من النظار،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الصواب: وهذا موضع اضطرب فيه كثير من النظار.أهـ

❊ ❊ ❊

حيث توهموا أن الاتفاق في مسمى هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذي للرب كالوجود الذي للعبد.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني التبس عليهم الوجود الذهني بالوجود الخارجي، فالوجود الذهني شيء والوجود الخارجي شيء ثان.أهـ

❊ ❊ ❊

وطائفة ظنت أن لفظ الوجود يقال بالاشتراك اللفظي، وكابروا عقولهم، فإن هذه الأسماء عامة قابلة للتقسيم، كما يقال: الموجود ينقسم إلى واجب وممكن، وقديم وحادث، ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام، واللفظ المشترك كلفظ المشتري الواقع على المبتاع والكوكب، لا ينقسم معناه، ولكن يقال: لفظ المشتري يقال على كذا أو على كذا، وأمثال هذه المقالات التي قد بسط الكلام عليها في موضعه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا اشتراك لفظي، معروف أن الكلمات المشتركة باللفظ والمعاني غير، ولكن ما بين صفات المخلوقين وصفات الخالق فيها اشتراك لفظي وفيها اشتراك معنوي أيضاً، لكن ذلك الاشتراك المعنوي لا يلزم منه التماثل، فإن جنس

السمع مشترك في المعنى، سمع وسمع للأصوات، بصر وبصر للمرئيات، حياة ضد الموت مشتركة، لكن المعنى الذي لله ليس المعنى الذي للمخلوق بل هو أكمل، فالمعنى الذي للمخلوق معنى ضعيف قاصر، والمعنى الذي لله أكمل وأعظم، فليس بينهما تماثل، بخلاف لفظ المشتري للكوكب، والمشتري الذي هو مقابل البائع، هؤلاء ليس بينهما اشتراك، هذا اسم جامد، المشتري، وهذا اسم له معنى، وهو كونه أخذ السلعة وتقبل السلعة بالثمن، فليس بينهما اشتراك في المعنى، وإنما هو مجرد اشتراك في اللفظ فقط، يقال هذا مشتري وهذا مشترٍ، وليس بينهما معنى مشترك، لكن ما بين أسماء الرب وصفاته وبين أسماء المخلوقين وصفاتهم؛ بينهما أصل المعنى، أصل المعنى موجود، جنس الحياة، جنس الوجود، جنس السمع، جنس البصر، الغضب، إلى غير ذلك، لكن المعنى الذي للمخلوق ليس هو المعنى الذي لله، المعنى الذي لله له الكمال والتمام، والمعنى الذي للمخلوق ضعيف ناقص، ولولا هذا المعنى المشترك لما فهمت الصفات، لما علمت الصفات ولما فهمت الصفات، فكما أن هذا له وجود وهذا له وجود، فكذلك هذا له حياة وهذا له حياة، وهذا له سمع وهذا له سمع، ولكن ليس الحي كالحي، وليس الوجود كالوجود، وليس البصر كالبصر، وليس السمع كالسمع، وما أشبه ذلك ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

وأصل الخطأ والغلط: توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتاً في هذا المعين وهذا المعين، وليس

كذلك، فإن ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقاً كلياً، بل لا يوجد إلا معيناً مختصاً، وهذه الأسماء إذا سمي الله بها كان مسماها معيناً مختصاً به، فإذا سمي بها العبد كان مسماها مختصاً به، فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره، بل وجود هذا الموجود المعين لا يشركه فيه غيره، فكيف بوجود الخالق؟ ألا ترى أنك تقول: هذا هو ذاك، فالمشار إليه واحد لكن بوجهين مختلفين .

وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا، وأن المعطلة أخذوا نفي المماثلة بوجه من الوجوه، وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا، وأن كتاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة، وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه.

فالنفاة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه، ولكن أساؤوا في نفي المعاني الثابتة لله تعالى في نفس الأمر .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني غلوا في النفي حتى عطلوا صفات الله، والمشبهة غلوا في الإثبات حتى مثلوا الله بخلقه، كلاهما غلا، وأهل السنة والجماعة سلموا من هذا الغلو، فأثبتوا لله ما أثبت لنفسه وما أثبته له رسوله عليه الصلاة والسلام من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به، ونزهوا الله عما نزه نفسه عنه من مشابهة المخلوقات.أهـ

* * *

المشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ،ولكن أساؤوا بزيادة التشبيه .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: زادوا، يعني أثبتوا سمعاً وبصراً وحياة، لكن زادوا قولهم إنه مشابه لخلقه، فلو سلموا من هذا ووقفوا عند إثبات الصفات، وأنه لا شبيه له سبحانه وتعالى ولا شريك له في ذلك؛ لكان قولهم صحيحاً كما قاله أهل السنة والجماعة، لكنهم زادوا وغلوا حتى قالوا إنه مشابه لخلقه، وأن هذا مثل هذا، هذه الزيادة هي التشبيه، والزيادة في حق المعطلة هي التعطيل، ولهذا قال أهل السنة: يجب إثبات الصفات إثباتاً بريئاً من التشبيه والتمثيل، ويجب تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات تنزيهاً بريئاً من التعطيل، فلا هذا ولا هذا.أهـ

* * *

واعلم أن المخاطب لا يفهم المعاني المعبر عنها باللفظ إلا أن يعرف عينها أو ما يناسب عينها، ويكون بينها قدر مشترك ومشابهة في أصل المعنى، وإلا فلا يمكن تفهيم المخاطبين بدون هذا قط، حتى في أول تعليم معاني الكلام بتعليم معاني الألفاظ المفرده، مثل تربية الصبي الذي يعلم البيان واللغة، ينطق له باللفظ المفرد ويشار له إلى معناه إن كان مشهوداً بالإحساس الظاهر أو الباطن، فيقال له: لبن، خبز، أم، أب، سماء، أرض، شمس، قمر، ماء، ويشار له مع العبارة إلى كل مسمى من هذه المسميات، وإلا لم يفهم معنى اللفظ ومراد الناطق به، وليس أحد من بني آدم يستغني عن التعليم السمعي، كيف وآدم أبوالبشر وأول ما علمه الله تعالى أصول الأدلة السمعية وهي الأسماء كلها، وكلمه وعلمه بخطاب الوحي ما لم يعلمه بمجرد العقل.

فدلالة اللفظ على المعنى هي بواسطة دلالته على ما عناه المتكلم وأراده، وإرادته وعنايته في قلبه، فلا يعرف باللفظ ابتداء، ولكن لا يعرف المعنى بغير اللفظ حتى يعلم أولاً أن هذا المعنى المراد هو الذي يراد

بذلك اللفظ ويعنى به، فإذا عرف ذلك ثم سمع اللفظ مرة ثانية، عرف المعنى المراد بلا إشارة إليه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والمقصود من هذا كله بيان أن أسماء الرب عز وجل وصفاته لها أصول لبني آدم معروفة، ولهذا عرفوا المعنى، فالسميع معروف عند بني آدم ما هو السميع؟ والعليم كذلك والبصير والقادر، أراد، شاء، اليد، الوجه، جنس هذه الأصول معروفة، فإذا جاء في صفات الله جل وعلا السميع العليم، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٧] ظهر للمخاطب هذه المعاني مما عرفه سابقاً في لغة العرب التي يخاطب بها قومه ويخاطبه بها قومه، وهكذا في اللغات الأخرى التي يتخاطبون بها، فإن لها أناساً يعرفون هذه المعاني، ولكن لا يلزم أن تكون المعاني في مثل تلك المعاني من كل الوجوه، لكن فيه التشابه في الأصل، أصل المعنى، ولا يلزم إذا قلت أن الذرة سميعة بصيرة، وأن الإنسان سميع بصير، لا يلزم من هذا أن يكون الإنسان شبيهاً بالذرة أو الذرة شبيهة بالإنسان، وهكذا أشباه ذلك، فإن أكمل التفاوت موجود حتى في المخلوقات، تفاوت عظيم بين الذرة وبين الإنسان، وبين البعير وبين الذرة وأشباه ذلك، فالتفاوت الذي بين أسماء الله وصفاته وبين صفات المخلوقين أعظم وأكبر، فلا يلتقي هذا مع هذا، بل بينهما بون عظيم، وإن كان أصل الاشتراك في المعاني معروفاً، إذ به عرف المعنى، فالسمع معروف للأصوات، والبصر للمرئيات، بهذا يعرف المعنى ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج:٦١] معناه أنه يسمع الأصوات ويرى الأشياء، كما أن

ابن آدم يسمع ويرى، ولكن ليس السميع كالسميع وليس البصير كالبصير، وهكذا كونه عليماً والإنسان عليم، فالله يسمى عالما، والله جل وعلا قال: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨] والعلماء لكن ليس العليم كالعليم، وهكذا العبد له إرادة ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [آل عمران:١٥٢] ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان:٣٠] هذا له مشيئة وهذا له مشيئة، هذا له إرادة وهذا له إرادة، معروف المعنى ما هو المعنى، لكن ليست إرادة الله التي فيها كل شيء وهو قادر على كل شيء مثل إرادة المخلوق الضعيفة المحدودة، وهكذا بقية الصفات.

وهذا الذي اشتبه على الجهمية والمعتزلة، وظنوا أن هذا القدر المشترك، وأن هذا الأصل الذي هو المضاف، أن هذا يوجب التشبيه، فأبطلوا هذا ونفوه، حتى عطلوا الله من صفاته حذراً من هذا التشبيه بزعمهم، وأولئك الجهلة الآخرون المشبهة ظنوا أن هذا الأصل المشترك وهذا القدر المشترك يوجب التشبيه، فقالوا يد كأيدينا ووجه كوجوهنا وعلم كعلومنا وسمع كأسماعنا، فوقعوا في التشبيه الباطل الذي أبطله الله بقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص:٤] ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] فهؤلاء حادوا عن الصواب لغلوهم في الإثبات، والجهمية وأشباههم حادوا عن الصواب لغلوهم في التنزيه، فلا أفلح هؤلاء ولا هؤلاء، أما أهل السنة ففازوا بالتوفيق وفازوا بالفلاح، وأثبتوا القدر المشترك، وأثبتوا الأصول ونفوا المشابهة والتمثيل.أهـ

* * *

وإن كانت الإشارة إلى ما يحس بالباطن، مثل الجوع والشبع والري والعطش والحزن والفرح، فإنه لا يعرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه، فإذا وجده أشير له إليه، وعرف أن اسمه كذا، والإشارة تارة تكون إلى جوع نفسه أو عطش نفسه، مثل أن يراه أنه قد جاع فيقول له: جعت، أنت جائع، فيسمع اللفظ ويعلم ما عينه بالإشارة أو ما يجري مجراها من القرائن التي تعين المراد، مثل نظر أمه إليه في حال جوعه، وإدراكه بنظرها أو نحوه أنها تعني جوعه، أو يسمعهم يعبرون بذلك عن جوع غيره.

إذا عرف ذلك فالمخاطب المتكلم إذا أراد بيان معان، فلا يخلو إما أن يكون مما أدركها المخاطب المستمع بإحساسه وشهوده، أو بمعقوله، وإما أن لا يكون كذلك، فإن كانت من القسمين الأولين لم يحتج إلا إلى معرفة اللغة، بأن يكون قد عرف معاني الألفاظ المفردة ومعنى التركيب، فإذا قيل له بعد ذلك: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾، أو قيل له: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ونحو ذلك، فهم المخاطب بما أدركه بحسه، وإن كانت المعاني التي يراد تعريفه بها ليست مما أحسه وشهده بعينه، ولا بحيث صار له معقول كلي يتناولها حتى يفهم به المراد بتلك الألفاظ، بل هي مما لا يدركه بشيء من حواسه الباطنة والظاهرة، فلا بد في تعريفه من طريق القياس والتمثيل والاعتبار بما بينه وبين معقولات الأمور التي شاهدها من التشابه والتناسب، وكلما كان التمثيل أقوى، كان البيان أحسن، والفهم أكمل.

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لما بين لنا أموراً لم تكن

معروفة قبل ذلك، وليس في لغتهم لفظ يدل عليها بعينها، أتى بألفاظ تناسب معانيها تلك المعاني، وجعلها أسماء لها، فيكون بينها قدر مشترك، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والإيمان، والكفر، وكذلك لما أخبرنا بأمور تتعلق بالإيمان بالله وباليوم الآخر، وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم ألفاظ تدل عليها بعينها، أخذ من اللغة الألفاظ المناسبة لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعاني الغيبية، والمعاني الشهودية التي كانوا يعرفونها، وقرن بذلك من الإشارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المراد، كتعليم الصبي، كما قال ربيعة بن أبي عبدالرحمن: الناس في حجور علمائهم كالصبيان في حجور آبائهم[1].

وأما ما يخبر به الرسول من الأمور الغائبة، فقد يكون مما أدركوا نظيره بحسهم وعقلهم، كإخبارهم بأن الريح قد أهلكت عاداً، فإن عاداً من جنسهم والريح من جنس ريحهم، وإن كانت أشد، وكذلك غرق فرعون في البحر، وكذا بقية الأخبار عن الأمم الماضية، ولهذا كان الإخبار بذلك فيه عبرة لنا، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وقد يكون الذي يخبر به الرسول ما لم يدركوا مثله الموافق له في الحقيقة من كل وجه، لكن في مفرداته ما يشبه مفرداتهم من بعض الوجوه، كما إذا أخبرهم عن الأمور الغيبية المتعلقة بالله واليوم الآخر، فلا بد أن يعلموا معنى مشتركاً وشبهاً بين مفردات تلك الألفاظ وبين مفردات ما علموه في الدنيا بحسهم وعقلهم.

(١) أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢٥٩، وأورده ابن القيم في إعلام الموقعين ٢/ ١٩٦.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: مثل ما تقدم في السميع والبصير والقدير والعليم، فإن جنس هذه الأشياء معروفة معلومة لهم، ويعرف قدراً مميزاً بين هذه الأسماء، مشتركاً بين هذه الأسماء، وإن كان الذي يختص بالله سبحانه خاصاً به، وكذلك ما يكون للمخلوقين خاصاً بهم، ولكن بين الجميع قدراً مشتركاً به فُهِمَ المعنى، كذلك ما في الجنة من الحرير والحور العين والرمان والعنب وأشباه ذلك له وجوده في الدنيا، هذا القدر مشترك، رمان ورمان، نخل ونخل، حرير وحرير، وإن كان الذي في الجنة لا يشبه ما في الدنيا في الحقيقة، الذي في الجنة أعظم وأكمل مما في الدنيا وأحسن وأنفع، ولكن جنس القدر المشترك عرف به هذا من هذا، نعرف أن الحرير غير الصوف وغير القطن، وكذلك يعرف أن ما في الجنة من العنب والرمان وأنواع الفواكه ليس من مثله في الدنيا، كما قال ابن عباس: «**ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء**»(١) الأسماء مشتركة، أما الحقائق فغير الحقائق، الحقائق التي في الجنة أكمل وأعظم، فلبن الجنة غير لبن الدنيا، حور الجنة غير حور الدنيا، عسلها غير عسل الدنيا وهكذا، إنما هي أسماء تجانس في اللفظ، ما في الدنيا، وهناك بينهما قدر مشترك، فالعسل شيء حلو واللبن شيء معروف والخمر شيء معروف، لكن ما في الدنيا غير ما في الآخرة، في الجنة لا يقتضي بولاً ولا غائطاً ولا مضرة، والخمر لا تضر العقول ولا تضر الأبدان، أما خمر الدنيا فيضر الأبدان والعقول، ولبن الدنيا وعسلها وفواكهها كلها تسبب في الدنيا بولاً وغائطاً وأشياء أخرى، والذي في

---

(١) تفسير ابن كثير: سورة البقرة، آية (٢٥) وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٤٧٣: رواه البيهقي موقوفاً بسند جيد.

الجنة لا يسبب ذلك، بل كله نعيم دائم ليس فيه أذى، ولا يفضي إلى غائط ولا بول ولا بصاق ولا مخاط ولا غير ذلك، بل إنما هو جشاء ورشح المسك بدون أي أذى.أهـ

❊ ❊ ❊

فإذا كان ذلك المعنى الذي في الدنيا لم يشهدوه بعد، ويريد أن يجعلهم يشهدونه مشاهدة كاملة ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعنى الغائب، أشهدهم إياه، وأشار لهم إليه، وفعل قولاً يكون حكاية له وشبهاً، به يعلم المستمعون أن معرفتهم بالحقائق المشهودة هي الطريق التي يعرفون بها الأمور الغائبة.

فينبغي أن يعرف هذه الدرجات:

أولها: إدراك الإنسان المعاني الحسية المشاهدة.

وثانيها: عقله لمعانيها الكلية.

وثالثها: تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعاني الحسية والعقلية.

فهذه المراتب الثلاث لا بد منها في كل خطاب، فإذا أخبرنا عن الأمور الغائبة فلا بد من تعريفنا المعاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الذي بينهما، وذلك بتعريفنا الأمور المشهودة، ثم إن كانت مثلها لم يحتج إلى ذكر الفارق، كما تقدم في قصص الأمم، وإن لم يكن مثلها بين ذلك بذكر الفارق، بأن يقال: ليس ذلك مثل هذا، ونحو ذلك.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: كما قال في حق ذاته وصفاته ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤]أهـ.

* * *

وإذا تقرر انتفاء المماثلة كانت الإضافة وحدها كافية في بيان الفارق،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: إذا أضفت الشيء إلى الله فإن العبد كاف، فقد تقرر انتفاء المماثلة، وقد تقرر أن ما في الدنيا لا يشبه ما في الآخرة، فإذا عرف هذه الأصول فنسبة الشيء إلى الله كافية في أنه ليس مجرد ذات، لأنه قد تقرر في الأصول أنه سبحانه لا يشابه خلقه لا في ذاته ولا في صفاته، وهكذا ما في الجنة لا يشبه ما في الدنيا، وإنما هو الأسماء والقدر المشترك، فإذا قيل هذا من لبن الجنة، أو في الجنة كذا وكذا؛ فهو غير ما في الدنيا من ريح ذلك الشيء، فنعيم الدنيا غير نعيم الآخرة، ونساء الدنيا غير نساء الآخرة، ورمان الدنيا غير رمان الآخرة، وخمر الدنيا غير خمر الآخرة وهكذا، فنسبتها إلى الجنة كافية في بيان الفرق.أهـ

* * *

وانتفاء التساوي لا يمنع وجود القدر المشترك الذي هو مدلول اللفظ المشترك، وبه صرنا نفهم الأمور الغائبة، ولولا المعنى المشترك ما أمكن ذلك قط.

قوله: (ولا شيء يعجزه) .

ش: لكمال قدرته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ **لا يؤده أي: لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه، فهذا النفي**

لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ لكمال عدله ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لكمال علمه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ لكمال قدرته ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لكمال حياته وقيوميته ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لكمال جلاله وعظمته وكبريائه،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني جميع النفي في الكتاب والسنة في حق الله ليس نفياً محضاً، ولكنه نفي يستلزم إثبات الكمال، نفي يستلزم إثبات الكمالات «ولا شيء يعجزه» معناه إثبات كمال القدرة ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] معناه إثبات كمال الحياة والقيومية، نفي المشابهة معناه إثبات صفة الكمال التام الذي لا يشبهه شيء.أهـ

* * *

وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه، ألا ترى أن قول الشاعر:

قبيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة(١)

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني لعجزهم وخوفهم لا يقع منهم شيء من هذا.أهـ

* * *

(١) بيت لقيس بن عمرو بن مالك، ويسمى النجاشي، وفيه:

إذا الله جازى أهل لؤم بذمة ... فجازى بني العجلان رهط ابن مقبل

قبيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

الإصابة لابن حجر ٥/ ٢٦٤ (٨٨٥٤) النجاشي.

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده، وتصغيرهم بقوله قبيلة علم أن المراد عجزهم وضعفهم، لا كمال قدرتهم.

وقول الآخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عـدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

لما اقترن بنفي الشر عنهم ما يدل على ذمهم، علم أن المراد عجزهم وضعفهم أيضاً.

ولهذا يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصلاً، والنفي مجملاً، عكس طريقة أهل الكلام المذموم، فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل، يقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذي لون ولا رائحة ولا طعم، ولا مجسة ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض، وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ولا يجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم، ولا يوصف بأنه متناه، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار إلى آخر ما نقله أبوالحسن الأشعري رحمه الله عن المعتزلة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: كل هذا من النفي الذي لا أصل له، بل هذا من التكلف والتنطع الذي لا أصل له، أما قاعدة أهل السنة والجماعة، أنهم لا ينفون عن الله عز وجل ما لم يجيء الشرع بنفيه،

ولا يثبتون له ما لم يرد إثباته، بل أسماؤه وصفاته كلها توقيفية، ويجب أن يثبت لله عز وجل ما أثبته لنفسه، وأن ينفى عنه ما نفاه عن نفسه، وأن يمسك عما سوى ذلك، فلا يأتي الإنسان بشيء من كيسه لا بنفي ولا بإثبات، بل يتوقف عما لم ترد به النصوص، فينفي ما نفاه الله ورسوله، ويثبت ما أثبته الله ورسوله، ويسكت عما سوى ذلك، قال الإمام أحمد رحمه الله: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام، لا يتجاوز القرآن والحديث»(١) وأهل الكلام لما ضيعوا الأصول حرموا الوصول إلى الخير، ووقعوا في أشياء أوجدت في النفس الشر والقيل والقال، وهم في غنية عن ذلك، قد حملهم جهلهم وضلالهم وغلوهم في التنزيه حتى وقعوا في التعطيل.

ولا مجسة معناه لا يمس.أهـ.

* * *

وفي هذه الجملة حق وباطل، ويظهر ذلك لمن يعرف الكتاب والسنة، وهذا النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب، فإنك لو قلت للسلطان: أنت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك! لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقاً، وإنما تكون مادحاً إذا أجملت النفي فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل، فإذا أجملت في النفي أجملت في الأدب.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ١٧٥-١٨٥، وابن بطة في الإبانة (٢٥٢) ٣/ الرد على الجهمية - باب جامع من أحاديث الصفات رواها الأئمة والشيوخ الثقات، وطبقات الحنابلة ١/ ٢٤١-٢٤٦.

والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة، والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات، ولا يتدبرون معانيها، ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده، وأما أهل الحق والسنة والإيمان فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده، والذي قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضاً جملياً، أو يبينوا حاله تفصيلاً، ويحكم عليه بالكتاب والسنة، لا يحكم به على الكتاب والسنة.

والمقصود: أن غالب عقائدهم السلوب، ليس بكذا، ليس بكذا، وأما الإثبات فهو قليل، وهي أنه عالم قادر حي، وأكثر النفي المذكور ليس متلقى عن الكتاب والسنة، ولا عن الطرق العقلية التي سلكها غيرهم من مثبتة الصفات، فإن الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ففي هذا الإثبات ما يقرر معنى النفي، ففهم أن المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال، فهو سبحانه وتعالى موصوف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، ليس كمثله شيء في صفاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله، مما أخبرنا به من صفاته، وله صفات لم يطلع عليها أحد من خلقه، كما قال رسوله الصادق ﷺ في دعاء الكرب: «اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي»[1]، وسيأتي التنبيه

(١) صحيح، وإن أعله الذهبي بجهالة أبي سلمة، وتبعته عليه برهة من الزمن، فقد تبين لي فيما بعد أن أبا سلمة هذا ثقة معروف، وأن إسناده متصل صحيح، في تحقيق أجريته عليه، لا أظن أحدا سبقني إليه، وأودعته في «الأحاديث الصحيحة» (١٩٩).أهـ ألباني.

على فساد طريقتهم في الصفات إن شاء الله تعالى.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وجِلاء: الصقل، وهذا الذي قاله الشارح كلام جيد، قد نبه عليه أهل العلم قبله، وقد رد في ذلك أيضاً أبوالعباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ورد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة وغيرهم، وهكذا العلامة ابن القيم رحمه الله في كتبه، كالصواعق وغيرها، هذه عادتهم، السلوب في وصفهم ربهم، السلوب والنفي، والإثبات قليل، ليس بكذا وليس بكذا وليس بكذا وليس بكذا وليس بكذا، ضد طريقة الكتاب والسنة، أما الكتاب والسنة فطريقتهما الإثبات المفصل والنفي المجمل ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢] والذي يختص بالنفي قليل ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص:٣-٤] ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ [الأنعام:١٠١] في الغالب كله النفي المجمل المتضمن إثبات صفات الكمال، ليس نفياً مجرداً، بل نفي يتضمن إثبات الكمالات لله سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] يعني لكماله وكونه موصوفاً بالمثل الأعلى، يعني في أكمل الصفات، في علمه وقدرته وسمعه وبصره وحياته وقيوميته وغير ذلك، فإذا تأملت القرآن العظيم وجدته يصف الرب عز وجل بالصفات المفصلة ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤] وهكذا ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٧٣] ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج:٧٥] ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٢٨] ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٣٩] إلى غير ذلك، أما النفي المجمل فهو قليل ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة:٢٢] يعني لكماله ما له مثيل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] لكماله ما له مثيل ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص:٣-٤] لكماله ليس له ولد وليس بمولود وليس بوالد وليس له كفؤ، فهذا نفي يتضمن إثبات غاية الكمال لله سبحانه وتعالى، وبهذا تعلم أن أهل الكلام ونفاة الصفات والملحدين فيها في طريق آخر غير طريق الكتاب والسنة، لهم طريق آخر، طريق مفضٍ إلى الهلاك وإلى التعطيل والإلحاد وإنكار الذات بالكلية، نسأل الله العافية، إذ من لا صفة له لا وجود له.أهـ.

* * *

وليس قول الشيخ رحمه الله تعالى: «ولا شيء يعجزه» من النفي المذموم، فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز، وهو كمال العلم والقدرة، فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل، وإما من عدم علمه به، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة، وهو على كل شيء قدير، وقد علم ببدايه[1] العقول والفطر

(١) قال شاكر: «بدايه» جمع بديهة، وأصلها بالهمزة «بدائه» ثم سهلت الهمزة فجعلت ياء.

كمال قدرته وعلمه، فانتفى العجز، لما بينه وبين القدرة من التضاد، ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، تعالى الله عن ذكر ذلك علواً كبيراً .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني إذا تخلف المطلوب فهو إما لعجز وإما لجهل، والله منزه عن ذا وذا، ليس بجاهل بل يعلم كل شيء، وليس بعاجز من جهة القوة، بل هو القوي العظيم القادر على كل شيء، فلهذا إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون، لكمال العلم وكمال القدرة، فلا راد للإرادة والمشيئة، فإذا شاء الشيء كان ولا يتخلف، بخلاف المخلوق فإنه يتخلف مراده كثيراً، إما لجهله بالمطلوب وعدم علمه به أو عدم إحاطته بعلمه، وإما لضعف وعجز في القوة، لو أراد وعلم ما يستطيع، فلهذا يتخلف كثير من مراده.أهـ.

* * *

قوله: (ولا إله غيره) .

ش: هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم، كما تقدم ذكره، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال، ولهذا ـ والله أعلم ـ لما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، قال بعده: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطاني: هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره، فقال تعالى: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني لا إله حق، الناس لهم آلهة كثيرة، قريش لها آلهة، الفرس لهم آلهة، الروم لهم آلهة، بقية

الوثنين لهم آلهة لا يحصيها أحد إلا الله، آلهتهم لا تحصى من الجماد والحيوان، لكنها كلها باطلة، سوى الإله الحق وهو الله وحده سبحانه وتعالى، ولهذا قال جل وعلا عن المشركين لما قال لهم الرسول: «قولوا لا إله إلا الله»(١) قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥] ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات:٣٦] وقال: ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [هود:١٠١] فسمى معبوداتهم آلهة، هناك آلهة، العزى إله عندهم، اللات إله عندهم، مناة إله عندهم، بقية الأصنام التي حول الكعبة، هبل إله عندهم «أعل هبل» كما قال أبوسفيان(٢)، لكنها آلهة لا أساس لها، باطلة، هم الذين صنعوها، هم الذين ألهوها ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم:٢٣] أما الإله الحق فهو الله، ولهذا قدر العلماء في خبر «لا» حق، لا إله حق، وبهذه الكلمة «حق» تنتهي الآلهة كلها وتبطل، ومن فسرها بغير موجود فهو باطل، كلامه ليس بصحيح.أهـ.

* * *

وقد اعترض صاحب المنتخب على النحويين في تقدير الخبر في لا

---

(١) أخرجه أحمد وابن سعد في الطبقات الكبرى والبيهقي في دلائل النبوة، وقد تقدم.

(٢) رواه البخاري (٤٠٤٣) كتاب المغازي/ باب غزوة أحد،و (٣٠٣٩) كتاب الجهاد والسير / باب ما يكره من التنازع والاختلاف وعقوبة من عصى إمامه، وأحمد ٤/ ٢٩٣ وأبو داود (٢٦٦٢) والنسائي ٢/ ٢٦ والطيالسي (٧٢٥) وابن حبان (٤٨٣٨) وابن سعد ٢/ ٤٧ عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

إله إلا هو، فقالوا: تقديره: لا إله في الوجود إلا الله[(١)]، فقال:

يكون ذلك نفياً لوجود الإله، ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في التوحيد الصرف من نفي الوجود؛ فكان إجراء الكلام على ظاهره والإعراض عن هذا الإضمار أولى.

(١) كتب سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، جزاه الله كل خير، على هذا الموضع بالتعليق التالي: ما قاله صاحب المنتخب ليس بجيد، وهكذا ما قاله النحاة وأيده الشيخ أبو عبد الله المرسي من تقدير الخبر بكلمة «في الوجود» ليس بصحيح، لأن الآلهة المعبودة من دون الله كثيرة وموجودة، وتقدير الخبر بلفظ «في الوجود» لا يحصل به المقصود من بيان حقيقة ألوهية الله سبحانه، وبطلان ما سواها، لأن لقائل أن يقول: كيف تقولون لا إله في الوجود إلا الله، وقد أخبر الله سبحانه عن وجود آلهة كثيرة للمشركين، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ الآية؟

فلا سبيل إلى التخلص من هذا الاعتراض وبيان عظمة هذه الكلمة وأنها كلمة التوحيد المبطلة لآلهة المشركين وعبادتهم من دون الله، إلا بتقدير الخبر بغير ما ذكره النحاة، وهو كلمة «حق» لأنها هي التي توضح بطلان جميع الآلهة وتبين أن الإله الحق والمعبود هو الله وحده، كما نبه على ذلك جمع من أهل العلم، منهم أبو العباس ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم وآخرون رحمهم الله.

ومن أدلة ذلك قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ فأوضح سبحانه في هذه الآية أنه هو الحق وأن ما ادعاه الناس من دونه هو الباطل، فشمل ذلك جميع الآلهة المعبودة من دون الله من البشر والملائكة والجن وسائر المخلوقات، واتضح بذلك أنه المعبود بالحق وحده، ولهذا أنكر المشركون هذه الكلمة وامتنعوا من الإقرار بها لعلمهم بأنها تبطل آلهتهم، لأنهم فهموا أن المراد بها نفي الألوهية بحق عن غير الله سبحانه، ولهذا قالوا جواباً لنبينا محمد ﷺ لما قال لهم: «**قولوا لا إله إلا الله**» ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ وقالوا أيضاً: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ وما في معنى ذلك من الآيات.

وبهذا التقدير يزول جميع الإشكال ويتضح الحق المطلوب.

والله ولي التوفيق. أهـ ألباني.

وأجاب أبوعبدالله محمد بن أبي الفضل المرسي(١) في ري الظمآن فقال: هذا كلام من لا يعرف لسان العرب، فإن إله في موضع المبتدأ على قول سيبويه، وعند غيره اسم لا، وعلى التقديرين فلا بد من خبر المبتدأ، وإلا فما قاله من الاستغناء عن الإضمار فاسد.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: «وإلا» زائدة لا محل لها، ولكن: «فما قاله من الاستغناء..إلخ».

وقد صدق، فلا بد من خبر، لأننا إذا قلنا ما هنا خبر، معناه ما هنا آلهة موجودة، مثل لا شمس إلا الشمس، ما هنا ثبوت بالنسبة إلى علمنا، بالنسبة إلى هذه الشمس الموجودة ليس هناك شمس مشرقة، فإذا قلنا لا إله إلا الله يعني ما فيه آلهة موجود، معناه أن آلهة المشركين باطلة غير موجودة، وهي باطلة لكن لها وجود، معناه أن آلهة المشركين غير موجودة، وهذا لا يستقيم، آلهة المشركين موجودة، لكن النفي يتوجه إلى

---

(١) في الأصل: المرشي، وقال الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله والمرسي هذا: هو شرف الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل المرسي الأندلسي، «الأديب النحوي المفسر المحدث الفقيه» كما وصفه ياقوت. لقيه ياقوت بمصر سنة ٦٢٤هـ، وأخبره أن مولده سنة ٥٧٠ هـ، وذكر كثيراً من مؤلفاته: منها: «تفسير القرآن، سماه: ري الظمآن في تفسير القرآن، كبير جداً، قصد فيه ارتباط الآي بعضها ببعض». انظر ترجمته في «معجم الأدباء» ٧: ١٦-١٧. وتوفي شرف الدين هذا في طريق العريش سنة ٦٥٥هـ. وترجمه ابن كثير في التاريخ ١٣: ١٩٧، وابن العماد في «الشذرات» ٥: ٢٦٩. وهو الذي سمع منه رضي الدين الطبري «صحيح ابن حبان»، كما أثبتنا ذلك في مقدمة «صحيح ابن حبان» ص: ٢٧. ومما يستغرب من شأنه، ما ذكره ياقوت: أنه «كانت له كتب في البلاد التي يتنقل فيها، بحيث لا يستصحب كتباً في سفره، اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر إليه» رحمه الله.
قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: وهذا يدل على عناية عظيمة بجمع الكتب، حتى لا يتكلف نقل كتب، هذا من العناية العظيمة والشغف العظيم بالكتب والحرص عليها دائماً. أهـ

بطلانها لا إلى وجودها، النفي يتوجه إلى إبطال عبادتهم لها، لأنها آلهة باطلة، ولا يتوجه النفي إلى إنكار ذواتها وأنها غير موجودة، بل هي موجودة.أهـ.

❊ ❊ ❊

وأما قوله: «إذا لم يضمر يكون نفياً للماهية» فليس بشيء، لأن نفي الماهية هو نفي الوجود، لا تتصور الماهية إلا مع الوجود، فلا فرق بين «لا ماهية ولا وجود». وهذا مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة، فإنهم يثبتون ماهية عارية عن الوجود، «وإلا الله» مرفوع، بدلاً من «لا إله» لا يكون خبراً لـ «لا»، ولا للمبتدأ. وذكر الدليل على ذلك.

وليس المراد هنا ذكر الإعراب، بل المراد رفع الإشكال الوارد على النحاة في ذلك، وبيان أنه من جهة المعتزلة، وهو فاسد، فإن قولهم: «نفي الوجود» ليس تقييداً، لأن العدم ليس بشيء، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ ولا يقال: ليس قوله: «غيره» كقوله: «إلا الله»، لأن «غير» معرب بإعراب الاسم الواقع بعد «إلا»، فيكون التقدير للخبر فيهما واحداً، فلهذا ذكرت هذا الإشكال وجوابه هنا .

قوله: (قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء)

ش: قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ وقال ﷺ: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»[1]، فقول الشيخ «قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء»، هو معنى اسمه الأول والآخر، والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى

---

(١) أخرجه مسلم ٨/ ٧٨-٧٩ في حديث أوله: «وكان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول..» فذكره.أهـ ألباني.

واجب الوجود لذاته، قطعاً للتسلسل، فإنا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة، فإن الممتنع لا يوجد، ولا واجبة الوجود بنفسها، فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم، وهذه كانت معدومة ثم وجدت، فعدمها ينفي وجودها، ووجودها ينفي امتناعها، وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ يقول سبحانه: أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم؟

ومعلوم أن الشيء المحدث لا يوجد نفسه، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسه، بل إن حصل ما يوجده وإلا كان معدوماً، وكل ما أمكن وجوده بدلاً عن عدمه وعدمه بدلاً عن وجوده، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له.

وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية، وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة وأوجزها، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾.

ولا نقول: لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والأدلة النظرية: فإن الخفاء والظهور من الأمور النسبية، فربما ظهر لبعض الناس ما خفي على غيره، ويظهر للإنسان الواحد في حال ما خفي عليه في حال أخرى.

وأيضاً فالمقدمات وإن كانت خفية فقد يسلمها بعض الناس وينازع فيما هو أجلى منها، وقد تفرح النفس بما علمته من البحث والنظر ما لا

تفرح بما علمته من الأمور الظاهرة، ولا شك أن العلم بإثبات الصانع ووجوب وجوده أمر ضروري فطري، وإن كان يحصل لبعض الناس من الشبه ما يخرجه إلى الطرق النظرية.

وقد أدخل المتكلمون في أسماء الله تعالى «القديم»، وليس هو من الأسماء الحسنى، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القران: هو المتقدم على غيره، فيقال: هذا قديم، للعتيق، وهذا حديث، للجديد، ولم يستعملوا هذا الإسم إلا في المتقدم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ والعرجون القديم: الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فإذا وجد الجديد قيل للأول: قديم، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي متقدم في الزمان، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾. فالأقدم مبالغة في القديم، ومنه: القول القديم والجديد للشافعي رحمه الله تعالى، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي يتقدمهم، ويستعمل منه الفعل لازماً ومتعدياً، كما يقال: أخذت ما قدم وما حدث،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الصواب «أخذني» يعني بهرني وشوش عليّ ما قدم وما حدث، يقال قدَم يقدُم قومه هذا متعد، كما في الآية الكريمة ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ ﴾ [هود:٩٨] هذا متعد، قدم يقدم من باب نصَر، ويقال قَدِم إذا ورد البلد، قَدِم يَقدَم، ويقال قدُم بضم الدال إذا صار قديماً، هذه ثلاث لغات.

قدُم صار قديماً، قَدَم قومه، قدَم الناس يعني تقدمهم، قَدِم بمعنى ورد ودخل.

والقديم مثل ما قال المؤلف: يعبر به عن الشيء العتيق ضد الجديد، ولهذا لم يرد في أسماء الله الحسنى القديم، لكن ذكروه لأنه ضد الحادث في اعتقادهم وفي اصطلاحهم، فلهذا قال: «قديم بلا ابتداء» وجاء القرآن بالأول الذي لم يسبق ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [الحديد:٣] فالمعنى أنه سبحانه لم يزل موجوداً، وهو الذي أحدث الأشياء وخلق الأشياء سبحانه وتعالى، وهو واجب الوجود بنفسه، فهو أول بلا ابتداء، يعني لم يزل موجوداً قائماً بنفسه مستغن عن خلقه سبحانه وتعالى، وغيره مخلوق موجَد، وهو الموجِد الخالق سبحانه وتعالى، فمن أسمائه الأول الذي لم يسبقه شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، يعني الدائم الذي لا يعتريه عدم ولا فناء، بخلاف المخلوقين فإنهم يعتريهم ما يعتريهم، فهم وجدوا بعد أن كانوا معدومين، ويعتريهم ما يعتريهم من الموت والفناء والزوال والتغير والنقص والزيادة، فالله سبحانه هو الأول والآخر والظاهر والباطن، الموصوف بالصفات العلى، المسمى بالأسماء الحسنى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] سبحانه وتعالى، فله كل كمال ومنزه عن كل نقص سبحانه وتعالى.أهـ.

* * *

سؤال/ ورد في الدعاء: «وسلطانك القديم»؟

أجاب سماحة الشيخ: هذا ليس من أسمائه، هذا وصف للسلطان **«أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان**

الرجيم»(١) عندما يدخل المسجد، هذا وصف للسلطان، وصف لقدرته العظيمة، وأنها سلطة قديمة ليست حادثة، لم يزل قوياً عظيماً سبحانه وتعالى.أهـ.

* * *

ويقال: هذا قدم هذا وهو يقدمه .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني سبقه.أهـ.

* * *

ومنه سميت القدم قدماً، لأنها تقدم بقية بدن الإنسان، وأما إدخال القديم في أسماء الله تعالى، فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف، منهم ابن حزم، ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً في نفس التقدم، فإن ما تقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما يمدح به ،والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، فلا يكون من الأسماء الحسنى .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وأيضاً أسماء الله توقيفية، ليس للناس أن يحدثوا فيها أشياء، أسماء الله توقيفية وصفاته كذلك، فليس للعبد أن يحدث أشياء لم تأت بها النصوص، وإنما يوصف الله جل وعلا بما وصف به نفسه أو صفه به رسوله عليه الصلاة والسلام، لا يتجاوز القرآن والحديث، ليس للناس أن يحدثوا من عند أنفسهم أشياء،

(١) رواه أبو داود (٤٣٦) كتاب الصلاة / باب ما يقول الرجل عند دخول المسجد، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١/ ١٢٧.

هذا معنى كلام السلف رحمة الله عليهم، قال أحمد رحمه الله: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام لا يتجاوز القرآن والحديث»[١] المعنى لا يتعدى بل يقتصر على ما جاء به القرآن وعلى ما جاءت به السنة، وهذا معنى كلام غيره من السلف.

سرد الأسماء الحسنى ضعيف، رواه الترمذي وابن حبان وجماعة[٢].أهـ.

* * *

وجاء الشرع باسمه الأول، وهو أحسن من القديم، لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له، بخلاف القديم، والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني أحسن الأسماء له، الأكمل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ سبحانه وتعالى، الحسن ثابت لها بنص القرآن، لأن الحسن أكمل، حسنى وأحسن، الأحسن أكمل من الحسن، والأفضل أفضل من الفاضل، والأعلم أفضل من العالم وهكذا، لأن له الوصف الأعلى سبحانه وتعالى، هي حسنة في نفسها وهي أحسن من

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي ١/ ١٧٥-١٨٥، وطبقات الحنابلة ١/ ٢٤١-٢٤٦، وقد تقدم.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٢) كتاب الدعوات/ باب أسماء الله الحسنى بالتفصيل، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى٦/ ٣٨٢: تعيينها ليس من كلام النبي باتفاق أهل المعرفة بحديثه، وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح.

غيرها، يعني مراده أنها ليست مجرد الحسنة، هي حسنة في نفسها، بل له وصف أعلى وهو الحسنى التي هي مؤنثة أحسن.أهـ.

❊ ❊ ❊

قوله: (لايفنى ولايبيد) .

ش: إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى، قال عز من قائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ والفناء والبيد متقاربان في المعنى،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يقال باد يبيد بيداً يعني فني، وهو محل لفظ زال.أهـ.

❊ ❊ ❊

سؤال/ ألا يقال: إن القيوم يشمل القديم وإنه أعم من القديم ؟

أجاب سماحة الشيخ: القيوم القائم بنفسه سبحانه وتعالى، غير القديم.أهـ .

❊ ❊ ❊

والجمع بينهما في الذكر للتأكيد، وهو أيضاً مقرر ومؤكد لقوله: «دائم بلا انتهاء».

قوله: (ولا يكون إلا ما يريد) .

ش: هذا رد لقول القدرية والمعتزلة، فإنهم زعموا أن الله أراد الإيمان من الناس كلهم والكافر أراد الكفر، وقولهم فاسد مردود، لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح، وهي مسألة القدر

المشهورة، وسيأتي لها زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ومعنى هذا هو معنى الكلمة العظيمة المعروفة «**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**»[1] ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام:١١٢] ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ [البقرة:٢٥٣] ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس:٨٢] فأهل السنة والجماعة مجمعون على أنه سبحانه وتعالى نافذ المشيئة نافذ الإرادة، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] هذا قول أهل السنة والجماعة قاطبة، يدل عليه الكتاب والسنة، أن الله سبحانه ذو مشيئة نافذة وإرادة نافذة، أما المعتزلة والقدرية الذين قالوا إن العبد يخلق فعله؛ هؤلاء قد ضلوا عن سواء السبيل، وخالفوا الكتاب والسنة، ووقعوا في باطل عظيم، غرهم شيطانهم فيه وتأويله الباطل.

والإرادة إرادتان: إرادة شرعية، هذه بمعنى المحبة والرضا، قد يقع مرادها وقد لا يقع، مثل ما في قوله سبحانه وتعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ ﴾ [النساء:٢٨] ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء:٢٧] هذه إرادة شرعية، فهو يحبها ويرضاها سبحانه وتعالى، فقد يتوب عليهم وقد لا يقع منهم العمل الصالح، هذا إليه سبحانه وتعالى، له التصرف كما يشاء جل وعلا، هذه الإرادة الشرعية، مثل ما في الحديث: «**أردت منك ألا**

(١) قطعة من حديث رواه أبو داود (٤٩١٠) كتاب الأدب/ باب ما يقول إذا أصبح، عن عبدالحميد مولى بني هاشم عن أمه عن بعض بنات النبي ﷺ، وهو من أدعية الأذكار.

تشرك بي **فأبيت إلا الشرك**»(١) هذه الإرادة الشرعية، يعني أمرتك وأحببت منك وأردت منك أن تدع الشرك.

أما الإرادة الكونية فهي بمعنى المشيئة النافذة، لا يخرج عنها شيء، وهذا قول المؤلف: «**ولا يكون في ملكه إلا ما يريد**» يعني الإرادة الكونية التي هي بمعنى المشيئة، وقد وردت في آيات كثيرات مثل قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] هذه إرادة كونية، ومثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥] هذه إرادة كونية نافذة لا محالة.أهـ.

* * *

وسموا قدرية لإنكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضاً، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني كلتاهما يقال لهما قدرية، وهما طائفتان: القدرية المجبرة ويقال لهم الجبرية، والقدرية النفاة، والاسم على النفاة أكثر، يقصد بالقدرية النفاة أكثر، ويقال لأولئك الجبرية، وهم أصحاب جهم الذين قالوا: إن العبد مجبور، وأنه كالريشة في مهب الرياح، تلعب به الرياح كما تشاء، وليس له تصرف

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٤) كتاب أحاديث الأنبياء / باب خلق آدم وذريته، و(٦٥٣٨) كتاب الرقاق/ باب: من نوقش الحساب عذب و(٦٥٥٧) باب صفة الجنة والنار.
ومسلم (٢٨٠٥) كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وليس له إرادة وليس له فعل، هذا قول الجهمية، وهو قول فاسد، وهو غلو في القدر، هؤلاء غلوا في القدر حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، وجعلوه كاليد المرتعشة وكالريشة في مهب الهواء وأشباه ذلك.

أما القدرية النفاة فضدهم، غلوا في إثبات إرادة العبد ومشيئته، حتى قالوا: إن الأمر أنف، وأن العبد يشاء ويختار ما يريد من دون أن يكون الله شاء شيئاً من ذلك، وقالوا: إن هذا هو أقرب إلى العدل، فنفوا القدر وأساءوا الفهم عن الله وعن رسوله، نسأل الله العافية.أهـ.

* * *

أما أهل السنة فيقولون: إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً، فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها، وهذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله ـ لم يحنث ـ إذا لم يفعله وإن كان واجباً أو مستحباً، ولو قال: إن أحب الله ـ حنث ـ إذا كان واجباً أو مستحباً.

والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة قدرية كونية خلقية، وإرادة دينية أمرية شرعية، فالإرادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضى، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا مثال للإرادة

الكونية، بمعنى المشيئة.أهـ.

* * *

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية، فكقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذه كلها إرادة شرعية، قد يظن بعض الرافضة والصوفية أن أهل البيت مطهرون كلهم لا يقع منهم رجس ولا معصية، وهذا من جهلهم، فالإرادة شرعية، يعني منهم من طُهِّر ومنهم من لم يطهر، ومنهم من ذهب عنه الرجس ومنهم من لم يذهب عنه الرجس، هذه إرادة شرعية، أبولهب من أهل البيت وهو رجس، وأبو طالب كذلك من أهل البيت ولم يطهر ومات على الشرك، وكثير من أهل البيت بعد ذلك بعقود كثيرة كانوا من أعدى الناس للشريعة، قاموا بأعمال شنيعة ضد الإسلام وأهله وهم من بني هاشم،

والمقصود أن هذه إرادة شرعية، منهم من طهر ومنهم من لم يطهر ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣] يعني إذا شاء ذلك، فتكون الإرادة الشرعية.أهـ.

* * *

سؤال/ الله سبحانه أراد من أبي لهب الإيمان كوناً أم شرعاً؟

أجاب سماحة الشيخ: شرعاً لم يرده كوناً، لو أراده كوناً لوقع، لكنه ما أراده كوناً، أراده شرعاً من جميع الناس، لكن من أراده منهم كونا وقع ومن لم يرده كوناً لم يقع، فأبو طالب وأبو لهب أريد منهما الإسلام شرعاً فلم يفعلا، وأما الإرادة الكونية فقد مضت بعلم الله أنهما لا يسلمان.

فهو سبحانه وتعالى لا يكون في ملكه ما لا يريد، المعاصي والطاعات كلها بإرادته الكونية بمشيئته، ولكنه أمر بالطاعات ونهى عن المعاصي، ولكن لا يقع في ملكه ما لا يريد، فالعاصي لم يخرج عن قدر الله ولم يخرج عن قدرة الله، هكذا شاء، ولهذا قال الصحابة يا رسول الله: إذا كان كل شيء بقدر ففيم العمل؟ يعني ما وجه العمل؟ قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فسييسرون لعمل أهل الشقاوة**»[1] نسأل الله العافية.أهـ.

* * *

(١) رواه البخاري (٤٩٤٥ـ ٤٩٤٦ـ٤٩٤٧) كتاب التفسير/ باب ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ و(٦٢١٧) كتاب الأدب/ باب: الرجل ينكت الشيء بيده في الأرض، و(٦٦٠٥) كتاب القدر/ باب ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ و(٧٥٥٢) كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾.
ومسلم (٢٦٤٧) كتاب القدر/ باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وأبو داود (٢٦٤٧) كتاب السنة / باب في القدر، من حديث علي رضي الله عنه.

فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده الله، أي: لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

وأما الإرادة الكونية فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان ولم يشأ لم يكن.

والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل، وبين إرادته من غيره أن يفعل، فإذا أراد الفاعل أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة معلقة بفعله، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة لفعل الغير، وكلا النوعين معقول للناس، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك، وإن كان مريداً منه فعله.

وتحقيق هذا مما يبين فصل النزاع في أمر الله تعالى: هل هو مستلزم لإرادته أم لا؟

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني أن هذا مستلزم لإرادته الشرعية، أمره يستلزم إرادته الشرعية، فإذا أمر بأمر فذلك يستلزم أنه يحبه ويرضاه ويريده شرعا، ولكن لا يستلزم أنه أراده كوناً، فقد يأمر بشيء ولكن لا يريده من العبد كوناً، فقد سبق في علم الله أنه لا يفعل هذا الشيء، كما تقدم في أبي طالب وأبي لهب وأشباههم، وهم ماتوا على الشرك بالله، كلهم مراد منهم شرعاً أن يسلموا، وقد سبق في علم الله وإرادته الكونية أنهم لا يسلمون.أهـ.

* * *

فهو سبحانه أمر الخلق على ألسن رسله عليهم السلام بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله ،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني أراد الله، أن يخلق الله، والخلق يطلق بمعنى التقدير، أما معنى الإيجاد فهو إلى الله سبحانه وتعالى، يعني ذات الإيجاد من العدم.أهـ.

* * *

فأراد سبحانه أن يخلق ذلك الفعل ويجعله فاعلاً له، ومنهم من لم يرد أن يخلق فعله، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها من المخلوقات، غير جهة أمره للعبد على وجه البيان لما هو مصلحة للعبد أو مفسدة، وهو سبحانه ـ إذ أمر فرعون وأبا لهب وغيرهما بالإيمان ـ كان قد بين لهم ما ينفعهم ويصلحهم إذا فعلوه، ولا يلزم إذا أمرهم أن يعينهم، بل قد يكون في خلقه لهم ذلك الفعل وإعانتهم عليه وجه مفسدة من حيث هو فعل له، فإنه يخلق ما يخلق لحكمة، ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور إذا فعله، أن يكون مصلحة للآمر إذا فعله هو أو جعل المأمور فاعلاً له، فأين جهة الخلق من جهة الأمر؟ فالواحد من الناس يأمر غيره وينهاه مريداً النصيحة ومبيناً لما ينفعه، وإن كان مع ذلك لا يريد أن يعينه على ذلك الفعل، إذ ليس كل ما كان مصلحتي في أن آمر به غيري وأنصحه، يكون مصلحتي في أن أعاونه أنا عليه، بل قد تكون مصلحتي إرادة ما يضاده، فجهة أمره لغيره نصحاً غير جهة فعله لنفسه، وإذا أمكن الفرق في حق المخلوقين فهو في حق الله أولى بالإمكان .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: قد يكون فيه حكمة أنه لو فعل هذا تقع المفسدة لو حصل عليه، قد يكون كفره وشركه بالله سبحانه وتعالى، بخلاف ما لو أسلم لصار مفسدة، ونظير هذا ما ذكره العلماء عن أبي طالب، لو أسلم أبوطالب لاحتقروه ولم يبالوا به ولم

يكترثوا به، لكن لما بقي على كفره خافوا أنه يسلم، فيراعون خاطره، فكانوا يهتمون به ويكفون عن أذى النبي ﷺ لئلا يغضب أبوطالب فيسلم، فإسلامه كان مفسدة بالنسبة إلى حماية النبي ﷺ واحترامه بالنسبة إلى قريش، فمن حكمة الله أنه لا يسلم ويبقى على دين قومه، حتى يعظم ويجل عندهم ويحترموا محمداً من أجله ويكفوا عن أذاه، فهو من هذا الباب.

وكثيراً ما يقع هذا من المخلوق، فالمخلوق أقل وأحقر في بيان مقاصده، ومع هذا قد يقع، قد يأمر ويكون مصلحة في الأمر ولكن لا يكون مصلحة في الإعانة، مثل إنسان يشير عليك، يقول: فلانة لا بأس بها ينبغي أن تتزوجها، وأنا آمرك وأشير عليك أن تتزوجها، وفي نفس الأمر هو يريد أن يتزوجها، لكن لا يحب أن يعينك ويعطيك المهر حتى تتزوج، فلو تخليت عنها قال: أحب أن تتخلى عنها، حتى يتزوجها هو، لكن دينه يأمره بالنصيحة لك، نصحك أن تتزوجها وأحب لك ذلك لأنها طيبة ولأنها صالحة، ولكن لوتخليت عنها فهو أحب إليه حتى يتزوجها هو، لكن دينه أمره أن ينصحك ويحب لك هذا الشيء.أهـ .

❊ ❊ ❊

والقدرية تضرب مثلاً بمن أمر غيره بأمره، فإنه لا بد أن يفعل ما يكون المأمور أقرب إلى فعله، كالبشر والطلاقة وتهيئة المساند والمقاعد ونحو ذلك.

فيقال لهم: هذا يكون على وجهين: أحدهما: أن تكون مصلحة الأمر تعود إلى الآمر، كأمر الملك جنده بما يؤيد ملكه، وأمر السيد عبده بما يصلح ملكه، وأمر الإنسان شريكه بما يصلح الأمر المشترك بينهما، ونحو ذلك.

الثاني: أن يكون الآمر يرى الإعانة للمأمور مصلحة له، كالأمر بالمعروف، وإذا أعان المأمور على البر والتقوى فإنه قد علم أن الله يثيبه على إعانته على الطاعة، وأنه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، فأما إذا قدر أن الآمر إنما أمر المأمور لمصلحة المأمور، لا لنفع يعود على الآمر من فعل المأمور، كالناصح المشير، وقدر أنه إذا أعانه لم يكن ذلك مصلحة للآمر، وأن في حصول مصلحة المأمور مضرة على الآمر، مثل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فهذا مصلحته في أن يأمر موسى عليه السلام بالخروج، لا في أن يعينه على ذلك، إذ لو أعانه لضره قومه، ومثل هذا كثير.

وإذا قيل: أن الله أمر العباد بما يصلحهم، لم يلزم من ذلك أن يعينهم على ما أمرهم به، لاسيما وعند القدرية لا يقدر أن يعين أحداً على ما به يصير فاعلاً، وإذا عللت أفعاله بالحكمة، فهي ثابتة في نفس الأمر، وإن كنا نحن لا نعلمها، فلا يلزم إذا كان نفس الآمر له حكمة في الأمر أن يكون في الإعانة على فعل المأمور به حكمة، بل قد تكون الحكمة تقتضي أن لا يعينه على ذلك، فإنه إذا أمكن في المخلوق أن يكون مقتضى الحكمة والمصلحة أن يأمر لمصلحة المأمور، وأن تكون الحكمة والمصلحة للآمر أن لا يعينه على ذلك: فإمكان ذلك في حق الرب أولى وأحرى.

والمقصود: أنه يمكن في حق المخلوق الحكيم أن يأمر غيره بأمر ولا يعينه عليه، فالخالق أولى بإمكان ذلك في حقه مع حكمته، فمن أمره وأعانه على فعل المأمور كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وأمره

إنشاء وخلقاً ومحبة، فكان مراداً بجهة الخلق ومراداً بجهة الأمر، ومن لم يعنه على فعل المأمور كان ذلك المأمور قد تعلق به أمره ولم يتعلق به خلقه، لعدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به، ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده، وخلق أحد الضدين ينافي خلق الضد الآخر، فإن خلق المرض ـ الذي يحصل به ذل العبد لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرق به قلبه ويذهب عنه الكبرياء والعظمة والعدوان ـ يضاد خلق الصحة التي لا تحصل معها هذه المصالح، ولذلك كان خلق ظلم الظالم ـ الذي يحصل به للمظلوم من جنس ما يحصل بالمرض ـ يضاد خلق عدله الذي لا يحصل به هذه المصالح، وإن كانت مصلحته هو في أن يعدل.

وتفصيل حكمة الله عز وجل في خلقه وأمره، يعجز عن معرفته عقول البشر، والقدرية دخلوا في التعليل على طريقة فاسدة: مثلوا الله فيها بخلقه، ولم يثبتوا حكمة تعود إليه .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: قوله: والقدرية دخلوا في التعليل، التعليل أو التعطيل، الأمر محتمل، يحتمل التعليل، دخلوا في التعليل، تعليل أفعال الرب وأفعال العباد.

والتعطيل، دخلوا في تعطيل الرب عن الحكمة، حتى ألجأهم هذا الدخول إلى أن قالوا: إن العبد يخلق فعله، تعليل حكم الله، وارتفعت صدورهم في أن يكون في حكمة الله دخلٌ في عدم تمكينهم وعدم توفيقهم إلى طاعة الله ورسوله، فهم عطلوا من هذه الحيثية، يعني عطلوا الله من الصفات والحكمة المقتضية عدم توفيق هؤلاء وعدم هدايتهم.

والتعليل: يعني دخلوا في التعليل، تعليل حكم الله، وتعليل حكمة

الرب جل وعلا، وتعليل حكمته في أفعال العباد، فقاسوا الله على خلقه، وهذا منهم غلط قبيح، لأن الرب عز وجل له حكم وأسرار يطلع على بعضها البشر وبعضها لا يطلع عليها البشر، لكونه سبحانه هدى من شاء وأضل من شاء.

قالوا: لو قلنا إنه هو الذي أضلهم لكان ضد العدل، فالمعنى أنهم هم الذين أضلوا أنفسهم، ما أضلهم الله، وهذا ينافي ما جاء في نصوص القرآن ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ [الزمر:٣٧] وأخبر عن نفسه أنه أضل من شاء وهدى من شاء، ولا يلزم من هذا نفي العدل، فهو سبحانه الحكم العدل، وإن اقتضت حكمته أن لا يهدي هؤلاء وأن يضل أولئك، فهم قالوا: المخلوق لو فعل كذا وكذا، لو فعل ما يقتضي فعله شيئا يضره يكون ظالماً له، فقاسوا الرب على المخلوق.

والجبرية ما اتسعت صدورهم ولا عقولهم لهذا، ولم يروا محيصاً عن هذا الأمر إلا أن يقولوا: العبد مجبور، وليس لله حكمة وليس لله أسرار في هذا، وإنما هو يفعل ما يشاء، فالعبد مجبور بمثابة الرعدة، كيد المرتعش، يد المرتعش ليس له فيها تصرف، وبمثابة الريشة في مهب الرياح تلعب بها هكذا وهكذا، وأغصان الشجرة، وهذا غلو في إثبات القدر، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، وسلبوا الرب حكمته.

والأولون وهم القدرية النفاة غلوا في النفي، وهو إثبات العدل في زعمهم، حتى سلبوا الرب حكمته في إضلال من شاء وإذلال من شاء، وزعموا أنه لا حق له في ذلك، فدخلوا في التعطيل، تعطيل الرب جل وعلا من خلق أفعال العباد، وصاروا مشاركين للثانوية الذين قالوا بالشرك في الربوبية، بهذا المعنى، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة، سموا مجوس

هذه الأمة لكونهم أثبتوا خالقين، خلق العبد لأفعاله، هذا نوع مشاركة في الربوبية.

وإن كان التعطيل؛ دخلوا في تعطيل الرب عن الحكمة ونفيها عنه في هذا، حتى ألجأهم هذا الدخول إلى أن قالوا: العبد يخلق فعله، واتسعت صدورهم إلى أنه ليس لله دخل في عدم توفيقهم لطاعة الله وتوحيده، فهم عطلوا من هذه الحيثية، يعني عطلوا الله من الصفات والحكمة المقتضية عدم توفيق هؤلاء وعدم هدايتهم.أهـ .

* * *

قوله: (لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام)

ش: قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ قال في الصحاح: توهمت الشيء: ظننته، وفهمت الشيء: علمته، فمراد الشيخ رحمه الله: أنه لا ينتهي إليه وهم، ولا يحيط به علم.

قيل: الوهم ما يرجى كونه، أي: يظن أنه على صفة كذا، والفهم: هو ما يحصله العقل ويحيط به، والله تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته، وهو أنه أحد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وما ذاك إلا لأن الشيء إنما يدرك فهمه وتبلغه الأوهام إذا كان له نظراء، فيقاس هذا على هذا، يقاس النظير على النظير، فإذا عرفت زيداً وعمرواً وخالداً وغيرهم من البشر؛ توهمت أن فلاناً مثلهم في كذا أو مثلهم في كذا أو كذا، وما يتعلق

بالإبل أو في البقر أو في الغنم أو في أنواع الطيور؛ عرفت من هذا ما هو معروف بصفاته، فتقيس عليه الآخر، وأنه يقاربه أو يدانيه أو مثله، والرب ليس له شريك ولا مثيل ولا جنس حتى يمكن أن تبلغه الأوهام أو تدركه الأفهام، فبهذا لا يمكن أن تبلغه أوهامك، وما تتوهمه أنه على كذا وأنه كذا، ليس لك قدرة على هذا، ولا يحيط به فهمك وعلمك، لأن علمك وفهمك لم يدرك له ربًّا حتى تقيسه عليه، فلم يبق عندك إلا السمع والنقل، وهو أنك تعلمه بما نقل وبما سمعت من آيات ومن أحاديث الصفات، فليس لك قدرة إلا هذا، فلا تعلم من ربك إلا ما جاء به النقل من صفات تفصيلية، ولكن تعلم بعقلك وفهمك أنه كامل وأنه قادر وأنه على كل شيء قدير وأنه عالم، بما عرفت من خلقك وبرؤية غيرك، لأن هذا الخلق بهذا التصوير وهذا التفصيل وهذه الحكم وهذه الأسرار وهذه المنافع؛ إنما صدرت عن حكمة وعن علم وعن قدرة، ولهذا قال العلماء: الصفات توقيفية، أسماء الرب وصفاته توقيفية ليس للعقول دخل في إثباتها بالتفصيل.أهـ.

* * *

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قوله: (ولا يشبهه الأنام).

ش: هذا رد لقول المشبهة، الذين يشبهون الخالق بالمخلوق، سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وليس

المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع، فمن كلام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر: لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه. ثم قال بعد ذلك: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا. انتهى.

وقال نعيم بن حماد: من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه[(١)].

وقال إسحاق بن راهويه: من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم[(٢)].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا كله موافق للنصوص، لأن الله عز وجل أثبت لنفسه الصفات ونفى عن نفسه المماثلة، فدل ذلك على الأمر الوسط، وهو أنه سبحانه موصوف بالصفات الكاملة، منزه عن صفات النقص والعيب، فالذين شبهوا الله بخلقه غلوا في الإثبات، والذين عطلوا الصفات غلوا في التنزيه، وكلا الطرفين باطل وضلال، والحق الوسط، وهو أنه سبحانه موصوف بصفات الكمال، منزه عن صفات النقص والعيب، ولهذا قال عز وجل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] فنفى وأثبت، نفى عن نفسه المماثلة للمخلوقات، وأثبت لنفسه صفات لا تشابه صفات المخلوقين، وهكذا قال أهل العلم كأبي حنيفة وغيره، يعلم لا كعلمنا

---

(١) رواه اللالكائي ١/ ٥٨٧ (٩٣٦) سياق ماروي في تكفير المشبهة، والذهبي كما مختصر العلو (٢١٧) ص ١٨٤.

(٢) رواه اللالكائي ١/ ٥٨٨ (٩٣٧) سياق ما روي في تكفير المشبهة.

ويقدر لا كقدرتنا ويسمع لا كسمعنا ويبصر لا كبصرنا وهكذا، لأن صفاته كاملة لا تشابه صفات المخلوقين، وصفات المخلوقين ناقصة، يعتريها الزوال والذهاب والنقص، فالبصير يكون أعمى، والسميع يكون أصم، والناطق يكون أخرس، وغير هذا من الآفات، بخلاف صفات ربنا، فإن لها الكمال المطلق من كل الوجوه.أهـ.

* * *

وقال: علامة جهم وأصحابه، دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب: أنهم مشبهة، بل هم المعطلة[1] .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هم معطلة ومشبهة أيضاً، هم معطلة في نفس الأمر، وهم مشبهة أيضاً، لأنهم شبهوا الله بالناقصات والمعدومات والجمادات، فلهم تشبيه أقبح من تشبيه أولئك المشبهة.أهـ.

* * *

وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف: علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة[2]، فإنه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا يسمي المثبت لها مشبهاً، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غالية الزنادقة، القرامطة والفلاسفة، وقال: إن الله لا يقال له: عالم ولا قادر: يزعم أن من سماه بذلك فهو مشبه، لأن الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه، ومن أثبت الاسم وقال: هو مجاز، كغالية الجهمية، يزعم أن من قال: إن الله عالم حقيقة، قادر حقيقة: فهو مشبه، ومن أنكر

(١) رواه اللالكائي ١/ ٥٨٨ (٩٣٨) سياق ما روي في تكفير المشبهة.

(٢) رواه اللالكائي ١/ ٥٨٨ (٩٣٩) سياق ما روي في تكفير المشبهة.

الصفات وقال: إن الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة قال لمن أثبت الصفات: إنه مشبه، وإنه: مجسم، ولهذا كتب نفاة الصفات، من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم، كلها مشحونة بتسمية مثبتة الصفات مشبهة ومجسمة، ويقولون في كتبهم: إن من جملة المجسمة قوماً يقال لهم: المالكية، ينسبون إلى رجل يقال له: مالك بن أنس، وقوماً يقال لهم الشافعية، ينسبون إلى رجل يقال له: محمد بن إدريس!! حتى الذين يفسرون القرآن منهم، كعبد الجبار، والزمخشري، وغيرهما، يسمون كل من أثبت شيئاً من الصفات وقال بالرؤية، مشبهاً، وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا كله من التنفير من الصفات وللدعوة إلى مذهبهم الباطل، وهكذا سنة الله في عباده، كل من أثبت شيئاً رمى مقابله بما لا ينبغي، ليدعي لنفسه أنه هو الذي أصاب، فمن تجرد لتأييد الدليل والأخذ بالدليل وعدم التقليد الأعمى؛ قالوا: إنه خرج عن المذاهب، وإنه يسب المذاهب، وإنه مذهب خامس وإنه وإنه، وهكذا كل من ادعى شيئاً من الأمور التي يزعم أنها هي الحق؛ يرمي مخالفه بضد ذلك، فالجهمية والمعتزلة والأشعرية والقدرية وغيرهم كلهم يرمون مقابلهم بالتجسيم والتشبيه، ليزعموا لأنفسهم أنهم هم المصيبون، وأنهم الذين نزهوا الله، وقد غلطوا وخسروا وباءوا بالكذب على الله وعلى عباده.أهـ.

* * *

ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة

المشهورين: أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات، بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله، كما تقدم من كلام أبي حنيفة رحمه الله، أنه تعالى يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فنفى المثل وأثبت الصفة.

وسيأتي في كلام الشيخ إثبات الصفات، تنبيهاً على أنه ليس نفي التشبيه مستلزماً لنفي الصفات.

ومما يوضح هذا: أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي يستوي أفراده، فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوي أفرادها، ولهذا لما سلكت طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية، لم يصلوا بها إلى اليقين، بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب، لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافيها.

ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى، سواء كان تمثيلاً أو شمولاً، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ مثل أن يعلم أن كل كمال للممكن أو للمحدث، لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وهو ما كان كمالاً للوجود غير مستلزم للعدم بوجه ؛: فالواجب القديم أولى به، وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبر؛ فإنما استفاده من خالقه وربه ومدبره، وهو أحق به منه، وأن كل نقص وعيب في نفسه، وهو ما تضمن سلب هذا الكمال، إذا وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات ؛: فإنه يجب نفيه

عن الرب تعالى بطريق الأولى.

ومن أعجب العجب: أن من غلاة نفاة الصفات الذين يستدلون بهذه الآية الكريمة على نفي الصفات والأسماء، ويقولون: واجب الوجود لا يكون كذا ولا يكون كذا، ثم يقولون: أصل الفلسفة هي التشبيه بالإله على قدر الطاقة،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: التشبه أحسن، التشبه بالإله، يعني بالكرم والجود والعلم وكذا وكذا. أهـ.

* * *

ويجعلون هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الإنساني، ويوافقهم على ذلك بعض من يطلق هذه العبارة، ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «تخلقوا بأخلاق الله»[1]،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا لا أصل له، هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ولو صح لكان هذا في الصفات التي يحبها الرب من المخلوقين، لا يحمل على العموم، لو صح لكان المعنى في الصفات التي يحب الرب أن يتخلق بها المخلوق، وهكذا التشبه بالإله فيما يحبه ويرضاه، مثل الكرم والجود والعلم والإحسان ونحو ذلك، لأنه يحب المحسنين يحب المقسطين يحب الأجواد، التشبه بالله في هذا معناه الامتثال لأوامره التي يحبها، والمبادرة إلى الصفات التي يرضاها، لا في كل شيء، فلا يتشبه بالإله بأنه يؤله ويعبد،

---

(١) لا نعرف له أصلا في شيء من كتب السنة، ولا في الجامع الكبير للسيوطي، نعم أورده في كتابه «تأييد الحقيقة العلية» (ق٨٩/ ١) لكنه لم يعزه لأحد!. أهـ ألباني.

ولكن في أنه يجود على العباد ويحسن ويتكرم ويرحم ويعطف، إذا عطف على أخيه وأحسن إليه ورأف به، هذا شيء مطلوب، هكذا إذا عدل في أحكامه شيء مطلوب.أهـ.

* * *

فإذا كانوا ينفون الصفات، فبأي شيء يتخلق العبد على زعمهم ؟! وكما أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته تعالى، لا يشبهه شيء من مخلوقاته، لكن المخالف في هذا النصارى والحلولية والاتحادية لعنهم الله تعالى، ونفي مشابهة شيء من مخلوقاته له، مستلزم لنفي مشابهته لشيء من مخلوقاته، فلذلك اكتفى الشيخ رحمه الله بقوله: «ولا يشبهه الأنام»، والأنام: الناس، وقيل، كل ذي روح، وقيل: الثقلان، وظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ يشهد للأول أكثر من الباقي، والله أعلم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: آيات الصفات وأحاديثها أوضح من الشمس في رابعة النهار، ومعانيها أوضح من الشمس في رابعة النهار، ولكن أصحاب البدع من المشبهة والمعطلة هم الذين شوشوا على الناس وأدخلوا ما لا ينبغي، وإلا فأمر الصفات أوضح الأشياء وأبينها، وليس في الكتاب والسنة شيء أوضح من ذلك، لكن نعوذ بالله من الخذلان ومن طاعة الهوى والشيطان.أهـ.

* * *

قوله: (حي لا يموت قيوم لا ينام).

ش: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ فنفي السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقال ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» الحديث[(١)].

لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه، أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه، بما يتصف به تعالى دون خلقه، فمن ذلك: أنه حي لا يموت، لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى، دون خلقه، فإنهم يموتون، ومنه: أنه قيوم لا ينام، إذ هو مختص بعدم النوم والسنة، دون خلقه، فإنهم ينامون، وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المراد منه نفي الصفات، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال، لكمال ذاته، فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعاً ولهواً ولعباً وأن الدار الآخرة لهي الحيوان، فالحياة الدنيا كالمنام، والحياة الآخرة كاليقظة، ولا يقال: فهذه الحياة الآخرة كاملة، وهي للمخلوق؛ لأنا نقول: الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها، هو الذي وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة، فهي دائمة بإدامة الله لها، لا أن الدوام وصف لزم لها لذاتها، بخلاف حياة الرب تعالى، وكذلك سائر صفاته، فصفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

واعلم أن هذين الاسمين، أعني: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ مذكوران في القرآن معاً في ثلاث سور كما تقدم، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قيل: إنهما الاسم الأعظم، فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه وأبو سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» وهو طرف من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وسيأتي بتمامه.أهـ ألباني.

تضمن وأصدقه، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ القديم، ويدل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه، وهو معنى كونه واجب الوجود، والقيوم أبلغ من القيام لأن الواو أقوى من الألف، ويفيد قيامه بنفسه، باتفاق المفسرين وأهل اللغة، وهو معلوم بالضرورة.

وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟

فيه قولان، أصحهما: أنه يفيد ذلك، وهو يفيد دوام قيامه وكل قيامه، لما فيه من المبالغة، فهو سبحانه لا يزول ولا يأفل، فإن الآفل قد زال قطعاً، أي: لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم، بل هو الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال، موصوفاً بصفات الكمال، واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على دوامها وبقائها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً، ولهذا كان قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أعظم آية في القرآن، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ[1]، فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها .

فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة، وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام .

قوله: (خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة)

ش: قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم

---

(١) رواه مسلم ٢/ ١٩٩ عن أبي بن كعب رضي الله عنه. أهـ ألباني.

مِن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ وقال ﷺ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر الحديث، رواه مسلم[(١)].

وقوله بلا مؤنة: بلا ثقل ولا كلفة.

قوله: (مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة)

ش: الموت صفة وجودية، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ والعدم لا يوصف بكونه مخلوقاً، وفي الحديث: «أنه يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار»[(٢)].

وهو وإن كان عرضاً فالله تعالى يقلبه عيناً، كما ورد في العمل الصالح: أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة[(٣)]، وورد في القرآن: أنه يأتي على صورة الشاب

---

(١) صحيح مسلم (٨/ ١٧) ورواه أحمد أيضا ٥/ ١٦٠. أهـ ألباني.

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري وغيره. أهـ ألباني.

(٣) يشير إلى حديث البراء رضي الله عنه في عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين، وهو حديث طويل سيأتي في آخر الكتاب بتمامه في بحث عذاب القبر. أهـ ألباني.

الشاحب اللون، الحديث[١].

أي قراءة القارئ، وورد في الأعمال: أنها توضع في الميزان، والأعيان هي التي تقبل الوزن دون الأعراض، وورد في سورة البقرة وآل عمران: أنهما يوم القيامة يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف[٢]، وفي الصحيح: أن أعمال العباد تصعد إلى السماء[٣] وسيأتي الكلام على البعث والنشور إن شاء الله تعالى .

قوله: (ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً).

---

(١) رواه الدارمي (٢/ ٤٥٠-٤٥١) وابن ماجه (٣٧٨١) وأحمد (٥/ ٣٤٨و ٣٥٢) وابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٥) والحاكم (١/ ٢٥٦) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب فيقول لصاحبه: أنا الذي أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك» وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم» وبيض له الذهبي، وقال البوصيري في «الزوائد»: «إسناده صحيح». قلت: لا، فإن فيه بشير بن المهاجر، وهو صدوق لين الحديث، كما قال الحافظ في «التقريب» فمثله يحتمل حديثه التحسين، أما التصحيح فهو بعيد. أهـ ألباني.

(٢) رواه مسلم عن أبي أمامة، والحاكم عن بريدة رضي الله عنه.أهـ ألباني.

(٣) روى البخاري (١/ ٢٠٥) عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: كنا نصلي يوما وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال: «سمع الله لمن حمده» قال رجل من ورائه: ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: «من المتكلم؟» قال: أنا، قال: «رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول» ورواه الترمذي (٢/ ٢٥٤-٢٥٥) والنسائي (١/ ١٤٧) من طريق أخرى عن رفاعة به نحوه بلفظ: «لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكاً أيهم يصعد بها» وقال الترمذي: حديث حسن.

قلت: وإسناده جيد، وله شاهد من حديث عبدالله بن أبي أوفى نحوه وفيه: «والله لقد رأيت كلامك يصعد في السماء حتى فتح باب فدخل فيه» أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٥-٣٥٦) وابنه في الزوائد، ورجاله ثقات غير عبدالله بن سعيد، ذكره ابن حبان في «الثقات» (١/ ١٠٤-١٠٥).أهـ ألباني.

ش: أي: أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفاً بصفات الكمال، صفات الذات وصفات الفعل، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده، ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها، كالخلق والتصوير، والإحياء والإماتة، والقبض والبسط والطي، والاستواء والإتيان والمجيء، والنزول، والغضب والرضى، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه، لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ وغيرها: كيف استوى؟

فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول[1].

وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»[2]، لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلمًا بالأمس لا يقال: أنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم، لأنه لآفة كالصغير والخرس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفة يسمى

---

(١) اقتصر المؤلف في جواب الإمام مالك على هذا، وتتمته: «والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» يعني السؤال عن كيفية الاستواء، وقوله «معلوم» هذا هو الثابت في جواب مالك رحمه الله، وأما ما يلهج به بعض المبتدعة أنه بلفظ: «مذكور» فلا أصل له، كما بينته في مختصر العلو، ص (١٤٢).أهـ ألباني.

(٢) هو في الصحيحين وغيرهما، وسيأتي تمامه.أهـ ألباني.

متكلماً بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفي حال تكلمه يسمى متكلماً بالفعل، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته الكتابة .

وحلول الحوادث بالرب تعالى، المنفي في علم الكلام المذموم، لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة، وفيه إجمال: فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن، فهذا نفي صحيح، وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته، فهذا نفي باطل.

وأهل الكلام المذموم يطلقون نفي حلول الحوادث، فيسلم السني للمتكلم ذلك، على ظن أنه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله، فإذا سلم له هذا النفي ألزمه نفي الصفات الاختيارية وصفات الفعل، وهو غير لازم له، وإنما أتي السني من تسليم هذا النفي المجمل، وإلا فلو استفسر واستفصل لم ينقطع معه.

وكذلك مسألة «الصفة»: هل هي زائدة على الذات أم لا؟

لفظها مجمل، وكذلك لفظ «الغير» فيه إجمال، فقد يراد به ما ليس هو إياه، وقد يراد به ما جاز مفارقته له.

ولهذا كان أئمة السنة رحمهم الله تعالى لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه «غيره» ولا أنه «ليس غيره» لأن إطلاق الإثبات قد يشعر أن ذلك مباين له، وإطلاق النفي قد يشعر بأنه هو هو، إذ كان لفظ «الغير» فيه

إجمال، فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل: فإن أريد به أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها، فهذا غير صحيح، وان أريد به أن الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة، فهذا حق، ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها، وإنما يفرض الذهن ذاتاً وصفة، كلاً وحده، ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة، فإن هذا محال، ولو لم يكن إلا صفة الوجود، فإنها لا تنفك عن الموجود، وإن كان الذهن يفرض ذاتاً ووجوداً، يتصور هذا وحده، وهذا وحده، لكن لا ينفك أحدهما عن الآخر في الخارج.

وقد يقول بعضهم: الصفة لا عين الموصوف ولا غيره، هذا له معنى صحيح، وهو: أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التي يفرضها الذهن مجردة بل هي غيرها، وليست غير الموصوف، بل الموصوف بصفاته شيء واحد غير متعدد، فإذا قلت: «أعوذ بالله» فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه، وإذا قلت: «أعوذ بعزة الله»، فقد عذت بصفة من صفات الله تعالى، ولم أعذ بغير الله، وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات، فإن «ذات» في أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة، أي: ذات وجود، ذات قدرة، ذات عز، ذات علم، ذات كرم، إلى غير ذلك من الصفات، فذات كذا بمعنى صاحبة كذا: تأنيث ذو، هذا أصل معنى الكلمة، فعلم أن الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه، وإن كان الذهن قد يفرض ذاتاً مجردة عن الصفات، كما يفرض المحال، وقد قال ﷺ: «أعوذ بعزة الله

وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[١] وقال ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»[٢]، ولا يعوذ ﷺ بغير الله، وكذا قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[٣] وقال ﷺ: «ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا»[٤] وقال ﷺ: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»[٥].

وكذلك قولهم: الاسم عين المسمى أو غيره؟ وطالما غلط كثير من الناس في ذلك، وجهلوا الصواب فيه: فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده، ونحو ذلك، فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك، فالاسم ها هنا هو المراد لا المسمى، ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال.

---

(١) صحيح، أخرجه مسلم رقم (٢٢٠٢) ونصه بتمامه: عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعا في جسده منذ أسلم، فقال رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» ورواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٤٢/ ٩) وعنه أبو داود رقم (٣٨٩١) والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، بلفظ «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد» دون لفظة «وأحاذر» وكذلك رواه أحمد (٤/ ٢١٧و٦/ ٣٩٠) والحاكم (١/ ٣٤٣) وزاد «في كل مسحة» وقال: «صحيح الإسناد» وهو كما قال.أهـ ألباني.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم (٢٧٠٨) وأبو داود (٣٨٩٨-٣٨٩٩) وغيره، وسنده صحيح.أهـ ألباني

(٣) رواه مسلم وغيره، وهو من أدعية السجود.أهـ ألباني.

(٤) صحيح، أخرجه أبو داود (٥٠٤٧) وأحمد (٢/ ٥٢) بسند صحيح، وهو من أدعية الصباح والمساء.أهـ ألباني.

(٥) ضعيف، رواه ابن إسحاق بسند ضعيف معضل، وقد رواه بعضهم عنه بإسناده موصولاً، لكن فيه عنعنته، وهو مخرج في «تخريج فقه السيرة» ص(١٣٢) وفي «الضعيفة» (٢٩٣٣).أهـ ألباني.

فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم: فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى.

والشيخ رحمه الله أشار بقوله: «ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه» إلى آخر كلامه، إلى الرد على المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة، فإنهم قالوا: إنه تعالى صار قادراً على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادراً عليه، لكونه صار الفعل والكلام ممكناً بعد أن كان ممتنعاً، وأنه انقلب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي! ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما، فإنهم قالوا: إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً منه، وأما الكلام عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة، بل هو شيء واحد لازم لذاته.

وأصل هذا الكلام من الجهمية، فإنهم قالوا: إن دوام الحوادث ممتنع، وإنه يجب أن يكون للحوادث مبدأ، لامتناع حوادث لا أول لها، فيمتنع أن يكون الباري عز وجل لم يزل فاعلاً متكلماً بمشيئة، بل يمتنع أن يكون قادراً على ذلك، لأن القدرة على الممتنع ممتنعة!

وهذا فاسد، فإنه يدل على امتناع حدوث العالم وهو حادث، والحادث إذا حدث بعد أن لم يكن محدثاً فلا بد أن يكون ممكناً، والإمكان ليس له وقت محدود، وما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت فيه، وليس لإمكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهي إليه، فيجب أنه لم يزل الفعل ممكناً جائزاً صحيحاً، فيلزم أنه لم يزل الرب قادراً عليه، فيلزم جواز حوادث لا نهاية لأولها.

قالت الجهمية ومن وافقهم: نحن لا نسلم أن إمكان الحوادث لا بداية له، لكن نقول، إمكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا بداية

له، وذلك لأن الحوادث عندنا تمتنع أن تكون قديمة النوع، بل يجب حدوث نوعها ويمتنع قدم نوعها، لكن لا يجب الحدوث في وقت بعينه، فإمكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لأوله، بخلاف جنس الحوادث.

فيقال لهم: هب أنكم تقولون ذلك، لكن يقال: إمكان جنس الحوادث عندكم له بداية، فإنه صار جنس الحدوث عندكم ممكناً بعد أن لم يكن ممكناً، وليس لهذا الإمكان وقت معين، بل ما من وقت يفرض إلا والإمكان ثابت قبله، فيلزم دوام الإمكان، وإلا لزم انقلاب الجنس من الامتناع إلى الإمكان من غير حدوث شيء، ومعلوم أن انقلاب حقيقة جنس الحدوث أو جنس الحوادث، أو جنس الفعل، أو جنس الأحداث، أو ما أشبه هذا من العبارات، من الامتناع إلى الإمكان، وهو مصير ذلك ممكناً جائزاً بعد أن كان ممتنعاً من غير سبب تجدد، وهذا ممتنع في صريح العقل، وهو أيضاً انقلاب الجنس من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي، فإن ذات جنس الحوادث عندهم تصير ممكنة بعد أن كانت ممتنعة، وهذا الانقلاب لا يختص بوقت معين، فإنه ما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت قبله، فيلزم أنه لم يزل هذا الانقلاب ممكناً، فيلزم أنه لم يزل الممتنع ممكناً! وهذا أبلغ في الامتناع من قولنا: لم يزل الحادث ممكناً، فقد لزمهم فيما فروا إليه أبلغ مما لزمهم فيما فروا منه! فإنه يعقل كون الحادث ممكناً، ويعقل، أن هذا الإمكان لم يزل، وأما كون الممتنع ممكناً فهو ممتنع في نفسه، فكيف إذا قيل: لم يزل إمكان هذا الممتنع؟! وهذا مبسوط في موضعه.

فالحاصل: أن نوع الحوادث هل يمكن دوامها في المستقبل والماضي أم لا؟ أو في المستقبل فقط؟ أو الماضي فقط؟

فيه ثلاثة أقوال معروفة لأهل النظر من المسلمين وغيرهم.

أضعفها: قول من يقول، لا يمكن دوامها لا في الماضي ولا في المستقبل، كقول جهم بن صفوان وأبي الهذيل العلاف.

وثانيها قول من يقول: يمكن دوامها في المستقبل دون الماضي، كقول كثير من أهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء وغيرهم.

والثالث: قول من يقول: يمكن دوامها في الماضي والمستقبل، كما يقوله أئمة الحديث، وهي من المسائل الكبار، ولم يقل أحد يمكن دوامها في الماضي دون المستقبل.

ولا شك أن جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون: إن كل ما سوى الله تعالى مخلوق كائن بعد أن لم يكن، وهذا قول الرسل وأتباعهم من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم:

ومن المعلوم بالفطرة أن كون المفعول مقارناً لفاعله لم يزل ولا يزال معه، ممتنع محال، ولما كان تسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء، فكذا تسلسل الحوادث في الماضي لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء، فإن الرب سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال، يفعل ما يشاء ويتكلم إذا يشاء، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

والمثبت إنما هو الكمال الممكن الوجود، وحينئذ فإذا كان النوع

دائماً فالممكن والأكمل هو التقدم على كل فرد من الأفراد بحيث لا يكون في أجزاء العالم شيء يقارنه بوجه من الوجوه.

وأما دوام الفعل فهو أيضاً من الكمال، فإن الفعل إذا كان صفة كمال فدوامه دوام كمال.

قالوا: والتسلسل لفظ مجمل، لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ولا سنة، ليجب مراعاة لفظه، وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن: فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته، وهو أن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية.

والتسلسل الواجب: ما دل عليه العقل والشرع، من دوام أفعال الرب تعالى في الأبد، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيماً آخر لا نفاد له، وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزل، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر، فهذا واجب في كلامه، فإنه لم يزل متكلماً إذا شاء، ولم تحدث له صفة الكلام في وقت، وهكذا أفعاله التي هي من لوازم حياته، فإن كل حي فعال، والفرق بين الحي والميت: الفعل، ولهذا قال غير واحد من السلف: الحي الفعال.

وقال عثمان بن سعيد: كل حي فعال، ولم يكن ربنا تعالى قط في وقت من الأوقات معطلاً عن كماله، من الكلام والإرادة والفعل[1].

وأما التسلسل الممكن: فالتسلسل في مفعولاته من هذا الطرف، كما تتسلسل في طرف الأبد، فإنه إذا لم يزل حياً قادراً مريداً متكلماً، وذلك من لوازم ذاته، فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات له، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه، فإنه سبحانه

---

(١) ذكره عنه ابن القيم كما في شفاء العليل ١/ ١٥٦.

متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدماً لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

قالوا: وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده ويقضي ببطلانه، وكل من اعترف بأن الرب تعالى لم يزل قادراً على الفعل لزمه أحد أمرين، لا بد له منهما: إما أن يقول بأن الفعل لم يزل ممكناً، وإما أن يقول لم يزل واقعاً، وإلا تناقض تناقضاً بيناً، حيث زعم أن الرب تعالى لم يزل قادراً على الفعل، والفعل محال ممتنع لذاته، لو أراده لم يمكن وجوده، بل فرض إرادته عنده محال وهو مقدور له، وهذا قول ينقض بعضه بعضاً.

والمقصود: أن الذي دل عليه الشرع والعقل، أن كل ما سوى الله تعالى محدث كائن بعد أن لم يكن، أما كون الرب تعالى لم يزل معطلاً عن الفعل ثم فعل، فليس في الشرع ولا في العقل ما يثبته، بل كلاهما يدل على نقيضه.

وقد أورد أبوالمعالي في إرشاده وغيره من النظار على التسلسل في الماضي، فقالوا: إنك لو قلت: لا أعطيك درهماً إلا أعطيك بعده درهماً، كان هذا ممكناً، ولو قلت: لا أعطيك درهماً حتى أعطيك قبله درهماً، كان هذا ممتنعاً.

وهذا التمثيل والموازنة غير صحيحة، بل الموازنة الصحيحة أن تقول: ما أعطيتك درهماً إلا أعطيتك قبله درهماً، فتجعل ماضياً قبل ماض، كما جعلت هناك مستقبلاً بعد مستقبل، وأما قول القائل: لا أعطيك حتى أعطيك قبله، فهو نفي للمستقبل حتى يحصل في المستقبل ويكون قبله، فقد نفى المستقبل حتى يوجد المستقبل، وهذا ممتنع، أما نفي الماضي حتى يكون قبله ماض، فإن هذا ممكن، والعطاء المستقبل

إيتاؤه من المعطى، والمستقبل الذي له ابتداء وانتهاء لا يكون قبله ما لا نهاية له، فإن ما لا نهاية له فيما يتناهى ممتنع.

قوله: (ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري).

ش: ظاهر كلام الشيخ رحمه الله أنه يمنع تسلسل الحوادث في الماضي، ويأتي في كلامه ما يدل على أنه لا يمنعه في المستقبل، وهو قوله: «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان» وهذا مذهب الجمهور كما تقدم، ولا شك في فساد قول من منع ذلك في الماضي والمستقبل، كما ذهب إليه الجهم وأتباعه، وقال بفناء الجنة والنار، لما يأتي من الأدلة إن شاء الله تعالى.

وأما قول من قال بجواز حوادث لا أول لها، من القائلين بحوادث لا آخر لها، فأظهر في الصحة من قول من فرق بينهما، فإنه سبحانه لم يزل حياً، والفعل من لوازم الحياة، فلم يزل فاعلاً لما يريد، كما وصف بذلك نفسه، حيث يقول: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

والآية تدل على أمور:

أحدها: أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، ولا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ولما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن ما موصوله عامة، أي: يفعل كل ما

يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر: فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه عليه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراده حتى يريد من نفسه أن يجعله فاعلاً[1].

وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية، وخبطوا في مسألة القدر، لغفلتهم عنها، وفرق بين إرادته أن يفعل العبد وإرادة أن يجعله فاعلاً، وسيأتي الكلام على مسألة القدر في موضعه إن شاء الله تعالى.

الرابع: أن فعله وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعل فعل، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريده، فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، هذا هو المعقول في الفطر، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يري عباده نفسه، وأن يتجلى لهم كيف شاء، ويخاطبهم، ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله، فإنه تعالى فعال لما يريد، وإنما يتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر وجب التصديق، وكذلك محو ما يشاء، وإثبات ما يشاء، كل يوم هو في شأن، سبحانه وتعالى.

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: في الكلام هنا نقص ظاهر، ولعل أصله: «وإن أراده حتى يريد من نفسه أن (يعينه عليه و) يجعله فاعلاً، (وجد الفعل)». أهـ

والقول بأن الحوادث لها أول، يلزم منه التعطيل قبل ذلك، وأن الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلاً، ولا يلزم من ذلك قدم العالم، لأن كل ما سوى الله تعالى محدث ممكن الوجود، موجود بإيجاد الله تعالى له، ليس له من نفسه إلا العدم، والفقر والاحتياج وصف ذاتي لازم لكل ما سوى الله تعالى، والله تعالى واجب الوجود لذاته، غني لذاته، والغنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى.

وللناس قولان في هذا العالم: هل هو مخلوق من مادة أم لا؟ واختلفوا في أول هذا العالم ما هو؟

وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

وروى البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر، فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله»(١)، وفي رواية: «ولم يكن شيء

---

(١) صحيح، ورواية «معه» لم أجدها عند البخاري، وقد أخرج الحديث في موضعين من صحيحه: «بدء الخلق» و«التوحيد» بالروايتين الأخيرتين: «قبله» و«غيره» وبالأخرى منهما أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٦ و٢٧٠) ورواه أحمد (٤/ ٤٣١) بالرواية الأولى منهما، لكن بلفظ «كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء» وعزاه الذهبي في مختصر العلو (٩٨/ ٤٠) للبخاري وقال: «حديث صحيح»! انظر المقدمة (٢٧) وكلام الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث يشعر بأن هذه الرواية «معه» لم يقف عليها، فقد قال (٦/ ٢٠٦): «تنبيه: وقع في بعض الكتب في هذا الحديث: «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان» وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث، نبه على ذلك العلامة تقي الدين ابن تيمية، وهو مسلم في قوله: «وهو الآن إلى آخره» وأما لفظ: «ولا شيء معه» فرواية الباب بلفظ «ولا شيء غيره» بمعناها.

قلت: فلو كان عند الحافظ علم بهذه الرواية لذكرها، واستغنى بذلك عن الاحتجاج عليها بمعنى الرواية التي ذكرها، كما هو الظاهر، والله أعلم. أهـ ألباني.

معه» وفي رواية غيره: «وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض» وفي لفظ: «ثم خلق السماوات والأرض».

فقوله كتب في الذكر، يعني اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ يسمى ما يكتب في الذكر ذكراً، كما يسمى ما يكتب في الكتاب كتاباً.

والناس في هذا الحديث على قولين: منهم من قال: إن المقصود إخباره بأن الله كان موجوداً وحده ولم يزل كذلك دائماً، ثم ابتدأ إحداث جميع الحوادث، فجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم، وأن جنس الزمان حادث لا في زمان، وأن الله صار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتداء الفعل كان الفعل ممكناً .

والقول الثاني: المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش، كما أخبر القرآن بذلك في غير موضع، وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[1]. فأخبر ﷺ أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبل خلقه السماوات بخمسين ألف سنة، وأن عرش الرب تعالى كان حينئذ على الماء.

---

(١) صحيح، وأخرجه أيضا أحمد (٢/ ١٦٩) والترمذي وصححه دون قوله «وكان عرشه..» وهو رواية لمسلم، ورواه البيهقي في «الأسماء» (٢٦٩) وفي رواية له «وفرغ الله عز وجل من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض وعرشه على الماء بخمسين ألف سنة».أهـ ألباني.

دليل صحة هذا القول الثاني من وجوه: أحدها: أن قول أهل اليمن جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر، وهو إشارة إلى حاضر مشهود موجود، والأمر هنا بمعنى المأمور، أي الذي كونه الله بأمره، وقد أجابهم النبي ﷺ عن بدء هذا العالم الموجود، لا عن جنس المخلوقات، لأنهم لم يسألوه عنه، وقد أخبرهم عن خلق السماوات والأرض حال كون عرشه على الماء، ولم يخبرهم عن خلق العرش، وهو مخلوق قبل خلق السماوات والأرض.

وأيضاً فإنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله» وقد روي «معه» وروي «غيره» والمجلس كان واحداً، فعلم أنه قال أحد الألفاظ والآخران رويا بالمعنى، ولفظ القبل ثبت عنه في غير هذا الحديث، ففي حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه كان يقول في دعائه: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء» الحديث[1]، واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما في موضع آخر، ولهذا كان كثير من أهل الحديث إنما يرويه بلفظ القبل، كالحميدي والبغوي وابن الأثير، وإذا كان كذلك لم يكن في هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلوق.

وأيضاً: فإنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله» أو «معه» أو «غيره» «وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء» فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو «وخلق السماوات والأرض» روي بالواو وبثم، فظهر أن مقصوده إخباره إياهم ببدء خلق السماوات والأرض وما بينهما، وهي المخلوقات التي خلقت في ستة أيام، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك، وذكر السماوات والأرض بما يدل على خلقهما، وذكر ما قبلهما بما يدل على

(١) صحيح، وتقدم. أهـ ألباني.

كونه ووجوده، ولم يتعرض لابتداء خلقه له.

وأيضاً: فإنه إذا كان الحديث قد ورد بهذا وهذا، فلا يجزم بأحدهما إلا بدليل، فإذا رجح أحدهما فمن جزم بأن الرسول أراد المعنى الآخر فهو مخطئ قطعاً، ولم يأت في الكتاب ولا في السنة ما يدل على المعنى الآخر، فلا يجوز إثباته بما يظن أنه معنى الحديث، ولم يرد «كان الله ولا شيء معه» مجرداً، وإنما ورد على السياق المذكور، فلا يظن أن معناه الإخبار بتعطيل الرب تعالى دائماً عن الفعل حتى خلق السماوات والأرض.

وأيضاً: فقوله ﷺ: «كان الله ولاشيء قبله»، أو «معه»، أو «غيره»، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلاً، لأن قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، يرد ذلك، فإن هذه الجملة وهي «وكان عرشه على الماء» إما حالية، أو معطوفة، وعلى كلا التقديرين فهو مخلوق موجود في ذلك الوقت، فعلم أن المراد ولم يكن شيء من هذا العالم المشهود.

قوله: (له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق).

ش: يعني أن الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل أن يوجد مربوب، وموصوف بأنه خالق قبل أن يوجد مخلوق، قال بعض المشايخ الشارحين: وإنما قال: له معنى الربوبية ومعنى الخالق دون الخالقية، لأن الخالق هو المخرج للشيء من العدم إلى الوجود لا غير، والرب يقتضي معاني كثيرة، وهي: الملك والحفظ والتدبير والتربية وهي تبليغ الشيء كماله بالتدريج، فلا جرم أتى بلفظ يشمل هذه المعاني، وهي الربوبية. انتهى.

وفيه نظر، لأن الخلق يكون بمعنى التقدير أيضاً.

قوله: (وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم).

ش: يعني: أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيي الموتى قبل إحيائهم، فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم، إلزاماً للمعتزلة ومن قال بقولهم، كما حكينا عنهم فيما تقدم، وتقدم تقرير أنه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء.

قوله: (ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير).

ش: ذلك إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه، والكلام على «كل» وشمولها وشمول «كل» في كل مقام بحسب ما يحتف به من القرائن، يأتي في مسألة الكلام إن شاء الله تعالى.

وقد حرفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقالوا: إنه قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم، وتنازعوا: هل يقدر على مثلها أم لا؟!

ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقال: هو عالم بكل ما يعلمه وخالق لكل ما يخلقه ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها، فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء.

وأما أهل السنة، فعندهم أن الله على كل شيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج في هذا، وأما المحال لذاته، مثل كون الشيء الواحد موجوداً معدوماً في حال واحدة، فهذا لا حقيقة له، ولا يتصور وجوده، ولا يسمى شيئاً، باتفاق العقلاء، ومن هذا الباب: خلق مثل نفسه، وإعدام نفسه

وأمثال ذلك من المحال.

وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير، وإنما تنازعوا في المعدوم الممكن: هل هو شيء أم لا؟

والتحقيق: أن المعدوم ليس بشيء في الخارج، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون، ويكتبه، وقد يذكره ويخبر به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ فيكون شيئاً في العلم والذكر والكتاب، لا في الخارج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، أي: لم تكن شيئاً في الخارج وإن كان شيئاً في علمه تعالى، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على المشبهة، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة، فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال، وليس له فيها شبيه، فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير، فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه، إذ صفات المخلوق كما يليق به، وصفات الخالق كما يليق به.

ولا تنف عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق بربه وما يجب له وما يمتنع عليه، وأنصحهم لأمته، وأفصحهم وأقدرهم على البيان، فإنك إن نفيت شيئاً من ذلك كنت كافراً بما أنزل على محمد ﷺ،

وإذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه، فليس كمثله شيء، فإذا شبهته بخلقه كنت كافراً به.

قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري:

من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهاً(١).

وسيأتي في كلام الشيخ الطحاوي رحمه الله «ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه».

وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى، فقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فجعل سبحانه مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال لأعدائه المشركين وأوثانهم، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمال كله لله وحده، فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى، وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية، والمعاني الثبوتية، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان بها أكمل وأعلى من غيره.

ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل، كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان، لأنهما إن تكافآ من كل وجه، لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ، فالموصوف به أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير.

واختلفت عبارات المفسرين في المثل الأعلى، ووفق بين أقوالهم

---

(١) رواه اللالكائي (١/ ٥٨٧) وسيأتي إن شاء الله.

من وفقه الله وهداه، فقال: المثل الأعلى يتضمن: الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي، والخبر عنها وذكرها، وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه .

فها هنا أمور أربعة :

الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه وتعالى، سواء علمها العباد أو لا، وهذا معنى قول من فسرها بالصفة .

الثاني: وجودها في العلم والشعور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: أنه ما في قلوب عابديه وذاكريه، من معرفته وذكره، ومحبته وجلاله، وتعظيمه، وخوفه ورجائه، والتوكل عليه والإنابة إليه.

وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشركه فيه غيره أصلاً، بل يختص به في قلوبهم، كما اختص به في ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين: إن معناه: أهل السماوات يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض كذلك، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحدها، فأهل الأرض معظمون له، مجلون، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجبروته، قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها من العيوب والنقائص والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده، والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى .

فعبارات السلف كلها تدور على هذه المعاني الأربعة، فمن أضل

ممن يعارض بين قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وبين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟

ويستدل بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ على نفي الصفات ويعمى عن تمام الآية وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾! حتى أفضى هذا الضلال ببعضهم، وهو أحمد بن أبي دؤاد القاضي، إلى أن أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، حرف كلام الله لينفي وصفه تعالى بأنه السميع البصير كما قال الضال الآخر، جهم بن صفوان: وددت أني أحك من المصحف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (١) فنسأل الله العظيم السميع البصير أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، بمنه وكرمه.

وفي إعراب ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾ وجوه، أحدها: أن الكاف صلة زيدت للتأكيد، قال أوس بن حجر:

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه في الفضائل

وقال آخر: ما إن كمثلهم في الناس من بشر

وقال آخر: ومثلي كمثل جذوع النخيل

فيكون «مثله» خبر «ليس شيء» وهذا وجه قوي حسن، تعرف العرب معناه في لغتها، ولا يخفى عنها إذا خوطبت به، وقد جاء عن العرب أيضاً زيادة الكاف للتأكيد في قول بعضهم:

وصاليات ككما يؤثفين

وقول الآخر: فأصبحت مثل كعصف مأكول

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة ٢/ ٩٢ (٣٢٢-٣٢٣) ٣/ باب ما روي في جهم وشيعته الضلال.

الوجه الثاني: أن الزائد «مثل» أي: ليس كهو شيء، وهذا القول بعيد، لأن «مثل» اسم والقول بزيادة الحرف للتأكيد أولى من القول بزيادة الاسم.

الثالث: أنه ليس ثم زيادة أصلاً، بل هذا من باب قولهم: مثلك لا يفعل كذا، أي: أنت لا تفعله، وأتى بمثل للمبالغة، وقالوا في معنى المبالغة هنا: أي: ليس كمثله مثل لو فرض المثل، فكيف ولا مثل له. وقيل غير ذلك، والأول أظهر.

قوله: (خلق الخلق بعلمه)

ش: خلق: أي: أوجد وأنشأ وأبدع، ويأتي خلق أيضاً بمعنى: قدر، والخلق: مصدر، وهو هنا بمعنى المخلوق.

وقوله: بعلمه في محل نصب على الحال، أي: خلقهم عالماً بهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ وفي ذلك رد على المعتزلة.

قال الإمام عبدالعزيز المكي صاحب الإمام الشافعي رحمه الله وجليسه، في كتاب الحيدة[1]، الذي حكى فيه مناظرته بشراً المريسي عند المأمون حين سأله عن علمه تعالى: فقال بشر: أقول: لا يجهل، فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم، تقريراً له، وبشر يقول: لا يجهل، ولا يعترف له أنه عالم بعلم.

---

(١) قلت: في ثبوت نسبة الكتاب للمكي نظر. أهـ ألباني - وسيأتي الكلام عنه إن شاء الله -.

فقال الإمام عبدالعزيز: نفي الجهل لا يكون صفة مدح، فإن هذه الأسطوانة لا تجهل، وقد مدح الله تعالى الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم، لا بنفي الجهل، فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبته الله تعالى لنفسه، وينفوا ما نفاه، ويمسكوا عما أمسك عنه .

والدليل العقلي على علمه تعالى: أنه يستحيل إيجاده الأشياء بالجهل، ولأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد: هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم.

ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم، ولأن من المخلوقات ما هو عالمٌ، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً.

وهذا له طريقان:

أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين، أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

الثاني: أن يقال: كل علم في الممكنات ـ التي هي المخلوقات ـ فهو منه، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه بل هو أحق به، والله تعالى له المثل الأعلى، ولا يستوي هو والمخلوقات، لا في قياس تمثيلي، ولا في قياس شمولي، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى .

قوله: (وقدر لهم أقداراً).

ش: قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[١].

قوله: (وضرب لهم آجالاً)

ش: يعني: أن الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ: «قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل أجله، ولن يؤخر شيئاً عن أجله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار وعذاب في القبر كان خيراً وأفضل»[٢].

فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقدر وقضى أن هذا يموت بسبب المرض، وهذا بسبب القتل، وهذا بسبب الهدم، وهذا بسبب

---

(١) صحيح، وتقدم.أهـ ألباني.

(٢) صحيح، وهو عند مسلم في «القدر» وأحمد في المسند (١/ ٣٩٠-٤١٣-٤٣٣-٤٤٥-٤٤٦) وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٦٢.٢٦٣).أهـ ألباني.

الحرق، وهذا بالغرق، إلى غير ذلك من الأسباب.

والله سبحانه خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة، وعند المعتزلة: المقتول مقطوع عليه أجله، ولو لم يقتل لعاش إلى أجله فكأن له أجلان، وهذا باطل، لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلاً يعلم أنه لا يعيش إليه البتة، أو يجعل أجله أحد الأمرين، كفعل الجاهل بالعواقب، ووجوب القصاص والضمان على القاتل، لارتكابه المنهي عنه ومباشرته السبب المحظور، وعلى هذا يخرج قوله ﷺ: «صلة الرحم تزيد في العمر»[1] أي: سبب طول العمر، وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، كما قلنا في القتل وعدمه.

فإن قيل: هل يلزم من تأثير صلة الرحم في زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء في ذلك أم لا ؟

فالجواب: أن ذلك غير لازم، لقوله ﷺ لأم حبيبة رضي الله عنها: «قد سألت الله تعالى لآجال مضروبة» الحديث، كما تقدم، فعلم أن الأعمار مقدرة، لم يشرع الدعاء بتغيرها، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة، فإن الدعاء مشروع له نافع فيه، ألا ترى أن الدعاء بتغيير العمر لما تضمن النفع الأخروي شرع كما في الدعاء الذي رواه النسائي من حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق

---

(١) صحيح، وهو قطعة من حديث رواه أبو يعلى عن أنس بسند ضعيف، لكن معناه صحيح، ويشهد له أحاديث كثيرة، منها حديث أنس أيضا مرفوعا: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» متفق عليه.أهـ ألباني.

أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»[١]، إلى آخر الدعاء.

ويؤيد هذا ما رواه الحاكم في صحيحه[٢] من حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[٣].

وفي الحديث رد على من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: إنه نهى عن النذر، وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»[٤].

واعلم أن الدعاء يكون مشروعاً نافعاً في بعض الأشياء دون بعض، وكذلك هو، وكذلك لا يجيب الله المعتدين في الدعاء، وكان الإمام أحمد رحمه الله يكره أن يدعى له بطول العمر، ويقول: هذا أمر قد فرغ منه[٥].

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾

---

(١) صحيح، وقد تقدم بتمامه.أهـ ألباني.

(٢) إطلاق لفظة الصحيح على المستدرك فيه تسامح ظاهر، لكثرة الأحاديث الضعيفة والمنكرة الواقعة فيه، بل وبعض الموضوعات، ولذلك تجد الحذاق من المحدثين يقولون: رواه الحاكم في المستدرك.أهـ ألباني.

(٣) حسن، دون قوله: «وإن الرجل ليحرم...» وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وفيه راو مجهول، لكن له شاهد دون الزيادة المذكورة، فالحديث حسن بدونها، وقد تكلمت على الحديث في «الأحاديث الصحيحة» رقم (١٥٤).أهـ ألباني.

(٤) أخرجاه من حديث ابن عمر، ورواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ «لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدر شيئا وإنما يستخرج به من البخيل» وقد خرجته في كتاب السنة لابن أبي عاصم برقم (٣١٢-٣١٤) والإرواء (٢٥٨٥).أهـ ألباني.

(٥) ذكره عنه ابن تيمية في الاستقامة ١/ ١٥٧.

فقد قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى: ﴿مِنْ عُمُرِهِ﴾ أنه بمنزلة قولهم: عندي درهم ونصفه، أي: ونصف درهم آخر، فيكون المعنى: ولا ينقص من عمر معمر آخر، وقيل: الزيادة والنقصان في الصحف التي في أيدي الملائكة، وحمل قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ على أن المحو والإثبات من الصحف التي في أيدي الملائكة وأن قوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ اللوح المحفوظ.

ويدل على هذا الوجه سياق الآية، وهو قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ثم قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: من ذلك الكتاب، وعنده أم الكتاب، أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ.

وقيل: يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، والسياق أدل على هذا الوجه من الوجه الأول، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه، بل من عند الله، ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: أن الشرائع لها أجل وغاية تنتهي إليها، ثم تنسخ بالشريعة الأخرى، فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل، ويثبت ما يشاء، وفي الآية أقوال أخرى، والله أعلم بالصواب .

قوله: (ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم).

ش: فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف

يكون، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وإن كان يعلم أنهم لا يردون، ولكن أخبر أنهم لو ردوا لعادوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وفي ذلك رد على الرافضة والقدرية، الذين قالوا: إنه لا يعلم الشيء قبل أن يخلقه ويوجده، وهي من فروع مسألة القدر، وسيأتي لها زيادة بيان، إن شاء الله تعالى .

قوله: (وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته).

ش: ذكر الشيخ الأمر والنهي، بعد ذكره الخلق والقدر، إشارة إلى أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

قوله: (وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن)

ش: قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن،

وكيف يكون في ملكه ما لا يشاء! ومن أضل سبيلاً وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

فإن قيل: يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائناً منهم بمشيئة الله، وكذلك ذم إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله تعالى، إذ قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قيل: قد أجيب على هذا بأجوبة، من أحسنها: أنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا: لو كره ذلك وسخطه لما شاءه، فجعلوا مشيئته دليل رضاه، فرد الله عليهم ذلك، أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به، أو أنه أنكر عليهم معارضته شرعه وأمره الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره، دافعين بها لشرعه، كفعل الزنادقة، والجهال إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر، وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر، فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره.

يشهد لذلك قوله تعالى في الآية: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فعلم أن مرادهم التكذيب، فهو من قبل الفعل، من أين له أن الله لم يقدره؟ أطلع الغيب؟

فإن قيل: فما يقولون في احتجاج آدم على موسى عليهما السلام بالقدر، إذ قال له: «تلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن أخلق بأربعين عاماً»؟ وشهد النبي ﷺ أن آدم حج موسى، أي: غلب عليه بالحجة؟

قيل: نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة، لصحته عن رسول الله ﷺ، ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراوية، كما فعلت القدرية، ولا بالتأويلات الباردة، بل الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر، فإنه باطل، وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب، لا عند المعائب.

وهذا لمعنى أحسن ما قيل في الحديث، فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضى بالله ربًّا، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

وأما قول إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ إنما ذم على احتجاجه بالقدر، لا على اعترافه بالمقدر وإثباته له، ألم تسمع قول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولقد أحسن القائل:

فـما شـئـتَ كـان وإن لم أشـأ ... وما شـئـتُ إن لم تـشأ لم يكـن

وعن وهب بن منبه، أنه قال: نظرت في القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه

فتحيرت، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به[١].

قوله: (يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي، فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي، عدلاً).

ش: هذا رد على المعتزلة في قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله، وهي مسألة الهدى والضلال، قالت المعتزلة:

الهدى من الله: بيان طريق الصواب، والإضلال: تسمية العبد ضالاً، وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه، وهذا مبني على أصلهم الفاسد: أن أفعال العباد مخلوقة لهم.

والدليل على ما قلناه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه، لأنه ﷺ بين الطريق لمن أحب وأبغض.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ ولو كان الهدى من الله البيان ـ وهو عام في كل نفس ـ لما صح التقييد بالمشيئة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ وقوله: ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

قوله: (وكلهم يتقلبون في مشيئته، بين فضله وعدله).

ش: فإنهم كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ فمن هداه إلى الإيمان فبفضله، وله الحمد، ومن أضله فبعدله، وله

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٣٨٨ كتاب القدر / باب النهي عن القول في القدر.

الحمد، وسيأتي لهذا المعنى زيادة إيضاح، إن شاء الله تعالى، فإن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد، بل فرقه، فأتيت به على ترتيبه .

قوله: (وهو متعال عن الأضداد والأنداد) .

ش: الضد: المخالف، والند: المثل، فهو سبحانه لا معارض له، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا مثل له، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ويشير الشيخ رحمه الله بنفي الضد والند إلى الرد على المعتزلة، في زعمهم أن العبد يخلق فعله .

قوله: (لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره) .

ش: أي: لا يرد قضاء الله راد، ولا يعقب، أي لا يؤخر حكمه، مؤخر، ولا يغلب أمره غالب، بل هو الله الواحد القهار .

قوله: (آمنا بذلك كله، وأيقنا أن كلاً من عنده)

ش: أما الإيمان فسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

والإيقان: الاستقرار، من قر الماء في الحوض إذا استقر، والتنوين في «كلا» بدل الإضافة، أي: كل كائن محدث من عند الله، أي: بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وتكوينه، وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه، إن شاء الله تعالى .

قوله: (وإن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى).

ش: الاصطفاء والاجتباء والارتضاء: متقارب المعنى.

واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق

يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق وأضلهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وذكر الله نبيه ﷺ باسم العبد في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة، ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة، إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام: «اذهبوا إلى محمد، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[١]، فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى.

وقوله: وإن محمداً بكسر الهمزة، عطفاً على قوله: إن الله واحد لا شريك له، لأن الكل معمول القول، أعني: قوله نقول في توحيد الله .

والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر، تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات، لكن كثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرروا ذلك بطرق مضطربة، والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء، حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر، ونحو ذلك.

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما

---

(١) متفق عليه، وهو قطعة من حديث سيأتي بطوله في الكتاب.أهـ ألباني.

دون دعوى النبوة، فكيف بدعوة النبوة؟

وما أحسن ما قال حسان رضي الله عنه:

لو لم يكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولا بد أن يفعل أموراً يبين بها صدقه، والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق ضده، بل كل شخصين ادعيا أمراً - أحدهما صادق والآخر كاذب - لا بد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة، إذ الصدق مستلزم للبر، والكذب مستلزم للفجور، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً»(١) ولهذا قال تعالى:

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: الزيادتان ثابتتان في رواية مسلم ٢/ ٢٨٩ وكان في المطبوعة «ولا يزال» في الموضعين، وأثبتنا ما في مسلم أيضا، لأن الرواية التي نقلها المؤلف أقرب الألفاظ على رواية مسلم، من طريق وكيع وأبي معاوية، وكلاهما عن الأعمش، وكذلك رواه أحمد (٤١٠٨) عن وكيع وأبي معاوية بنحوه، وقد تساهل المؤلف في نسبة الحديث بهذا اللفظ للصحيحين، لأن البخاري إنما روى بعضه بنحو معناه مختصراً من طريق آخر، ولعله تبع في ذلك المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٢٦-٢٧ فقد تساهل أيضا ونسبه للبخاري، انظر فتح الباري ١٠/ ٤٢٢-٤٢٣.

قال ناصر الدين: صحيح، وهو في «الأدب» من صحيح البخاري مختصراً، كما ذكر الشيخ شاكر رحمه الله تعالى، لكنه في «الأدب المفرد» له رقم (٣٨٦) أتم منه.أهـ ألباني.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فالكهان ونحوهم، وإن كانوا أحياناً يخبرون بشيء من المغيبات، ويكون صدقاً فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن ملك، وليسوا بأنبياء، ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد: «قد خبأت لك خبأ» فقال: هو الدخ ـ قال له النبي ﷺ: «اخسأ، فلن تعدو قدرك»(١).

يعني: إنما أنت كاهن، وقد قال للنبي ﷺ: «يأتيني صادق وكاذب»(٢)، وقال: «أرى عرشاً على الماء»(٣)، وذلك هو عرش الشيطان، وبين أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوي: الذي يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضراً له في العاقبة.

فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم علماً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن.

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة، حتى في المدعي للصناعات والمقالات، كمن يدعي الفلاحة والنساجة والكتابة، وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك، والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب؟

ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة: قد

---

(١) صحيح، وهو من حديث ابن عمر، أخرجاه في الصحيحين. أهـ ألباني.

(٢) صحيح، وهو قطعة من حديث ابن عمر الذي قبله. أهـ ألباني.

(٣) صحيح، أخرجه مسلم ٨/ ١٩٠ من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه أن النبي ﷺ قال له: «ترى عرش إبليس على البحر». أهـ ألباني.

يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضروري، كما يعرف الرجل رضى الرجل وحبه وبغضه وفرحه وحزنه وغير ذلك مما في نفسه، بأمور تظهر على وجهه، قد لا يمكن التعبير عنها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ وقد قيل: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفات وجهه وفلتات لسانه[١].

فإذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن، فكيف بدعوى المدعي أنه رسول الله، كيف يخفى صدق هذا من كذبه؟

وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة؟

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق البار، قال لها لما جاءه الوحي: «إني قد خشيت على نفسي»[٢]،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الظاهر والله أعلم أنه خشي على نفسه الموت، لأن جبرائيل غطه غطًّا قويًّا، قال العلماء: حتى يعده لتحمل المشاق في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، غطه ثم غطه ثم

---

(١) ابن كثير في تفسيره، سورة الفتح، عند قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم ﴾ وعزاه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) صحيح، وهو قطعة من حديث بدء الوحي الطويل في أول صحيح البخاري، رقم (٣) مختصر البخاري، وكان في الأصل وفي مطبوعة مكة: «على عقلي»! وقد قال الشيخ أحمد شاكر في ذلك: «هو خطأ فاحش، لعله من الناسخ، بل هو كلام غير معقول، وحاشا رسول الله ﷺ أن يقول هذا، بل أن بعض العلماء فسر خشيته على نفسه في هذا الحديث، بأنه خشي الجنون! واستنكره الحافظ في الفتح ١/ ٢٣، قال: «وأبطله أبو بكر ابن العربي، وحق له أن يبطل».أهـ ألباني.

غطه ثم قال اقرأ ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ ﴾ [العلق:١] علمه أول سورة العلق.

فالمقصود أنه عليه الصلاة والسلام خاف من هذا الأمر العظيم لشدة ما أصابه من جبرائيل عليه الصلاة والسلام، قد يبتلى المؤمن بالشدائد ليكون معدًا لها وأهلاً لها بعد ذلك، فهو أعد لتحمل المشاق والأثقال والعظائم من أول ما أوحى الله إليه، ولهذا لما جاء إلى خديجة قال زملوني زملوني دثروني دثروني لشدة ما أصابه، فقالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، عرفت منه الأخلاق العظيمة والصفات الحميدة، التي صاحبها من سنة الله في عباده أنه لا يخزى، بل يكون له فضل من الصفات الحسنة والذكر الجميل والفضل بين الناس لأعماله العظيمة، إنك لتصدق الحديث وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق، فذكرت هذه الصفات العظيمة التي من شأنها أن صاحبها يرفع الله ذكره ويعلي قدره ويكون له شأن بين الناس.أهـ.

* * *

فقالت: كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق[١].

فهو لم يخف من تعمد الكذب، فهو يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء، وهو المقام الثاني، فذكرت خديجة ما ينفي هذا، وهو ما كان مجبولاً عليه من مكارم

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة، وهو طرف من الحديث الذي قبله.أهـ ألباني.

الأخلاق ومحاسن الشيم، وقد علم من سنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة؛ فإنه لا يخزيه .

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤوا عليه: إن هذا والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة[١]، وكذلك ورقة ابن نوفل، لما أخبره النبي ﷺ بما رآه، وكان ورقة قد تنصر، وكان يكتب الإنجيل بالعربية، فقالت له خديجة: أي: عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره النبي ﷺبما رأى فقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى[٢].

وكذلك هرقل ملك الروم، فإن النبي ﷺ لما كتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، طلب من كان هناك من العرب، وكان أبوسفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام، وسألهم عن أحوال النبي ﷺ، فسأل أبا سفيان، وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الأخبار، سألهم: هل كان في آبائه من ملك؟ فقالوا: لا، قال: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فقالوا: لا، وسألهم: أهو ذو نسب فيكم؟ فقالوا: نعم، وسألهم: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا: لا، ما جربنا عليه كذباً، وسألهم: هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فذكروا أن الضعفاء اتبعوه؟ وسألهم: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكروا أنهم يزيدون، وسألهم: هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ فقالوا: لا، وسألهم: هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم، وسألهم

(١) حسن، وهو طرف من حديث أم سلمة في هجرتها إلى الحبشة الهجرة الأولى، أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (١/ ٣٥٧-٣٦٣) ابن هشام، وعنه أحمد (٢٠١-٢٠٣) وسنده حسن.أهـ ألباني.

(٢) أخرجه البخاري، وهو من تمام حديث عائشة الذي قبله.أهـ ألباني.

عن الحرب بينهم وبينه؟ فقالوا: يدال علينا مرة وندال عليه أخرى، وسألهم: هل يغدر؟ فذكروا أنه لا يغدر، وسألهم: بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

وهذه أكثر من عشر مسائل، ثم بين لهم ما في هذه المسائل من الأدلة، فقال: سألتكم هل كان في آبائه من ملك؟ فقلتم: لا، قلت: لو كان في آبائه من ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتكم هل قال هذا القول فيكم أحد قبله؟ فقلتم: لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله لقلت: رجل ائتم بقول قيل قبله، وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلتم: لا، فقلت: قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله تعالى، وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم؟ فقلتم: ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، يعني في أول أمرهم،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني هذا الوصف الأغلبي، لأن أبا بكر رضي الله عنه من أشراف الناس، وهكذا عمر وهكذا عثمان، لكن في الأغلب اتبعه الضعفاء.أهـ.

❊ ❊ ❊

ثم قال: وسألتكم هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلتم، بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ فقلتم: لا، وكذلك الإيمان، إذا خالطت بشاشته

القلوب لا يسخطه أحد(١).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لأنه دين الله، دين الفطرة والعدالة، دين الخير والسعادة، إذا باشر القلوب وعرفته القلوب لا تصد عنه.

وهذا يدل على أن الرجل قد درس أمور الأنبياء وأخلاق الأنبياء وما كانوا عليه، مما وصل إليه من الكتب السابقة، ومما عرفه من أعيان الناس وجلسائه ومن له دراية بأحوال الماضين، ولهذا سأل عن الأسئلة التي تعينه وتقرب إليه ما يريده من معرفة نبوته ﷺ أو عدم ذلك، ولهذا لما سألهم الأسئلة؛ عرف وأيقن أنه رسول الله، وقال: ولو أمكنني أن أصل إليه لفعلت ذلك، ولو كنت بين يده لغسلت عن قدمه، ولئن كان كما قلتم ليملكن موضع قدمي هاتين(٢)، وكل هذا وقع. أهـ.

* * *

وهذا من أعظم علامات الصدق والحق، فإن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر الأمر، فيرجع عنه أصحابه، ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكذب لا يروج إلا قليلاً ثم ينكشف.

وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه؟ فقلتم: إنها دول، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها، قال: وسألتكم هل يغدر؟ فقلتم: لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وهو لما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون علم أن هذه

(١) البخاري، من حديث أبي سفيان بطوله، وله عنده تتمة. أهـ ألباني.

(٢) رواه البخاري (٧) كتاب بدء الوحي/ باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

علامات الرسل، وأن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء، لينالوا درجة الشكر والصبر.

كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»(١).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا رواه مسلم في الصحيح من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه، وما ذاك إلا لأن العبد بين أمرين: بين شدة ورخاء، وبين النعم والمصائب، فالله يمتحن العباد بهذا وهذا، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم:٥] والصبار كثير الصبر عند البلايا، والشكور كثير الشكر عند النعم والفضائل والمسرات، والمؤمن هكذا صبور عند المحن والبلاوي والشدة كالفقر والمرض ونحو ذلك، وشكور عند النعم كالصحة والعافية والمال والسلطان وغير ذلك.

فالواجب على المؤمن أن ينتبه لهذا، وأن يحذر الجزع عند البلاء والبطر عند الرخاء، بل يكون في الرخاء شكوراً مستقيماً على أمر الله، وفي البلايا والمحن صبوراً عارفاً بأن ربه حكيم عليم، فلا يجزع ولا

---

(١) صحيح مسلم (٨/ ٢٢٧) وأحمد (٤/ ٣٣٢-٣٣٣و ٦/ ١٥-١٦) بلفظ: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد» الحديث، والباقي مثله سواء، وفي رواية لأحمد: «بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه إذ ضحك، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله ومم تضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن..» الحديث، وسنده صحيح على شرط مسلم، وله شاهد مختصر، خرجته في «الصحيحة» (١٤٧).أهـ ألباني.

يتعاطى ما لا ينبغي عند حلول المصائب، وأغلب الخلق لا يصبر عند البلاء ولا يشكر عند الرخاء، هذا حال الأكثر نسأل الله السلامة، ولهذا قال: «**وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له**» فينبغي للمؤمن أن يكون على ذلك دائماً، لأنه يتنقل بين السراء والضراء.

وهناك أمر ثالث أيضاً يصيبه وهو الذنوب والمعاصي، فهو بين النعم وبين المصائب وبين الذنوب يقترفها، والواجب عند الذنب التوبة والاستغفار، وعند النعم الشكر، وعند البلايا والمحن الصبر، ومن رزق هذه الأمور الثلاثة وما شرعه الله فيها، وهو الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والتوبة عند الذنب؛ تمت سعادته وأفلح غاية الفلاح، والله المستعان.أهـ.

* * *

والله تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآيات، وقال تعالى: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ الآيات، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته في خلقه وحكمته التي بهرت العقول.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وفي هذا المعنى بخصوصه يقول عز وجل: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ [آل عمران:١٦٥] يعني من أين أتينا؟

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥] بسبب ما فعلتم من

الفشل والنزاع ومخالفة الرماة، تنازعوا واختلفوا وعصوا ولم يثبتوا كما أمرهم الرسول ﷺ، ولهذا قال: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا ﴾ [آل عمران:١٦٥] يعني يوم بدر، يوم بدر أسروا سبعين وقتلوا سبعين ﴿ قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ [آل عمران:١٦٥] بسبب أعمالكم وذنوبكم، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٠] ثم قال بعده: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعۡنَـٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَـٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِى قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٨] فبين سبحانه وتعالى الحكم في الابتلاء.أهـ.

* * *

قال: وسألتكم عما يأمر به؟ فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، وهذه صفة نبي، وقد كنت أعلم أن نبياً يبعث، ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين.

وكان المخاطب بذلك أبوسفيان بن حرب، وهو حينئذ كافر من أشد الناس بغضاً وعداوة للنبي ﷺ.

قال أبوسفيان بن حرب: فقلت لأصحابي ونحن خروج، لقد أَمِرَ أَمْرُ

ابن أبي كبشة، إنه ليعظمه ملك بني الأصفر، وما زلت موقناً بأن أمر النبي ﷺ سيظهر، حتى أدخل الله علي الإسلام وأنا كاره.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الحمد لله، اللهم ارض عنه، أسلم وحسن إسلامه.أهـ.

* * *

ومما ينبغي أن يعرف: أن ما يحصل في القلب بمجموع أمور، قد لا يستقل بعضها به، بل ما يحصل للإنسان من شبع وري وشكر وفرح وغم فأمور مجتمعة [1]، لا يحصل ببعضها، لكن ببعضها قد يحصل بعض الأمر.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ببعضها قد يحصل بعض الأمر، لكن ما يحصل بمجموعها لا يحصل ببعضها، لكن قد يحصل ببعضها بعض المطلوب، ما يحصل للإنسان من شكر أو جزع أو فرح أو غم أو مسار أو كسل في أمور مجتمعة؛ لا يحصل ببعضها لو انفرد، لكن بحسب مجموعها، يعني حصل لك نعم متعددة من صحة ونصر وتوفر أولاد وأشباه ذلك، ما يحصل هذا الذي حصل لك بوجود بعضها، فالذي يحصل بالنعم والولاية والأولاد، يحصل من هذا نعم كثيرة وسرور كثير وراحة وطمأنينة وقضاء حاجات ونصر على أعداء، لو تخلى بعضها عنك ـ هذه الأمور ـ ولم يحصل لك إلا بعضها، ما حصل لك ذاك المجموع الذي حصل سابقاً، وإن حصل لك أشياء مترتبة على أمور

(١) الفاء غلط.أهـ ابن باز.

متعددة، لو فات بعضها لم يحصل ذلك الشيء الذي ذهب، لكن قد يحصل ببعضها بعض الشيء.

هذه المسائل التي جمعها هرقل وسأل عنها، هل كان في آبائه من ملك؟ هل قال هذا القول أحد قبله؟ هذه الأمور لما اجتمعت غلب على الظن، وتفيد فائدة عظيمة فيما سأل عنه هرقل، لكن وحدها لا تكفي، هل كان في آبائه من ملك؟ لا يدرى عن صحة ما ادعاه من النبوة، كون ليس في آبائه من ادعى النبوة لا يكفي، لكن لما اجتمعت هذه الأمور، لم تعهدوا عليه الكذب، ولا قال هذا القول أحد قبله، ومن دخل في دينه لم يخرج عنه، يزيدون ولا ينقصون، إلى آخر ما سأل عنه، هذه المجموعة توجب لمن تأملها بقطع صحة النبوءة.أهـ.

* * *

وكذلك العلم بخبر من الأخبار، فإن خبر الواحد يحصل للقلب نوع ظن، ثم الآخر يقويه، إلى أن ينتهي إلى العلم، حتى يتزايد ويقوى، وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحو ذلك.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا واضح، من سمع شيئاً ثم جاء الثاني وأيد الخبر ثم جاء الثالث وأيد الخبر، كلما جاء واحد زاد الخبر ثقة وطمأنينة حتى يبلغ العلم واليقين بأن هذا حصل، وهكذا إذا روى الإنسان حديثاً جيداً أن النبي قال كذا، ثم جاء حديث آخر فروى مثله ثم ثالث، كل واحد يقوي الخبر ويقوي الإيمان بصحته، فالأمور تحتاج إلى مجموع حتى لا يحصل ذلك الشيء لبعضها إذا انفرد، فالأدلة تقوى بكثرتها وتضعف بقلتها، هكذا الغموم والهموم والفرح والسرور والطمأنينة واليقين وغير ذلك، كلما كثرت أسبابها حصل مقتضاها،

وكلما قلت الأسباب ضعف المقتضى.أهـ.

❊ ❊ ❊

وأيضاً: فإن الله سبحانه أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، كثبوت الطوفان، وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبياً بعد نبي، في سورة الشعراء، كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده، يقول في آخر كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وبالجملة: فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول إنه رسول الله، وأن أقواماً اتبعوهم، وأن أقواماً خالفوهم، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين، وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم: هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس وعلماء الطب، كبقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه.

ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة:

منها: أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم.

ومنها: ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم، إذا عرف الوجه الذي حصل عليه، كغرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية أحوالهم، عرف صدق الرسل.

ومنها: أن من عرف ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل

أحوالها، تبين له أنهم أعلم الخلق، وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل، وأن فيما جاؤوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم، ما يبين أنه لا يصدر إلا عن راحم بر يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق.

ولذكر دلائل نبوة محمد ﷺ من المعجزات وبسطها موضع آخر، وقد أفردها الناس بمصنفات، كالبيهقي وغيره.

بل إنكار رسالته ﷺ طعن في الرب تبارك وتعالى، ونسبة له إلى الظلم والسفه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل جحد للرب بالكلية وإنكار.

وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق، بل ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتري على الله ويتقول عليه، ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق، ويسبي نساءهم ويغنم أموالهم وذراريهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله له به ومحبته له، والرب تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره، ويعلي أمره، ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعواته، ويهلك أعداءه، ويرفع له ذكره، هذا وهو عندهم في غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أظلم ممن كذب على الله وأبطل شرائع أنبيائه وبدلها وقتل أولياءه، واستمرت نصرته عليهم دائماً، والله تعالى يقره على ذلك، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين، فيلزمهم أن يقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان له مدبر قدير حكيم، لأخذ على يديه ولقابله

أعظم مقابلة، وجعله نكالاً للصالحين، إذ لا يليق بالملوك غير ذلك، فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين؟

ولا ريب أن الله تعالى قد رفع له ذكره، وأظهر دعوته والشهادة له بالنبوة على رؤوس الأشهاد في سائر البلاد، ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قام في الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم أمره، ولم تطل مدته، بل سلط الله عليه رسله وأتباعهم، وقطعوا دابره واستأصلوه، هذه سنة الله التي قد خلت من قبل،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: كما جرى للأسود العنسي وطلحة وسجاح وغيرهم ممن ادعى النبوة كاذباً، سلط الله عليه من أهلكه وقاطع دابره، هكذا سنة الله في العباد، فهو سبحانه يملي بعض الإملاء لمن غلا وتعدى، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر سبحانه وتعالى، فإملاء الله لنبيه ﷺ وإظهار الله لدعوته وشريعته وتأييده ونصر أتباعه؛ كله من أظهر الدلائل القطعية الواضحة والبراهين الساطعة على صدقه وأنه رسول الله حقًّا، بخلاف من ادعى النبوة كاذباً وكان من المفترين الضالين، وتسليط الله عليهم وبيان كذبهم، كل هذا من الدلائل على كذبهم، وعلى أنه سبحانه وتعالى هو الرحمن الرحيم، وهو العزيز الحكيم، وهو القادر على كل شيء وهو فوق العباد سبحانه وتعالى.

فسنة الله في العباد هكذا، تأييد الصالحين المتقين ورفع شأنهم، وإن جرى عليهم ما جرى فالعاقبة لهم، بخلاف الظالمين والمجرمين، وإن صار لهم شوكة وصار لهم رياسة؛ فإن مآلها إلى أن ينتقم منهم وإلى أن يصيروا عبرة لمن ظلم وافترى، كما جرى للأمم الماضية، أمة نوح، أمة هود، أمة صالح، أمة شعيب، أمة لوط، وما جرى لفرعون وقارون

ولغيرهم ممن ظلم وتعدى، صارت العاقبة السيئة عليهم والدائرة عليهم.أهـ.

* * *

حتى إن الكفار يعلمون ذلك، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أفلا تراه يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل، لا بد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾ وهنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق: أنه يمحو الباطل ويحق الحق، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ فأخبر سبحانه أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره.

وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها:

أن من نبأه الله بخبر السماء، إن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره، فهو نبي وليس برسول، فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس، فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا هو المشهور، أن الرسول هو الذي يأتيه الوحي من السماء بالشرائع والأحكام ويؤمر بالتبليغ، كمحمد ﷺ وهود وصالح ونوح وموسى وعيسى وغيرهم، وأما

النبي فلم يؤمر، بل يأتيه الوحي من السماء من صلاة وغيرها، لكن لا يؤمر بالتبليغ، بل يشرع الله له أعمالاً، وقد يكونون متعددين، قد يكون في بلد وإقليم عدة أنبياء لهم شرائع شرعها الله سبحانه وتعالى، ولكن لم يؤمروا بتبليغها للناس، بل يعملون بها بأنفسهم، ومن شاء تبعه في ذلك، هذا قول مشهور عند أكثر الناس.

والقول الثاني: أن النبي هو الذي يتبع شريعة غيره ويسمى رسولاً أيضاً، كل نبي وكل رسول يوحى إليهم ويؤمرون بالتبليغ، كلهم مأمورون بالتبليغ وكلهم يرشدون الناس وكلهم موجهون ومأمورون بأن يعلموا ويرشدوا، لكن من كان تابعاً لغيره بشريعة سابقة كأنبياء بني إسرائيل بعد التوراة؛ فهو تابع للتوراة، من جاء بعد موسى فهو تابع للتوراة، وإن شرع له بعض التخفيف، كما شرع لعيسى بعض التخفيف، لكن عيسى ومن قبله من أنبياء بني إسرائيل كلهم تابعون لشريعة التوراة، بعدما أنزل الله التوراة، هؤلاء يسمون أنبياء ويسمون رسلاً، أنبياء لأن الله أوحى إليهم، ورسلاً لأنهم مأمورون بالتبليغ، ومن كان رسولاً مستقلاً جاء بشريعة مستقلة، هذا أخص باسم الرسول ويسمى نبيًّا، لكنه أخص باسم الرسول، معنى هذا أن الرسول أعظم وأكبر شأناً، لأنه يأتي بشرائع مستقلة يعمل بها ويدعو إليها، كهود ونوح وصالح وإبراهيم ولوط وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، هؤلاء جاءوا بشرائع عظيمة مستقلة ليست تابعة لغيرها، هؤلاء رسل وأنبياء، أما داود وسليمان وعيسى وزكريا ويحيى وأشباههم ممن جاءوا بعد موسى، هؤلاء أنبياء ويسمون رسلاً أيضاً، لكن يغلب عليهم اسم النبوة، لأنهم جاءوا تابعين لشريعة التوراة، فهم أنبياء بما جاءهم من الوحي، ورسل لأنهم مأمورون بتبليغ هذه الشريعة، شريعة التوراة، والأخذ بها والإلزام بها، فهم رسل وأنبياء.

وهذا القول أظهر وإن كان ليس هو الأشهر، بل الأول، لكن هذا القول الثاني أوضح، أوضح وأقرب للمعنى، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج:٥٢] فدل على أن الأنبياء يرسلون، فالرسول هو الرسول المستقل الذي جاء بشريعة مستقلة، ليس تابعاً لنبي قبله، والنبي تابع لما أنزل قبله، ولكنه أيضاً مأمور بالتبلغ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج:٥٢] في سورة الحج، هذا يدل على أن النبي يسمى مرسلاً، رسول مرسل ونبي مرسل ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج:٥٢] فدل على أن النبي يرسل.

فمن قال إن النبي لا يرسل ولا يؤمر بالتبليغ، ليس بجيد للتعليل السابق، بل الأظهر والأبين والأصح أن كلمة الرسول تنطبق على جميع الأنبياء وعلى جميع الرسل المستقلين، كلهم مرسلون، ثم أي فائدة صغيرة أو كبيرة إذا كان يوحى إليه لنفسه فقط ولا يؤمر بالتبليغ؟

فإن الفائدة تكون أقل، بخلاف ما إذا أمر بالتبليغ، فإن الفائدة تكون أعظم وأنفع للعالم، فكيف يقال إن النبي هو المقتصر على نفسه الذي لا يؤمر بتبليغ الناس إلا من تابعه باختياره فقط؟

فمن تأمل هذا عرف أن القول بأن الرسول يشمل من استقل ومن كان تابعاً لشريعة قبله، كلهم يسمون رسلاً، فليس هناك نبي لا يسمى رسولاً، بل جميع الأنبياء يسمون رسلاً كلهم، لكن من كان مستقلاً كنوح وهود وصالح ومحمد عليه الصلاة والسلام وأشباههم؛ هؤلاء أخص باسم الرسالة، وتطلق عليهم الرسالة أكثر، ومن كان تابعاً لغيره ولشريعة غيره فهو أخص باسم النبوة، ويسمى رسولاً أيضاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَآ

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢].أهـ.

سؤال/ إنزال الزبور على داود والإنجيل على عيسى؟

أجاب سماحة الشيخ: هذا كالتفصيل من التوراة، ولهذا قال: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران:٥٠] ليبين لهم بعض ما اختلفوا فيه، وليحل لهم بعض ما حرم عليهم في شريعة التوراة.أهـ.

* * *

وإرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه، وخصوصاً محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: إنما كان بعثة محمد عليه الصلاة والسلام أعظم لأن رسالته عامة، وفيها من التبشير والتيسير والتخفيف ما فيها، فهي لعمومها وتفصيلها وتيسيرها صارت أعظم نعمة وأكبر نعمة، فإن الله جعله رحمة للعالمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] كان كل رسول يبعث في قومه خاصة، فبعث الله محمداً ﷺ إلى الناس عامة، وجعل شريعته كاملة أكمل الشرائع، وجعلها منتظمة لمصالح العباد في المعاش والمعاد، وإن غلط فيها من غلط وإن جهل من جهل، ولكنها رسالة عامة مضمونها الرحمة

والإحسان وتنظيم شئون العباد في دنياهم وفي أخراهم، وتوجيههم إلى أسباب النجاة فيما يتعلق بعبادتهم لله، وبما يتعلق فيما بينهم من الحقوق والمعاملات وغير ذلك، مضمونها الإنصاف والعدالة وإلزام الناس بذلك، ومنعهم من الجور والظلم، وجعلهم سواسية، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، إلى غير ذلك مما فيه سعادة المجتمع ونجاته وصلاحه، ووقوف كل فرد وجماعة عند حده الذي حد له.

وتقدم في الفرق بين الرسول والنبي، أن القول الثاني لعله هو الأظهر والأبين، أن الرسول هو المستقل، الذي ليس بتابع لشريعة قبله، هذا أخص باسم الرسول، كهود وصالح وموسى وإبراهيم ومحمد عليه الصلاة والسلام، فهؤلاء مستقلون وأخص باسم الرسالة ويسمون أنبياء وهم أنبياء، كل من أمر بشرع فهو نبي ورسول أيضاً، لكن إن كان مستقلاً فهو أخص باسم الرسالة، وإن كان تابعاً لشريعة قبله فهو أخص باسم النبوة، كأنبياء بني إسرائيل، فإنهم تابعون لشريعة التوراة، وإن جاء بعضهم ببعض التخفيف، كما جاء في شريعة عيسى الإنجيل، ولكنه جاء مقرراً لشريعة التوراة وآمراً بها وحاكماً بها، ما عدا ما نسخ منها ...

ومحمد جاء مستقلاً غير تابع للتوراة ولا تابع للإنجيل، بل جاء برسالة مستقلة، وهو تشريع خاص وأحكام خاصة، قد توافق بعض ما في التوراة وقد لا توافق، ومما وافقت فيه التوراة قوله جل وعلا: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤٥]، فيكون في التوراة وجاء القرآن بموافقة ذلك، لأن النفس

بالنفس والعين بالعين والأذن بالأذن والسن بالسن كما في التوراة وكما في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام.

وزادت شريعة محمد ﷺ بأنها مخففة ميسرة، قد وضع الله عنهم الآصار والأغلال التي كانت في التوراة، وقد جعلها عامة للعرب والعجم، ليست خاصة في بني إسرائيل، بل عامة للعرب والعجم والجن والإنس والحاضرة والبادية والذكور والإناث، هذا هو الفرق بين الرسول والنبي، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج:٥٢] فيدل على أنهم كلهم مرسلون، الأنبياء والرسل كلهم مرسلون ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج:٥٢] فجعل الرسالة عامة للأنبياء والمرسلين، وبين أن هناك نبيًّا وهناك رسولاً، فالنبي مرسل والرسول مرسل، لكن إن كان هذا النبي مستقلاً كان أخص باسم الرسالة، وإن كان تابعاً لرسالة قبله وشريعة قبله فهو أخص باسم النبوة.أهـ.

سؤال/ هذا القول الأول والثاني ينسب لمن؟

أجاب سماحة الشيخ: كلها لأهل السنة والجماعة.أهـ.

سؤال/ قوله: فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها !!

أجاب سماحة الشيخ: الرسالة أعم من جهة نفسها تشمل أمرين: تشمل بعثه إلى الناس والإيحاء إليه بشرع، والنبوة أخص، لأنها وحي له بشرع فقط، ما فيها أمر له بإبلاغ الناس على هذا التعريف، فصارت الرسالة فيها أمران: الوحي والأمر بالتبليغ، والنبوة لها أمر واحد وهو

الوحي فقط، هذا معنى كون الرسالة أعم من جهة نفسها، ولكنها أخص من جهة أهلها.أهـ .

* * *

قوله: (وإنه خاتم الأنبياء)

ش: قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يسمى خاتم النبيين ... حتى لا يبقى شبهة، خاتم النبيين خاتم أي رسالة، كل رسول نبي، إذا قال خاتم النبيين عم جميع من بعث بشرع، سواءً سمي نبيًّا بشرع من قبله أو سمي رسولاً بشرع جديد، فالرسول محمد خاتمهم ليس بعده نبي ولا رسول.أهـ.

* * *

وقال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه، وترك منه موضع لبنة، فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه، إلا موضع تلك اللبنة، لا يعيبون سواها، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل»[(١)]، أخرجاه في الصحيحين[(٢)].

---

(١) صحيح، غير أن عزوه بهذا اللفظ للصحيحين وهم، وإنما هو عند ابن عساكر في «تاريخ دمشق» من حديث أبي هريرة، كما في «الجامع الكبير» للسيوطي(٢-٧٠٢-١) وأخرجه الشيخان عنه وعن جابر نحوه، وكذا رواه أحمد (٢/ ٢٤٤-٢٥٦--٣١٢-٣٩٨-٤١٢ و٣/ ٣٦١) ورواه أيضا (٣/ ٩) عن أبي سعيد الخدري.أهـ ألباني.

(٢) قال أحمد شاكر: كتب مصححوا الطبعة السلفية استدراكا في آخر الكتاب على هذا الموضع، نصه: قد اطلعنا في الصحيحين - كما نبه الشارح - على مظان الحديث، فوجدنا أنه روي بعدة وجوه، ليس فيها ما ذكره الشارح، ومما هو في البخاري في خاتم النبيين؛ ما نصه: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».أهـ

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا من باب التحقيق، تحقيق الخاتيمة، وأنه خاتمهم ليس بعده نبي ولا رسول، وأن الله قد أحكم كل شيء وأحسن إلى عباده قبل محمد ﷺ وبعده، قد أرسل لهم الرسل وأنزل الكتب ولم يبق إلا موضع اللبنة، فختم الله بعثة الرسل بهذا النبي العظيم الذي به كمل البناء وتمت رحمة الله على عباده جل وعلا. أهـ.

* * *

وقال ﷺ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر، الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي»(١).

وفي صحيح مسلم عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: « وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي»، الحديث(٢).

ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»(٣).

قوله: (وإمام الأتقياء)

ش: هو ﷺ، الإمام الذي يؤتم به، أي: يقتدون به، والنبي ﷺ إنما

(١) أخرجه الشيخان من حديث جبير بن مطعم.أهـ ألباني.

(٢) وأخرجه أبو داود أيضا وأحمد وغيرهما.أهـ ألباني.

(٣) صحيح، وهو من حديث أبي هريرة، وأخرجه الترمذي أيضا١/ ٢٩٣ وقال:حديث حسن صحيح. وأحمد٢/ ٤١٢وله عنده طرق بألفاظ أخرى، وهو مخرج في «الإرواء»(٢٨٥).أهـ ألباني.

بعث للاقتداء به، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الأتقياء.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وفي الآية الأخرى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١] في أخباره وصفاته.أهـ.

* * *

قوله: (وسيد المرسلين)

ش: قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع»[(١)] رواه مسلم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وفي هذا دلالة على أنه لا يخرج من قبره إلا يوم القيامة، أول من ينشق عنه قبره يوم القيامة هو محمد ﷺ، هذا يدل على أنه لا يخرج من قبره أبداً، وأن ما تقوله الصوفية الآن من أنه يحضر تجمعاتهم وحفلاتهم ويحضر موالدهم، ويقومون، يقولون: جاء النبي جاء النبي وهو لا يرى، هذا من خرافاتهم ومن كذبهم ومن ضلالاتهم، فهو ﷺ لا يخرج إلا يوم القيامة مع الناس، فهو أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة، دل ذلك على أنه من جنس غيره في هذا الباب، مع الأموات، حتى يبعث الله الجميع يوم القيامة، ويكون أولهم عليه الصلاة والسلام، وهذا مصداق قوله جل وعلا: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ

(١) مسلم (٧/ ٥٩) وكذا أبو داود (٣/ ٤٦٧) وابن سعد في «الطبقات»(١/ ٢٠) وأحمد (٢/ ٥٤٠) من حديث أبي هريرة، ولو شواهد كثيرة، خرجت بعضها في «ظلال الجنة» (٧٩٢،٧٩٦).أهـ ألباني.

﴿ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝﴾ [المؤمنون:١٥-١٦] فجعل بعثهم يوم القيامة لا قبله.

فدعوى هؤلاء الصوفية الذين يزعمون أنه يحضر حفلاتهم واجتماعاتهم ويقرها، هذاتخريف باطل لا أساس له، وهو قول على الله بغير علم وافتراء لا سبيل إلى صحته.أهـ .

* * *

وفي أول حديث الشفاعة: «أنا سيد الناس يوم القيامة»(١) وروى مسلم و الترمذي عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»(٢).

فإن قيل: يشكل على هذا قوله ﷺ: «لاتفضلوني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بساق العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله»(٣)؟ خرجاه في الصحيحين، فكيف يجمع بين هذا وبين قوله: «أنا سيد ولد

(١) مسلم (١/ ١٢٧) وكذا البخاري (٢/ ٢٣٤و٣/ ٢٧٢) وأحمد (٢/ ٤٣٥) من حديث أبي هريرة أيضاً، والدارمي (١/ ٢٧.٢٨) وأحمد (٣/ ١٤٤) بسند صحيح عن أنس، وزاد: «ولا فخر» والترمذي عن أبي سعيد، وسيأتي.أهـ ألباني.

(٢) وقال الترمذي (٢/ ٢٨١) «حديث حسن صحيح» واللفظ لمسلم، ولفظ الترمذي أتم، لكن فيه من هو كثير الغلط، كما بينته في «الصحيحة»(٣٠٢).أهـ ألباني.

(٣) البخاري في «الخصومات»(٢/ ٢٨١) و«الأنبياء» (١٢/ ٣٥٩) و«الرقاق» (٤/ ٢٣٤) و«التوحيد» (٤/ ٤٧٤) ومسلم في «الفضائل» (١٧/ ١٠١) وكذا أحمد (٢/ ٢٦٢) من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ «لاتخيروني» وأما لفظ «لا تفضلوني» فإنما هو عند الشيخين من طريق الأعرج عنه في سياق آخر يأتي بعد حديث، وفي حديث أبي سلمة: «فإذا موسى باطش بجانب العرش» وقال الأعرج «فإذا موسى آخذ بالعرش» ورواية أحمد من طريق الأعرج وأبي سلمة معا «فأجد موسى ممسكاً بجانب العرش».أهـ ألباني.

آدم ولا فخر»[١].

فالجواب: أن هذا كان له سبب، فإنه كان قد قال يهودي: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلم، وقال: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه، فقال النبي ﷺ هذا، لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذموماً، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموماً، فإن الله حرم الفخر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول، وعلى هذا يحمل أيضاً قوله ﷺ: «لا تفضلوا بين الأنبياء»[٢]، إن كان ثابتاً، فإن هذا قد روي في نفس حديث

---

(١) صحيح أخرجه الترمذي (٢/ ٢٨٢) وابن ماجه (٤٣٠٨) وأحمد (٣/ ٢) من حديث أبي سعيد الخدري، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» ورواه أحمد (١/ ٢٨١-٢٩٥) من هذا الوجه عن ابن عباس، وله شاهد من حديث أبي هريرة بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» أخرجه مسلم (٧/ ٥٩) وأبو داود (٤٦٧٣) وابن سعد (١/ ٢٠) وهو في الصحيحين نحوه، وتقدم قريباً، وذكرنا له هناك شاهد آخر، وله في «الصحيحة» (١٥٧١) شاهد ثالث عن سلمان. أهـ ألباني.

(٢) صحيح، وهو رواية من حديث أبي هريرة المتقدم من طريق عبدالرحمن الأعرج عنه قال: «بينما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئا كرهه أو لم يرضه، قال: لا والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فلطم وجهه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم: إن لي ذمة وعهدا، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: لم لطمت وجهه؟ قال: قال يارسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه، ثم قال: لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض =

موسى، وهو في البخاري وغيره، لكن بعض الناس يقول: إن فيه علة، بخلاف حديث موسى، فإنه صحيح لا علة فيه باتفاقهم.

وقد أجاب بعضهم بجواب آخر، وهو: أن قوله ﷺ: «لا تفضلوني على موسى»(١)، وقوله: «لا تفضلوا بين الأنبياء» نهي عن التفضيل الخاص، أي: لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه، بخلاف قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»(٢) فإنه تفضيل عام فلا يمنع منه، وهذا كما لو قيل: فلان أفضل أهل البلد، لا ينصب على أفرادهم، بخلاف ما لو قيل لأحدهم: فلان أفضل منك، ثم إني رأيت الطحاوي رحمه الله قد أجاب بهذا الجواب في شرح معاني الآثار.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وفيه جواب آخر، أن النبي ﷺ قال هذا من باب التواضع ومن باب سد باب النزاع والخصام والتفضيل بغير الطرق الشرعية، فأراد بهذا سد باب النزاع والخصام والتفضيل الذي يفضي إلى التعصب والحمية، كما في الجواب الأول، وفيه أيضاً التواضع منه ﷺ لئلا يقع الناس في الغلو المذموم «لا تفضلوا

= إلا من شاء الله، قال: ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، أو في أول من بعث، فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقة يوم الطور أو بعث قبلي، ولا أقول: «إن أحداً أفضل من يونس بن متي عليه السلام» أخرجه البخاري (٢/ ٣٦٠ـ٣٦١) ومسلم (٧/ ١٠٠ـ١٠١) وقد غمز الشارح من صحته، ولا أعلم له علة، ولم يتكلم عليه الحافظ في «الفتح» (٦/ ٣١٨) وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا بلفظ: «**لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون**..» الحديث نحوه، أخرجه البخاري (٢/ ٨٩) ومسلم (٧/ ١٠٢) وأحمد (٣/ ٣٣) وروى أبو داود (٤٦٦٨) الجملة الأولى منه، وهي رواية لأحمد (٣/ ٣١). أهـ ألباني.

(١) صحيح، وقد تقدم قريبا. أهـ ألباني.

(٢) صحيح، وتقدم قريبا. أهـ ألباني.

بين الأنبياء» «**لا تفضلوني على موسى**» وفي الحديث الآخر لما قيل له يا خير البرية قال: «**ذاك إبراهيم**»[١] والحديث الرابع: «**لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**».

هذه الأحاديث كلها من باب التواضع ومن باب التحذير من الحط من بعض الأنبياء أو التنقص لبعض الأنبياء أو إيهام ما يدل على ذلك، فأراد بهذا سد الباب عليه الصلاة والسلام، وأن يكون التفضيل على النصوص فقط، ما جاءت به النصوص وجب الأخذ به وما لا فلا، فلا يفضل بين الأنبياء إلا بنص واضح بتفضيل فلان على فلان، وإلا فالتفضيل لمجرد التعصب أو الهوى أو الحمية أو ما أشبه ذلك هذا هو الممنوع، فأراد أن يبين ﷺ أن هذه الأمور لله، هو الذي يفضل من يشاء، وهو الذي يعلم أحوالهم سبحانه وتعالى ويعلم منازلهم، فلا يفضل أحد على أحد إلا بالنص، وإلا فقد يؤدي إلى التعصب والحمية ويفضي إلى النزاع والخصام، فدخل في ضمنه التواضع منه عليه الصلاة والسلام، وفي ضمنه أيضاً سد الباب للتفضيل الذي قد يقع بغير نظر وبغير أدلة شرعية، بل بمجرد ما في نفس الإنسان من تعصب وهوى وحمية على غير أساس.أهـ

* * *

وأما ما يروى أن النبي ﷺ قال: «لا تفضلوني على يونس بن متي»[٢]، وأن بعض الشيوخ قال: لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يعطى مالاً جزيلاً،

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٩) كتاب الفضائل / باب: من فضائل الخليل ﷺ، وأبو داود (٤٥٠٧) كتاب السنة / باب: في التخيير بين الأنبياء، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) لا أعرف له أصلا بهذا اللفظ، وتقدم قريبا في حديث أبي هريرة: «**ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متي**».أهـ ألباني

فلما أعطوه فسره بأن قرب يونس من الله وهو في بطن الحوت كقربي من الله ليلة المعراج، وعدوا هذا تفسيراً عظيماً، وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظاً ومعنى، فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها، وإنما اللفظ الذي في الصحيح: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متي»[1] وفي رواية: «من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب».

وهذا اللفظ يدل على العموم، لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى، ليس فيه نهي المسلمين أن يفضلوا محمداً على يونس، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت وهو مليم، أي: فاعل ما يلام عليه، وقال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام، إذ لا يفعل ما يلام عليه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: قوله: (فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام، إذ لا يفعل ما يلام عليه) هذا الكلام فيه شيء، قد يظن بعض الناس أنه أفضل من يونس لأنه لم يفعل ما يلام عليه، لأنه مستقيم ما فعل شيئاً يلام عليه، فيقع في نفسه أنه خير من يونس بن متى، فالنبي قطع هذا وقال: «**لا ينبغي لعبد - أي عبد - أن يقول أنا خير من يونس بن متى**» ولو كان يونس قد فعل

---

(١) مسلم وأحمد وغيرهما، ولفظه عند مسلم (٢٣٧٦) قال: «يعني الله تبارك وتعالى: لا ينبغي لعبد لي (وفي لفظ: لعبدي) والرواية الأخرى للبخاري في «التفسير». أهـ ألباني.

ما فعل مما حصل به المغاضبة وصار به ملوماً، لكنه نبي كريم له أعمال أخرى وله صالحات ودعوة عظيمة، فهو من جملة الرسل الذين هم خيرة عباد الله، وإن جرى منه ما جرى، فهو لدين الله غَيْرة لله سبحانه وتعالى، فالحاصل أن هذا الكلام فيه شيء.

الأَولى: فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس في هذا المقام إذ لم يفعل ما يلام عليه.أهـ

* * *

ومن ظن هذا فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كما قال أول الأنبياء وآخرهم، فأولهم: آدم، قد قال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وآخرهم وأفضلهم وسيدهم: محمد ﷺ، قال في الحديث الصحيح، حديث الاستفتاح، من رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، بعد قوله: «وجهت وجهي» إلى آخره: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت»(١)، إلى آخر الحديث، وكذا قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وأيضاً: فيونس ﷺ لما قيل فيه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ فنهى نبينا ﷺ عن التشبه به، وأمره بالتشبه بأولي العزم حيث قيل له: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ فقد يقول

---

(١) مسلم وأحمد وغيرهما من حديث علي رضي الله عنه، وهو قطعة من دعاء التوجه بعد الإحرام، وهو مخرج في «صفة الصلاة» ص(٨٥) الطبعة السادسة.أهـ ألباني

من يقول: أنا خير من يونس: للأفضل أن يفخر على من دونه، فكيف إذا لم يكن أفضل، فإن الله لا يحب كل مختال فخور، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «أوحي إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[١].

فالله تعالى نهى أن يفخر على عموم المؤمنين، فكيف على نبي كريم؟ فلهذا قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متي» فهذا نهي عام لكل أحد أن يتفضل ويفتخر على يونس، وقوله: «من قال إني خير من يونس بن متي فقد كذب» فإنه لو قدر أنه كان أفضل، فهذا الكلام يصير نقصاً، فيكون كاذباً، وهذا لا يقوله نبي كريم، بل هو تقدير مطلق، أي: من قال هذا فهو كاذب، وإن كان لا يقوله نبي، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وإن كان ﷺ معصوماً من الشرك، لكن الوعد والوعيد لبيان مقادير الأعمال.

وإنما أخبر ﷺ أنه سيد ولد آدم، لأنا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره، إذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله، كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله، صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

ولهذا أتبعه بقوله «ولا فخر» كما جاء في رواية، وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر: إن مقام الذي أسري به إلى ربه وهو مقرب معظم مكرم كمقام الذي ألقي في بطن الحوت وهو مليم؟! وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب ؟!

فهذا في غاية التقريب، وهذا في غاية التأديب.

---

(١) مسلم (٨/ ١٦٠) من حديث عياض بن حمار، وله شاهد من حديث أنس، وقد خرجتهما في «الصحيحة»(٥٧٠). أهـ ألباني.

فانظر إلى هذا الاستدلال، لأنه بهذا المعنى المحرف اللفظ لم يقله الرسول، وهل يقاوم هذا الدليل على نفي علو الله تعالى على خلقه الأدلة الصحيحة الصريحة القطعية على علو الله تعالى على خلقه، التي تزيد على ألف دليل، كما يأتي الإشارة إليها عند قول الشيخ رحمه الله «محيط بكل شيء وفوقه» إن شاء الله تعالى.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا رد على من قال: لما كان في بطن الحوت في قعر البحر شابه محمداً ﷺ لما كان في الملأ الأعلى فوق السماء السابعة، جاهل مركب، هذا صوفي جاهل لا يدري ما يقول.أهـ

سؤال/ بالنسبة لكلامه على العلو وهل يقاوم هذا الدليل على نفي علو الله تعالى على خلقه؟

أجاب سماحة الشيخ: مقصوده الإيهام، أنه لما كان في قاع البحر أسفل أن هذا فيه القرب إلى الله من جهة السفل، كما أن من صعد إلى السماء وصار فوق السماء السابعة في جهة العلو...يعني أن الله كما يوصف بالعلو يوصف بالسفل، هذا جهل واضح.أهـ

* * *

قوله: (وحبيب رب العالمين).

ش: ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة، وهي الخلة، كما صح عنه ﷺ أنه

قال: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»(١) وقال: «ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الرحمن»(٢).

والحديثان في الصحيح وهما يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، فإبراهيم خليل الله ومحمد حبيبه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والصواب أنهما خليلان، والمحبة مشتركة، فهما حبيبا الرب عز وجل وهما خليلاه، والمحبة مشتركة بين أهل الإيمان كلهم، يقول سبحانه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] جل وعلا، والخلة خاصة بالخليلين لإبراهيم وحفيده محمد عليه الصلاة والسلام، هذان هما الخليلان وليس لغيرهما خلة، وهي أعلى المحبة ونهايتها، والله جل وعلا يحبهما أكثر من غيرهما، والمحبة مشتركة لجميع الرسل وجميع الأنبياء والمؤمنين جميعاً، فهو يحب أولياءه وأهل طاعته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢] لكن محبة الأنبياء والرسل محبة خاصة أكثر من غيرهم، ومحبة الخليلين محبة زائدة بلغت الخلة عليهما الصلاة والسلام.أهـ

* * *

(١) مسلم وأبو عوانة من حديث جندب، وهو طرف منه مخرج في «أحكام الجنائز» (٢١٧).أهـ ألباني.

(٢) مسلم من حديث عبدالله بن مسعود بلفظ: «خليل الله» وكذا رواه الترمذي (٢/ ٢٨٩) وصححه، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٢٢٦).أهـ ألباني.

وفي الصحيح أيضاً: «إني أبرأ إلى كل خليل من خلته»[(١)] والمحبة قد ثبتت لغيره، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فبطل قول من خص الخلة بإبراهيم والمحبة بمحمد، بل الخلة خاصة بهما، والمحبة عامة، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي الذي فيه: «إن إبراهيم خليل الله، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر»[(٢)]: لم يثبت[(٣)].

والمحبة مراتب: أولها: العلاقة، وهي تعلق القلب بالمحبوب.

والثانية: الإرادة، وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة: الصبابة، وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور.

الرابعة: الغرام، وهي الحب اللازم للقلب، ومنه الغريم، لملازمته، ومنه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

الخامسة: المودة، والود، وهي صفو المحبة وخالصها ولبها، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

السادسة: الشغف، وهي وصول المحبة إلى شغاف القلب.

السابعة: العشق: وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه،

(١) هو من حديث ابن مسعود الذي قبله. أهـ ألباني.

(٢) ضعيف لضعف زمعة بن صالح وسلمة بن وهرام أيضاً. أهـ ألباني.

(٣) قال شاكر: هذا جزء من حديث طويل، رواه الدارمي في سننه ١/ ٢٦ عن عبيد الله بن عبدالمجيد، عن زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس. ورواه الترمذي ٤/ ٢٩٤-٢٩٥ عن علي بن نصر بن علي الجهضمي، عن عبيد الله بن عبدالمجيد بهذا الإسناد، وقال: «هذا حديث غريب» وحق للشارح رحمه الله أن يقول هنا إنه «لم يثبت»، لأن زمعة بن صالح راويه: ضعيف. أهـ

ولكن لا يوصف به الرب تعالى ولا العبد في محبة ربه، وإن كان قد أطلقه بعضهم، واختلف في سبب المنع، فقيل: عدم التوقيف، وقيل غير ذلك، ولعل امتناع إطلاقه: أن العشق محبة مع شهوة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الأمر الأول: عدم وروده في النصوص في محبة الله لعباده وفي محبتهم له سبحانه وتعالى.

الأمر الثاني: ما أشار إليه الشارح من أن العشق في الغالب يكون مع شهوة، شهوة الرجل للمرأة أو المرأة للرجل، شهوة الأنوثية المعروفة، فلا تليق بالله سبحانه وتعالى، ولهذا لا يقال عشقت الله ولا عشقني الله، وإنما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤] سبحانه وتعالى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١] هذه المراتب معروفة عند العرب، مراتب المحبة معروفة عند العرب وعند غيرهم بلغتهم.أهـ

* * *

الثامنة: التيم، وهو بمعنى التعبد.

التاسعة: التعبد.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني يعبده، يتخذ الصاحبة معبوداً، يقول الشاعر:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإن ذلك أحب أسمائي

يعني لزوم التذلل لها، التذلل للمحبوب والالتصاق به والخضوع له، وهذا لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى، فهو المستحق لأن يعبد ويذل له

الذل الكامل، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله :

وعبادة الرحمن غـاية حبه   مع ذل عابده هما القطبان

فغاية الحب لله مع كمال الذل لله هذا هو العبادة الحقيقة، صادرة عن ذل وخضوع ومحبة في أداء الأوامر، فإذا أدى الأوامر وترك النواهي لله عن غاية حب مع غاية الذل، فهذا كمال العبادة، فالتعبد لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى، ولكن الشعراء والعشاق يطلقون هذا على أنفسهم، ومنه الحديث الصحيح: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم»[1] لأنه ذل له وانقاد له، فصار يرضى له ويغضب له، فصار عبداً له، نسأل الله السلامة.أهـ

* * *

العاشرة: الخلة، وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه.

وقيل في ترتيبها غير ذلك، وهذا الترتيب تقريب حسن، لا يعرف حسنه إلا بالتأمل في معانيه.

واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته، كسائر صفاته تعالى، وإنما يوصف الله تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والود والمحبة والخلة، حسبما ورد النص.

وقد اختلف في تحديد المحبة على أقوال، نحو ثلاثين قولاً، ولا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء.

وهذه الأشياء الواضحة لا تحتاج إلى تحديد، كالماء والهواء والتراب والجوع ونحو ذلك .

(١) رواه البخاري (٢٨٨٥) كتاب الجهاد/ باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، و(٦٤٣٥) كتاب الرقاق/ باب: ما يتقى من فتنة المال، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: محبة العبد لغيره واضحة، لكن يجب أن يكون حبه لله فوق كل شيء، وأن يكون حبًّا متضمناً للخضوع له والذل له وطاعة أوامره وترك نواهيه وتخصيصه بالعبادة سبحانه وتعالى، فأحب حبيب وأولى حبيب وأحق حبيب بالطاعة والامتثال والقيام بالواجب والكف عما لا ينبغي هو الرب عز وجل، وتعريفها لا يزيدها إلا جهالة، فمعناها واضح، ولكن كسائر الصفات، لا يعلم كيفية الحب من الله لعباده إلا هو سبحانه وتعالى، فليست صفاته مثل صفات خلقه، فصفاته تليق به سبحانه وتناسبه، ولا يشابه فيها خلقه جل وعلا، كاستوائه وسمعه وبصره وإرادته وعلمه وغير ذلك، كلها صفات حق ثابتة لله جل وعلا، صفاته سبحانه وتعالى لا تحصى، قد دل عليها الكتاب والسنة كما في حديث أبي هريرة وغيره، وإن كان تعدادها مدرج كما هو المحفوظ[(١)]، لكن المقصود أن لله أسماء كثيرة، معانيها ثابتة لله سبحانه وتعالى مشتقة، أخبرنا بها جل وعلا لكن لا يعرف كيفيتها إلا هو سبحانه وتعالى، يعلم العلماء معانيها في اللغة العربية، كما قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم والكيف مجهول[(٢)]، وقد جاء معنى ذلك عن أم سلمة[(٣)] وربيعة بن أبي عبدالرحمن من أجلِّ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٢) كتاب الدعوات/ باب أسماء الله الحسنى بالتفصيل، وقال: هذا حديث غريب، وقال شيخ الإسلام: تعيينها ليس من كلام النبي باتفاق أهل المعرفة بحديثه. أهـ الفتاوى ٦/ ٣٨٢.

(٢) رواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٦٦٤) ١/ ٤٤١ سياق ما روي في قوله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ والبيهقي في الأسماء والصفات(٨٦٦) وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٥-٣٢٦، والذهبي في مختصر العلو ١٣١-١٣٢، وصححه وقال: هذا ثابت عن مالك. وقواه الألباني، وجود إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ١٣/ ٤٠٦، ٤٠٧.

(٣) رواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٦٦٣) ١/ ٤٤٠ وابن بطة في الإبانة (١٢٠) ٣/ =

شيوخ مالك(١)، ولكن نفس الكيفية لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، الاستواء معلوم والسمع معلوم والعلم معلوم والإرادة معلومة والحب معلوم، وهكذا السمع والبصر، وهكذا الضحك، وهكذا الرضى، كلها صفات معلومة، لكن كيفية وقوعها من ربنا عز وجل لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، لا يشبّه بخلقه كما قال عز وجل: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤] ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] وقد أشكل هذا المعنى على طوائف كثيرة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك مسلكهم، فضلوا عن سواء السبيل وحرفوا هذه الأسماء ونفوا معانيها عن الله عز وجل، وأثبت بعضهم أسماء مجردة، وبعضهم نفى الأسماء والصفات جميعاً فضل وأضل، وقوم تناقضوا فأثبتوا بعضاً ونفوا بعضاً وأوّلوا في الغالب كالأشاعرة.

أما أهل السنة والجماعة فوفقهم الله إلى الحق الذي جاء به رسولهم محمد عليه الصلاة والسلام، فأثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله عليه الصلاة والسلام من الأسماء والصفات على الوجه اللائق بالله عزوجل، وقالوا: إن معانيها معلومة وأنها لائقة بالله، وأنها حقيقة ثابتة

= الرد على الجهمية، كلاهما عن أم سلمة رضي الله عنها، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة موقوفا ومرفوعا، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه» انتهى، مجموع الفتاوى ٥/ ٣٦٥.

(١) رواه اللالكائي (٦٦٥) ١/ ٤٤١ سياق ما روي في قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ و(٩٢٨) ما روي عن النبي ﷺ في النهي عن التفكر في ذات الله، وابن بطة (١٢١) ٣/ الرد على الجهمية، عن ربيعة، وقال شيخ الإسلام بعد إيراد أثر مالك في الاستواء: «ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك». الفتاوى ٥/ ٣٦٥.

ليست مجازاً، ولكن كيفيتها وكنهها ليس إلينا، بل هذا إلى الله سبحانه وتعالى، هو الذي يعلم كيفيتها وكنهها جل وعلا، وإنما نعلم جنس المعنى، وأن يحب غير الكراهة، نعلم هذا من لغة العرب، ونعلم أن الرضى غير الغضب، ونعلم أن السمع والبصر غيران ليسا شيئاً واحداً، ونعلم أن الكلام غير المحبة، وأن المحبة غير الكلام وغير السمع والبصر، هذه صفات معلومة، الله خاطب الناس بما يعرفون وكلمهم بما يعقلون، ولكن طوى عنهم الكيفية ولم يخبرهم بالكيفية سبحانه وتعالى، فعلى العباد أن يسلموا لله سبحانه وتعالى ما أخبرهم به وما طوى عنهم، وأن لا يخوضوا فيما لا يعلمون، وكفاهم بهذا علماً وكفاهم بهذا أدباً وكفاهم بهذا استقامة، ولهذا لما خاض قوم في هذا الباب ضلوا، ما بين محرف معطل مأول، وما بين غال مشبه لله بخلقه كالمشبهة.

ولكن أهل السنة والجماعة ـ وهم الأمة الوسط ـ هداهم الله إلى خير الأمور وإلى الحق في جميع الأبواب، فصاروا وسطاً بين أهل الضلالات وبين الأطراف المنحرفة، فالحمد لله.

وهناك طائفة أخرى قد يشتبه أمرهم وهم المفوضة، وقد يظن بعض الناس أن هؤلاء هم السلف، وهذا غلط، المفوضة معناه أنهم قالوا: نفوض معانيها، يعني لا ندري ما هو المعنى، لا نعرف الكراهة هي المحبة أو غير المحبة؟ ولا نعرف ما معنى السمع ولا معنى البصر؟ نفوض هذا إلى الله، هذا جهل شديد، حتى روي عن أحمد وغيره أنهم شر من المأولة، لأنهم اعتقدوا أن الله خاطب الناس وكلمهم بما لا يعقلونه ولا يفهمونه، وكيف يعقل أن يكون معنى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج:٧٥] لا يعقل ولا يفهم؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾؟

[البقرة:١٧٣] إن الله جواد كريم؟

هذا لا يقوله من يعقل ويفهم.

الله سبحانه وتعالى خاطب الناس بصفات تعلم وتعقل، كي يرى بها كماله وعظمته سبحانه وتعالى وأنه المستحق للعبادة، فالتفويض باطل، وليس أهل السنة والجماعة مفوضة، أهل السنة والجماعة يؤمنون بالمعاني، ويعقلون أن لها معانٍ تليق بالله وأنها حق، ولكنها ليست من جنس صفات المخلوقين ولا معاني المخلوقين، بل هي أعلى وأكمل وأعظم، فالله سميع والعبد سميع، والله بصير والعبد بصير، لكن سمع الله غير سمع المخلوق وبصره غير بصره، وبينهما ما لا يخفى من الفضل والفوت، سمع الله لا يداني ولا يقارب سمع المخلوقين، وهكذا بصره وهكذا علمه وهكذا جوده وكرمه، وهكذا علوه فوق جميع خلقه، إلى غير ذلك، فصفاته سبحانه لها الكمال المطلق فهي تليق بالله، وصفات المخلوقين لها النقص اللائق بها واللائق بأهلها، فلا يساوي هذا هذا ولا يشبه هذا هذا، والعبد محل النقص والموت والمرض، تكون عليه آثام، والله له البقاء والدوام والحياة الكاملة سبحانه وتعالى، فهو الحي الذي لا يموت ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٧] فكيف يقال إن هذه الصفات تفوض ولا تعقل ولا يدرى ما هي؟

لا يقول هذا من يؤمن بالله واليوم الآخر حقًّا، لا يقول هذا من يعقل أن الله أنزل كتابه هداية للناس ورحمة وذكرى وموعظة، كيف يكون هداية وهو ما بيّن هذه الأمور؟.

فينبغي أن يعلم هذا، ويكون منه على بال، فإن في كتب العقائد أغلاطاً بين المتكلمين ينبغي الحذر منها، وأن لايقع فيها طالب العلم عن غرة وعن حسن ظن بأحد، بل يحذر ويعلم أن أسماء ربي وصفاته أمر

معلوم معقول مفهوم دال على معان عظيمة جليلة كاملة تليق بالله، لكن لا يعلم كيفيتها إلا هو، ولا يشبه بخلقه بشيء، بل هو الكامل بكل شيء، والعبد هو الناقص بكل أموره، محل النقص في كل الأمور، سمعه وبصره وحياته وكلامه، بعض الناس أخرس لا يتكلم، بعض الناس لا يسمع أصلاً، بعض الناس لا يحسن الكلام كما يريد بالكلام، إلى غير ذلك، والمخلوقون في نهاية أمرهم الضعف ثم الموت، والله ليس ينتهي إلى ضعف ولا إلى موت، بل هو القوي العظيم دائماً، والحي القيوم دائماً سبحانه وتعالى.أهـ

سؤال/ ما الفرق بين التفويض والقول بأن الكيفية مجهولة؟

أجاب سماحة الشيخ: الفرق مثل ما بين السماء والأرض والليل والنهار.

التفويض معناه: ما يُعرف معناه، ما يعرف شيء، يعني يمكن أن يكون السمع هو البصر والبصر هو الكلام والكلام هو الكراهة والكلام هو اليد وهو القدم وغير ذلك، هذا معنى التفويض، يعني لا يدرك شيء.

وأما نفي الكيفية فأعرف السمع أنه سمع الأصوات، وأعرف البصر أنه بمعنى يبصر الأشياء، وأعرف الكلام أنه الله يتكلم به ويُسمع، لكن ما أدري كيفية الكلام، كيف يتكلم كيف يسمع كيف يبصر ..؟ ما أعرف هذا.أهـ

* * *

قوله: (وكل دعوى النبوة بعده فغي وهوى)

ش: لما ثبت أنه خاتم النبيين، علم أن من ادعى بعده النبوة فهو كاذب، ولا يقال: فلو جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين

الصادقة كيف يقال بتكذيبه؟

لأنا نقول: هذا لا يتصور أن يوجد، وهو من باب فرض المحال، لأن الله تعالى لما أخبر أنه خاتم النبيين، فمن المحال أن يأتي مدع يدعي النبوة ولا يظهر أمارة كذبه في دعواه.

والغي: ضد الرشاد.

والهوى: عبارة عن شهوة النفس، أي: أن تلك الدعوى بسبب هوى النفس، لا عن دليل، فتكون باطلة .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا كلام واضح، فإن الله سبحانه وتعالى يقيم على كل شيء دليلاً وبرهاناً، فلما سبق في علمه واقتضت حكمته أن هذا الخلق يحتاج إلى رسالة ويحتاج إلى تعريف بحقه سبحانه، بعث الرسل وأنزل الكتب لإقامة الحجة وقطع المعذرة، وأقام الدلائل والبراهين على ذلك، حتى يصدق الناس ويعملوا بمقتضى ما جاءت به الرسل، فلما بين سبحانه أن محمداً خاتم النبيين، فإنه سبحانه وتعالى لا يقيم على دعوى فيدعى النبوة بعده، لا يصدقها، لأنه حكيم عليم جل وعلا، فهو لا يصدق الكاذب ولا يكذب الصادق سبحانه وتعالى، بل يقيم الدلائل على صدق الصادق وعلى كذب الكاذب، فإذا جاء من يدعي النبوة بعد محمد ﷺ أو في أي مكان كان، أو في أي وقت كان وهو كاذب، فلا بد أن تكون هناك دلائل وبراهين وحجج على بطلان دعواه، يقيمها سبحانه وتعالى في نفس الشخص وفي نفس ما يدعو إليه، وفيما يحتف به بعد ذلك.أهـ

* * *

قوله: (وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى،

وبالنور والضياء).

ش: أما كونه مبعوثاً إلى عامة الجن، فقال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ الآية، وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضاً، قال مقاتل: لم يبعث الله رسولاً إلى الإنس والجن قبله، وهذا قول بعيد.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهو قول على الله بغير علم، الله سبحانه وتعالى خلق الجن ليعبدوه، فهم في حاجة إلى بيان كما أن الإنس في حاجة إلى بيان.أهـ

* * *

فقد قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ الآية، والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسول، كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر(١).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لأن الله قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف:١٠٩] فعند الإطلاق ظاهره الإنس، ظاهر الإطلاق الإنس، لكن قد يكون ﴿ مِنكُمْ ﴾ يقتضي تقوية من قال إن فيهم رسلاً.أهـ

* * *

(١) رواه الطبري في تفسيره، سورة الأنعام (١٣٠) ١٢/ ١٢٢، وابن كثير في تفسيره، الأنعام، الآية نفسها.

وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ الآية: تدل على أن موسى مرسل إليهم أيضاً، والله أعلم.

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلاً، واحتج بهذه الآية الكريمة[1]، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ والمراد: من أحدهما.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا ليس ببين، قول من قال إن منهم رسلاً على ظاهر الآية أقوى ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى﴾ [الأنعام:١٣٠] هذا ظاهر صريح، وجعله لأحداهما يحتاج إلى دليل، وهكذا قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن:٢٢] القول بأنه من المالح فقط ليس بجيد أيضاً، قول ضعيف، الله أخرج للناس اللؤلؤ والمرجان منهما جميعاً، فقول من قال من الناس: إن هذا في البحر المالح خاصة، غلط، بل هو منهما جميعاً، وقد صرح بهذا كثير من أهل العلم.

وحدثني من لا أتهم من أهل البحر الذين كانوا يغوصون للآلئ، أنهم يجدون في البحر المالح والحلو من اللآلئ، في هذا وفي هذا، وليس خاصًّا بالبحر المالح.

---

(١) تفسير الطبري، الأنعام (١٣٠) ١٢/ ١٢٠، سئل الضحاك عن الجن، هل كان فيهم نبي قبل أن يبعث النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع إلى قول الله ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى﴾ يعني بذلك: رسلاً من الإنس ورسلاً من الجن؟ فقالوا: بلى.

فالحاصل أن الآية التي اعتمدوا عليها وجعلوها كآية الأنعام، أخطأوا في هذه وفي هذه، وقول من قال إن الرسل من الجن والإنس جميعاً - وإن كانوا قليلين - قولهم أظهر للأدلة.أهـ

❊ ❊ ❊

وأما كونه مبعوثاً إلى كافة الورى، فقد قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أي: وأنذر من بلغه، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وقد قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ﴾.

وقال ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(١)، أخرجاه في الصحيحين.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ما هي هذه الشفاعة الخاصة التي أعطيها؟

(١) صحيح، وهو من حديث جابر، وقد خرجته في «إرواء الغليل» (٢٨٥).أهـ ألباني.

الشفاعة العظمى، هي المقام المحمود بين الأمم بين أهل الموقف كلهم.

فيه شفاعة غيرها بما يخصه هو: الشفاعة العظمى، والشفاعة في دخول أهل الجنة الجنة، والشفاعة في أبي طالب خاصة به وبأبي طالب، والباقي مشتركة، يعني من دخل النار يخرج، له وللملائكة والمؤمنين والأفراط.أهـ

* * *

وقال ﷺ: «**لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**»[(١)]، **رواه مسلم.**

وكونه ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة.

وأما قول بعض النصارى إنه رسول إلى العرب خاصه: فظاهر البطلان، فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا واضح، من صدقه في أنه رسول ولو للعرب لزمه أن يصدقه في كل شيء، لأن الرسول لا يكذب، لأنه إن اعترف بأنه ولو للأميين ولو للعرب لزمه أن يصدقه في كل شيء، ولكن الغالب على اليهود والنصارى الجحد وعدم الإيمان بالنبوة جميعاً، فإنه من أقر منهم بأنه رسول إلى العرب والأميين، فهذا يلزمه أن يصدقه في كل شيء، وأن يعترف برسالته العامة للثقلين جميعاً، لأنه لما اعترف بأنه رسول لزمه أن يصدقه في كل شيء .أهـ

* * *

(١) صحيح، وهو من حديث أبي هريرة، وهو في مسلم (١/ ٩٣) ولكنه مغاير في بعض الأحرف لسياق الكتاب، وقد رواه ابن منده في «التوحيد» (ق٤٤/ ١) ولفظه أقرب، وقد خرجته في «الصحيحة» (١٥٧).أهـ ألباني.

وقد قال إنه رسول الله إلى الناس عامة، والرسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتماً، فقد أرسل رسله وبعث كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الأطراف، يدعو إلى الإسلام.

وقوله: «وكافة الورى» في جر «كافة» نظر، فإنهم قالوا: لم تستعمل كافة في كلام العرب إلا حالاً، واختلفوا في إعرابها في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها حال من الكاف في ﴿ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ وهي اسم فاعل والتاء فيها للمبالغة، أي: إلا كافاً للناس عن الباطل، وقيل: هي مصدر كف، فهي بمعنى كفا أي: إلا أن تكف الناس كفاً، ووقوع المصدر حالاً كثير.

الثاني: أنها حال من الناس، واعترض بأن حال المجرور لا يتقدم عليه عند الجمهور، وأجيب بأنه قد جاء عن العرب كثيراً فوجب قبوله، وهو اختيار ابن مالك رحمه الله، أي: وما أرسلناك إلا للناس كافة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا هو الأرجح، القول الثاني هذا هو الأظهر ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ:٢٨] والمعنى وما أرسلناك إلا للناس كافة، إلا للناس جميعاً، هذا مثل قوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]مثلها في المعنى.أهـ

* * *

الثالث: أنها صفة لمصدر محذوف، أي: رسالة كافة، واعترض بما تقدم أنها لم تستعمل إلا حالاً.

وقوله: بالحق والهدى وبالنور والضياء، هذه أوصاف ما جاء به

رسول الله ﷺ من الدين والشرع المؤيد بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الأدلة، والضياء: أكمل من النور، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: النور في الغالب لا حرارة فيه، والضياء نور معه حرارة، معه قوة، ولهذا الشمس ضياء، فيها قوة، لما فيها من الحرارة المحرقة، وفيها نور، والضياء نور بلا حرارة، فالقرآن العظيم والشريعة فيها نور وفيها حرارة، إقامة الحدود وردع المجرمين وقتل من يستحق القتل، فهو نور معه قوة، معه ضياء معه حرارة، تردع المجرمين وتقيم الحدود على مستحقيها، ولهذا أتي بالجميع بالنور والضياء، ففيها النور وهي نور، وفيها ضياء يحرق أهل الباطل، ويحرق من يستحق الإحراق، ويدمغ من يستحق العقوبة، وفي الحديث قال: «**الصدقة نور والصبر ضياء**»[1]، سمي ضياءً لأن فيه نوراً لكن فيه حرارة، ما كل أحد يتحمل الصبر، بل يحتاج إلى جهد وإلى تعب على ما يخالف ما في النفوس، سواء المصائب، سواء الطاعات، الصبر عن المعاصي، ما كل أحد يقوى عليه، ولهذا قال: «**وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر**»[2].

فالصبر له شدة وله قوة، ولهذا ليس كل أحد يتحمله، ولهذا تجد

(١) رواه مسلم (٢٢٣)كتاب الطهارة/ باب فضل الوضوء، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٤٦٩)كتاب الزكاة/ باب الاستعفاف عن المسألة، ومسلم (١٠٥٣)كتاب الزكاة/ باب: فضل التعفف والصبر والقناعة والحث على ذلك، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أكثر النفوس ليس عندها تحمل، فتستلذ الباطل ومتابعة الهوى بما تريد.أهـ

* * *

قوله: و(وإن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال تعالى: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر).

ش: هذه قاعدة شريفة، وأصل كبير من أصول الدين، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس، وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة.

وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال:

أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معان، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أو من غيره، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وهذا قول المعتزلة .

وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرانيه كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه، كالأشعري وغيره .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: أبو الحسن الأشعري في مقاله الأول قبل أن يرجع إلى كلام أهل السنة، يعني يقولون: إنه معنى

قائم بالله، وأن الله لا يتكلم بشيء سبحانه وتعالى، وإنما هو معنى قائم بالله، فإن عبر عنه من طريق الرسل بالعربية صار قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرانية صار توراة، وإن عبر عنه بالسريانية صار إنجيلاً، وإن عبر عنه بلغة داود كان زبوراً وهكذا، وهذا من أبطل الباطل وأضل الضلال، فإن القرآن هو كلام الله منزل غير مخلوق، سمعه جبرائيل من الله عز وجل، وسمعه محمد من جبرائيل، وألقاه إلى الأمة عليه الصلاة والسلام، فالله يتكلم إذا شاء بالقرآن وغير القرآن، تكلم ويتكلم إذا شاء سبحانه وتعالى، وليس في كلامه نقص ولا عيب ولا مشابهة لكلام البشر، بل كذاته، ذاته سبحانه لا تشبه الذوات، وهي قائمة بنفسها، مصرف الأكوان مدبر الأكوان بذاته جل وعلا، ولا تشبه ذاته ذوات المخلوقات، هكذا كلامه وسمعه وبصره، وهذا من صفاته، كلها حق لا يشبه فيها صفات البشر، ولكن يؤتى الناس من جهلهم وضلالهم وقلة بصيرتهم، يؤتون من عجمتهم وقلة البصيرة وقلة العلم، وإلا فالرب عز جل من كماله ومن صفات كماله ومن أسباب استحقاقه للعبادة ومن أدلة أنه رب العالمين كونه يتكلم.

وقد عاب الله الأصنام لأنها لا تتكلم، عاب الله الأصنام وآلهة المشركين من الأصنام والكواكب وأشباه ذلك بأنها لا تتكلم، لا ترجع إليهم قولاً ولا تملك لهم ضرًّا ولا نفعاً، فعابها بهذا، عابها بكونها لا تنطق ولا تتكلم، ولكن أهل الشرك وأهل الباطل وأهل البدع في ضلال وعمى.أهـ

* * *

ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا باطل أيضاً، هذا الكلام لا يستقل بنفسه، الكلام لابد له من متكلم، حروف ومعان مستقلة!! هذا غير معقول! ما هنا صوت إلا من متكلم، ولا حرف ولا معنى إلا من صاحب معنى، فهم يتكلمون عن عالم آخر، لا يعقلون، والله سماه كلاماً ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٦] وقال: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:١٥].أهـ

* * *

وخامسها: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً، وهذا قول الكرامية وغيرهم.

وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازي في المطالب العالية.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا باطل أيضاً، كلها باطلة، ما عدا قولاً واحداً وهو قول أهل السنة والجماعة، وهو ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وأنه كلام الله، الله يتكلم إذا شاء، وأنه كلم من شاء من رسله ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٥٣] وأنه أنزل عليهم الكتب التي تكلم بها سبحانه وتعالى، وأنه يكلم الناس يوم القيامة ويكلم أهل الجنة وكلم آدم سابقاً، وهو سبحانه وتعالى كلم موسى أيضاً، وكلم محمداً ﷺ وفرض عليه الصلوات الخمس، هذا حق، فينبغي ألا تذكر هذه الأقوال إلا بالرد والإبطال والتشنيع على قائليها.أهـ

* * *

وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه.

وتاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا هو الحق، أن جنس الكلام قديم، الله تكلم به، والقرآن من كلامه سبحانه، وهكذا التوراة من كلامه، وهكذا ما يكون يوم القيامة حين يقول لآدم: «أخرج بعث النار»[1] من كلامه، هكذا ما يقوله لأهل الجنة، يقول لأهل الجنة: «يا أهل الجنة هل رضيتم»[2] إلخ، وهكذا كل ما يقع في الجنة، وحين يقول لأهل النار: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٨] كل هذا من كلامه سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

وقول الشيخ رحمه الله «وإن القرآن كلام الله» «إن» بكسر الهمزة - عطف على قوله: «إن الله واحد لا شريك له».

---

(١) رواه البخاري (٧٤٨٣)كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى ﴿ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ ومسلم (٢٢٢)كتاب الإيمان/ باب: بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٩) كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار،و (٧٥١٨)كتاب التوحيد/ باب كلام الرب مع أهل الجنة، ومسلم (٢٨٢٩)كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب ما في الجنة من النعيم وما يكون لأهلها من الرضوان، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني نقول: إن الله واحد لا شريك له، ونقول: إن القرآن كلام الله، لأن ما بعد القول يكسر ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم:٣٠] ذكر أهل العلم بالنحو واللغة أن «إن» بعد «قال ويقول» تكسر ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم:٣٠].أهـ

* * *

ثم قال: «وإن محمداً عبده المصطفى» وكسر همزة «إن» في المواضع الثلاثة، لأنها معمول القول، أعني قوله في أول كلامه: «نقول في توحيد الله».

وقوله: «كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً»: ـ رد على المعتزلة وغيرهم، فإن المعتزلة تزعم أن القران لم يبد منه، كما تقدم حكاية قولهم، قالوا: وإضافته إليه إضافة تشريف، كبيت الله، وناقة الله، يحرفون الكلام عن مواضعه!

وقولهم باطل، فإن المضاف إلى الله تعالى معان وأعيان، فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف، وهي مخلوقة له، كبيت الله، وناقة الله، بخلاف إضافة المعاني، كعلم الله، وقدرته، وعزته، وجلاله، وكبريائه، وكلامه، وحياته، وعلوه، وقهره، فإن هذا كله من صفاته، لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وخلاصة هذا أن المضاف إلى الله على قسمين:

أحدهما معان لا تقوم بذاتها إنما تقوم بغيرها كالعلم والكلام ونحو ذلك، فإضافتها إلى الله من باب إضافة الصفة إلى موصوف، لا من باب إضافة المخلوق إلى الخالق، بل من باب إضافة الصفة إلى الموصوف،

مثل كلام الله، علم الله، عزة الله، علو الله، قدرة الله، هذا إضافة وصف إلى موصوفه، مثل كلام زيد، كلام عمرو، كل هذا وصف إلى موصوفه.

الثاني: إضافة عين قائمة إلى الله، مثل بيت الله الكعبة، ومثل رسول الله ومثل ناقة الله، هذا إضافة مخلوق إلى خالقه إضافة تشريف وتكريم، كقوله في عيسى إنه روح الله، هذا من إضافة التشريف ومن باب إضافة مخلوق إلى خالقه.

فالأعيان إذا أضيفت إلى الله فهي من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وإذا كانت مشرفة كبيت الله وناقة الله فهذا من باب التشريف، وإذا كانت غير ذلك فمن باب إضافة المخلوق إلى خالقه مثل أرض الله وسماء الله، يعني الأرض التي خلقها الله والسماء التي خلقها الله سبحانه وتعالى، ويقال في الخمس لأنه مال الله، ويقال في الكعبة على سبيل التشريف بيت الله، فهي إضافة مخلوق إلى خالقه على سبيل التشريف والتكريم، وهكذا ناقة الله التي هي ناقة صالح .

إضافة المعاني من باب إضافة صفة إلى موصوفها، وأما إضافة الأعيان فمن باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

لكن الأعيان قسمان :

أعيان ليس لها تشريف خاص، مثل أرض الله وسماء الله، هذا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه فقط.

وأعيان لها شرف ولها فضل، هذه إضافتها إلى الله من باب إضافة التشريف والتكريم وإظهار الفضل، مع كونها إضافة مخلوق إلى خالقه، فهي تجمع الأمرين، مثل ناقة الله، مثل رسول الله، مثل بيت الله، مثل مال الخمس مال الله. أهـ

* * *

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني عابهم لأنهم عبدوا من لا يتكلم، فدل على أن الله يتكلم إذا شاء سبحانه وتعالى ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه:٨٩] يعني العجل، فعابه بأنه لا يرجع قولاً، لا يتكلم ولا يملك ضرًّا ولا نفعاً. أهـ

* * *

فكان عباد العجل ـ مع كفرهم ـ أعرف بالله من المعتزلة، فإنهم لم يقولوا لموسى: وربك لا يتكلم أيضاً، وقال تعالى عن العجل أيضاً: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فعلم أن نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل.

وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم؟ فيقال لهم: إذا قلنا إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ فنحن نؤمن أنها تتكلم، ولا نعلم كيف تتكلم، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ وكذلك تسبيح الحصا(١) والطعام، وسلام الحجر، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت

(١) رواه اللالكائي (١٤٨٥) ٤/٨١٦، وابن أبي عاصم في السنة (١١٤٦) وقال الألباني: حديث صحيح.

الصاعد من لديه المعتمد على مقطع الحروف .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: من لديه يعني من لدي المخلوق، يعني ما يلزم من الكلام أن يكون المخلوق مثل الخالق، وأن يكون الخالق مثل المخلوق، هذا كالحجر يتكلم، كما قال النبي ﷺ: إنه يعرف حجراً بمكة كان يسلم عليه قبل أن يوحى إليه[(١)]، ما يلزم من كون الحجر يتكلم أنه مثل كلامنا وأنه يشبهنا، كذلك الجذع حين حن حنينه المعروف لما تركه النبي ﷺ وخطب على المنبر[(٢)]، ما يلزم أن يكون الجذع مثل بني آدم أو مثل الله عز وجل، بل الجذع له حنينه والحجر له حنينه، وهكذا بقية المخلوقات لها كلامها وعلمها وإحساسها وغير ذلك، ولا يلزم من هذا أن يكون الله مُشْبِهاً لها إذا تكلم أو علم أو قدر أو غير ذلك من صفاته سبحانه وتعالى، وإذا قلنا بهذا معناه لزم نفي جميع الصفات، وأن يجرد سبحانه من جميع الصفات، هذا لازم هذا القول الشنيع.أهـ

* * *

وإلى هذا أشار الشيخ رحمه الله بقوله: «منه بدا بلا كيفية قولاً» أي: ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به، وأكد هذا المعنى بقوله «قولاً» أتى بالمصدر المعرف للحقيقة، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦) كتاب الفضائل/ باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٩١٨) كتاب الجمعة/ باب الخطبة على المنبر من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، و (٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٤ـ٣٥٨٥)كتاب المناقب/ باب علامات النبوة في الإسلام، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وجابر رضي الله عنه، ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٤٩٣).

النافي للمجاز في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟!

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهكذا قوله: ﴿ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾ [فصلت:٢] ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ [الزمر:١] فهو يبين أن هذا منزل من عنده، وأنه صدر منه، ابتدأ منه جل وعلا.أهـ

* * *

ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء – أحد القراء السبعة –: أريد أن تقرأ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ بنصب اسم الله، ليكون موسى هو المتكلم لا الله!

فقال أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؟! فبهت المعتزلي[1]!

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني لا يمكن في هذا التغيير لأنه مفعول مقدر ﴿ وَكَلَّمَهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣] فالمعتزلة شبه عليهم، قد يكون بعضهم عاند من أجل التشكيك في الإسلام، وقد يكون بعضهم ملحداً، يعرف أنه مبطل ولكنه أراد التشكيك، وبعضهم لبس عليه، يشير بهذا إلى اعتقاده الفاسد ،كيف يكلِم من لا يتكلم، حتى من لا يتكلم لا يكلَم، الجمادات لا تخاطب، ما يقال لها ماذا عندك وماذا قلت وماذا تريدين؟ لأنها لا تتكلم، فالذي فر منه يلزمه، لو قرأ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

(١) أورده ابن كثير في تفسيره في سورة النساء، آية (١٦٤).

تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] هل موسى جاهل حتى يكلِم من لا يتكلم؟

مع أن قوله باطل، فالمكلِم هو الله سبحانه وتعالى، ولهذا أكد كلامه ﴿ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣] ﴿ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ ﴾ [البقرة:٢٥٣].أهـ

* * *

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم، قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ فعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيم إذ سطع لهم نور، فرفعوا أبصارهم، فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وهو قول الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم، ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، وتبقى بركته ونوره»(١) رواه ابن ماجه وغيره .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ

(١) ضعيف، أخرجه ابن ماجه (١٨٤) وكذا أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٨-٢٠٩) وإسناده ضعيف كما قال الذهبي في «العلو» (٩٩) فيه أبو عاصم العباداني، واسمه عبد الله بن عبيدالله، قال الذهبي: واه، عن الفضل الرقاشي، وهو منكر الحديث كما في «التقريب»ومنه يتبين أن قول الشيخ أحمد شاكر فيما يأتي:«إسناده جيد» غير جيد، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» من رواية ابن عدي، ثم قال: «موضوع، الفضل رجل سوء» وتعقبه السيوطي في «اللآلي» (٢/ ٤٦٠-٤٦١) بأن ابن ماجه أخرجه! وهذا لا شيء، وبأن ابن النجار أخرجه من حديث أبي هريرة نحوه، وفيه سليمان بن أبي كريمة، قال السيوطي: قال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير، ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً. قلت: وضعفه أبو حاتم كما في «الجرح والتعديل» (٢/ ١/ ١٣٨) قلت: وهذا وإن كان ينفي أن يكون الرقاشي تفرد بالحديث، فلا يرفع عنه الضعف، والله أعلم.أهـ ألباني.

يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ [الأحزاب:٤٤] جنس هذا المعنى في الصحيح، وتكليمه أهل الجنة وقوله: «هل رضيتم؟ فيقولون: ما لا نرضى ربنا؟ ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة ألم تنجنا من النار؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ما هو أفضل يا ربنا؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»(١) .

لكن يغني عنه الأحاديث الصحيحة، ولو أتى بها المؤلف لكفى، في الصحيحين من كلام الله لأهل الجنة ما لا يحصى، تكليم الله لأهل الجنة ثابت من غير هذا الطريق، وتكليمه لآدم في الصحيحين «يقول الله يا آدم»(٢) وغير هذا مما يتعلق بكلامه سبحانه كثير جدًّا.أهـ

* * *

ففي هذا الحديث إثبات صفة الكلام، وإثبات الرؤية، وإثبات العلو، وكيف يصح مع هذا أن يكون كلام الرب كله معنى واحداً، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ فأهانهم بترك تكليمهم، والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم، وهو الصحيح، إذ قد أخبر في الآية الأخرى أنه يقول لهم في النار: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: كل النصوص التي فيها ولا يكلمهم ولا ولا...، معناه كلام فيه تكريم لهم وفيه خير لهم، بل كلام فيه شر عليهم، وإلا فهو سبحانه يكلم الخلق كلهم، كما جاء في الحديث

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقد تقدم.
(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وقد مضى.

في الصحيحين «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان» الحديث[1]، فهو يكلم الناس جل وعلا، ولكن أولياءه وأهل طاعته يكلمهم كلام تكريم وكلام إحسان وكلام رضا، وأعداءه وأهل سخطه يكلمهم كلاماً يضرهم ولا ينفعهم، كلام غاضب عليهم، لا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، نسأل الله السلامة.أهـ

* * *

فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين، لكانوا في ذلك هم وأعداؤه سواء، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلاً، وقال البخاري في صحيحه: باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة، وساق فيه عدة أحاديث، فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى، وتكليمه لهم، فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة وأعلى نعيمها وأفضله الذي ما طابت لأهلها إلا به.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ والقرآن شيء، فيكون داخلاً في عموم ﴿كُلِّ﴾ فيكون مخلوقاً!! فمن أعجب العجب.

وذلك: أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها، لا يخلقها الله، فأخرجوها من عموم كل، وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر

---

(١) رواه البخاري (٧٥١٢) كتاب التوحيد/ باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة/ باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

مخلوقاً لزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر، إلى ما لا نهاية له، فيلزم التسلسل، وهو باطل، وطرد باطلهم: أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة، كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر، فإن علمه شيء، وقدرته شيء، وحياته شيء، فيدخل ذلك في عموم ﴿كُلِّ﴾ فيكون مخلوقاً بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا شأن أهل الباطل، لازم أقوالهم التناقض والباطل المتتابع، والله جل وعلا بين أنه خالق كل شيء، فهو بصفاته هو الخالق وما عداه مخلوق، فهو سبحانه حي قيوم متكلم إذا شاء، سميع بصير إلى غير ذلك، فهو بصفاته هو الخالق سبحانه وتعالى، هو رب العالمين بهذه الصفات العظيمة، وما سواه من البشر وغير البشر فهو مخلوق لله عز وجل، فالله هو الخلاق وما سواه مخلوق، والعباد بأفعالهم مخلوقون، العبد بفعله مخلوق، ومن جملة ذلك حسناته وسيئاته وصلواته وحركاته في الصلاة وفي الصوم وفي غير ذلك مخلوقة، وهكذا سيئاته، زناه وكفره ومعاصيه كلها مخلوقة، وهي منسوبة إليه، والله خلقها جل وعلا، مشيئة وإرادة كونية وقدرة كاملة، وهي منسوبة إليهم لأنهم باشروها وفعلوها، فهو الخلاق وما سواه مخلوق، والفعل خلقه سبحانه وتعالى، والعبد بأفعاله مخلوق ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩٦] وأفعالهم منسوبة إليهم، فهم المصلون وهم الصائمون وهم العاصون وهم الزناة وهم السارقون وهم الذاكرون وهم الغافلون، فصفاتهم تنسب إليهم لأنها أفعالهم، وهم بصفاهم وأفعالهم مخلوقون لله سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

وكيف يصح أن يكون متكلماً بكلام يقوم بغيره؟

ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه! وكذلك أيضاً ما خلقه في الحيوانات، لا يفرق حينئذ بين نطق وأنطق، وإنما قالت الجلود: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ ولم تقل: نطق الله، بل يلزم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه في غيره، زوراً كان أو كذباً أو كفراً أو هذياناً!! تعالى الله عن ذلك.

وقد طرد ذلك الاتحادية، فقال ابن عربي:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره، لصح أن يقال للبصير: أعمى، وللأعمى: بصير! لأن البصير قد قام وصف الأعمى بغيره، والأعمى قد قام وصف البصير بغيره! ولصح أن يوصف الله تعالى بالصفات التي خلقها في غيره، من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك.

وبمثل ذلك ألزم الإمام عبدالعزيز المكي بشراً المريسي بين يدي المأمون[1]، بعد أن تكلم معه ملتزماً أن لا يخرج عن نص التنزيل، وألزمه الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين، ليدع مطالبتي بنص التنزيل، ويناظرني بغيره، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه، ويقر بخلق القرآن الساعة

---

(١) عبد العزيز المكي: هو عبد العزيز بن يحيى الكناني، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي، قدم بغداد أيام المأمون، وجرى بينه وبين بشر المريسي مناظرة في خلق القرآن، بحضرة الخليفة المأمون، وصنف كتاب «الحيدة» أثبت فيه نص مناظرته لبشر، لكن في ثبوت هذه المناظرة نظر، فإنه تفرد بروايتها محمد بن الحسن بن أزهر الدعاء، وقد اتهمه الخطيب بأنه يضع الحديث، وذكر الذهبي أنه هو الذي وضعها، فراجع «الميزان» (٣/ ٤٤) و«طبقات السبكي» (١/ ٢٦٥). أهـ ألباني.

وإلا فدمي حلال، قال عبدالعزيز: تسألني أم أسألك؟ فقال بشر: اسأل أنت، وطمع في، فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها: إما أن تقول: أن الله خلق القرآن، وهو عندي أنا كلامه في نفسه، أو خلقه قائماً بذاته ونفسه، أو خلقه في غيره؟ قال: أقول: خلقه كما خلق الأشياء كلها، وحاد عن الجواب، فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة، ودع بشراً فقد انقطع، فقال عبدالعزيز، إن قال خلق كلامه في نفسه، فهذا محال، لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة، ولا يكون فيه شيء مخلوق، وإن قال خلقه في غيره فيلزم في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره فهو كلامه، فهو محال أيضاً، لأنه يلزم قائله أن يجعل كل كلام خلقه الله في غيره هو كلام الله! وإن قال خلقه قائماً بنفسه وذاته، فهذا محال: لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً، علم أنه صفة لله.

هذا مختصر من كلام الإمام عبدالعزيز في الحيدة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهو واضح، لأن الأمور الثلاثة لا محيد عنها، فإن قال إنه قائم بنفسه وإنه خلقه في نفسه فالذي في النفس ليس هو الكلام، وإنما يسمى متكلماً إذا نطق وتكلم وسمع كلامه، ثم هو ليس محلاً للحوادث سبحانه وتعالى، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته جل وعلا ولا في مخلوقاته شيء من ذاته سبحانه، بل هو منزه عن ذلك، وهو مستقل بجميع صفاته جل وعلا.

وإن قال خلقه قائماً بنفسه فالكلام لا يقوم بنفسه، الكلام عرض لا يقوم بنفسه، بل لابد أن يكون من متكلم، وإن قال خلقه في غيره فلزم أن

يكون كل كلام للغير كلاماً لله، فعلم بذلك أن الصواب أنه كلامه وأنه صفته وأنه ليس واحدا من هذه الثلاث، لم يخلقه في نفسه ولا خلقه قائماً بنفسه ولا خلقه قائماً بغيره، بل هو كلامه سبحانه وتعالى يتكلم به إذا شاء، ليس بمخلوق.أهـ

* * *

وعموم «كل» في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ ومساكنهم شيء، ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح؟ وذلك لأن المراد: تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير، وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام، إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر الملك، غير محتاجة إلى ما يكمل به أمر ملكها، ولهذا نظائر كثيرة.

والمراد من قوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق، فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى، وصفاته ليست غيره، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة، لا يتصور انفصال صفاته عنه، كما تقدم الإشارة إلى هذا المعنى عند قوله: «ما زال قديماً بصفاته قبل خلقه».

بل نفس ما استدلوا به يدل عليهم، فإذا كان قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مخلوقاً، لا يصح أن يكون دليلاً.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وما أفسده من

استدلال! فإن جعل إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ ونظائره كثيرة، فكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني بيناه وأنزلناه قرآناً عربياً، يعني أنزلناه بهذا الوصف وتكلمنا به بهذا الوصف بلغة العرب، لأن كل رسول يرسل بلسان قومه، فالله جعل كتابه بلسان العرب ليفقهوه ويفهموه وتقوم عليهم الحجة به، فهو كلامه سبحانه وتعالى، فأنزله بلغة اليهود التوراة، توراة بني إسرائيل، والتي ينطق بها النصارى الإنجيل، فأنزل كل كتاب باللغة التي ينطق بها القوم الذين أرسل إليهم النبي، فلما كانت العرب لها لسان والرسول منهم نزل بلغتهم، وإن كان يعمهم ما يعم غيرهم، فهو منهم وبينهم فنزل بلغتهم، ثم تترجم المعاني من اللغة التي نزل بها إلى اللغات الأخرى، للتفسير والتوجيه والإرشاد وإقامة الحجة. أهـ

سؤال/ ما معنى إذا كان متعد لمفعولين؟

أجاب سماحة الشيخ: يعني بمعنى صيّر وأنزل ونحو ذلك، ليس بمعنى خلق، قد يقول قائل: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٤] أي تخلقوا الله؟

هذا لا يقوله عاقل ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ [الزخرف:١٩] جعلوا الملائكة أي خلقوا الملائكة إناثا؟ ..

لا يصلح.

المقصود أنه إذا كان متعد لمفعولين فمعناه التصيير والاعتقاد ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ ﴾ [الزخرف:١٩] يعني اعتقدوهم وصيروهم في أذهانهم وفي اعتقادهم كذا وكذا، ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ ﴾ [البقرة:٢٢٤] يعني لا تصيروا الله في أيمانكم، فتحتجوا بالأيمان التي تقولونها ضد الخير، تأتي صيّر بمعنى اعتقد على حسب المقال.أهـ

* * *

وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ على أن الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة فسمعه موسى منها! وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي، ثم قال: ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم! ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة،

لكانت الشجرة هي القائلة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهل قال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ غير رب العالمين؟

ولو كان هذا الكلام بدا من غير الله لكان قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ صدقاً، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله!

وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة: أن ذاك كلام خلقه الله في الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون!! فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله، وسيأتي الكلام على مسألة أفعال العباد، إن شاء الله تعالى.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني أنهم في أنفسهم فرّقوا، فقالوا ذاك كلام الشجرة وهذا كلام فرعون، فتناقضوا.

يعني يلزمون أنه كلام الشجرة، فإذا قالوا: هو بنطقها وهو كلام الله، لزم أن يكون بنطق فرعون وهو كلام الله أيضاً، فلا يسمى كلام الشجرة لو وجد، كما أن كلام فرعون وهو كلامه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وقد كذب في ذلك، وإذا قالوا: إنه كلام الله - ولو صدر من الشجرة - لزمهم أن يكون كلام الله ما قاله فرعون كذلك، فهذا مثل هذا، ومعلوم أن الكلام الذي صدر من الشجرة في الوادي هو كلام الله سبحانه وليس كلام الشجرة ولا من نفس الوادي، وإنما هو كلام الله، فهكذا ما صدر من الرب عز وجل من القرآن الذي أنزل على محمد والتوراة التي أنزلت على موسى هو كلام الله عز وجل، وليس صادراً من موسى ولا من محمد ولا من غيرهم من المخلوقين، أما ما يصدر من فرعون أو من زيد أو من عمرو فهو منسوب إليهم، فيلزمهم إذا قالوا إن الشجرة قالت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ أن ينسبوا ما قاله فرعون إلى الله وأنه كلامه، فإذا

كان كلام الله صار فرعون صادقاً، لأنه كلام الله ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤] لأن الله هو ربنا الأعلى، وهو لا يقول هذا إنما يريد نفسه، أنه هو ربهم الأعلى.أهـ

سؤال/ قوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ المناداة من الوادي الأيمن تشير إلى العلو؟

أجاب سماحة الشيخ: سمعها موسى من هذه الناحية، وهو كلام الله عز وجل، خاطبه الله من تلك الناحية، وليس كلام الناحية ولا كلام الشجرة ولا كلام الوادي، وهو قادر على كل شيء، وأن يسمعه موسى من أي مكان، كما أسمعه محمداً ﷺ مما جاء به جبرائيل وتلاه عليه جبرائيل، فجبرائيل مبلغ، وكذلك كونه سمعه من ذلك المكان هذا من قدرة الله جل وعلا، وهو كلام الله بلفظه.أهـ

سؤال/ الذين يستدلون بهذه الآية على عدم العلو؟

أجاب سماحة الشيخ: هو ممكن أن يقال: كما أنه سبحانه وتعالى يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، ينزل للقضاء بين عباده، يمكن أن يقال إنه سبحانه وتعالى نزل نزولاً خاصًّا يليق به سبحانه وتعالى وخاطبه من هناك على هيئة يعلمها سبحانه وتعالى.

ويمكن أن يقال: إنه صدر الكلام من الله جل وعلا، تكلم به وهو فوق العرش وظهر لموسى من ذلك المكان، سواء كان بيد ملك تكلم به مبلغاً عن الله عز وجل، فيكون نطق به الملك وتكلم به الملك مبلغاً، كما نطق به جبرائيل مبلغاً، وكما بلغنا محمد عليه الصلاة والسلام مبلغاً، فهو

كلام الله من حيث الابتداء وكلام الرسول أو جبرائيل أو غيره من الملائكة من جهة التبليغ، كما جاءت به السنة في النزول.

فبقي أن يقال: إنه كلام الله تكلم به ولم يشاهده موسى، ولكنه سمع الكلام من ذلك الجانب بإذن الله سبحانه وتعالى، سواء كان ذلك الجانب ملكاً تكلم هناك وسمعه موسى، أو هو نزول خاص كنزوله إلى السماء الدنيا ونزوله يوم القيامة نزولاً خاصًّا، ولا يلزم منه عدم العلو، فإن النزول الخاص الذي يظهر الله به يوم القيامة لا ينافي علوه وفوقيته سبحانه وتعالى، كما أن نزوله إلى السماء الدنيا لا ينافي علوه وفوقيته، فهو فوق العرش، والنزول الذي أخبر به عن نفسه في السماء الدنيا، والنزول الذي يكون يوم القيامة لفصل القضاء لا ينافي العلو، فالعلو ثابت لله عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، وهذا النزول الذي أخبرنا به أيضاً لا نكيفه ولا نعرف كيفية وقع، قد يكون نزولاً خاصًّا حصل به ظهور كلام من ذلك الجانب مع علوه، فهو لا يشابه المخلوقين، ولا يلزم على صفات المخلوقين إذا صار في مكان لزم خلو المكان الآخر، هذا يلزم المخلوقين، أما في حقه سبحانه فلا يلزم، لأنه ليس مثل المخلوقين ولا صفاته مثل صفات المخلوقين، فهو سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا كما يشاء، وهو فوق العرش سبحانه وتعالى، نزوله يليق به لا يعلم كيفيته إلا هو سبحانه وتعالى، كذلك نزوله يوم القيامة للقضاء بين عباده نزولاً يليق بجلاله وعظمته لا نعلم كيفيته.

وقد راجعت كلام أهل التفسير في قصة موسى والنداء في سورة القصص وفي سورة طه وفي سورة مريم، ولم أجد كلاماً شافياً واضحاً في هذا، وإنما عموم وإطلاقات ليس فيها الكلام الشافي.

فالمقام يحتاج إلى مزيد من العناية للوقوف على الحق في قصة

موسى وخطاب الله له في السور الثلاث، في سورة طه والقصص ومريم، ولكن فيما يظهر ويتبادر هو هذا، أنه أمره الله له بذلك المكان من ناحية الوادي، ويكون هذا من تبليغ ملك قد بلغه، كما بلغ جبرائيل وكما بلغ غيره من الرسل، بعض الملائكة قد ينزلون بأشياء، وقد يكون نزولاً خاصاً سمعه موسى ولم يره، ولما طلب الرؤية قال: ﴿ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف:١٤٣] فسمع الكلام ولم ير الذات، وهذا النزول خاص، الله سبحانه وتعالى أعلم بكيفيته، هل هو نزول بالذات ولا ينافي العلو الذي هو في الغالب وهو مستقر؟ أو هو نزول بمعنى إنزال ملك تكلم بكلامه سبحانه وتعالى وأسمعه موسى ؟.أهـ

سؤال/ الذي يُظهر أن موسى عليه السلام سمع كلام الله سبحانه وتعالى بغير وحي، وهذه خاصية موسى عليه السلام أنه كليم الرحمن؟

أجاب سماحة الشيخ: ليس بلازم، سمع كلام الله جل وعلا وليس بلازم من جهة الصحاري، قد يكون سمعه في مواضع أخرى، وهذا يصدق عليه أنه سمع كلام الله ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ [النساء:١٦٤] مثل ما كلم محمداً ﷺ بواسطة، لا يلزم من هذا أن يكون رؤية أو ذاتاً حضرت إليه، المقصود أنه سمع الكلام ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] سواء من فوق أو من أي مكان، كما أن محمداً سمع كلام الله وهو فوق السماوات حين فرض الله عليه الصلوات الخمس ولم ير ربه، فلا يلزم من الكلام الرؤية.

سؤال/ لا تلازم بين الكلام وبين النزول، نقول: إن موسى سمع كلام الله وهو فوق العرش وأظهره الله سبحانه وتعالى له فسمعه من حافة الوادي!!

أجاب سماحة الشيخ: الله أعلم، لا تلازم بين الكلام وبين النزول، وهذا ممكن، وهو ظاهر كلام السلف، لا يلزم من ذلك النزول عن العرش ولا مفارقة العرش، كما قالوا في غير هذا، في مسألة النزول إلى السماء الدنيا، ولكن كلامهم على الصفات ليس بواضح كما ينبغي، فإنهم ردوا على الجهمية والمبتدعة جميعاً.

ولكن ليس هناك جواب واضح كما يظهر لي في سورة طه ومريم والقصص في هذا الكلام الذي سمعه موسى، فهو كلام الله بلا شك، لكن هل هو الكلام الذي تكلم به سبحانه فوق العرش وسمعه موسى في هذه الناحية كما هو ظاهر كلامهم؟ أم هناك كيفية أخرى حصل منها هذا الكلام، كما يقال في مسألة النزول إلى السماء الدنيا؟

هذا هو محل النظر والبحث.أهـ

سؤال/ المأولة استدلوا بهذه الآية على نفي العلو؟

أجاب سماحة الشيخ: قد احتجوا بها على نفي العلو، ولكن لا يلزم من ذلك، كما لا يلزم من نزوله إلى السماء الدنيا نفي العلو، فالعلو حاصل، وما يقع من نزول إلى السماء الدنيا أو نزول يوم القيامة والمجيء يوم القيامة لا ينافي العلو.أهـ

* * *

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهذا يدل على أن

الرسول أحدثه، إما جبرائيل أو محمد.

قيل: ذكر الرسول معرِف أنه مبلغ عن مرسله، لأنه لم يقل إنه قول ملك أو نبي، فعلم أنه بلغه عمن أرسله به، لا أنه أنشأ من جهة نفسه.

وأيضاً: فالرسول في إحدى الآيتين جبرائيل، وفي الأخرى محمد، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ، إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر.

وأيضاً: فقوله رسول أمين[1]، دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه ولا ينقص منه، بل هو أمين على ما أرسل به، يبلغه عن مرسله.

وأيضاً: فإن الله قد كفر من جعله قول البشر، ومحمد ﷺ بشر، فمن جعله قول محمد، بمعنى أنه أنشأه فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول: إنه قول بشر، أو جني، أو ملك، والكلام كلام من قاله مبتدئاً، لا من قاله مبلغاً، ومن سمع قائلاً يقول:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

قال: هذا شعر امرئ القيس، ومن سمعه يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[2] قال: هذا كلام الرسول، وإن سمعه يقول:

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: الآية التي ذكرها الشارح ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ جاءت مرتين في سورة الحاقة: ٤٠ وليس فيما بعدها الوصف بلفظ ﴿أَمِينٍ﴾ والأخرى في سورة التكوير: ١٩ ثم بعدها ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ٢٠ـ٢١ فتعبير الشارح بقوله: وأيضاً فقوله: رسول أمين. فيه شيء من التساهل، لم يرد به حكاية التلاوة، وإنما أراد المعنى فقط، ولو قال: وأيضاً فوصف الرسول بأنه ﴿أَمِينٍ ..﴾ كان أدق وأجود. أهـ ألباني.

(٢) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أول حديث في صحيح البخاري. أهـ ألباني.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا كلام الله، إن كان عنده خبر ذلك، وإلا قال: لا أدري كلام من هذا؟ ولو أنكر عليه أحد ذلك لكذب، ولهذا من سمع من غيره نظماً أو نثراً، يقول له: هذا كلام من؟ هذا كلامك أو كلام غيرك ؟

وبالجملة، فأهل السنة كلهم، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف، متفقون على أن كلام الله غير مخلوق، ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون في أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات، أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وأن نوع الكلام قديم،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والكلام الأخير هو كلام السلف، الله سبحانه وتعالى يتكلم إذا شاء متى شاء، وليس معنى واحداً بل هو معانٍ، فمعاني آيات فصلت غير معاني ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣] وهكذا هو معانٍ متعددة، أنزله الله جل وعلا لبيان الحق للناس والتشريع للناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم، وهكذا ما جاء في التوراة وما جاء في الإنجيل كلام متنوع، فالذي يتعلق بالقصص عن الأمم معنى، والذي يتعلق بتحريم المحرمات معنى، والذي يتعلق بالأوامر معنى، والذي يتعلق بالجنة له معنى، والذي يتعلق بالنار له معنى، فمن قال إنه معنى واحد فقد أعظم على الله الفرية، وقد أتى بقول لا وجه له عند العقلاء، بل هو من أكذب الأقوال وأضلها، فليس يقول عاقل إن قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

ﭐﻟﹾﻌَٰﻠَﻤِﻴﻦَ ۝٢ ﭐﻟﺮَّﺣْﻤَٰﻦِ ﭐﻟﺮَّﺣِﻴﻢِ ۝٣﴾ [الفاتحة:٢-٣] مثل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ۝١ وَتَبَّ﴾ [المسد:١] إلخ، ولا يقول عاقل إن قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] مثل قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق:٣٧] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحاقة:٤٠] وما أشبه ذلك، فهو معان متنوعة، أرسل الله بها أنبياءه ورسله لإرشاد البشر وتوجيه البشر إلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم، وأكمل هذه الكتب وأعظمها القرآن العظيم، فهو أشملها وأشرفها وأكثرها وأعظمها إعجازاً.أهـ

* * *

وقد يطلق بعض المعتزلة على القرآن أنه غير مخلوق، ومرادهم أنه غير مختلق مفترى مكذوب،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: للتلبيس، حتى يظن الجاهل أنه موافق لهم.أهـ

* * *

بل هو حق وصدق، ولا ريب أن هذا المعنى منتف باتفاق المسلمين.

سؤال/ لو قيل إن قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ إن الرسول قاله من عنده لكان أولى أن يقال إن جبريل أيضاً قاله من عند نفسه!!

أجاب سماحة الشيخ: لا يستقيم هذا، لأن الله أخبر عن هذا وهذا، فخبر عن الرسولين، ثم لا يقال هذا قول الرسول قول محمد قول جبريل، لأن الرسول مبلغ عن المرسل.أهـ

* * *

والنزاع بين أهل القبلة إنما هو في كونه مخلوقاً خلقه الله، أو هو كلامه الذي تكلم به وقام بذاته؟

وأهل السنة إنما سئلوا عن هذا، وإلا فكونه مكذوباً مفترى مما لا ينازع مسلم في بطلانه، ولا شك أن مشايخ المعتزلة وغيرهم من أهل البدع معترفون بأن اعتقادهم في التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة، ولا عن أئمة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنما يزعمون أن عقلهم دلهم عليه، وإنما يزعمون أنهم تلقوا من الأئمة الشرائع.

ولو ترك الناس على فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة، لم يكن بينهم نزاع، ولكن ألقى الشيطان إلى بعض الناس أغلوطة من أغاليطه، فرق بها بينهم ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وفي هذا المعنى ما رواه مسلم في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وحرمت عليهم ما أحللت لهم**»(١). أهـ

❊ ❊ ❊

والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء كيف شاء، وأن نوع كلامه قديم.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها/ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ورواه أحمد ٤/ ١٢٦.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: معنى نوع كلامه قديم يعني ليس كل الكلام قديم، جنس الكلام ونوع الكلام قديم، لم يزل يتكلم سبحانه وتعالى، لكن ليس جميع الكلام قديم، بل هناك كلام صار وتكلم به الرب عز وجل بعد الذي تكلم به سبحانه وتعالى، مثل كلامه مع موسى، مثل كلامه مع محمد، مثل كلامه مع آدم، ومثل كلامه يوم القيامة للناس وفي الجنة، كل هذا كلام جديد، وهذا معنى قوله: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء:٢] عند جمع من أهل العلم: محدث يعني جديد، نزل وصار بعد أن لم يكن، تكلم الله به أخيراً ولم يتكلم به سابقاً.

وأما من قال: إن هذا الكلام كله قديم، وأن المعنى بالله قديم ثم أنزله بعد ذلك؛ هذا من أقبح الغلط والضلال، فالله جل وعلا لم يزل يتكلم إذا شاء سبحانه وتعالى، ولم يزل يقول متى شاء وكيف شاء سبحانه وتعالى، فليس بأخرس لا يتكلم، ولو كان كذلك لكان عيباً وقدحاً في إلهيته سبحانه وتعالى، وقد عاب الله الأصنام بأنها لا تكلم ولا تعي ولا تفهم ولا تنفع ولا تضر.أهـ

سؤال/ من قال: إنه قديم بمعنى أن الله يعلم ما سيتكلم به؟

أجاب سماحة الشيخ: هو يعلم كل شيء سبحانه وتعالى، لكن ليس المعنى هكذا، يعلم ما يكون في الجنة ويعلم ما يكون يوم القيامة، ولكن العلم غير الوجود، مثل ما أنه يعلم أعمال العباد، ويعلم الشقي والسعيد والصالح من الفاسد والموحد من غيره، لكن لا يؤاخذهم بهذا العلم حتى يعملوا، فإذا عملوا تعلق بذلك الثواب والعقاب، فهو يعلم أن

أبالهب شقي وأن أبا جهل شقي، وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سعيد، ولكن بعد ما وجد منهم هذا استحق من أطاع الثواب واستحق من عصى العقاب، فهو لا يؤاخذ بما علم، ولكن يؤاخذ بما فعله المكلف بعد ذلك.أهـ

سؤال/ القديم؟

أجاب سماحة الشيخ: ليس من أسماء الله المعروفة، ولكن يؤتى به للرد على من قال بخلق القرآن، هذا المقصود، يؤتى به من باب الرد، مثل ما يقال: شيء وموجود، للرد على من أنكر وجوده.

معنى القديم، لا يلزم من القدم الكلي الأزلية، كل شيء مضى عليه دهر حتى صار بعده شيء جديد قيل له قديم، كما قال تعالى: ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩] يقال له العرجون القديم إذا أتى العرجون الجديد، وهكذا يقال ثوب قديم إذا توسخ وحل وضعف، ولهذا جاء في النصوص الأول، والأول الذي لا يسبقه شيء ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ [الحديد:٣].أهـ

سؤال/ استعمل كثيراً!.

أجاب سماحة الشيخ: استعمل كثيراً في كلام أهل البدع في الغالب.أهـ

سؤال/ القيوم ؟

أجاب سماحة الشيخ: القيوم الذي لم يزل كذلك، الأزلي

والمستقبل ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].أهـ

* * *

وكذلك ظاهر كلام الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأكبر، فإنه قال: والقرآن في المصاحف مكتوب، وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي ﷺ منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق، والقرآن غير مخلوق،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني مهما كان التصرف في الصدور أو في الصحف أو من التلاوة، كله كلام الله عز وجل لا يختلف، المحفوظ في الصدور هو كلام الله، المسموع كلام الله، المقروء من القارئ كلام الله، المكتوب كلام الله، المنزل هو كلام الله جل وعلا، لكن نفس صوت المخلوق، لفظ المخلوق الذي خلقه الله، هذا هو لفظه بالمخلوق، أما المصوت به والملفوظ به؛ هو كلام الله عزوجل، وأصواتنا مخلوقة، مثل ما قال القحطاني:

أصواتنا واللفظ مخلوقان[1].أهـ

سؤال/ ذات القرآن يقال منزل؟

أجاب سماحة الشيخ: يقال: منزل، ويقال: ملفوظ به، ويقال: مكتوب، ويقال: محفوظ. أهـ

* * *

وما ذكر الله في القرآن عن موسى عليه السلام وغيره، وعن فرعون

---

(١) نونية القحطاني.

وإبليس فإن ذلك كلام الله إخباراً عنهم، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله لا كلامهم، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويتكلم لا ككلامنا. انتهى.

فقوله: ولما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته يعلم منه أنه حين جاء كلمه، لا أنه لم يزل ولا يزال أزلاً وأبداً يقول يا موسى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ ففهم منه الرد على من يقول من أصحابه أنه معنى واحد قائم بالنفس لا يتصور أن يسمع، وإنما يخلق الله الصوت في الهواء، كما قال أبو منصور الماتريدي وغيره.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذه أشياء زينها الشيطان لبعض الناس، فقالوا: إن هذا الملفوظ حكاية عن كلام الله وعبارة عن كلام الله، وكلام الله معنى قائم بالله.

هذا من أقبح الكلام وأكذبه، فالكلام القائم بالذات غير الكلام الذي يسمع، وكلام الله سمعه أنبياؤه، سمعه موسى، سمعه المسلمون، سمعه النبي ﷺ لما عرج به إلى السماء، ويسمعه الناس يوم القيامة، يسمعه أهل الجنة، غير المعنى القائم بالله. أهـ

❊ ❊ ❊

وقوله: الذي هو من صفاته لم يزل، رد على من يقول إنه حدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلماً.

وبالجملة: فكل ما تحتج به المعتزلة مما يدل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته، وأنه يتكلم إذا شاء، وأنه يتكلم شيئاً بعد شيء، فهو حق يجب قبوله، وما يقوله من يقول: إن كلام الله قائم بذاته، وأنه صفة له، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف؛ فهو حق يجب قبوله والقول به، فيجب الأخذ بما في قول كل من الطائفتين من الصواب، والعدول عما يرده الشرع والعَقل من قول كل منهما.

فإذا قالوا لنا: فهذا يلزم أن تكون الحوادث قامت به.

قلنا: هذا القول مجمل، ومن أنكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة؟

ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك، ونصوص الأئمة أيضاً، مع صريح العقل.

ولا شك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول، لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه، بل الذي أفهموهم إياه: أن الله نفسه هو الذي تكلم، والكلام قائم به لا بغيره، وأنه هو الذي تكلم به وقاله، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: «ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بوحي يتلى»(١).

ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه، إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، ولا يعرف في لغة ولا عقل قائل متكلم لا يقوم به القول والكلام وإن زعموا أنهم فروا من ذلك حذراً من التشبيه، فلا يثبتوا صفة غيره، فإنهم إذا قالوا: يعلم لا كعلمنا، قلنا: ويتكلم لا كتكلمنا، وكذلك سائر الصفات.

(١) البخاري ومسلم في حديث طويل لها في قصة الإفك.أهـ ألباني.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وإن زعموا أنهم فروا من ذلك حذراً من التشبيه، فلا يثبتوا صفة غيره؛ يعني فليتنهوا عن هذا الشيء.

يلزمهم فيما أثبتوه نظير ما فروا منه، هم وغيرهم، هكذا كلهم إذا قالوا: إنا نفينا الكلام لئلا يشابه المخلوقين، قيل لهم أنتم أثبتم شيئاً، ماذا أثبتم؟ أثبتم العلم، هل علمه كعلم المخلوقين؟

قالوا: لا، يقاس الكلام كذلك، أثبتم إرادة؟ قالوا نعم، هل إرادته مثل إرادة المخلوقين؟

قالوا: لا، فهو كذلك الكلام وهكذا الاستواء وهكذا الرحمة وهكذا الغضب وهكذا الكراهة، أهل السنة والجماعة يثبتون صفاته لكن على وجه لا يساويه غيره سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] هذه آيات عظيمة محكمة قاطعة، تبطل شبه المشبهين وضلال الضالين وتشبيه الملبسين، نسأل الله العافية.أهـ

سؤال/ قولهم هذا يلزم حلول الحوادث بالرب سبحانه وتعالى وهذا قد نفي بتخصيص!.

أجاب سماحة الشيخ: هذا كلام مجمل، إذا قيل بالحوادث إنها الصفات، قيل هذه صفات والصفات ثابتة لله، ..قد يكون لها حوادث لا أصل لذلك، للتدليس والتلبيس.

وإذا أردتم بالحوادث أن صفات المخلوقين لا تقع به، وأن ما يقع بالمخلوقين من النقص لا يحل بالله من بكاء ومن كلامهم هم ومن

أفعالهم هم ومن دمائهم وما يتعلق بالمخلوقين؛ فلا حرج. أهـ

سؤال/ أو أنهم قصدوا شيئاً كان متصفاً قبل ذلك ؟

أجاب سماحة الشيخ: المقصود جنس الشيء الذي لا يليق به سبحانه وتعالى، وإلا فهو يتكلم متى شاء سبحانه وتعالى، فالحوادث لها معنيان: حوادث من صفات المخلوقين، هذه لا تحل به سبحانه وتعالى، وحوادث معناها صفات تتجدد يفعلها إذا شاء، خلق آدم بعد أن لم يخلقه، هذا وصف الخلق، كما خلق السماوات قبل ذلك، وتجدد خلق آدم، ثم خلق بعد ذلك غير آدم، هذا وصف يتجدد، وهكذا الكلام تكلم قبل خلق آدم، وتكلم حين خلق آدم، وتكلم مع موسى، وتكلم مع محمد، كل هذه صفات متجددة. أهـ

سؤال/ يقصد من بالكلام على هذا ؟

أجاب سماحة الشيخ: الأشاعرة هم المعروفون بهذا، وإلا فالمعتزلة لا يثبتون شيئاً من الصفات أبداً، لكن المعروف بهذا هم الأشاعرة. أهـ

سؤال/ ألا يثبتون الكلام ؟

أجاب سماحة الشيخ: يثبتونه لكن لهم فيه بعض التأويل، يثبتون الصفات السبع، لكن يقولون حكاية، ليس الملفوظ كلام الرب لكنه حكاية عن كلام الرب[1]، فيجعلون كلام الرب المعنى القائم بذاته، وهذا باطل، وهكذا الكلابية مثلهم اختلفوا في اللفظ، الكلابية قالوا حكاية،

(١) التعبير عن كلام الله بأنه حكاية هو قول الكلابية، فلعله سبق لسان من الشيخ رحمه الله.

والأشعرية قالوا القول الثاني - عبارة -.أهـ

* * *

وهل يعقل قادر لا تقوم به القدرة، أو حي لا تقوم به الحياة؟ وقد قال ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»(١)، فهل يقول عاقل إنه ﷺ عاذ بمخلوق؟

بل هذا كقوله: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك»(٢)، وكقوله: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»(٣)، وكقوله: «وأعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا»(٤)، كل هذه من صفات الله تعالى.

وهذه المعاني مبسوطة في مواضعها، وإنما أشير إليها هنا إشارة .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: رحمه الله وجزاه الله

---

(١) صحيح، رواه أحمد (٣/ ٤١٩) وابن السني (٦٣١) عن عبد الرحمن بن حنبش مرفوعا بسند صحيح.أهـ ألباني.

وقال شاكر: جاءت هذه الاستعاذة في حديث مرسل، رواه مالك في الموطأ:٩٥٠-٩٥١ عن يحيى بن سعيد مرسلا، وذكر السيوطي في شرحه ٣:١٢٦ أنه «وصله النسائي من طريق محمد بن جعفر عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش السلمي عن ابن مسعود» وأنه وصله البيهقي في الأسماء والصفات، ومراده برواية النسائي أنه في عمل اليوم والليلة لا في السنن، ووجدته من وجه آخر في مسند الإمام أحمد :١٥٥٢٦-١٥٥٢٧(ج٣ص٤١٩ من طبعة الحلبي) من حديث عبد الرحمن بن خنبش، ورواه من حديثه أيضاً: ابن السني في عمل اليوم والليلة رقم:٦٣١ وذكره الحافظ في الإصابة ٤:١٥٧ في ترجمة عبد الرحمن بن خنبش.أهـ.

(٢) مسلم، وقد مضى.أهـ ألباني.

(٣) صحيح، وتقدم.أهـ ألباني.

(٤) صحيح، وتقدم.أهـ ألباني.

خيراً، وهذا من كلام ابن كثير، قال في مواضع: قال شيخنا ابن كثير، فهو من كلام ابن كثير، قد اعتنى به وسار على نهجه.أهـ

* * *

وكثير من متأخري الحنفية على أنه معنى واحد، والتعدد والتكثر والتجزؤ والتبعض حاصل في الدلالات، لا في المدلول، وهذه العبارات مخلوقة، وسميت كلام الله لدلالتها عليه وتأديه بها، فإن عبر بالعربية فهو قرآن، وإن عبر بالعبرانية فهو توراة، فاختلفت العبارات لا الكلام.

قالوا: وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازاً!

وهذا الكلام فاسد، فإن لازمه أن معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ هو معنى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين! ومعنى سورة الإخلاص هو معنى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يحتمل هذا المعنى، وعلى كل حال هذا قول فاسد، القول بأن كلام الله معنى قائم بالله، وأنه يختلف باختلاف الألفاظ والعبارات والدلائل، هذا من أفسد الأقوال عقلاً وشرعاً، فإن الواحد منا لو كان كلامه لا يتغير، بل هو كلام واحد، لكان نقصاً في حقه، وكان آية عبرة، لأن المعاني تختلف، وتختلف ألفاظها ودلائلها، فالزعم بأن الكلام معنى واحد قائم بالله، وإنما تختلف عنه التعابير، هذا من أفسد الأقوال.

ثم هو يحتمل أن يكون معنى الكلام واحداً كما قال الشارح، فيكون معنى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] في زعم هؤلاء هو معنى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد:١] وهو معنى ﴿وَٱلْعَصْرِ

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:١-٢] وهذا لا يقوله عاقل، من تأمل ما يقول يقف على هذا، إنما يقوله من لا يعقل.

والمعنى الثاني أن يقال: إن جميع الكتب متحدة في المعنى، وأن آية الغسل في القرآن موجودة في التوراة وفي الإنجيل وفي الزبور وغير ذلك، وهكذا ﴿تَبَّتْ﴾ [المسد:١] وهكذا ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ [العصر:١] فإن عبر عن هذه السور وهذه المعاني بالعربية صار قرآناً، وإن عبر عنها بالعبرانية صارت توراة وهكذا، وهذا أيضاً فاسد، وإنه يلزم عليه أن تكون شرائعنا هي شرائعهم، وأن يكون ما أمرنا به هو ما أمروا به، وما نهينا عنه هو ما نهوا عنه، والله يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] فيكون في الفاتحة نظيره في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها، فعلم بهذا أن هذا القول فاسد من جميع الوجوه، لا من جهة اتحاد معنى هذا الكلام، ولا من جهة تنوع الكلام، فهو فاسد.

والصواب أن الله جل وعلا يتكلم إذا شاء، وأن التوراة غير الإنجيل، وأن الإنجيل غير الزبور، والزبور غير القرآن، والقرآن غير صحف إبراهيم وموسى إلى غير ذلك، وأن الكلام معنى ولفظا تكلم الله به عز وجل، فهو تكلم بالتوراة وتكلم بالإنجيل معنى ولفظاً، حرفاً وصوتاً، وهكذا القرآن، وهكذا كلامه سبحانه يوم القيامة حين يخاطب أهل الجنة وحين يخاطب آدم «**أخرج بعث النار**»[(١)] كلام يسمع، كلام له معنى يسمعه آدم ويعيه،

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وقد تقدم.

وهكذا كلامه مع أهل الجنة وهكذا كلامه مع الناس «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»[١] كلام مسموع يسأله ماذا فعلت يوم كذا وكذا وماذا صار يوم كذا وكذا؟ ويقول لأهل الجنة: «**هل رضيتم؟ فيقولون: يا ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، قال ألا أعطيكم أفضل من ذلك** ـ هذا معنى غير معنى ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ ﴾ [العصر:١] **قالوا: وما هو أفضل منه يا ربنا؟ قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً**»[٢].

ثم أيضاً هذا الفرار، هم ابتلوا بهذا فراراً من التشبيه، يعني إذا قلنا إنه معانٍ وإنه يتكلم بالألفاظ، كنا مشبهين له بخلقه، وهذا من ضلالهم وجهلهم، فيقال لهم أيضاً: المعاني لا تقوم إلا بمن يفهمها ويعقلها، فإذا كان كلام الله له معنى ويعبر بكذا ويعبر بكذا، هذا لا يعقل إلا فيمن يعقل، فيمن يفهم، فيمن له علم، فالحجر والشجر لا يقال إنه يفهم كذا ويفهم كذا ويعقل كذا، ويكون في نفسه معان يعبر عنها بكذا ويعبر عنها بكذا، وهكذا البهيمة لا يقال فيها إنها تفهم كذا وتعقل كذا ويعبر عنها بكذا، فإذا قلتم هذا معناه أن هذا تشبيه لله بالجمادات وبكل ما يتنزه الله عنه سبحانه وتعالى من الحيوانات. أهـ

* * *

وكلما تأمل الإنسان هذا القول تبين له فساده، وعلم أنه مخالف لكلام السلف، والحق: أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله تعالى لا يتناهى،

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه وقد تقدم.

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وقد مضى.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لا يتناهى ويتنوع، ليس معنىً واحداً، فمعنى ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾ [الإخلاص:١] غير معنى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ ﴾ [المسد:١] ومعنى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥] غير معنى ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ ﴾ [العصر:١-٢] ومعنى ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ ﴾ [العصر:١] وأشباهها غير معنى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [النساء:٢٣] كل له معنى، هذا غير المعنى الآخر ومخالف له، فلا يقول عاقل إن هذه معناها واحد أبدا، لا يقول هذا إلا من لا عقل له.

لا يتناهى يعني لا ينتهي، كلام كثير، كلام الله لا يقف عد حد.أهـ

* * *

فإنه لم يزل يتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء، ولا يزال كذلك، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله، وليس هو كلام الله، لما حرم على الجنب المحدث مسه، ولو كان ما يقرأه القارئ ليس كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث قراءته.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: قوله: «المحدِث» فيه تسامح، لأن المحدث لا يمنع من قراءته، بل يقرأه المحدث عن ظهر قلب، وإنما هو على الجنب فقط، والحائض والنفساء في قول، وأما مسه المصحف فيحرم على الجميع، فكلمة «المحدث» فيها تسامح.أهـ

* * *

بل كلام الله محفوظ في الصدور، مقروء بالألسن، مكتوب في المصاحف، كما قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر، وهو في هذه المواضع كلها حقيقة، وإذا قيل: فيه خط فلان وكتابته: فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل: فيه مداد قد كتب به: فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل: المداد في المصحف: كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل: فيه السماوات والأرض، وفيه محمد وعيسى، ونحو ذلك، وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل: فيه كلام الله، ومن لم يتنبه للفروق بين هذه المعاني ضل ولم يهتد للصواب.

وكذلك الفرق بين القراءة التي هي فعل القارئ، والمقروء الذي هو قول الباري، من لم يهتد له فهو ضال أيضاً، ولو أن إنساناً وجد في ورقة مكتوباً:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

من خط كاتب معروف لقال: هذا من كلام لبيد حقيقة، وهذا خط فلان حقيقة، وهذا كل شيء حقيقة، وهذا خبر حقيقة، ولا تشتبه هذه الحقيقة بالأخرى.

والقرآن في الأصل: مصدر، فتارة يذكر ويراد به القراءة، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ وقال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[1].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: علقه البخاري في

(١) صحيح، رواه أبو داود وغيره من أصحاب السنن، والحاكم وأحمد بسند صحيح عن البراء بن عازب «صحيح أبي داود» (١٣٢٠). أهـ ألباني.

الصحيح في كتاب التوحيد[(١)].أهـ

* * *

وتارة يذكر ويراد به المقروء، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وقال ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف»[(٢)].

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على كل من المعنيين المذكورين، فالحقائق لها وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي، ولكن الأعيان تعلم، ثم تذكر، ثم تكتب، فكتابتها في المصحف هي المرتبة الرابعة، وأما الكلام فإنه ليس بينه وبين المصحف واسطة، بل هو الذي يكتب بلا واسطة ولا لسان.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني ينقله من كتاب إلى كتاب ولو ما ...، إنما صار ينقل من كتاب إلى كتاب ومن كلام إلى كلام، وقد يكون كثيراً مما ينقله مثله، قد ينقله من كتاب إلى كتاب ومن مصحف إلى مصحف، يعني قد ينقل الكلام وهو ما خطر في باله، إنما ينقله من مصحف إلى مصحف، من أوراق إلى أوراق، ما حفظه في ذهنه ولا استقر في قلبه.

فالحاصل أنه له وجود، فقد يوجد في الأذهان وهو كلام الله، ويوجد في الصدور محفوظاً في القلب وهو كلام الله، يوجد في الكتابات في

---

(١) البخاري معلقاً، كتاب التوحيد/ باب قول النبي ﷺ «الماهر بالقرآن مع سفرة الكرام البررة».

(٢) متفق عليه من حديث عمر، وتمامه: «فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» .أهـ ألباني.

المصاحف مكتوباً وهو كلام الله، مقروءاً وهو كلام الله، منظوراً إليه في المصاحف فهو كلام الله من حيث أنه المكتوب، والحرف المنظور إليه والمداد شيء آخر، فالمكتوب هو كلام الله، ونفس حرف الكاتب وصوت الكاتب ومداد الكاتب شيء آخر.أهـ

* * *

والفرق بين كونه في زبر الأولين، وبين كونه في رق منشور، أو لوح محفوظ، أو في كتاب مكنون: واضح، فقوله عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ذكره ووصفه والإخبار عنه، كما أن محمداً مكتوب عندهم، إذ القرآن أنزله الله على محمد، لم ينزله على غيره أصلاً، ولهذا قال في الزبر، ولم يقل في الصحف، ولا في الرق، لأن الزبر جمع زبور والزبر هو: الكتابة والجمع، فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مزبور الأولين، ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يبين المعنى المراد، ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس، وهذا مثل قوله: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ أي: ذكره، بخلاف قوله: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ و﴿لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ و﴿كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ لأن العامل في الظرف إما أن يكون من الأفعال العامة، مثل الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو يقدر: مكتوب في كتاب، أو في رق.

والكتاب: تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب، ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب، وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه، فإن تلك إنما يكتب ذكرها، وكلما تدبر الإنسان هذا المعنى وضح له الفرق.

وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية: هي ما يسمع منه أو من المبلغ

عنه، فإذا سمعه السامع علمه وحفظه، فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ، فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو، فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم، وهو حقيقة في هذه الوجوه كلها لا يصح نفيه، والمجاز يصح نفيه، فلا يجوز أن يقال: ليس في المصحف كلام الله، ولا: ما قرأ القارئ كلام الله، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله، والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، فإنه تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله، والأصل الحقيقة، ومن قال: إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله، أو حكاية كلام الله، وليس فيها كلام الله: فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالاً.

وكلام الطحاوي رحمه الله يرد قول من قال: إنه معنى واحد لا يتصور سماعه منه، وأن المسموع المنزل المقروء والمكتوب ليس كلام الله، وإنما هو عبارة عنه، فإن الطحاوي رحمه الله يقول: كلام الله منه بدأ، وكذلك قال غيره من السلف، ويقولون: منه بدأ، وإليه يعود.

وإنما قالوا: منه بدأ، لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون إنه خلق الكلام في محل، فبدأ الكلام من ذلك المحل، فقال السلف: منه بدأ أي هو المتكلم به، فمنه بدأ، لا من بعض المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ومعنى قولهم: «وإليه يعود»: يرفع من الصدور والمصاحف، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في

المصاحف، كما جاء ذلك في عدة آثار[١].

وقوله: «بلا كيفية»: أي: لا تعرف كيفية تكلمه به قولاً ليس بالمجاز، وأنزله على رسوله وحياً، أي: أنزله إليه على لسان الملك، فسمعه الملك جبرائيل من الله، وسمعه الرسول ﷺ من الملك، وقرأ على الناس، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ وفي ذلك إثبات صفة العلو لله تعالى.

وقد أورد على ذلك أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر، أو إنزاله الحديد، وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام.

والجواب: أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله، قال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ وإنزال المطر مقيد بأنه منزل من السماء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ والسماء: العلو، وقد جاء في مكان آخر أنه منزل من المزن، والمزن:

(١) ابن بطة في الإبانة (١٧٤-١٧٥) موقوفاً على ابن مسعود/ باب بيان كفر طائفة من الجهمية، وزعموا أن القرآن ليس في صدور الرجال.

السحاب، وفي مكان آخر أنه منزل من المعصرات، وإنزال الحديد والأنعام مطلق، فكيف يشبه هذا الإنزال بهذا الإنزال؟!

فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال، وهي عالية على الأرض، وقد قيل أنه كلما كان معدنه أعلى كان حديده أجود، والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقال: أنزل ولم يقل نزل، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض.

ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علو إلى سفل، وعلى هذا فيحتمل قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وجهين:

أحدهما، أن تكون ﴿مِّنَ﴾ لبيان الجنس.

الثاني: أن تكون ﴿مِّنَ﴾ لابتداء الغاية.

وهذان الوجهان يحتملان في قوله: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾.

وقوله: «وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً» الإشارة إلى ما ذكره من التكلم على الوجه المذكور وإنزاله، أي هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهم السلف الصالح، وأن هذا حق وصدق .

وقوله: «وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية» رد على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهر.

وفي قوله: «بالحقيقة» رد على من قال: إنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه وإنما هو الكلام النفساني، لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به: إن هذا كلام حقيقة، وإلا للزم أن يكون الأخرس

متكلماً، ولزم أن لا يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله، كما لو أشار أخرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي أوحاه إليه ذلك الأخرس، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى.

وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه، وإن كان الله تعالى لا يسميه أحد أخرس، لكن عندهم أن الملك فهم منه معنى قائماً بنفسه، لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً، بل فهم معنى مجرداً، ثم عبر عنه، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربي، وأن الله خلق في بعض الأجسام كالهوى الذي هو دون الملك هذه العبارة.

ويقال لمن قال إنه معنى واحد: هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه؟

فإن قال: سمعه كله، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله، وفساد هذا ظاهر.

وإن قال: بعضه، فقد قال يتبعض، وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل إليه شيئاً من كلامه.

ولما قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ولما قال لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ وأمثال ذلك: هل هذا جميع كلامه أو بعضه؟

فإن قال: إنه جميعه، فهذا مكابرة، وإن قال: بعضه، فقد اعترف بتعدده.

وللناس في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق: أربعة أقوال:

أحدها: أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً، كما يتناول لفظ الإنسان

الروح والبدن معاً، وهذا قول السلف.

الثاني: اسم اللفظ فقط، والمعنى ليس جزء مسماه، بل هو مدلول مسماه، وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم.

الثالث: أنه اسم للمعنى فقط، وإطلاقه على اللفظ مجاز، لأنه دال عليه، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه.

الرابع: أنه مشترك بين اللفظ والمعنى، وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية، ولهم قول خامس، يروى عن أبي الحسن، أنه مجاز في كلام الله، حقيقة في كلام الآدميين لأن حروف الآدميين تقوم بهم، فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم، بخلاف كلام الله، فإنه لا يقوم عنده بالله، فيمتنع أن يكون كلامه، وهذا مبسوط في موضعه.

وأما من قال إنه معنى واحد، واستدل عليه بقول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فاستدلال فاسد، ولو استدل مستدل بحديث في الصحيحين لقالوا هذا خبر واحد! ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به! فكيف وهذا البيت قد قيل إنه موضوع[1] منسوب إلى الأخطل، وليس هو في ديوانه؟!

وقيل إنما قال:

إن البيان لفي الفؤاد

وهذا أقرب إلى الصحة، وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الاستدلال به، فإن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله واتحد اللاهوت بالناسوت! أي: شيء من الإله بشيء من

(١) انظر مختصر العلو للذهبي(٢٨٥).أهـ ألباني.

الناس! أفيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب؟!

وأيضاً: فمعناه غير صحيح، إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلماً لقيام الكلام بقلبه وإن لم ينطق به ولم يسمع منه، والكلام على ذلك مبسوط في موضعه، وإنما أشير اليه إشارة.

وهنا معنى عجيب، وهو: أن هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت! فإنهم يقولون: كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذي لا يمكن سماعه، وأما النظم المسموع فمخلوق، فإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى عليه السلام، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه!

ويرد قول من قال: بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس: قوله ﷺ: «إن صلاتناءهذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس»[1] وقال: «إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة»[2] واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته، واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب، من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم بذلك، فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

وأيضاً: ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أو تعمل به»[3] فقد أخبر أن الله عفا

---

(١) مسلم وغيره من حديث معاوية بن الحكم «صحيح أبي داود» (٨٦٢) و«الإرواء» (٣٩٠).أهـ ألباني.

(٢) النسائي وغيره بسند حسن، وعلقه البخاري مجزوما «صحيح أبي داود»(٨٥٧).أهـ ألباني.

(٣) متفق عليه، من حديث أبي هريرة «إرواء الغليل»(٢٠٦٢).أهـ ألباني.

عن حديث النفس إلا أن تتكلم، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد: حتى ينطق به اللسان، باتفاق العلماء، فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

وأيضاً ففي السنن: أن معاذاً رضي الله عنه قال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»(١).

فبين أن الكلام إنما هو باللسان، فلفظ القول والكلام وما تصرف منهما، من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل: إنما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظاً ومعنى، ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنما حصل النزاع بين المتأخرين من علماء أهل البدع، ثم انتشر.

ولا ريب أن مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة، وعرفوا معناه، كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك.

ولا شك أن من قال: إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى، وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارئ حكاية كلام الله وهو مخلوق: فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر، فإن الله يقول: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾ أفتراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما في نفسه أو إلى المتلو المسموع؟

---

(١) رواه الترمذي وغيره بسند فيه انقطاع، وقد بين ذلك الحافظ ابن رجب الحنبلي في «شرح الأربعين» بيانا شافيا، فليراجعه من شاء. أهـ ألباني.

ولا شك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع، إذ ما في ذات الله غير مشار إليه، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع .

وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أفتراه سبحانه يقول: لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه، وما في نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه، ولا إلى الوقوف عليه .

فإن قالوا: إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع، فأما أن يشير إلى ذاته فلا فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشيء بمثله وشبهه، وهذا تصريح بأن صفات الله محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين عجزهم؟!

ويكون التالي - في زعمهم - قد حكى بصوت وحرف ما ليس بصوت وحرف، وليس القرآن إلا سوراً مسورة، وآيات مسطرة، في صحف مطهرة، قال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ ويكتب لمن قرأ بكل حرف عشر حسنات، قال ﷺ: «أما إني لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1] وهو المحفوظ في صدور الحافظين المسموع من ألسن التالين.

قال الشيخ حافظ الدين النسفي رحمه الله في المنار: إن القرآن اسم للنظم والمعنى. وكذا قال غيره من أهل الأصول.

---

(١) صحيح، أخرجه الترمذي وابن ماجه، والآجري في «آداب حملة القرآن» بسند صحيح، وهو مخرج في «المشكاة» أيضاً (٢١٣٧). أهـ ألباني.

وما ينسب إلى أبي حنيفة رحمه الله: أن من قرأ في الصلاة بالفارسية أجزأه، فقد رجع عنه وقال: لا يجوز القراءة مع القدرة بغير العربية، وقالوا: لو قرأ بغير العربية إما أن يكون مجنوناً فيداوى، أو زنديقاً فيقتل، لأن الله تكلم به بهذه اللغة، والإعجاز حصل بنظمه ومعناه .

وقوله: «ومن سمعه وقال إنه كلام البشر فقد كفر» لا شك في تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله، بل قال إنه كلام محمد أو غيره من الخلق، ملكاً كان أو بشراً، وأما إذا أقر أنه كلام الله، ثم أول وحرف فقد وافق قول من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ في بعض ما به كفر، وأولئك الذين استزلهم الشيطان، وسيأتي الكلام عليه عند قول الشيخ «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله» إن شاء الله تعالى.

وقوله: «ولا يشبه قول البشر» يعني أنه أشرف وأفصح وأصدق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فلما عجزوا وهم فصحاء العرب، مع شدة العداوة عن الإتيان بسورة مثله، تبين صدق الرسول ﷺ أنه من عند الله، وإعجازه من جهة نظمه ومعناه، لا من جهة أحدهما فقط، هذا مع أنه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين، أي بلغة العربية، فنفى المشابهة من حيث التكلم، ومن حيث التكلم به، ومن حيث النظم والمعنى، لا من حيث الكلمات والحروف، وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة في أوائل السور، أي أنه في أسلوب كلامهم وبلغتهم التي يخاطبون بها، ألا ترى أنه يأتي بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن؟ كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ وكذلك الباقي ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه، بل خاطبكم بلسانكم.

ولكن أهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا إلى نفي تكلم الله به، وسماع جبرائيل منه، كما يتذرعون بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ إلى نفي الصفات، وفي الآية ما يرد عليهم قولهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ ما يرد على من ينفي الحرف، فإنه قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ﴾ ولم يقل فأتوا بحرف، أو بكلمة، وأقصر سورة في القرآن ثلاث آيات، ولهذا قال أبويوسف ومحمد: إن أدنى ما يجزئ في الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة، لأنه لا يقع الإعجاز بدون ذلك، والله أعلم.

قوله: (ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر، فقد كفر، من أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر).

ش: لما ذكر فيما تقدم أن القرآن كلام الله حقيقة، منه بدأ، نبه بعد ذلك على أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر، نفياً للتشبيه عقيب الإثبات، يعني أن الله تعالى وإن وصف بأنه متكلم، لكن لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الإنسان بها متكلماً، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل: باللبن الخالص السائغ للشاربين، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه، والمعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً، وسيأتي في كلام الشيخ: «ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه» وكذا قوله:

«وهو بين التشبيه والتعطيل» أي دين الإسلام، ولا شك أن التعطيل شر من التشبيه، بما سأذكره إن شاء الله تعالى، وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهاً، بل صفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

وقوله: «فمن أبصر هذا اعتبر» أي من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات الوصف ونفي التشبيه ووعيد المشبه اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار.

قوله: (والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فانه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه).

ش: المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة، وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة.

وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون.

وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الأدلة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وهي من أظهر الأدلة، وأما من أبى إلا تحريفها بما يسميه

تأويلاً: فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب، أسهل من تأويلها على أرباب التأويل، ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص.

وهذا الذي أفسد الدنيا والدين، وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم.

وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية، فهل قتل عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد؟ وكذا ما جرى في يوم الجمل، وصفين، ومقتل الحسين، والحرة؟ وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، إلا بالتأويل الفاسد؟!

وإضافة النظر إلى الوجه، الذي هو محله، في هذه الآية، وتعديته بأداة «إلى» الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه حقيقة موضوعة صريحة في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله.

فإن النظر له عدة استعمالات، بحسب صلاته وتعديه بنفسه:

فإن عدي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

وإن عدي بـ «في» فمعناه: التفكر والاعتبار، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وإن عدي بـ «إلى» فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟

وروى ابن مردويه بسنده إلى ابن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ قال: من البهاء والحسن إلى ربها ناظرة، قال: في وجه الله عز وجل[(١)].

عن الحسن قال: نظرت إلى ربها فنضرت بنوره، وقال أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى وجه ربها عز وجل، وقال عكرمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾.

قال: من النعيم، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى ربها نظراً، ثم حكى عن ابن عباس مثله، وهذا قول المفسرين من أهل السنة والحديث.

وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال الطبري: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله عز وجل وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فالحسنى: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجهه الكريم، فسرها بذلك رسول الله ﷺ والصحابة من بعده، كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة»[(٢)].

---

(١) ضعيف جداً، لأن في إسناده ثوير بن أبي فاختة، كذبه الثوري، وجزم الحافظ في «التقريب» بضعفه، انظر مقدمة الطبعة الثانية ص٥٤ .أهـ ألباني.

(٢) صحيح، ورواه الترمذي وابن ماجه وأحمد بنحوه عن صهيب رضي الله عنه، وهو مخرج في «ظلال الجنة»(٤٧٢).أهـ ألباني.

ورواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أخر، معناها أن الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل، وكذلك فسرها الصحابة رضي الله عنهم، روى ابن جرير ذلك عن جماعة، منهم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحذيفة، وأبو موسى الأشعري، وابن عباس رضي الله عنهما.

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي، وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؟

فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى[(١)].

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وبقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فالآيتان دليل عليهم:

أما الآية الأولى: فالاستدلال منها على ثبوت رؤيته من وجوه:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال.

الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

---

(١) رواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٨٨٣) في تفسير ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ ص: ٤٢١.

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولم يقل: إني لا أرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي، والفرق بين الجوابين ظاهر، ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاماً فقال: أطعمنيه، فالجواب الصحيح: أنه لا يؤكل، أما إذا كان طعاماً صح أن يقال: إنك لن تأكله، وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى، يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف؟

الخامس: أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقراً، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالاً لكان نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام، والكل عندهم سواء.

السادس: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ فإذا جاز أن يتجلى للجبل، الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟

ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

السابع: أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما.

وأما دعواهم تأييد النفي بـ ﴿لَن﴾ وأن ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة: ففاسد، فإنها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفي في الآخرة،

فكيف إذا أطلقت؟

قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ مع قوله: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ فثبت أن «لن» لا تقتضي النفي المؤبد.

قال الشيخ جمال الدين ابن مالك رحمه الله:

ومن رأى النفي بـ«لن» مؤبدا فقوله أردد وسواه فاعضدا

وأما الآية الثانية: فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف، وهو: أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً، كمدحه بنفي السنة والنوم، المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء، المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير، المتضمن كمال الربوبية والألوهية وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه، ونفي الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن كمال توحده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه، المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل، المتضمن لكمال ذاته وصفاته.

ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمراً ثبوتياً، فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فإن المعنى: أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، فقوله: ﴿لَّا

تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ يدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ﴾ فلم ينف موسى الرؤية، وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يحاط به علماً، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه.

وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه، الدالة على الرؤية فمتواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن، فمنها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذلك»(١)، الحديث، أخرجاه في الصحيحين بطوله.

وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً في الصحيحين نظيره، وحديث جرير بن عبدالله البجلي، قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: «إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته»(٢) الحديث أخرجاه في الصحيحين.

(١) متفق عليه، وهو مخرج في «ظلال الجنة» (٤٥٣، ٤٧٥). أهـ ألباني.

(٢) متفق عليه، وهو مخرج في المصدر المذكور (٤٤٦، ٤٥١، ٤٦١) وفي ثبوت كلمة «عيانا» نظر عندي، بينته هناك فراجعه. أهـ ألباني.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: روي لا تَضامّون وروي لا تُضامُون فيه، روايتان، تُضامون من الضيم، وتَضامون من الضم، يعني بعضهم يضم إلى بعض، والمعنى أنكم ترونه عياناً واضحاً ليس هناك حاجة إلى التضام، حتى يضم بعضهم بعضاً، وليس هناك ضيم - زحمة - كل يراه وهو في مكانه ليس هناك مشقة، وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، فالله سبحانه لا شبيه له، ولكن هذا من باب تشبيه الرؤية بالرؤية، كما أن رؤية الشمس صحواً ليس دونها سحاب أمر واضح، وكالقمر ليلة البدر في وقت الصحو دون غيم أمر واضح، فهكذا رؤية الله يوم القيامة، يراه المؤمنون يرونه في الجنة كما يشاء، أمر واضح.

رواية تُضامون من الضيم، ضامه يضيمه ضيماً إذا جحده وشق عليه، يعني زحمة، لصق بعضهم ببعض من شدة الزحام، ليري بعضهم بعضاً، ورواية تَضامّون يعني لا يطلب بعضهم أن ينضم إلى البعض، يعني يضم نفسه إلى الآخر ليريه إياه، وتضارون، الراء هذا معنى الشك يعني لا تشكون.أهـ

* * *

وحديث صهيب المتقدم، رواه مسلم وغيره، وحديث أبي موسى عن النبي ﷺ، قال: «وجنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[1]، أخرجاه في الصحيحين.

ومن حديث عدي بن حاتم: «وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس

(١) متفق عليه، وهو مخرج في «الضعيفة»(٣٤٦٥) تحت حديث آخر نحو هذا، لكن فيه زيادة على هذا، ولذلك خرجته هناك.أهـ ألباني.

بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، فيقول: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول، بلى يا رب». أخرجه البخاري في صحيحه[١].

وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً، ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها، ولولا أني التزمت الاختصار لسقت ما في الباب من الأحاديث .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وقد ساقها الحافظ ابن كثير رحمه الله في مواضع كثيرة من التفسير، وساقها في البداية والنهاية في الجزء الثاني، ساق أحاديث الرؤية نحو ثلاثين حديثاً، ساقها وعزاها إلى أهلها.أهـ

* * *

ومن أراد الوقوف عليها فليواظب سماع الأحاديث النبوية، فإن فيها مع إثبات الرؤية أنه يكلم من شاء إذا شاء، وأنه يأتي لفصل القضاء يوم القيامة، وأنه فوق العالم، وأنه يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، وأنه يتجلى لعباده، وأنه يضحك، إلى غير ذلك من الصفات التي سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق، وكيف تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنة رسوله؟

وكيف يفسر كتاب الله بغير ما فسره به رسوله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، الذين نزل القرآن بلغتهم؟

(١) في المناقب.أهـ ألباني.

وقد قال ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»(١).

وفي رواية: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»(٢).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهما يشهد أحدهما للآخر ويقوى أحدهما بالآخر فيكونان من باب الحسن لغيره، ولهذا جزم به الشارح.أهـ

* * *

وسئل أبو بكر رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ ما الأب؟ فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم(٣)؟

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا ذكره ابن القيم وذكره ابن كثير وغيره، وهذا من باب التواضع، ومن باب إظهار القاعدة الكلية في هذا الباب، وأن الواجب على العالم وطالب العلم أن لا يقول في القرآن برأيه مطلقاً، ولو كان في الشيء القريب، وإنما يقول عن نظر وتأمل.

وبعضهم استبعد هذا وقال: أستبعد هذا لأن الأب معروف، لكن

---

(١) ضعيف، أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عباس مرفوعا، وأوله «**اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، ومن قال في القرآن برأيه**..» الحديث، ورواه ابن جرير أيضاً، وإسناده ضعيف كما ذكرت في «تخريج المشكاة» (٢٣٤).أهـ ألباني.

(٢) ضعيف، رواه أبو داود والترمذي وغيرهما من حديث جندب.أهـ ألباني.

(٣) رواه ابن عبد البر، رقم (٨٩٢) ص ٣١٣، وابن كثير في تفسيره، سورة عبس، وعزاه لأبي عبيد.

على سبيل صحة الأثر، لعله قاله حين لم يحضره أنه سمعه من لغة العرب، فقال هذا، إن صح الأثر.

والشاهد من هذا أن الواجب التثبت في الأمور، وعدم الجزم في التفسير بما لا يقطع به الإنسان ولا يعرف دليله .

والأب هو النبات المعروف الذي ترعاه الدواب، وإن لم تعلم عينه، لأنه اسم جنس يطلق على كل علف من شأن الدواب أن تأكله، لأنه ذكره بعد ما يتعلق بالفاكهة، فما قبله لبني آدم، والأب للبهائم.أهـ

* * *

وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيها لله، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه، وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة؟

ومن قال: يرى لا في جهة، فليراجع عقله!! فإما أن يكون مكابراً لعقله أو في عقله شيء،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: فإما أن يكون مكابراً أو في عقله شيء، فإما أن يكون مختل العقل وإما أن يكون من باب المكابرة، تكذيب الأشياء التي يقطع بها العقل.أهـ

* * *

وإلا فإذا قال: يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة.

ولهذا ألزم المعتزلة من نفى العلو بالذات بنفي الرؤية، وقالوا: كيف تعقل رؤية بلا مقابلة بغير جهة، وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤية، فهذه الشمس إذا حدق الرائي البصر في شعاعها ضعف

عن رؤيتها، لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته.

ولهذا لما تجلى الله للجبل: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَـٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بأنه لا يراك حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته، إلا من أيده الله كما أيد نبينا، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ قال غير واحد من السلف: لا يطيقون أن يروا الملك في صورته، فلو أنزلنا عليهم ملكاً لجعلناه في صورة بشر، وحينئذ يشتبه عليهم: هل هو بشر أو ملك؟ ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولاً منا.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني إذا كان الملك مع كونه مخلوقاً قد يعجز المخلوق عن رؤيته، والشمس بقوتها يضعف المخلوق عن رؤيتها لأنه يضعف في ذلك؛ فلا يستغرب أن يضعف عن رؤية الله عز وجل في الدنيا، لأن الأبصار في هذه الدار ضعيفة، لا تتحمل أن تجابه النور «**لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره**»[1] لكن في الآخرة يقوي الله جل وعلا أبصارهم ويجعل فيها من الأهلية ما يجعل حتى تستطيع أن تراه سبحانه وتعالى، ولأن الدنيا ليست دار نعيم وليست دار خلد ولكنها دار عمل، فكان من رحمة الله وحكمته أن جعل الرؤية في الآخرة، في دار النعيم لا في دار العمل، فادخر هذه النعمة

---

(١) رواه مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان/ باب معنى قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وهذا الخير وهذه الرؤية، ادخرها لهم في الآخرة في دار الجزاء، لا في دار العمل ودار المشاق، فالرؤية نعيم وفضل من الله ادخرها لأوليائه في دار الكرامة، وجعل أبصارهم هناك تقوى على أن تراه سبحانه وتعالى، وأما هنا فهي تضعف عن ذلك ولم يقوها على هذا حتى ترى، لأنها ليست دار نعيم ولكنها دار زوال ودار امتحان، فاقتضت حكمته سبحانه أنه ادخرها لهم في الآخرة، وأن تكون الأبصار هنا على قدر الحال ههنا.أهـ

* * *

وما ألزمهم المعتزلة هذا الإلزام إلا لما وافقوهم على أنه لا داخل العالم ولا خارجه، لكن قول من أثبت موجوداً يرى لا في جهة أقرب إلى العقل من قول من أثبت موجوداً قائماً بنفسه لا يرى ولا في جهة .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: على كل حال كلاهما باطل، والسابق هذا أقرب، يعني كونه موجوداً يرى لا في جهة أقرب من قول من يثبت الوجود القائم بنفسه ولكنه لا يرى، كما تقوله الجهمية والمعتزلة ومن يثبتون الرب عز وجل ثم يقولون: لا داخل العالم ولا خارجه ولا محايث له ولا مباين به ولا فوقه ولا تحته ولا عن يمينه، وهذا معناه الوصف بالعدم، فلو أراد أحد أن يصف بالعدم فليس هناك وصف أكمل من هذا.أهـ

سؤال/ إثبات الرؤية من مذهب المعتزلة ؟

أجاب سماحة الشيخ: لا، هم أرادوا أن يتحدوا من أثبت العلو وقال إنه لا يرى.أهـ

سؤال/ من يقصد بقوله: «من أثبت موجوداً يرى لا في جهة»؟

أجاب سماحة الشيخ: قول بعض المتكلمين إنه يرى لا في جهة، حتى يتملقوا من إثبات العلو.أهـ

* * *

ويقال لمن قال بنفي الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهة: أتريد بالجهة أمراً وجودياً؟ أو أمراً عدمياً؟

فإن أراد بها أمراً وجودياً كان التقرير: كل ما ليس في شيء موجود لا يرى، وهذه المقدمة ممنوعة، ولا دليل على إثباتها، بل هي باطلة، فإن سطح العالم يمكن أن يرى، وليس العالم في عالم آخر.

وإن أردت بالجهة أمراً عدمياً، فالمقدمة الثانية ممنوعة، فلا نسلم أنه ليس في جهة بهذا الاعتبار.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني فوق العالم وفي الجهة العدمية الخالية فأمكنت رؤيته، لأنه إن أريد بالجهة الوجودية فهو منزه عنها، يعني لا يكون في داخل العالم ولا يحيط به العالم، ولكنه في جهة العلوية وهي جهة فوق العالم، ولهذا يشار إليه بالعلو سبحانه وتعالى، فوق العالم بائن من خلقه جل وعلا، فلا يمتنع أن يرى في هذه الحالة في الجهة العلوية التي فوق العالم.أهـ

* * *

وكيف يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، وإنما يتلقاه من قول فلان؟!

وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم

بإحسان، المنقول إلينا عن الثقات النقلة، الذين تخيرهم النقاد، فإنهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده، بل نقلوا نظمه ومعناه، ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان، بل يتعلمونه بمعانيه، ومن لا يسلك سبيلهم فإنما يتكلم برأيه، ومن يتكلم برأيه وما يظنه دين الله ولم يتلق ذلك من الكتاب فهو مأثوم وإن أصاب، ومن أخذ من الكتاب والسنة فهو مأجور وإن أخطأ، لكن إن أصاب يضاعف أجره.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا داؤهم، داؤهم أنهم حكموا العقول والآراء وأعرضوا عن الكتاب والسنة، ولهذا وقعوا في الأخطاء والضلالات والأباطيل، بإعراضهم عن الكتاب والسنة وتحكيمهم عقولهم الفاسدة الظالمة، التي ليس عندها من النور والهدى ما يعينها على إصابة الحق، ففاتهم النور وفاتهم الهدى بإعراضهم عن كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وزعمهم أنها ظواهر ظنية لا تفيد اليقين، فضلوا وأضلوا، نسأل الله السلامة.

والخلاصة من هذا أن أهل الكلام ضلوا عن الحق ووقعوا في الباطل العظيم بسبب إعراضهم عن الأصول المعتبرة التي سار عليها أصحاب النبي ﷺ، وهي العناية بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ، وما تلقاه أصحاب النبي عن نبيهم عليه الصلاة والسلام، وما درج عليه سلف الأمة، هذا هو الطريق، فمن سلكه نجا ومن حاد عن هذا الطريق إلى الآراء والأقيسة الضالة، والأخذ عن شيوخ لا بصيرة لهم ولا علم عندهم بالكتاب والسنة؛ فإن هذا يهلك ويَضِل ويُضِل.

والطريقة الواحدة هي التي سلكها الرسل عليهم الصلاة والسلام وسلكها أتباعهم من أصحابهم ومن سار في نهجهم، هذه هي الطريقة

التي بها السعادة وبها العصمة، ومن ضل عنها هلك وأضل غيره، ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله في هذا المعنى: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»(١).

وهذا الكلام الذي قاله الإمام مالك رحمه الله هو كلام أهل السنة والجماعة قاطبة، فلا صلاح للأمة في عقائدها وفي أخلاقها وفي أحكامها إلا بالطريقة التي صلح بها الأولون وسار عليها الأولون، وهي أخذ الأحكام من كتاب الله وعن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام من طريق الصحابة، من طريق أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم وأتباعهم بإحسان.

ولذلك أجمع أهل السنة والجماعة قاطبة ـ كما جاء في الكتاب والسنة ـ على أن الله فوق العرش، وأن الله في العلو سبحانه وتعالى، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل، وأنه على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم سبحانه وتعالى، وأنه يفعل ما يشاء ويختار سبحانه وتعالى لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، كما أجمعوا على أنه يرى في الآخرة، يراه المؤمنون بأبصارهم رؤية حقيقية، يرونه في عرصات القيامة كما يشاء، ويرونه في الجنة كما يشاء سبحانه وتعالى، كل هذا أجمعوا عليه، وأجمعوا على أنه يتكلم إذا شاء وتكلم فيما مضى ويتكلم إذا شاء، وأنه في جميع صفاته لا يشابه خلقه جل وعلا، ولهذا قال عبدالله بن المبارك رحمه الله وغيره من السلف: نعرف ربنا بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه(٢).أهـ

* * *

(١) أورده شيخ الإسلام ابن تيمية كما في الفتاوى ٢٠/ ٣٧٥.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في السنة، وقد تقدم.

وقوله: والرؤية حق لأهل الجنة، تخصيص أهل الجنة بالذكر، يفهم منه نفي الرؤية عن غيرهم، ولا شك في رؤية أهل الجنة لربهم في الجنة، وكذلك يرونه في المحشر قبل دخولهم الجنة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن رسول الله ﷺ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ واختلف في رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه لا يراه إلا المؤمنون.

الثاني: يراه أهل الموقف، مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك.

الثالث: يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار، وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف .

واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا ﷺ خاصة: منهم من نفى رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له ﷺ، وحكى القاضي عياض في كتابه الشفا اختلاف الصحابة ومن بعدهم في رؤيته ﷺ، وإنكار عائشة رضي الله عنها أن يكون ﷺ رأى ربه بعين رأسه، وأنها قالت لمسروق حين سألها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: «لقد قف شعري مما قلت»، ثم قالت: «من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب»[1].

ثم قال: وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها، وهو المشهور عن

---

(١) أخرجه الشيخان وأحمد (٦/ ٤٩) في حديث لها معروف.أهـ ألباني.

والحديث رواه البخاري (٤٨٥٥) كتاب التفسير من سورة النجم/ باب :، ورواه مسلم (١٧٧) كتاب الإيمان/ باب معنى قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟

ابن مسعود وأبي هريرة واختلف عنه.

وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ﷺ رآه بعينه[(١)]، وروى عطاء عنه: أنه رآه بقلبه.

ثم ذكر أقوالاً وفوائد، ثم قال: وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص، والمعول فيه على آيتي النجم، والتنازع فيهما مأثور، والاحتمال لهما ممكن، وهذا القول الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحق، فإن الرؤية في الدنيا ممكنة، إذ لو لم تكن ممكنة، لما سألها موسى عليه السلام، لكن لم يرد نص بأنه ﷺ رأى ربه بعين رأسه، بل ورد ما يدل على نفي الرؤية، وهو ما رواه مسلم في صحيحه، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه»؛[(٢)] و في رواية: «رأيت نوراً».

وقد روى مسلم أيضاً عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور ـ وفي رواية: النار ـ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[(٣)].

---

(١) ضعيف، أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» بألفاظ مضطربة عنه موقوفا.أهـ ألباني.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم في آخر كتاب الإيمان، ويشهد له حديث ابن عمر مرفوعا بلفظ: «يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى الله عز وجل» رواه الدار قطني كما في «الدر» (٦/ ١٩١) وله شاهد مرسل، رواه أبو سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» (٥٧) طبع المكتب الإسلامي.أهـ ألباني.

(٣) صحيح، وقد مضى.أهـ ألباني.

فيكون - والله أعلم - معنى قوله لأبي ذر «رأيت نوراً»: أنه رأى الحجاب، ومعنى قوله: «نور أنى أراه» النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته، فأنى أراه؟ أي فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته؟

فهذا صريح في نفي الرؤية، والله أعلم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا هو الصواب، مثل ما قال أبو ذر عن النبي ﷺ، الصواب أن أحداً لم يره في الدنيا وأنه لا يرى في الدنيا، وتقدم لكم أن الرؤية من نوع النعيم، وأن هذا من نعيم أهل الجنة وليس من نعيم أهل الدنيا، والله جل وعلا أخبر أنه ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٣] واحتجت بهذا عائشة على أنه لم ير في الدنيا[١]، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»[٢] وقال: «رأيت نوراً»[٣]

---

(١) البخاري (٤٨٥٥) كتاب التفسير/ سورة والنجم، عن مسروق.

(٢) رواه أحمد في المسند٥/ ٤٣٣ عن عمرو بن ثابت الأنصاري عن بعض أصحاب النبي ﷺ بنحوه، والترمذي (٢٢٣٥) كتاب الفتن/ باب ما جاء في علامة الدجال، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٠٧٧)كتاب الفتن/ باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، بلفظ «حتى تموتوا» وذكره ابن كثير في تفسير سورة النساء آية (١٥٩) ذكر الأخبار الواردة في نزول عيسى، وعزاه إلى ابن ماجه وقال الألباني: صحيح ٤/ ٥٠٨ سنن الترمذي.

ورواه النسائي من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه (٧٧٦٤) والحاكم في المستدرك من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه (٨٦٢٠).

(٣) رواه مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان/ باب معنى قول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وقال: «أنى أراه»(١) فعلم بذلك أنه لم ير ربه عليه الصلاة والسلام.

وأما غيره فقد أجمع المسلمون على أنه لم يره أحد في الدنيا، ولما أراد موسى ذلك جرى ما جرى وقال له ما قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ ﴾ [الأعراف:١٤٣] أما في الآخرة فأجمع أهل السنة والجماعة بأنه يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون، كما قال عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين:١٥] وهذا مجمع عليه في الجنة، أما في الموقف فهو الصواب أيضاً، أنه لا يراه إلا أهل الإيمان لعموم الآيات والأدلة ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ يعني يوم القيامة، فالكفار لا يرونه لا في المحشر ولا في الجنة، وإنما يراه أهل الإيمان كما أخبر الرحمن عز وجل وكما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

أما المنافقون ففيهم شبهة، لأنه جاء في بعض الأحاديث أنه يكلمهم وفيهم منافقوهم(٢)، ولكن النصوص الواضحة في حرمان الكفار من رؤيته تعم المنافقين، فإن أهل النفاق أخبث الناس وأشدهم كفراً، فهم من باب أولى، نسأل الله العافية.

أما ابن عباس فجاء عنه هذا وهذا(٣)، جاء عنه أنه رأى ربه بفؤاده،

---

(١) رواه مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان/ باب معنى قول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٨٠٦) كتاب الأذان/ باب فضل السجود، و(٦٥٧٣) كتاب الرقاق/ باب الصراط جسر جهنم، و(٧٤٣٧) كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾، ورواه مسلم (١٨٢) كتاب الإيمان/ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وكذا رواه أحمد في المسند.

(٣) الترمذي (٣٢٧٨-٣٢٧٩-٣٢٨٠) كتاب التفسير/ سورة النجم.

وهذا لا منافاة فيه، أما بعينه فلا، غير محفوظ عنه، إنما جاء عنه بفؤاده[١]، أو الرؤية مطلقة، وهذا هو المحفوظ عنه رضي الله عنه وأرضاه، أما بعين رأسه فلم يحفظ عنه رضي الله عنه وأرضاه[٢]، والرؤية المطلقة عنه تحمل على المقيدة التي بقوله في فؤاده، يعني بقلبه.أهـ

* * *

وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك[٣]، ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى،

فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

وقوله: «بغير إحاطة ولا كيفية» هذا لكمال عظمته وبهائه، سبحانه وتعالى، لا تدركه الأبصار ولا تحيط به، كما يعلم ولا يحاط به علماً، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

وقوله: «وتفسيره على ما أراد الله وعلمه» إلى أن قال: «لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا» أي كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسنة في الرؤية، وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه، فالتأويل الصحيح هو الذي يوافق ما جاءت به السنة، والفاسد المخالف له .

---

(١) رواه مسلم (١٧٥) كتاب الإيمان/ باب معنى قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾.

(٢) الترمذي (٣٢٧٩) وقال: حديث حسن غريب، والآثار في مسألة رؤية النبي ﷺ ربه رواها اللالكائي في السنة ٣/ ٥٦٦-٥٧٣، وابن خزيمة في كتاب التوحيد ٢/ ٤٨١، وابن أبي عاصم في السنة(٤٣٧) ١/ ١٩٠ وابن أبي حاتم في تفسيره ٤/ ١٣٦٣.

(٣) الرد على الجهمية (٦٤) وذكره ابن تيمية في الفتاوى ٦/ ٥٠٧، وابن القيم في الهدي ٣/ ٣٥.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني التأويل الصحيح ما وافق النصوص، وما خالف النصوص فهو التأويل الفاسد، ويقال للتأويل الموافق للنصوص هو التفسير، يقال له تفسيرها، تأويلها تفسيرها.

التأويل تأويلان:

أحدهما: تأويل النصوص بمعنى وقوع ما أخبرت به النصوص ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [الأعراف:٥٣] يعني ما أخبرت به النصوص مما يكون في الآخرة، فرؤية النار ونعيم الجنة والمحشر يوم القيامة هذا تأويله، وقوع ما أخبر الله به ورسوله يقال له التأويل ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ يعني مجيء ما أخبر به سبحانه وتعالى، وهو وجود الحقائق التي أخبر عنها الرب عز وجل في الجنة وفي النار وفي يوم القيامة، وجودها واطلاعك عليها هذا تأويلها يعني نهايتها، يعني ما تؤول إليه وتنتهي إليه.

الثاني: التفسير، كما يقول ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا يعني تفسيره.

الثالث: فهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر مرجوح، هذا هو الذي يسلكه أهل الكلام، وهو ليس بصحيح، صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر لا يتبادر إلى الذهن وهو مرجوح؛ هذا لا يصح إلا إذا قام عليه الدليل، إذا دعت إليه الحاجة وقام عليه الدليل سير إليه .أهـ

* * *

فكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق، ولا معه قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه، إذ لو قصده لحف بالكلام قرائن

تدل على المعنى المخالف لظاهره، حتى لا يوقع السامع في اللبس والخطأ، فإن الله أنزل كلامه بياناً وهدىً، فإذا أراد به خلاف ظاهره، ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره إلى فهم كل أحد، لم يكن بياناً ولا هدىً، فالتأويل إخبار بمراد المتكلم، لا إنشاء.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ ﴾ [آل عمران:٧] أرجح القولين الوقوف على لفظ الجلالة، والمراد بالتأويل هنا نهاية الشيء وعاقبته، وهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ومن قرأ ﴿ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران:٧] أراد التفسير، يعني يعلم تفسيره، ولكن نهايته وما أراد الله منه هذا هو الذي لا يعلمه إلا الله، كما في قوله سبحانه: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف:٥٣] يعني إذا رأوا ما خبر الله به يوم القيامة من أحوال الجنة والنار وأحوال القيامة؛ حينئذ أيقنوا بالحقيقة وعرفوا الحقيقة، وعرفوا أنهم كانوا في باطلهم سائرين وغارقين والله المستعان. أهـ

* * *

وفي هذا الموضع يغلط كثير من الناس، فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه، فإذا قيل: معنى اللفظ كذا وكذا، كان إخباراً بالذي عنى المتكلم، فإن لم يكن الخبر مطابقاً كان كذباً على المتكلم، ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة: منها: أن يصرح بإرادة ذلك المعنى، ومنها: أن

يستعمل اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع، ولا يبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنى، فكيف إذا حف بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته وما وضع له، كقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ و«إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب»[1] فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم، فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذي وضع له مع القرائن المؤكدة، كان صادقاً في إخباره، وأما إذا تأول الكلام بما لا يدل عليه ولا اقترن به ما يدل عليه، فإخباره بأن هذا مراده كذب عليه، وهو تأويل بالرأي، وتوهم بالهوى.

وحقيقة الأمر: أن قول القائل: نحمله على كذا، أو نتأوله بكذا، إنما هو من باب دفع دلالة اللفظ عما وضع له، فإن منازعه لما احتج عليه به ولم يمكنه دفع وروده، دفع معناه، وقال: أحمله على خلاف ظاهره.

فإن قيل: بل للحمل معنى آخر، لم تذكروه، وهو: أن اللفظ لما استحال أن يراد به حقيقته وظاهره، ولا يمكن تعطيله، استدللنا بوروده وعدم إرادة ظاهره على أن مجازه هو المراد، فحملناه عليه دلالة لا ابتداء.

قيل: فهذا المعنى هو الإخبار عن المتكلم أنه أراده، وهو إما صدق وإما كذب، كما تقدم، ومن الممتنع أن يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يبين للسامع المعنى الذي أراده، بل يعرف بكلامه ما يؤكد إرادة الحقيقة، ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره، إذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك، ولكن المنكر أن يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره إذا قصد البيان والإيضاح وإفهام مراده! كيف والمتكلم يؤكد كلامه بما ينفي المجاز، ويكرره غير مرة، ويضرب له الأمثال.

---

(١) متفق عليه، وتقدم، مع النظر في كلمة «عيانا». أهـ ألباني.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وكل هذا واضح، فإن الشارع إنما جاء بغاية البيان والإيضاح، وخاطب الأمة بما يعرفون ويفهمون، وأوضح لهم الدلائل على إثبات صفاته وأسمائه عز وجل، وأنه رب العالمين وأنه المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، فتأويل أسمائه وصفاته على خلاف ظاهرها معناه تعطيل النصوص، ومعناه سوء ظن بالله عز وجل وسوء ظن برسوله عليه الصلاة والسلام، واعتقاد غير لائق أنهما أرادا من كلامهما ما هو خلاف ظاهر ذلك، هذا من باب التعمية ومن باب الغش والخيانة لا من باب النصح والبيان، ولكن كلام الله وكلام رسوله يتنزه عما يقوله أعداء الله من الظالمين كأهل البدع، وسوء الظن بالله عز وجل وبرسوله عليه الصلاة والسلام.

وقوله: «كيف والمتكلم يؤكد كلامه بما ينفي المجاز» يعني لإيضاح الحقيقة، مثل قوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ ﴾ [الفتح:١٥] ﴿ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾ [فصلت:٢] كل هذا يبين أن كلام الله حقيقة.أهـ.

* * *

وقوله: «فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه» أي: سلم لنصوص الكتاب والسنة، ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة، أو بقوله: العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل! والعقل أصل النقل!! فإذا عارضه قدمنا العقل!! وهذا لا يكون قط، لكن إذا جاء ما يوهم مثل ذلك: فإن كان النقل صحيحاً فذلك الذي يدعى أنه معقول إنما هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر ذلك، وإن كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة، فلا يتصور

أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبداً، ويعارض كلام من يقول ذلك بنظيره،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والمعنى أنه إذا توهم متوهم أن هذا العقل يعارض النقل أو مخالف له فإنه بين أمرين:

إما أن يكون ما توهمه عقلاً ليس بعقل، وإنما هو شبهات وترهات لا حقيقة لها، وإما أن يكون النقل ليس بثابت وليس بصحيح.

وأما نقل صحيح صريح فإنه لا يخالف عقلاً صحيحاً صريحاً أبداً، فإن الشريعة الكاملة جاءت بما يطابق العقول لا يخالفها ولا تنكره العقول.

نعم قد تأتي بما تحار به العقول، لكن عند التأمل يظهر لها صحته ويتبين لها موافقته للعقل، وإن كان قد تحاره بعض العقول، أما أن تحيله العقول وتدل على بطلانه فهذا لا يكون أبداً، وألف في هذا أبو العباس ابن تيمية رحمه الله كتابه المعروف: مطابقة العقل الصريح للنقل الصحيح.أهـ

* * *

فيقال: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لأن العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء، فكان تقديم العقل موجباً عدم تقديمه، فلا يجوز تقديمه، وهذا بين واضح،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ثم أمر آخر، وهو أن عقول الناس متفاوته، فبأي عقل توزن النصوص؟

عقول الناس لا حصر لها، فهي مختلفة متناقضة كثيرة، فبأي عقل توزن النصوص؟

العقول جعلها الله ميزة للعباد يتميزون بها عن البهائم، ويعرفون بها ما يضرهم وما ينفعهم، فإذا عرف طالب العلم بعقله صحة هذا النقل واستقامة إسناده فليس له أن يخالفه أبداً، لأنه قدح في العقل وقدح في الإيمان.أهـ

* * *

فإن العقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته، وأن خبره مطابق لمخبَره، فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم أن لا يكون العقل دليلًا صحيْحاً، وإذا لم يكن دليلاً صحيحاً لم يجز أن يتبع بحال، فضلاً عن أن يقدم، فصار تقديم العقل على النقل قدحاً في العقل.

فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً، أو نحمله شبهة أو شكاً، أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما نوحد المرسل بالعبادة والخصوع والذل والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا نحاكم إلى غيره، ولا نرضى بحكم غيره، ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب

السلامة فوضه إليهم وأعرض عن أمره وخبره، وإلا حرفه عن مواضعه، وسمى تحريفه تأويلاً وحملاً، فقال: نؤوله ونحمله، فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب ما خلا الإشراك بالله خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

بل إذا بلغه الحديث الصحيح يعد نفسه كأنه سمعه من رسول الله ﷺ، فهل يسوغ أن يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأي فلان وكلامه ومذهبه؟!

بل كان الفرض المبادرة إلى امتثاله، من غير التفات إلى سواه، ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلان، بل يستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل نهدر الأقيسة، ونتلقى نصوصه، ولا نحرف كلامه عن حقيقته، لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول! ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلان دون فلان، كائناً من كان.

قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا أبو حازم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً، قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلًا يا قوم! بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»[1].

(١) صحيح، وأخرجه البغوي أيضاً في شرح السنة (١٢١)طبع المكتب الإسلامي، ورجاله ثقات، على خلاف معروف في عمرو بن شعيب.أهـ ألباني. =

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا كلام جيد، وفي هذا الحذر من الاختلاف والنزاع في السنة، وأنه واجب التسليم لها والإيمان بها وإنهاء الخلاف عندها.أهـ.

* * *

ولا شك أن الله قد حرم القول عليه بغير علم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرضه عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم: هل خالفه أو وافقه يكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه، أوقد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو بتكذيبه فإنه يمسك عنه، ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول، وقد يكون علم من غير الرسول، لكن في الأمور الدنيوية، مثل الطب والحساب والفلاحة، وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية، فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول لا غير .

قوله: (ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام).

= وقال شاكر: هو الحديث ٦٧٠٢ في مسند الإمام أحمد بتحقيقنا، وهو حديث صحيح، ومعناه ثابت في المسند أيضاً مختصراً برقم: ٦٦٦٨، وثابت أيضاً باختصار من رواية عبدالرزاق عن معمر عن عمرو بن شعيب، ورواه أحمد ٦٧٤١ عن عبد الرزاق، ورواه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد ص٧٨ من طريق عبد الرزاق، وروى مسلم في صحيحه ٢/ ٣٠٤ نحو معناه من رواية عبد الله بن رباح عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو كذلك في المسند ٦٨٠١ .أهـ

ش: هذا من باب الاستعارة، إذ القدم الحسي لا تثبت إلا على ظهر شيء، أي لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه.

روى البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال: من الله الرسالة، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التسليم[1]، وهذا كلام جامع نافع.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني علينا التسليم لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وإن لم نعرف الحكم والأسرار، فالواجب على الأمة التسليم لأمر الله، فالله جل وعلا منه الرسالة وهي الأوامر والنواهي، والرسل عليهم البلاغ، والأمة عليها التسليم والانقياد، هذا هو الحق، وهذا الذي قاله ربيعة أيضاً.

فالحاصل أن الأمة عليها التسليم والانقياد لأمر الله، والتصديق بأخباره مطلقاً، ولو لم تعلم معنى ذلك الشيء، عليك أن تتعلمه وتتفهمه وتطلب معناه، ولكن لا يقف هذا التصديق والانقياد على فهم الحكمة، بل عليك أن تنقاد للأمر فعلاً وللنهي تركاً، وإن لم تفهم العلة والحكمة في هذا الشيء، فإن الإنسان إذا كان لا يقبل إلا ما فهمه وأراده صار تابعاً لهواه، لا، بل الواجب اتباع الحق مطلقاً وإن لم تعرف المعنى الذي من أجله شرعت هذه العبادة، أو من أجله نهي عن هذا الشيء، فإذا قال الرسول ﷺ افعلوا نفعل، وإذا قال لا تفعلوا لا نفعل، وإن كنا لا نعرف

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ والعلل لابن أبي حاتم ٢/ ٢٠٩.

السر ما هو، لماذا حرم هذا ولماذا أمر بهذا؟

مع أن الغالب على من تأمل النصوص بصدق ونية صالحة وتجرد ورغبة في الخير؛ أنه يرى من المعاني العظيمة والأسرار البديعة ما يشرح قلبه وينور بصيرته ويريح ضميره، وينقاد لهذا الشيء عن اقتناع وعن رغبة عظيمة وعن انشراح فيما ظهر له من المعاني العظيمة في هذا الأمر، ولما ظهر من المعاني العظيمة في النهي، ولكن ليس كل أحد كذلك.أهـ

* * *

وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل، وهو: أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالماً، ولا يمكن العالم أن يصير نبياً رسولاً، فإذا عرف العامي المقلد عالماً، فدل عليه عامياً آخر، ثم اختلف المفتي والدال، فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي، دون الدال، فلو قال الدال: الصواب معي دون المفتي، لأني أنا الأصل في علمك بأنك مفت، فإذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرف أنه مفت، فلزم القدح في فرعه! فيقول له المستفتي: أنت لما شهدت له بأنه مفت، ودللت عليه، شهدت له بوجوب تقليده دونك، فموافقتي لك في هذا العلم المعين، لا تستلزم موافقتك في كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي الذي هو أعلم منك، لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفت، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطئ.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: العقل عرفت به صدق الرسالة ومميزات الرسالة وصدق الرسول ﷺ، لكن لا يلزم من هذا أن نقدم هذا الدليل على من عرفنا صدقه وأمانته، وذاك آلة عرف بها صدق الرسول ﷺ، وبعد ذلك لا يجوز أن يقدم العقل على الذي عرفنا أمانته

وصدقه، وأنه لا ينطق عن الهوى، أما العقل فقد يخطئ ويصيب.

ثم العقول لا حد لاختلافها، فعلى أي عقل تعرض النصوص وتصدق ؟.أهـ

❊ ❊ ❊

والعاقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى، لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره، وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول: هذا القرآن الذي تلقيه علينا، والحكمة التي جئتنا بها، قد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحاً في ما علمنا به صدقك، فنحن نعتقد موجب العقول الناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نعرض عنه، لا نتلقى منه هدياً ولا علماً، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسول، ولم يرض منه الرسول بهذا، بل يعلم أن هذا لو ساغ لأمكن كل أحد أن يؤمن بشيء مما جاء به الرسول، إذ العقول متفاوتة، والشبهات كثيرة، والشياطين لا تزال تلقي الوسواس في النفوس، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا في كل ما أخبر به الرسول وما أمر به!! وقد قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ

لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ ونظائر ذلك كثيرة في القرآن، فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر: إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا؟

والثاني باطل، وإن كان قد تكلم بما يدل على الحق بألفاظ مجملة محتملة، فما بلغ البلاغ المبين، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ، وأشهد الله عليهم في الموقف الأعظم، فمن يدعي أنه في أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين، فقد افترى عليه ﷺ.

قوله: (فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان) .

ش: هذا تقرير للكلام الأول، وزيادة تحذير أن يتكلم في أصول الدين بل وفي غيرها بغير علم، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذه الآيات كلها تدل على وجوب الحذر من القول على الله بغير علم، يعني لا يجوز للإنسان أن يتكلم في دين الله لا في العقائد والأصول ولا في الأحكام؛ إلا بعلم من كتاب الله أو سنة الرسول عليه الصلاة والسلام أو ينقل عن أهل العلم، أما أن يخوض فيها بغير علم فهذا فيه وعيد شديد، وهو من التكلف الذي حرمه الله، بل جعل الله القول عليه بغير علم في رتبة فوق الشرك، نسأل

الله العافية، وجعل ذلك من عمل الشيطان، كما قال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣] وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩] هذا دليل على عظم خطر القول على الله بغير علم، وأنه من الفواحش الكبيرة ومن المحرمات المنكرة، فالواجب على المؤمن أن يحذر شر لسانه.أهـ

* * *

وقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني الكفرة، وأن عمدتهم اتباع الظن والهوى، نسأل الله العافية، يعني هذه أصولهم، الهوى المتبع والظن الفاسد ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ﴾ [النجم:٢٣] ليس عندهم علم ولا قصد صالح، لا علم نافع ولا قصد صالح، هذه حال أهل البدع والشرك، إنما يتبعون أهواءهم وإنما يعتمدون على الظن، أما أهل العلم والإيمان فإن عمدتهم على العلم النافع والقصد الصالح - الإخلاص - هكذا يجب على طالب العلم أن يكون في قصده مخلصاً لله يريد وجهه والدار الآخرة، ليس اتباع الهوى، وأن يكون على

علم، على بينة، على أساس مستقيم، ويطلب العلم من معدنه، من أصله، قال الله وقال رسوله، لا يعتمد الظن والهوى، بل هذا من شأن أهل البدع وأهل الشرك ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣] والهدى هو ما جاءت به النصوص.أهـ

* * *

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ﴾»(1). رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» خرجاه في الصحيحين.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الألد الخصم هو الذي يجادل بغير حق، ويأخذ بمَوَدّ الطرق هكذا وهكذا، من لديد الوادي يعني جانبيه، يعني لا يقف عند حد في خصومته، بل هو كثير الخصومات كثير التلون في خصومته لدفع الحق، لا يهمه أن يسلك الطريق الذي يغضب الله أو يرضي الله، إنما يهمه أن يرد الحق وأن يخصم خصمه ويغلب خصمه، هذا هو الألد الخصم، الألد الخصم يعني المتعنت في خصومته، المجادل بالباطل، الذي يتطلب كل طريق وإن كان معوجاً لدفع الحق وقصد الباطل، والله المستعان.أهـ

* * *

---

(1) حسن كما قال الترمذي «المشكاة» (١٨٠) و«صحيح الترغيب» (١٣٧).أهـ ألباني.

ولا شك أن من لم يسلم للرسول نقص توحيده، فإنه يقول برأيه وهواه، ويقلد ذا رأي وهوى بغير هدى من الله، فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول، فإنه قد اتخذه في ذلك إلهاً غير الله، قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أي: عبد ما تهواه نفسه.

وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق، كما قال عبدالله بن المبارك رحمه الله عليه:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: صدق رحمه الله، ما أفسد دين الناس في القديم والحديث إلا ذلك، هل أفسد دين اليهود إلا علماؤهم الضالون المغضوب عليهم وعبادهم الضالون؟

وهل أفسد دين النصارى ومن قبلهم، حتى دين نوح إلا الضالون المجرمون الجاهلون؟ وهكذا هذه الأمة إنما أفسد دينها وأوقع فيها الشر والفتن والتفرق والاختلاف علماء السوء الذين ليس عندهم علم وبصيرة، وهم يدعون العلم وينسبون إلى العلم، ورهبانها الضالون المعتلون العابدون على جهالة وعلى غير علم، فيحسبهم الناس على علم ويتأسون بهم.

وهكذا الملوك، غالب الملوك هكذا، ليس كلهم، لكن غالبهم هكذا، غالب الملوك يتبعون أهواءهم وينشدون مصالحهم، وإن كان في ذلك ما يضر الأمة، ولكن فيهم الملوك الصالحون وفيهم الأخيار، ولكن الأغلب

هو هذا، فالعبرة في الأغلب، من هذا قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل:٣٤] يعني هذا شأنهم في الأغلب، لكن الصلحاء منهم كالملك داود والملك سليمان، والملوك الأخيار كمعاوية وأشباههم من ملوك المسلمين، وعمر بن عبدالعزيز وأشباههم هم ملوك وخلفاء، وهكذا كل ملك يأمر بتقوى الله وينهى عن الباطل غير داخل في الذم، الذم ينصب على كل ملك لا يُحكِّم شرع الله ولا يدعو إلى طاعة الله.

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها

كلام عظيم، رأيت الذنوب تميت القلوب، فالمعاصي هي أكثر ما يميت القلوب، أول مرض، أول بلاء أنها تأتي لها بالمرض، الذنوب مرض في القلوب مثل مرض الأبدان وأشد، الزنا مرض، شرب المسكر مرض، الغيبة مرض، النميمة مرض، السب والشتم بغير حق مرض، ثم هذا المرض قد يزداد حتى يموت صاحبه، حتى يموت القلب، كما يزداد على البدن فيموت البدن.

وقد يورث: قد للتحقيق، وقد يورث الذل إدمانها، إدمان الذنوب يورث الذل في الدنيا والآخرة، في الدنيا يحتقره الناس ويفتضح وتقام عليه الحدود، ويكون ذليلاً بين المؤمنين بسبب معاصيه، وفي الآخرة إلى النار، نعوذ بالله، وأي ذل أشد من ذل أهل النار؟ نسأل الله العافية.

وترك الذنوب حياة القلوب، تركها حياة لها، مثل ما أن ترك أسباب مرض البدن من أسباب حياة البدن، لكن المريض بأسباب الحياة ومن مثل جهة الطبيب الصالح واستقام على هذا، جاءت الحياة ورجعت عليه الحياة، هكذا ترك الذنوب وترك المعاصي يسبب رجوع الحياة إلى القلب والسلامة إلى القلب والانتعاش والبصيرة.

وخير لنفسك عصيانها، يعني خير لك في الدنيا والآخرة أن تعصيها في مخالفة هواها، تعصيها في الشيء الذي يغضب الله، أما طاعتها فيما أباح الله فهو معلوم، لكن لما كان الغالب على النفوس الأمر بالفحشاء والمنكر، صار خيراً لك عصيانها.

هذا من البحر المتقارب، فعول فعول فعول.أهـ

* * *

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، ويعارضونها بها، ويقدمونها على حكم الله ورسوله، وأحبار السوء، وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاق ما قيده، وتقييد ما أطلقه، ونحو ذلك، والرهبان وهم جهال المتصوفة، المعترضون على حقائق الإيمان والشرع، بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه ﷺ، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس.

فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة!

وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل!

وقال أصحاب الذوق إذا تعارض الذوق والكشف، وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ذوقهم باطل، يعني ذوقهم الذي وقع في نفوسهم، يعني الذي يكتشفونه بصفاء قلوبهم بزعمهم وبخلواتهم وأنسهم بالله، يظهر لهم كشف من ربهم يخالف

ظواهر ما جاءت به الرسل، بل يقول بعضهم: إن عندهم من العلوم ما ليس عند الرسل، جرهم الباطل إلى هذا، حتى إن بعضهم: يقول حدثني قلبي عن ربي، يعني ليس هناك واسطة، بدون واسطة الرسل، ينتهي بهم الأمر إلى أنهم يتلقون بزعمهم علومهم من ذوقهم الذي أخذوه عن ربهم مباشرة، جهل زائد.

ويقولون: للعامة الشرائع الظاهرة ولنا الحقائق الباطنة، حتى آل بهم الحال إلى أنهم تسقط عنهم التكاليف، لا صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا زنى ولا شيء، يعني وصلوا إلى حالة من قربهم من الله ورضاه عنهم أسقط عنهم التكاليف، هكذا فعل بهم الشيطان.أهـ

* * *

ومن كلام أبي حامد الغزالي رحمه الله في كتابه الذي سماه «إحياء علوم الدين» وهو من أجل كتبه، أو أجلها: فإن قلت: فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه؟

فاعلم أن للناس في هذا غلواً وإسرافاً في أطراف، فمن قائل: إنه بدعة وحرام، وأن العبد أن يلقى الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائل: إنه فرض، إما على الكفاية، وإما على الأعيان، وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله، قال: وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث من السلف وساق الألفاظ عن هؤلاء.

قال: وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه، قالوا: ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلا لما يتولد منه من الشر،

وكذلك قال ﷺ: «هلك المتنطعون»[١]. أي المتعمقون في البحث والاستقصاء، واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثني على أربابه، ثم ذكر بقية استدلالهم، ثم ذكر استدلال الفريق الآخر، إلى أن قال:

فإن قلت: فما المختار عندك؟

فأجاب بالتفصيل، فقال: فيه منفعة، وفيه مضرة: فهو في وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب، كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام.

قال: فأما مضرته، فإثارة الشبهات، وتحريف العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم، وذلك مما يحصل بالابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره في اعتقاد الحق، وله ضرر في تأكيد اعتقاد البدعة، وتثبيتها في صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل .

قال: وأما منفعته، فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيئتها، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف، قال: وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام، ثم قاله بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر سوى نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود،

---

(١) مسلم، من حديث ابن مسعود، وهو مخرج في «غاية المرام فيتخريج أحاديث الحلال والحرام» (٧).أهـ ألباني.

ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور. انتهى ما نقلته عن الغزالي رحمه الله.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا الكلام الذي قاله الغزالي واضح، وينبغي له أن يقتصر على ما قاله السلف وما حفظه عن السلف لأنه هو الحق، وهو الإعراض عن البحث من طريق أهل الكلام، من فرض أمور لا حقيقة لها، ومن كشف عن أشياء تورث الشبه وتوقع في الشك، فقد أعرض السلف الصالح عن علم، وتركوا هذا البحث عن يقين وعن بصيرة، فالطريق هو طريقهم، فلا حاجة إلى البحث عن الجوهر والعرض وأشباه ذلك، والبحث في الجسم، هل هو واجب الجسم، وكيف كذا وكيف كذا؟

فإن هذا لا خير فيه وضرره أكثر، وإنما الواجب تلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالقبول والإيمان والإذعان، وإمرار النصوص كما جاءت في آيات الله، في آيات الصفات وأسمائها، في توحيد الله وبيان حقه، والإعراض عما وقع فيه أهل الكلام الذين تركوا العناية بالكتاب والسنة، وأقبلوا على قول فلان وفلان، ثم تعمقوا في ذلك وأوردوا الأسئلة والجواب عنها، فوقعوا في شر كثير، وقل أن يرجع منهم من خرج إلى الباطل، قل أن يرجع إلى الصواب، ولهذا شدد الشافعي رحمه الله في هذا وقال: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في الأسواق، ويقال: هذا جزاء من خرج عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام[1].

---

(١) ذكره ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل ٧/ ١٧٤، ورواه الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩ وقال: لعل هذا متواتر عن الإمام.

وكتاب إحياء علوم الدين كتاب فيه شر كثير، وإن كان من أجل كتبه كما قال الشارح لما فيه من بعض الفوائد، ولكنه فيه شر كثير، حتى قال بعض أهل العلم: إنه جدير بأن يسمى إماتة علوم الدين، لا إحياء علوم الدين، لما فيه من البدع الكثيرة، وتأييد مذهب الأشاعرة في نفي الصفات وتأويلها، وإذا تأمله طالب العلم وجد فيه شرًّا كثيراً ووجد فيه فوائد جمة، فيه فوائد عن أحوال القلوب وعن كثير من الأعمال، ولكن مشحون أيضاً بأشياء تضر طالب العلم، لأنها ترجع إلى مجرد الآراء وبحث أهل الكلام، كما بينه هو في كتابه هذا، فهو بين أن ما وقعوا فيه شر عظيم، وأن الطريق السوي هو الإعراض عن ذلك.

لكن ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وابن القيم أن الإنسان قد يضطر إلى ذلك اضطراراً، فإن اضطر إليه جاز أن يرد عليهم بالمثل، إن اضطر إلى ذلك وجادله مجادل ممن يتبجح بما عنده من العلوم الفاسدة، وعلم من نفسه القدرة على رد هذا الباطل، وأنه قادر عليه وأن لديه من الحجج العقلية ما يبطل به حجج هذا المشبه؛ فهذا لا بأس به في حقه، وقد يجب عليه لنصر دين الله وإقامة الحجة على المبطلين، وإلا فالأصل هو الأخذ بالكتاب والسنة، والتمسك بالأدلة النقلية والكف عن الخوض في الكلام، لكن إذا اضطر إليه إنسان مع صاحب بدعة أو صاحب كلام لإقامة الحق ودحض الشبه، لئلا يقال انقطع، لئلا يقال هذا غلبه بالحق وهذه هي النصوص، إذا خشي هذا واضطر إلى أن يرد من طريق العقل ومن طريق البحث العقلي ومن طريق الكلام، وكانت عنده في هذا حصيلة، ويعلم من نفسه أنه قادر على أن يرد هذا الباطل من طريق العقل ومن طريق البحث العقلي، ومن طريق الخوض في الكلام، إذا علم من نفسه هذا وأراد نصر الحق، لا مجرد المغالبة وإظهار أنه يتفوق على هذا

الشخص أو ما أشبه ذلك، وإنما الذي يحمله على التنزل إلى هذا الأمر قصد إرادة الحق ونصر الحق، وبيان حجة أهل الحق وبطلان حجة أهل الباطل، إذا كان من هذا الطريق ومن هذا السبيل؛ فلا بأس، وقد يجب أيضاً ويتأكد عند مسيس الحاجة إليه، وعند القدرة من صاحب الحق.أهـ

سؤال/ تفسيره لقول النبي ﷺ: «هلك المتنطعون» أي المتعمقون في البحث والاستقصاء ؟

أجاب سماحة الشيخ: ليس بظاهر، المعروف عند العلماء: المتنطعون في جميع العبادات، والمتكلفون فيما يتعلق بالعبادة ويتعلق بالكف عن سلوك طريقة غير إسلامية، هذه طريقة غير موافقة للحق، كما يدل عليه حديث **«لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه»**[1] **«سِددوا وقاربوا»**[2].أهـ.

❊ ❊ ❊

وكلام مثله في ذلك حجة بالغة، والسلف لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معان صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضاً الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق .

---

(١) رواه البخاري (٣٩) كتاب الإيمان/ باب: الدين يسر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٨١٨)كتاب صفات المنافقين/ باب:لن يدخل أحد الجنة بعمله، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٤-٦٤٦٧)كتاب الرقاق/ باب القصد والمداومة على العمل من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم (٢٨١٧-٢٨١٨) كتاب صفات المنافقين/ باب:لن يدخل أحد الجنة بعمله، من حديث عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهما.

ومن ذلك: مخالفتها للكتاب والسنة وما فيه من علوم صحيحة، فقد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها، فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى، وأحسن ما عندهم فهو في القرآن أصح تقريراً، وأحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل:

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت ... كتب التناظر لا المغني ولا العمد
يحللون بزعم منهم عقدا ... وبالذي وضعوه زادت العقد

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والمعنى أن الغالب على الناس التنافس في إظهار قوة الفهم، وأنه أفهم من فلان وأنه يعرف وأنه يفهم، حتى يمدح ويثنى عليه ويعطى شيئاً من المال ويوظف وما أشبه ذلك، ولهذا جاءت كتب الخلاف في الأغلب.

وإن كان يريد بالمغني لابن قدامة والعمد لابن عقيل فليس بجيد، وإن كانت كتباً أخرى في الكلام فله ما نوى، ولكن المغني والعمد ليس من هذا الباب، بل وضع لإظهار الحق وبيان خلاف أهل العلم، وكذا العمد بالأدلة لابن عقيل، لما فيها من الدليل وذكر فيها أشياء رحمه الله في الفقه، ولكن الواقع في غالب الناس هو التنافس.أهـ.

* * *

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه، الشبه والشكوك، والفاضل الذي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك.

ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين، بل الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل، ويتدبر معناه ويعقله، ويعرف برهانه

ودليله العقلي والخبري السمعي، ويعرف دلالته على هذا وهذا، ويجعل أقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، فيقال لأصحابها: هذه الألفاظ تحتمل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني تجعل ميزاناً، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩] هذا هو الواجب، أن تكون هي الميزان، عليها تعرض الأشياء كلها، سواء أهل الكلام أو غير أهل الكلام، جميع المتنازعين تعرض أقوالهم وأفعالهم واختياراتهم وأفكارهم على هذا الميزان العظيم، وهو كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام وما بينه أهل العلم في معانيهما، فما وافق ذلك أو وافق أحد الأصلين قبل وإلا رد على قائله، وهذا كما يكون في المسائل الخلافية في الأحكام؛ يكون في مسائل العقائد أيضاً من باب أولى. أهـ

* * *

وهذا مثل لفظ المركب والجسم والتحيز والجوهر والجهة والحيز والعرض، ونحو ذلك، فإن هذه الألفاظ لم تأت في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل الاصطلاح، بل ولا في اللغة، بل هم يخصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها، فتفسر تلك المعاني بعبارات أخر، وينظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل .

مثال ذلك، في التركيب، فقد صار له معان:

أحدها: التركيب من متباينين فأكثر، ويسمى: تركيب مزج، كتركيب

الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحو ذلك، وهذا المعنى منفي عن الله سبحانه وتعالى، ولا يلزم من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات الكمال، أن يكون مركباً بهذا المعنى المذكور.

والثاني: تركيب الجوار، كمصراعي الباب ونحو ذلك، ولا يلزم أيضاً من ثبوت صفاته تعالى إثبات هذا التركيب.

الثالث: التركيب من الأجزاء المتماثلة، وتسمى: الجواهر المفردة.

الرابع: التركيب من الهيولى والصورة، كالخاتم مثلاً، هيولاه: الفضة، وصورته معروفة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الهيولى: من المادة، من مركب المادة والصورة، وهذه اصطلاحات لهم خبيثة، هيولاه المادة والصورة صور الحلقة، مثل السيف: الهيولى مادته، السيف من حديد، والصورة كونه يقطع به الشيء الذي يقطع، ومن هذا يتوصلون إلى نفي الصفات، فإنك إذا قلت إن الله جل وعلا موصوف أنه سميع بصير، قالوا: هذا معناه رسم للمادة والصورة فيكون مشابهاً للمخلوقين فتنفى الصفة، فيقعون في أباطيل كثيرة، وإذا قالوا بأنه بصير معناه إنه وصف لذات وأجزاء أخرى كاليد، فيقال لهم: هذا تركيب لمخلوق ركبه الله كما يشاء من لحم ودم وعروق وعظام ونحو ذلك، والله منزه عن صفات المخلوقين سبحانه وتعالى، له ذات لا يعلم كيفيتها إلا هو، وله صفات لا يعلم كيفيتها إلا هو، فهو موصوف بأنه ذو ذات وذو صفات، ذو سمع وبصر وعلم ويد وقدم وإصبع وغير ذلك لا تشابه صفات المخلوقين، فما لنا حاجة في هذا البحث الذي لا وجه له، وهو يفضي إلى الشر والفساد والعقائد الفاسدة.

والجوهر هو الفرد الذي لا ينقسم، الجزء المتين الكبير الذي لا ينقسم، جوهر الشيء الذي يتركب منه الأشياء.أهـ

* * *

وأهل الكلام قالوا: إن الجسم يكون مركباً من الجواهر المفردة، ولهم كلام في ذلك يطول، ولا فائدة فيه، وهو أنه: هل يمكن التركيب من جزئين، أو من أربعة، أو ستة، أو ثمانية، أو ستة عشر؟

وليس هذا التركيب لازماً لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقه، والحق أن الجسم غير مركب من هذه الأشياء، وإنما قولهم مجرد دعوى، وهذا مبسوط في موضعه.

الخامس: التركيب من الذات والصفات، هم سموه تركيباً لينفوا به صفات الرب تعالى، وهذا اصطلاح منهم لا يعرف في اللغة، ولا في استعمال الشارع، فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ولا كرامة، ولئن سموا إثبات الصفات تركيباً: فنقول لهم: العبرة للمعاني لا للألفاظ، سموه ما شئتم، ولا يترتب على التسمية بدون المعنى حكم ! فلو اصطلح على تسمية اللبن خمراً، لم يحرم بهذه التسمية.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لأن الاعتبار بالحقائق والمعاني لا بالألفاظ، مثل ما سمى المشركون الشرك توسلاً، وسموه تقرباً وسموه تعظيماً للأولياء والصالحين، هذا ليس بالحقيقة، بل هو تنقص للصالحين وليس بتعظيم للصالحين وليس توسلاً، بل هو عبادة لهم وتقرب إليهم وذل لهم، فتسميتهم الشرك بالله توسلاً أو تقرباً أو تعظيماً للصالحين أو ما أشبه ذلك؛ لا يخرجه عن كونه شركاً، كما أن تسمية التوحيد تنقص الصالحين، تنقص الأنبياء، لا يجعله منكراً ولا

يجعله خلاف الحق، بل هو الحق وليس بتنقص، وإنما هم المتنقصون، فالتوحيد هو تعظيم للصالحين وإنزال لهم في منازلهم كالأنبياء، وتعظيم لله عز وجل وإنزاله منزلته سبحانه وتعالى، فالألفاظ والأسماء الجديدة التي يخترعها الناس لا تغير المعاني.

ولما قال الذين مروا على سدرة يعظمها المشركون يوم حنين قالوا: **«اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»** ما أثر هذا الاسم على الحقيقة قال: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**»(١) فلاحظ الحقيقة ولم يبال بالأسماء والعبارات، فجعل قولهم: «اجعل لنا ذات أنواط» مثل قول بني إسرائيل ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف:١٣٨].

فالحاصل أن الاعتبار في الأحكام بالحقائق والمعاني التي يعرف فيها الكلام، لا بمجرد الألفاظ التي يخترعها الناس أو الأسماء التي يجددونها، مثل ما قال المؤلف: لو قالوا للبن وسموه خمراً لم يحرم اللبن، فلا يتأثر بذلك، وإذا سموا الخمر عصيراً أو سموها شراباً روحياً أو سموها شراباً طيباً أو ما أشبه ذلك؛ هي خمر ومحرمة وإن سموها ما شاءوا.أهـ

❋ ❋ ❋

السادس: التركيب من الماهية ووجودها، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران، وأما في الخارج، هل يمكن ذات مجردة عن وجودها، ووجودها

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٢١٨، والترمذي (٢١٨٠)كتاب الفتن/ باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، وقال: حسن صحيح، وابن أبي عاصم في السنة (٧٦)وابن حبان (١٨٣٥) والطبراني في الكبير (٣٢٩٠) والبيهقي في المعرفة ١/ ١٠٨ من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه وصححه الألباني ٤/ ٤٧٥ سنن الترمذي.

مجرد عنها؟

هذا محال، فترى أهل الكلام يقولون: هل ذات الرب وجوده أم غير وجوده؟ ولهم في ذلك خبط كثير، وأمثلهم طريقة رأي الوقف والشك في ذلك، وكم يزول بالاستفسار والتفصيل كثير من الأضاليل والأباطيل.

وسبب الإضلال الإعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة، وإنما سمي هؤلاء: أهل الكلام، لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس، وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به في موضع آخر، ومع من ينكر الحس، وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النص، أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهى إبليس، حيث لم يسلم لأمر ربه، بل قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ولهذا كان النبي ﷺ إذا جاءه من يريد الإسلام عرض عليه أمور الإسلام، ولم يذكر له شيئاً من الأمور العقلية التي قد يحتاج إليها بعض الناس في زعم هؤلاء، فيأتي إليه ويسأله ويقول له: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقم على أن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، كما سأله جبرائيل وكما سأله ضمام بن ثعلبه(١) وكما سأله غيرهما، يبين لهم ما جاء به الشرع وما أمر به الله من الأعمال والأقوال، ولا يذكر لهم ما

---

(١) رواه البخاري (٦٣) كتاب العلم/ باب ما جاء في العلم، وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

يتعلق بالعقول وما تصور العقول من كائنات أو التزامات أو شبهات، كل هذا قد أعرض عنه المصطفى عليه الصلاة والسلام وأعرض عنه أصحابه لعدم الحاجة إليه، فهم ناس عندهم عقول وعندهم فهم ويكفيهم، فليسوا بحاجة إلى أن يأتوا بكلام جديد ليس له أصل.

ثم ما جاء في الكتاب والسنة تفهمه العقول الصحيحة وتعقله، ويكون واضحاً لا يختلف فيه أحد من أهل اللسان الذين عرفوا اللغة العربية، فإنه تكلم بأفصح لسان وأوضح لسان، فإذا سمعه العاقل من البادية أو الحاضرة عقلوه وفهموه، ما يحتاجون إلى كلمات أخرى أو إلى صيغ أخرى، بل هو كلام واضح، أما أهل الأعجمية فيحتاجون إلى أن يفسر لهم بلغتهم ويترجم لهم بلغتهم ويكفيهم ذلك.أهـ

* * *

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليماً.

قوله: (فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً مكذباً).

ش: يتذبذب: يضطرب ويتردد، وهذه الحالة التي وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال

والشك، كما قال ابن رشد الحفيد، وهو منْ أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم، في كتابه تهافت التهافت: ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به؟

وكذلك الآمدي، أفضل أهل زمانه، واقفٌ في المسائل الكبار حائر.

وكذلك الغزالي رحمه الله، انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات وصحيح الإمام البخاري على صدره. وكذلك أبوعبدالله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه: [أقسام] اللذات[1]:

نهايــة إقــدام العقــول عقــال ... وغايـة سـعي العـالمين ضـلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصــل دنيانــا أذى ووبــال
ولـم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا
فكم قـد رأينـا مـن رجـال ودولـة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالـوا
وكـم من جبال قد علت شرفاتها ... رجـال، فزالـوا والجبـال جبـال

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وأقرأ في

(١) قال شاكر: في «المطبوعة» «اللذات» فقط، ولم أجد اسم هذا الكتاب إلا في هامشة كتاب «مختصر الصواعق المرسلة» لابن القيم، طبع السلفية بمكة المكرمة سنة ١٣٤٨ ج:١ ص:١٠.أهـ، قد ذكرت الثلاثة الأبيات الأولى هناك، والأبيات الخمسة مذكورة في ترجمة الفخر الرازي من كتاب طبقات الشافعية لابن السبكي ٥/ ٤٠ ومنها بيتان في ترجمته عند الحافظ ابن كثير في تاريخه١٣/ ٥٦.أهـ

والكتاب «أقسام اللذات» قد أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ٤/ ٧٢.

النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وكذلك قال الشيخ أبوعبدالله محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وكذلك قال أبوالمعالي الجويني: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به.

وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور.

وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي، وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي، لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يوماً، فقال: ما تعتقده؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال، فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، وبكى حتى أخضل لحيته.

ولابن أبي الحديد، الفاضل المشهور بالعراق:

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الأولى زعموا أنك المعروف بالنظر

كذبـــوا إن الـــذي ذكـــروا خـــارج عـــن قـــوة البـشـــر

وقال الخوفجي عند موته: ما عرفت مما حصلته شيئاً سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح، ثم قال: الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئاً.

وقال آخر: أضطجع على فراشي وأضع اللحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيء.

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبويوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب.

وقال الشافعي رحمه الله: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.

وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ماظننت مسلماً يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ـ ما خلا الشرك بالله ـ خير له من أن يبتلى بالكلام. انتهى[1].

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقر بما أقروا به ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك، التي كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهاياتهم ـ إذا سلموا من العذاب ـ بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب .

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة (١٨٨١) ٢/ ٢٦٢ باب فيما يروى عن جماعة من فقهاء المسلمين ومذهبهم في القدر، ورواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣٠٠-٣٠١) ١/ ١٤١، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، رقم (٩٨٦) ص ٣٦٦

والدواء النافع لمثل هذا المرض، ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله ـ إذا قام من الليل يفتتح الصلاة: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١] خرجه مسلم، توجه ﷺ إلى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلب بالهداية، وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة: فجبرائيل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها، فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة، له تأثير عظيم في حصول المطلوب، والله المستعان .

قوله: (ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم، أو تأولها بفهم، إذ كان تأويل الرؤية ـ وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ـ بترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين، ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه).

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية، وعلى من يشبه الله بشيء من مخلوقاته، فإن النبي ﷺ قال: «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[٢]، الحديث: أدخل كاف التشبيه على ما المصدرية أو الموصولة بترون التي تتأول مع صلتها إلى

(١) صحيح، ورواه أبو عوانة أيضا في صحيحه.أهـ ألباني

(٢) متفق عليه، وقد تقدم.أهـ ألباني

المصدر الذي هو الرؤية، فيكون التشبيه في الرؤية لا في المرئي، وهذا بين واضح في أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقها، ودفع الاحتمالات عنها، وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح؟!

فإذا سلط التأويل على مثل هذا النص، كيف يستدل بنص من النصوص ؟! وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه: إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر؟! ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ ونحو ذلك مما استعمل فيه «رأى» التي من أفعال القلوب!!

ولا شك أن «ترى» تارة تكون بصرية، وتارة تكون قلبية، وتارة تكون من رؤيا الحلم، وغير ذلك، ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص أحد معانيه من الباقي، وإلا لو أخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لأحد المعاني لكان مجملاً ملغزاً، لا مبيناً موضحاً، وأي بيان وقرينة فوق قوله: «ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب؟» فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر، أو برؤية القلب؟ وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه؟

فإن قالوا: ألجأنا إلى هذا التأويل، حكم العقل بأن رؤيته تعالى محال لا يتصور إمكانها !

فالجواب: أن هذه دعوى منكم، خالفكم فيها أكثر العقلاء، وليس في العقل ما يحيلها، بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال .

وقوله: لمن اعتبرها منهم بوهم، أي توهم أن الله تعالى يرى على صفة كذا، فيتوهم تشبيهاً، ثم بعد هذا التوهم ـ إن أثبت ما توهمه من

الوصف ـ فهو مشبه، وإن نفى الرؤية من أصلها لأجل ذلك التوهم فهو جاحد معطل، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده، ولا يعم بنفيه الحق والباطل، فينفيهما رداً على من أثبت الباطل، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: «ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه» فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفي ! وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال؟

فإن نفي الرؤية ليس بصفة كمال، إذ المعدوم لا يرى، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائي له إدراك إحاطة، كما في العلم، فإن نفي العلم به ليس بكمال، وإنما الكمال في إثبات العلم ونفي الإحاطة به علماً، فهو سبحانه لا يحاط به رؤية، كما لا يحاط به علماً.

وقوله: «أو تأولها بفهم» أي ادعى أنه فهم لها تأويلاً يخالف ظاهرها، وما يفهمه كل عربي من معناها، فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل: أنه صرف اللفظ عن ظاهره، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص، وقالوا: نحن نتأول ما يخالف قولنا، فسموا التحريف: تأويلاً، تزيينا له وزخرفة ليقبل، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ والعبرة للمعاني لا للألفاظ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق، وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم: «لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا» ثم أكد هذا المعنى بقوله: «إذ كان تأويل الرؤية ـ وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ـ: بترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين» ومراده

ترك التأويل الذي يسمونه تأويلاً، وهو تحريف، ولكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتي هي أحسن، كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلاً، ولا ترك شيء من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنة، وإنما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة، المخالفة لمذهب السلف، التي يدل الكتاب والسنة على فسادها، وترك القول على الله بلا علم.

فمن التأويلات الفاسدة، تأويل أدلة الرؤية، وأدلة العلو، وأنه لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً! ثم قد صار لفظ التأويل مستعملاً في غير معناه الأصلي.

فالتأويل في كتاب الله وسنة رسوله: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل الخبر: هو عن المخبر به، وتأويل الأمر: نفس الفعل المأمور به، كما قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن»(١).

وقال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ ومنه تأويل الرؤيا، وتأويل العمل، كقوله: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: أخبرهم بأنه يوسف وأمرهم أن يأتوه، فلما دخلوا عليه خروا سجداً على طريقة الأمم الماضية في التحية بالسجود، وقال لهم: ﴿ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ

(١) متفق عليه. أهـ ألباني

﴿جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠] فالأحد عشر كوكباً إخوته ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] هذا أبوه وأمه، هذا تأويل هذه الرؤيا، وجودها وحدوثها حين حضروا عنده، وكانوا في الأمم الماضية يحيون العظماء بالسجود، ومن هذا سجد الملائكة لآدم تحية وتقديراً وتعظيماً وتكريماً، ثم نهى الله عن ذلك في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، وصار السجود مختصًّا بالله عز وجل، ونهى سبحانه أن يفعل مع غيره ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم:٦٢].أهـ

* * *

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل، والعلم بما تعلق بالأمر والنهي منه؟

وأما ما كان خبراً، كالإخبار عن الله واليوم الآخر، فهذا قد لا يعلم تأويله، الذي هو حقيقته، إذ كانت لا تعلم بمجرد الإخبار، فإن المخبر إن لم يكن قد تصور المخبر به، أو ما يعرفه قبل ذلك لم يعرف حقيقته، التي هي تأويله، بمجرد الإخبار، وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، لكن لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب إفهام المخاطب إياه،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني جنس المخاطب وجنس الأشياء التي أرادها المخاطب إفهام المخاطبين، هذا معلوم من حيث اللغة العربية ومن حيث المعنى المشترك بين الأمم، لكن حقائق

ذلك الشيء المخبر عنه إنما تتضح وتكمن ويكون علم المخاطب بها تامًّا بعد وجودها، فإخباره عن الجنة والنار وما فيهما وعن الصحف حقيقة، أمر معلوم من حيث المعنى، إذا أعطي كتابه بيمينه أو شماله، والجنة والنعيم وما فيها من الفواكه والأنهار والحور، والنار فيها العذاب والأغلال وغير ذلك، هذا أمر معلوم، لكن تأويله الكامل والعلم به على التمام إنما يكون يوم القيامة، إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فباشروها، وجدوا أن النار وما فيها من الشر حق اليقين، ووجدوا أن الجنة وما فيها من النعيم حق اليقين، هذا تأويلها يعني نهاية ما يتعلق بذلك، إذا شاهد المؤمنون ما وعدهم الله وباشروه، وشاهد أعداء الله ما وعدهم الله وباشروه، وشاهد الناس ما في الموقف والحساب والجزاء وتطاير الصحف إلى غير ذلك، هذا هو النهاية، يعني نهاية ما ينتهي إليه الخبر أن يشاهد المخبر ذلك الشيء ويراه بعينه، بعدما كان علم اليقين صار عين اليقين وحق اليقين أيضاً.

العلوم أقسام ثلاثة: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، فما أخبر الله به عن الآخرة من باب علم اليقين، فإذا شاهدناه صار عين اليقين، فإذا باشره الناس ولمسوه بأيديهم وباشروه صار حق اليقين ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ [التكاثر:٧] ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحاقة:٥١] ومثال ذلك في الدنيا إذا قال قائل ثقة لك: قد قدم زيد من مكة، أو قد سال وادي حنيفة، فهذا من باب علم اليقين، إذا كان المخبرون ثقاة صار علم اليقين، فإذا أنت قابلت زيداً ورأيته بعينك، أو أتيت الوادي وشاهدت السيل فهذا عين اليقين، فإذا أخذت بيد زيد وصافحته أو خضت الوادي أو شربت منه أو لمسته صار حق اليقين.

فهكذا علمنا بالآخرة من باب علم اليقين، فإذا وقف الناس يوم القيامة وشاهدوا الناس وشاهدوا ما يكون يوم القيامة صار عين اليقين، وإذا دخلوا الجنة ودخل أهل النار النار صار علمهم بها حق اليقين، نسأل الله السلامة.أهـ

سؤال/ قول الشارح: «إعلم أن المخاطب لا يعلم المعاني المعبر عنها باللفظ حتى يرى عينها أو ما يناسب عينها» !

أجاب سماحة الشيخ: يعني بالعين: الحقيقة، يعرف عينها إما بالمشاهدة أو بمشاهدة المثل، يعرف الخيل يعرف الإبل، فإذا خبر أن هذا مثل الخيل وهو يعرف الخيل صار عنده علم، وإذا خبر أن هذا مثل الحمار وهو يعرف الحمار صار عنده علم، مثل ما قال النبي ﷺ: **«أتيت بالبراق وهو دابة فوق الحمار ودون البغل»**[1] نحن نعرف الحمار ونعرف البغل فكان عندنا بصيرة، لكن لو سمع هذا الكلام من لا يعرف الحمار ولا يعرف البغل لا يصير عنده علم.أهـ

❊ ❊ ❊

فما في القرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبرها، وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يعلم ما عنى بها، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله، فهذا معنى التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف، وسواء كان هذا التأويل موافقاً للظاهر أو مخالفاً له.

والتأويل في كلام كثير من المفسرين، كابن جرير ونحوه، يريدون به

(١) رواه البخاري (٣٨٨٧)كتاب مناقب الأنصار/ باب المعراج، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، ومسلم (١٦٢) كتاب الإيمان/ باب الإسراء برسول الله ﷺ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالف، وهذا اصطلاح معروف، وهذا التأويل كالتفسير، يحمد حقه، ويرد باطله، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ الآية، فيها قراءتان، قراءة من يقف على قوله ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ وقراءة من لا يقف عندها، وكلتا القراءتين حق، ويراد بالأولى المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله، ويراد بالثانية المتشابه الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره، وهو تأويله، ولا يريد من وقف على قوله ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ أن يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى، فإن لازم هذا أن يكون الله أنزل على رسوله كلاماً لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول، ويكون الراسخون في العلم لا حظ لهم في معرفة معناها سوى قولهم: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ وهذا القدر يقوله غير الراسخ في العلم من المؤمنين، والراسخون في العلم يجب امتيازهم عن عوام المؤمنين في ذلك، وقد قال ابن عباس رضي الله عنها: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله»[1] ولقد صدق رضي الله عنه، فإن النبي ﷺ دعا له وقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[2] رواه البخاري وغيره.

---

(١) هذا الأثر رواه ابن كثير في تفسيره عنه، سورة آل عمران/ آية (٧).

(٢) صحيح، ورواه أحمد (١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥) والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٨٤/ ٢) والبيهقي في دلائل النبوة، والضياء المقدسي في المختارة بسند صحيح عن ابن عباس، وأما عزو المصنف إياه للبخاري فوهم، وإنما عنده بلفظ: «اللهم علمه الحكمة» وفي لفظ «الكتاب» بدل «الحكمة» أخرجه أحمد (١/ ٣١٠ و٢/ ٤٤٥ و٤/ ٤٩٩) وهو رواية لأحمد (١/ ٣٥٩، ٢٦٩، ٢١٤) والطبراني، ورواه مسلم (٧/ ١٥٨) مختصرا بلفظ: «اللهم فقّه» وهو رواية لأحمد (١/ ٣٢٧) وفي أخرى له (١/ ٣٣٠) عن ابن عباس قال..فدعا الله أن يزيدني علما وفقها.أهـ ألباني

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: رواية البخاري كما تقدم «**اللهم فقهه في الدين وعلمه الكتاب**» لكن جاء في رواية غير البخاري كما ذكره الحافظ ابن حجر وذكره الحميدي في جمعه، أنه ذكر في الجمع رواية «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» كما ذكر الشارح، ولكن الصواب أن هذا خارج ..«**اللهم فقهه في الدين**» «**اللهم فقهه**» «**اللهم علمه الكتاب**» فصار «**اللهم فقهه في الدين وعلمه الكتاب**» ومعنى علمه الكتاب علمه التأويل يعني تفسيره، والمعنى واضح.

فالحاصل أن قوله جل وعلا ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٧] من وقف على الجلالة أراد بالمعنى المشتبه الذي لا يعلمه سواه سبحانه وتعالى، وحقائق الأمور، حقائق ما في الجنة حقائق ما في النار، حقائق أسمائه وصفاته لا يعلمها سواه سبحانه وتعالى.

ومن وقف على الراسخين في العلم ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:٧] فمعناه التفسير، تفسير الكلام من الله معناه بيان الأحكام التي بينها لعباده وأمرهم بها ونهاهم عنها، فهذه يعلمها الله والراسخون في العلم.أهـ

* * *

ودعاؤه ﷺ لا يرد، قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس، من أوله إلى آخره، أقفه عند كل آية وأسأله عنها[1]**، وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم في جميع معاني القرآن، ولم يقل عن آية إنها من المتشابه**

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري ١/ ٦٥، ذكر الأخبار عن بعض السلف فيمن كان من قدماء المفسرين محموداً علمه بالتفسير ومن كان منهم مذموماً علمه به، وابن كثير في مقدمة تفسيره ١/ ٥ الرجوع إلى أقول التابعين، وعزاه لابن إسحاق.

الذي لا يعلم أحد تأويله إلا الله.

وقول الأصحاب رحمهم الله في الأصول: المتشابه: الحروف المقطعة في أوائل السور، ويروى هذا عن ابن عباس، مع أن هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: مراده العلماء، أكثر الناس المراد به العلماء، كما في قوله ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣].أهـ

* * *

فإن كان معناها معروفاً، فقد عرف معنى المتشابه، وإن لم يكن معروفاً، وهي المتشابه، كان ما سواها معلوم المعنى، وهذا المطلوب.

وأيضاً فإن الله قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادّين.

والتأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين: هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك، وهذا هو التأويل الذي تنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية، فالتأويل الصحيح منه: الذي يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد، وهذا مبسوط في موضعه.

وذكر في التبصرة أن نصير بن يحيى البلخي روى عن عمرو بن إسماعيل بن حماد بن أبي يحيى بن محمد بن الحسن رحمهم الله: أنه سئل عن الآيات والأخبار التي فيها من صفات الله تعالى ما يؤدي ظاهره إلى التشبيه؟

فقال: نمرها كما جاءت، ونؤمن بها، ولا نقول: كيف وكيف، ويجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه، وأن من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه، وإذا كان قد قيل في قول بعض الناس:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وقيل:

علي نحت القوافي من معادنها وما علي إذا لم تفهم البقر[1]

كيف يقال في قول الله، الذي هو أصدق الكلام وأحسن الحديث، وهو الكتاب الذي ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ إن حقيقة قولهم إن ظاهر القرآن، والحديث هو الضلال، وإنه ليس فيه بيان ما يصلح من الاعتقاد، ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه؟! هذا حقيقة قول المتأولين، والحق أن ما دل عليه القرآن فهو حق، وما كان باطلاً لم يدل عليه، والمنازعون يدعون دلالته على الباطل الذي يتعين صرفه!

فيقال لهم: هذا الباب الذي فتحتموه، وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على إخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة خفية: فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين، لا تقدرون على سده، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ؟

فإن قلتم: ما دل القاطع العقلي على استحالته تأولناه، وإلا أقررناه!

قيل لكم: وبأي عقل نزن القاطع العقلي؟ فإن القرمطي الباطني يزعم

(١) قال شاكر: هو من قصيدة للبحتري، من أجود قصائده، وهي في ديوانه ٢/ ١٨٢-١٨٤ طبعة الجوائب سنة ١٣٠٠ ص٦٧٣-٦٧٥ طبعة بيروت سنة ١٩١١.أهـ

قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع ! ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد ! ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى، وعلى امتناع قيام عالم أو كلام أو رحمة به تعالى ! ! وباب التأويلات التي يدعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تنحصر في هذا المقام، ويلزم حينئذ محذوران عظيمان:

أحدهما: أن لا نقر بشيء من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل ! وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه، فيؤول الأمر إلى الحيرة المحذورة.

الثاني: أن القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسول، إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد، والتأويلات مضطربة، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد، وخاصّةُ النبي هي الإنباء، والقرآن هو النبأ العظيم، ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه قبلوه، وإن خالفته أولوه ! وهذا فتح باب الزندقة، نسأل الله العافية .

قوله: (ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه).

ش: النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان: مرض شبهة، ومرض شهوة، وكلاهما مذكور في القرآن، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ فهذا مرض

الشبهة، وهو أردأ من مرض الشهوة، إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته.

والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها، وشبه النفي أردأ من شبه التشبيه، فإن شبه النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ، وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول ﷺ.

وتشبيه الله بخلقه كفر، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ونفي الصفات كفر، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وهذا أصل نوعي التشبيه، فإن التشبيه نوعان: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهذا الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني، الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق، كعباد المشايخ، وعزير، والشمس والقمر، والأصنام، والملائكة، والنار، والماء، والعجل، والقبور، والجن، وغير ذلك، وهؤلاء هم الذين أرسلت لهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهناك تشبيه ثالث، وهو تشبيه الخالق بالمعدومات والمستحيلات والناقصات، كما فعل نفاة الصفات، فإن تشبيه المخلوق بالخالق جاءت الرسل جميعاً ببطلانه، وبيان أن الله هو المستحق للعبادة جل وعلا، وأنه مصرف الكون وأنه الخلاق الرزاق، فعلم أصحاب العقول السليمة صحة ذلك، وكذلك تشبيه الخالق بالمخلوق فإنه واضح البطلان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] لكن هناك تشبيه ثالث: وهو تشبيه الخالق بالمعدومات والناقصات والمستحيلات، وأنه إذا قال ليس بكذا ولا كذا

ولا كذا، انتهى الأمر إلى تشبيهه بالمعدومات وبالجمادات والناقصات، فلا يسلم من هذا أو هذا، إما بالجماد الذي لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر، وإما بالعدم الذي ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا غيره ولا غيره حتى يكون عدماً، وهذا هو الذي وقعت فيه الجهمية والمعتزلة وأشباههم، غلوا في النفي والتعطيل حتى لزم من نفيهم وتعطيلهم عدم وجود الله وإنكار وجوده سبحانه وتعالى، وهذا غاية التعطيل وغاية الإلحاد وغاية الكفر بالله، وذلك إنكار وجود الخالق ووصفه بصفات المستحيلات والمعدومات، نسأل الله العافية، ولم يسلم من هذه الشرور ـ تشبيه المخلوق بالخالق، وتشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه الخالق بالجمادات والمعدومات ـ لم يسلم من هذا كله إلا أهل السنة والجماعة، فإنهم نزهوا الله عن مشابهة خلقه تنزيهاً بريئاً من التعطيل، وأثبتوا له صفات الكمالات إثباتاً بريئاً من التمثيل، وهكذا أهل الحق وهكذا جاءت الرسل، جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بإثبات الصفات والأسماء لله سبحانه وتعالى وإثبات الكمالات لله على الوجه اللائق به، وجاءت الرسل تنزهه عن مشابهة خلقه وبيان عظم حقه، وأنه سبحانه وتعالى لا شبيه له ولا كفؤ له ولا ند له، وأنه المستحق للعبادة لا يستحقها سواه جل وعلا، فأبطلت ما تعلق به عباد الأصنام عباد المشايخ عباد النجوم والكواكب إلى غير ذلك.

فالإسلام هو إفراد الله بالعبادة، والإيمان بأنه المستحق للعبادة، وأنه لا شبيه له ولا كفؤ ولا ند له، وأنه سبحانه موصوف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص والعيب، هذا هو مذهب الرسل وطريقهم وصراطهم المستقيم الذي سار عليه أهل السنة والجماعة وثبتوا عليه ودعوا إليه وحذروا من مخالفته.أهـ

سؤال/ قوله: «الأولياء» ؟

أجاب سماحة الشيخ: يعني يسمون بالأولياء كما تفعل الصوفية، فإنهم سموا أناساً أولياء وليسوا بأولياء، ليس كل من سموه ولياً يكون ولياً، لأن ولي الله هو المؤمن التقي المستقيم ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢-٦٣] ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال:٣٤]. أهـ

* * *

قوله: (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية).

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى تنزيه الرب تعالى بالذي هو وصفه كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً، وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص، فقوله: «موصوف بصفات الوحدانية» مأخوذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ وقوله: «منعوت بنعوت الفردانية» من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وقوله: «ليس في معناه أحد من البرية» من قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ وهو أيضاً مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه.

والوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان، فالوصف للذات، والنعت للفعل، وكذلك الوحدانية والفردانية، وقيل في الفرق بينهما: إن الوحدانية للذات، والفردانية للصفات،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: النعوت والأوصاف،

المعنى واحد، نعته بكذا ووصفه بكذا، واحد فرد، المعنى واحد، فهو واحد سبحانه بذاته واحد في صفاته واحد في أفعاله جل وعلا، فهو سبحانه وتعالى موصوف بالفردانية بالوحدانية بالإلهية الحقة التي ليس له فيها شريك، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣] ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨].أهـ

* * *

فهو تعالى موحد في ذاته، منفرد بصفاته، وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد، ولكن في اللفظ نوع تكرير، وللشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لكن سجعه ما هو على طريقة أهل العقائد، أهل العقائد يعتنون بالتدليلات الجامعة، لا يرون هذه السجعات، أما المؤلف فهو مولع بالسجعات، يأتي بالألفاظ التي ليس لها كبير أهمية.أهـ

* * *

و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أكمل في التنزيه من قوله: «ليس في معناه أحد من البرية».

قوله: (وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات).

ش: أذكر بين يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة، وهي:

أن الناس[1] في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال: فطائفة تنفيها، وطائفة تثبتها، وطائفة تفصل، وهم المتبعون للسلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبين، ما أثبت بها فهو ثابت، وما نفي بها فهو منفي، لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي، ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلاً، ويذكرون عن مثبتها ما لا يقولون به، وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلاً، مخالفاً لقول السلف، ولما دل عليه الكتاب والميزان، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفياً ولا إثباتاً، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون.

فالواجب أن ينظر في هذا الباب، أعني باب الصفات، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبْت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: (وننفي ما نفاه الله ورسوله) سقط .أهـ

* * *

وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها: فإن كان معنى صحيحاً قبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة، إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد،

(١) الصواب: أن للناس، ابن باز.

والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، ونحو ذلك.

والشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة، كداود الجواربي وأمثاله القائلين: إن الله جسم، وإنه جثة وأعضاء وغير ذلك! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فالمعنى الذي أراده الشيخ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق، لكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقاً وباطلاً، فيحتاج إلى بيان ذلك، وهو: أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حداً، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته، قال أبوداود الطيالسي: كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبوعوانة؛ لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون: كيف؟ وإذا سئلوا قالوا بالأثر(١).

وسيأتي في كلام الشيخ: «وقد أعجز خلقه عن الإحاطة به «فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم.

سئل عبدالله بن المبارك: بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على العرش، بائن من خلقه، قيل: بحد؟ قال: بحد، انتهى(٢).

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٩٠١) ٢/ ٣٣٤-٣٣٥ باب في قول الله عز وجل لعيسى عليه السلام ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وقال أبوداود في آخره: وهو قولنا، قال البيهقي: وعلى هذا مضى أكابرنا، وعزاه إلى البيهقي الحافظ ابن حجر في الفتح ١٣/ ٤٠٧.

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة (١١٣-١١٤) ٣/ الرد على الجهمية - باب الإيمان بأن الله عز وجل على عرشه بائن من خلقه وعلمه محيط بجميع خلقه، وبرقم (١١٨)، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (٩٠٢) ٢/ ٣٣٥ باب قول الله عز وجل لعيسى عليه السلام ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ومعنى بحد: يعني بحد يعلمه هو سبحانه وتعالى، فإن السلف إذا قالوا بحد معناه بحد يعلمه هو سبحانه وتعالى، ومن قال بلا حد يعني بلا حد نعلمه نحن، فمنهم من نفى الحد ومنهم من أثبت الحد، فمن أثبته أراد حدًّا يعلمه الله، ومن نفاه أراد حدا نعلمه نحن، نحن لا نعلم حدود صفاته سبحانه وتعالى، بل نعلم أنه فوق السماوات على عرشه بائن من خلقه، الحد يعلمه هو سبحانه وتعالى، وبلا حد نعلمه نحن، فإطلاق الحدود والغايات والأعضاء والأركان والأدوات عليه ونحو ذلك فيه أمر مبالغ.

وكان من الواجب على المؤلف ألا يتعاطى هذه العبارة المجملة، ولكن مثل ما تقدم، أنه أراد بذلك معنى صحيحاً ولكنه وقع في ألفاظ لم ترد بها النصوص، وهكذا قولهم بجسم أو بغير جسم، وغير هذا مما وقع فيه كثير من الناس، فلا يقال بجسم ولا بغير جسم لعدم ورود الدليل، ولكن يقال «الذات» الله سبحانه وتعالى له ذات متميزة عن خلقه لا تشابه ذوات الخلق.

وذلـك في ذات الإلـه وإن يـشـأ يبارك على أوصال شلو ممزع[1]

«كذبات إبراهيم كلهن في ذات الله»[2] فالذات جاءت بها النصوص، وهي ذات منزهة عن مشابهة الذوات، ذات مستقلة قائمة بنفسها، لها

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٢) كتاب التوحيد/ باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجل من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو مقطع قصيدة قالها خبيب بن عدي رضي الله عنه حين صلبه المشركون يقول فيها:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٧ـ٣٣٥٨)كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ومسلم (٢٣٧١)كتاب الفضائل/ باب: من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

بنفسها، لها صفاتها ولها كمالاتها، حتى كان من أعظم العلامات التي يتميز بها الخالق عن المخلوق، وهو أنه سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص والعيب، فله ذات كاملة ليس فيها نقص وعيب، بل لها الكمال المطلق من كل وجه.

وأما إذا أطلق الحد والجهة ففيها التفصيل، وكذلك الأركان والأعضاء والأدوات، فيها معانٍ مجملة، لكن الأركان والأعضاء والأدوات إن كان المراد أنه تعالى عن القدم وعن اليد وعن الوجه، فهذا باطل، وإن أريد أنه تعالى عن أعضاء وعن أركان تشابه المخلوقين وتماثل المخلوقين فهذا حق، فهو متقدس عن مشابهة صفات المخلوقين، فليس له أركان ولا أعضاء ولا أدوات تشابه صفات المخلوقين، ولكن نعم له صفات لا تشابه صفات المخلوقين، له اليد والقدم والإصبع والوجه ونحو ذلك، ولا يجوز أن تنفى لأن المبتدعة سموها أركاناً وسموها أدوات وسموها أعضاءً، لا تنفى بهذا، فالألفاظ يأتون بها ليتوصلوا بها إلى رد ما جاءت به النصوص، وهذا من أبطل الباطل.

فالواجب الحذر من أعداء الله حيث شبهوا ولبسوا، وهذه عادة أهل البدع، يأتون بألفاظ مخترعة من عند أنفسهم فيوهمون أنهم يريدون بها الحق، فأهل السنة والجماعة لا يقبلون منهم هذه الأشياء، بل يقولون: فسّر لنا مرادك، فإن فسر حقاً قالوا: أردت حقاً ولكن ألفاظك مبتدعة ومجملة، فلا ينبغي أن تثبت، وإن فسر باطلاً قالوا له: ألفاظك باطلة ومعناك باطل، وهكذا من نفى لا من أثبت، فبين لنا ما نفيت، فإن بيّن حقًّا قالوا: معناك حق ولكن لفظك ليس بمشروع بل مبتدع، وإن بيّن باطلاً قيل له لفظك مبتدع ومعناك باطل، هكذا يقال في هذه الألفاظ التي ذكرها

الشيخ: «تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات» كل هذه ألفاظ مجملة، ونؤجل كمال التفصيل فيها.أهـ

السؤال/ ما هو الحد الذي يعلمه الله؟

أجاب سماحة الشيخ: غير صفات المخلوقين، هذا معناه، له كمال لا يماثل كمال المخلوقين، كماله منفصل عن المخلوقين، الحدود في كمال صفاته زائد على المخلوقين في كمالاتهم، لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ليس استواؤه كاستوائنا، ولا يده كأيدينا، ولا وجهه كوجوهنا، ولا ذاته كذواتنا، ولا علمه كعلمنا وهكذا.أهـ

* * *

ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حال في خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه، المقيم لما سواه، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفي وجود الرب ونفي حقيقته.

وأما الحد بمعنى العلم والقول، وهو أن يحده العباد، فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة.

قال أبوالقاسم القشيري في رسالته: سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمي، سمعت أبا منصور بن عبدالله، سمعت أبا الحسن العنبري، سمعت سهل بن عبدالله التستري يقول، وقد سئل عن ذات الله فقال: ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان، من غير حد ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون في العقبى، ظاهراً في ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن

معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمن بالأبصار، من غير إحاطة ولا إدراك نهاية .

وأما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات؛ فيستدل بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية، كاليد والوجه .

قال أبو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأكبر: له يد ووجه ونفس، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يقال: أن يده قدرته ونعمته، لأن فيه إبطال الصفة، انتهى.

وهذا الذي قاله الإمام رضي الله عنه، ثابت بالأدلة القاطعة: قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ وقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وقال ﷺ في حديث الشفاعة لما يأتي الناس آدم فيقولون له: «خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء» الحديث[1].

ولا يصح تأويل من قال: إن المراد باليد: القدرة، فإن قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد، ولو صح ذلك لقال إبليس: وأنا أيضاً خلقتني بقدرتك، فلا فضل له علي بذلك، فإبليس - مع كفره - كان أعرف بربه من الجهمية .

---

(١) صحيح، أخرجه البخاري (٤/ ٤٥٤،٤٦٤) وأحمد (٣/ ١١٦) في حديث الشفاعة، من حديث أنس، وسيأتي بلفظ آخر.أهـ ألباني

ولا دليل لهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع، ليتناسب الجمعان، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة، ولم يقل: أيدِيّ مضافاً إلى ضمير المفرد، ولا يدينا بتثنية اليد مضافاً إلى ضمير الجمع، فلم يكن قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ نظير قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وقال النبي ﷺ عن ربه عز وجل: «حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1].

ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء، أو جوارح، أو أدوات، أو أركان، لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد، لا يتجزأ، سبحانه وتعالى، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية، تعالى الله عن ذلك، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة، وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني، سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فكذلك يجب أن لا يعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً، لئلا يثبت معنى فاسد، أو ينفى معنى صحيح، وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمُحِقِّ والمُبْطِل.

وأما لفظ الجهة، فقد يراد به ما هو موجود، وقد يراد به ما هو معدوم، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقاً، والله تعالى لا يحصره شيء، ولا

(١) صحيح، وقد تقدم بتمامه. أهـ ألباني

يحيط به شيء من المخلوقات، تعالى الله عن ذلك، وإن أريد بالجهة أمر عدمي، وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا الله وحده.

فإذا قيل: إنه في جهة بهذا الاعتبار، فهو صحيح، ومعناه: أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع، عال عليه.

ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفي العلو، يذكرون من أدلتهم: أن الجهات كلها مخلوقة، وأنه كان قبل الجهات، وأن من قال إنه في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم، وأنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها، وهذه الألفاظ ونحوها إنما تدل على أنه ليس في شيء من المخلوقات، سواء سمي جهة أو لم يسم، وهذا حق، ولكن الجهة ليست أمراً وجودياً، بل أمر اعتباري، ولا شك أن الجهات لا نهاية لها، وما لا يوجد فيما لا نهاية له فليس بموجود.

وقول الشيخ رحمه الله: «لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات» هو حق، باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته، بل هو محيط بكل شيء وفوقه، وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخ رحمه الله، لما يأتي في كلامه: أنه تعالى «محيط بكل شيء وفوقه» فإذا جمع بين كلاميه، وهو قوليه: «لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات» وقوله: «محيط بكل شيء وفوقه» علم أن مراده أن الله تعالى لا يحويه شيء، ولا يحيط به شيء، كما يكون لغيره من المخلوقات، وأنه تعالى هو المحيط بكل شيء، العالي على كل شيء.

لكن بقي في كلامه شيئان:

أحدهما: أن إطلاق مثل هذا اللفظ ـ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال ـ كان تركه أولى، وإلا تسلط عليه، وألزم بالتناقض في إثبات الإحاطة والفوقية ونفي جهة العلو، وإن أجيب عنه بما تقدم، من أنه إنما

نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته، فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى.

الثاني: أن قوله: «كسائر المبتدعات» يفهم منه أنه ما من مبتدع إلا وهو محوي!! وفي هذا نظر.

فإنه إن أراد أنه محوي بأمر وجودي، فممنوع، فإن العالم ليس في عالم آخر، وإلا لزم التسلسل، وان أراد أمراً عدمياً، فليس كل مبتدع في العدم، بل منها ما هو داخل في غيره، كالسماوات والأرض في الكرسي، ونحو ذلك، ومنها ما هو منتهى المخلوقات، كالعرش، فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات، قطعاً للتسلسل، كما تقدم.

ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال: بأن «سائر» بمعنى البقية، لا بمعنى الجميع، وهذا أصل معناها، ومنه السؤر، وهو ما يبقيه الشارب في الإناء ،فيكون مراده غالب المخلوقات، لا جميعها، إذ السائر على الغالب أدل منه على الجميع، فيكون المعنى: أن الله تعالى غير محوي - كما يكون أكثر المخلوقات محوياً، بل هو غير محوي - بشيء، تعالى الله عن ذلك.

ولا نظن بالشيخ رحمه الله أنه ممن يقول إن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارجه بنفي النقيضين، كما ظنه بعض الشارحين، بل مراده: أن الله تعالى منزه عن أن يحيط به شيء من مخلوقاته، وأن يكون مفتقراً إلى شيء منها، العرش أو غيره.

وفي ثبوت هذا الكلام عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه نظر، فإن أضداده قد شنعوا عليه بأشياء أهون منه، فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع عنهم تشنيعهم عليه به، وقد نقل أبومطيع البلخي عنه إثبات العلو، كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، وظاهر هذا الكلام يقتضي نفيه، ولم يرد بمثله كتاب ولا سنة، فلذلك قلت: إن في ثبوته عن الإمام نظراً، وأن

بمثله كتاب ولا سنة، فلذلك قلت: إن في ثبوته عن الإمام نظراً، وأن الأولى التوقف في إطلاقه، فإن الكلام بمثله خطر، بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع، كالاستواء والنزول ونحو ذلك.

ومن ظن من الجهال أنه إذا نزل إلى سماء الدنيا كما أخبر الصادق ﷺ(١) يكون العرش فوقه، ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم! فقوله مخالف لإجماع السلف، مخالف للكتاب والسنة، وقال شيخ الإسلام أبوعثمان إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني: سمعت الأستاذ أبا منصور بن حماد ـ بعد روايته حديث النزول ـ يقول: سئل أبوحنيفة رضي الله عنه؟ فقال: ينزل بلا كيف. انتهى(٢) .

وإنما توقف من توقف في نفي ذلك، لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنة وأقوال السلف، ولذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش، بل يقول: لا مباين، ولا مجانب، لا داخل العالم ولا خارجه، فيصفونه بصفة العدم والممتنع، ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش، ويقول بعضهم: بحلوله في كل موجود، أو يقول: هو وجود كل موجود ونحو ذلك، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

وسيأتي لإثبات صفة العلو لله تعالى زيادة بيان، عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله: «محيط بكل شيء وفوقه» إن شاء الله تعالى.

قوله: (والمعراج حق، وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في

---

(١) متفق عليه، بل هو متواتر، وقد خرجته في «إرواء الغليل»(٤٥٠) وراجع إن شئت بعض ألفاظه الصحيحة في صحيح الجامع الصغير (١٩١٤).أهـ ألباني

(٢) الغنية عن الكلام وأهله ١/ ٢٩، وذكره صاحب عون المعبود ٤/ ١٤٠ وعزاه لأبي عثمان الصابوني في كتاب الدعوات.

وأوحى إليه ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، فصلى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى).

ش: المعراج: مفعال، من العروج، أي الآلة التي يعرج فيها، أي يصعد، وهو بمنزلة السلم، لكن لايعلم كيف هو، وحكمه كحكم غيره من المغيبات، نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

وقوله: «وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة» اختلف الناس في الإسراء.

فقيل: كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده، نقله ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما، ونقل عن الحسن البصري نحوه(١)، لكن ينبغي أن يعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم.

فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولا: كان مناماً، وإنما قالا: أسري بروحه ولم يفقد جسده، وفرق ما بين الأمرين: أن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه قد عرج إلى السماء، وذهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، فما أرادا أن الإسراء مناماً(٢)، وإنما أرادا أن

---

(١) ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٣٧، ونقله عن ابن إسحاق، وقال في حاشية الهدي: ابن إسحاق (٢/ ٣٢ و ٣٤) قال القاضي في الشفا ١/ ٣٥٩ والمشهور عنه خلافه - يعني الحسن - انتهى.

وما نسب إلى عائشة رضي الله عنها من قولها: «ما فقدت جسده حين أسري به» لم يثبت، ولم تكن هي تحت النبي ﷺ، إذ لم يبن بها إلا في المدينة، والإسراء والمعراج كان في مكة قبل الهجرة.

وأما ما نسب إلى معاوية رضي الله عنه فهو أيضاً لم يسلم إلا بعد فتح مكة، وقد قال القاضي عياض بتضعيف الروايتين وتوهينهما، فانظر الشفا ١/ ٣٦٨-٣٧٤. أهـ

(٢) قلت: لم يصح عنهما، فهو في غنية عن التأويل. أهـ ألباني

الروح ذاتها أسري بها، ففارقت الجسد ثم عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه، فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

وقيل: كان الإسراء مرتين، مرة يقظة، ومرة مناماً، وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله: «ثم استيقظت»، وبين سائر الروايات، وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين، مرة قبل الوحي، ومرة بعده، ومنهم من قال: بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحي، ومرتين بعده، وكلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة، للتوفيق ! ! وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث، وإلا فالذي عليه أئمة النقل: أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة، بعد البعثة، قبل الهجرة بسنة، وقيل: بسنة وشهرين، ذكره ابن عبدالبر.[١]

قال شمس الدين ابن القيم: يا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً، فيقول: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها إلى خمس؟ ! وقد غلط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه، ثم قال: فقدم وأخر وزاد ونقص، ولم يسرد الحديث، وأجاد رحمه الله. انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله[٢].

وكان من حديث الإسراء: أنه ﷺ أسري بجسده في اليقظة، على

---

(١) ونقله عنه ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٤٠.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٤٠.

الصحيح، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، راكباً على البراق، صحبة جبرائيل عليه السلام، فنزل هناك، صلى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد، وقد قيل: إنه نزل بيت لحم وصلى فيه، ولا يصح عنه ذلك البتة، ثم عرج به من بيت المقدس تلك الليلة إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبرائيل، ففتح لهما، فرأى هناك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرحب به ورد عليه السلام، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، فلقيهما، فسلم عليهما، فردا عليه السلام، ورحبا به، وأقرا بنبوته ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقي فيها موسى فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار، جل جلاله وتقدست أسماؤه، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مر على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: «بخمسين صلاة»، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار: أن نعم، إن شئت، فعلا به جبرائيل حتى أتى به إلى الجبار تبارك وتعالى وهو في مكانه ـ هذا لفظ البخاري في صحيحه وفي بعض

الطرق ـ فوضع عنه عشراً، ثم نزل حتى مر بموسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى، حتى جعلها خمساً، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: «قد استحييت من ربي، ولكن أرضى وأسلم، فلما نفذ، نادى مناد: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»(١).

وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة في رؤيته ﷺ ربه عز وجل بعين رأسه، وأن الصحيح أنه رآه بقلبه، ولم يره بعين رأسه، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ صح عن النبي ﷺ أن هذا المرئي جبرائيل، رآه مرتين على صورته التي خلق عليها.

وأما قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ فهو غير الدنو والتدلي المذكورين في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما ، فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى، وأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء، فذلك صريح في أنه دنو الرب تعالى وتدليه(٢) وأما الذي في سورة النجم: أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، فهذا هو جبرائيل، رآه مرتين، مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى.

---

(١) حديث الإسراء صحيح، وهو ملتقط من أحاديث متفرقة، غير أن الدنو المذكور في هذا السياق هو من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر، الذي غلطه الحافظ في ألفاظ من حديث الإسراء، كما ذكر المؤلف آنفاً، ومن ذلك هذا اللفظ كما بينه الحافظ ابن كثير في تفسيره (الإسراء) ومن قبله البيهقي في الأسماء والصفات (٤٤٠ـ٤٤٢).أهـ ألباني

(٢) قلت: لكن في ثبوته نظر كما تقدم آنفاً.أهـ ألباني

ومما يدل على أن الإسراء بجسده في اليقظة، قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق، وهو الصحيح، فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلاً، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة وهو كفر.

فإن قيل: فما الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس أولاً؟

فالجواب ـ والله أعلم ـ: أن ذلك كان إظهاراً لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم وأخبرهم عن عيرهم التي مر عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس، فأخبرهم بنعته.

وفي حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه، لمن تدبره، وبالله التوفيق.

قوله: (والحوض ـ الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته ـ حق).

ش: الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير، تغمده الله برحمته، في آخر تاريخه الكبير، المسمى بالبداية والنهاية.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهو كما قال، فإن الحافظ ابن كثير رحمه الله عني بها وذكرها في النهاية، وذكر نحو ثلاثين

حديثاً أو أحداً وثلاثين حديثاً كلها تتعلق في الحوض، حوض النبي عليه الصلاة والسلام، وذكر أدلة كثيرة في هذا الباب.أهـ

* * *

فمنها: ما رواه البخاري رحمه الله تعالى، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وأن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء»(١) وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «ليردن علي ناس من أصحابي، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»(٢) رواه مسلم، وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاة، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾»، حتى ختمها، ثم قال لهم: «هل تدرون ما الكوثر؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»(٣) ورواه مسلم، ولفظه: هو نهر وعدنيه ربي، عليه خير

---

(١) صحيح، وروى منه أحمد (٣/ ٢٢٥، ٢٣٨) بإسنادين صحيحين الشطر الثاني، وزاد في أحدهما: «أباريق الذهب والفضة» وهو رواية لمسلم، ورواه البخاري أيضا (٤/ ٢٤٨) بتمامه.أهـ ألباني

(٢) صحيح، ورواه البخاري أيضاً (٤/ ٢٤٨، ٢٤٩) فلو عزاه إليه المؤلف لكان أولى، فإن اللفظ له، ولفظ مسلم (٧/ ٧٠-٧١) بنحوه.أهـ ألباني

(٣) صحيح، وهو في المسند (٣/ ١٠٢) بسند صحيح على شرط مسلم، وقد أخرجه في صحيحه كما ذكر المؤلف.أهـ ألباني

كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة «والباقي مثله، ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض ،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: المقصود أنه من أنهار الجنة[(١)]، وعليه قباب اللؤلؤ، عليه جنابذ اللؤلؤ وطينه المسك كما جاء في الحديث[(٢)]، ويصب فيه ميزابان في الأرض يوم القيامة، يوم القيامة يصب فيه ميزابان عظيمان في الأرض يمتليء من ذلك الحوض الذي ترده الأمة، وهذا الحوض العظيم في الأرض طوله شهر وعرضه شهر، طوله عرضه، آنيته عدد نجوم السماء، يرده أهل الإيمان من هذه الأمة ويشربون منه شربة عظيمة، وهو أحلى من العسل وأبيض من اللبن، منظره طيب وطعمه طيب، ويذاد عنه أقوام يوم القيامة لأنهم بدلوا وغيروا كما تذاد الإبل الغريبة عن إبل الإنسان، حتى يقول الرسول ﷺ **«أمتي»** وفي رواية **«أصحابي»**فيقال **«إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، قال فأقول سحقاً سحقاً»**[(٣)] أي لمن بدل بعدي، وفي اللفظ الآخر **«فأقول كما قال العبد الصالح ـ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام ـ** ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧٨) كتاب الرقاق/ باب في الحوض، و(٤٩٦٦) كتاب التفسير/ باب سورة الكوثر، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٦٥٨١) كتاب الرقاق/ باب في الحوض، وأبوداود (٤٥٨١) كتاب السنة/ باب في الحوض، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٦٥٨٣) كتاب الرقاق/ باب في الحوض، و(٧٠٥١) كتاب الفتن/ باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾، ومسلم (٢٢٩٠) كتاب الفضائل/ باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه مسلم أيضاً من حديث أم سلمة رضي الله عنها (٢٢٩٥).

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة:١١٧]»[١] وهذه الأحاديث كلها في الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام، فيدل ذلك على أن الحوض حق وأنه واقع يوم القيامة، وهذا قبل انتقالهم إلى الجنة والنار، هذا في العرصات عند اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم، الناس يجتمعون في العرصات مؤمنهم وكافرهم وأسافلهم، الأنبياء الماضون كلهم مجتمعون، وقد جاء في بعض الروايات أن كل نبي له حوض ترده أمته[٢]، وحوض النبي ﷺ أعظمها وأكبرها وأوسعها، يرده أهل الإيمان من هذه الأمة، ويصد عنه أقوام أعرضوا عن دين الله وكفروا بالله، ولهذا يصدون عنه ويذادون عنه، نسأل السلامة والعافية.

والأقرب والله أعلم أنه قبل كل شيء، لأن الناس يقومون ظماءً عطاشا.أهـ

* * *

(١) رواه البخاري (٣٣٤٩) كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ و(٣٤٤٧) باب قول الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ و(٤٦٢٥ـ٤٦٢٦) كتاب التفسير/ باب ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ و(٤٧٤٠) باب ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾، ورواه مسلم (٢٨٦٠) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، والترمذي (٢٤٢٣) كتاب صفة القيامة/ باب ما جاء في شأن الحشر، والنسائي (٢٠٨٧) كتاب الجنائز/ ذكر أول من يكسى، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردةً، وإني لأرجو الله أن أكون أكثرهم واردة» أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٤٤) والترمذي (٢٤٤٣) كتاب القيامة/ باب ما جاء في صفة الحوض، وابن أبي عاصم في السنة ١/ ٧٣٤ وقال الألباني: حديث صحيح وإسناده ضعيف، لكن له شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة، وقد خرجتها مع الحديث في الصحيحة (١٥٨٩) انتهى، ورواه الطبراني في الكبير ٧/ ٢١٢.

والحوض في العرصات قبل الصراط، لأنه يختلج عنه ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: قد ارتد أناس بعده ﷺ في عهد الصديق من الأعراب وأشباههم، ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه ولم يعرف حقيقة الإسلام كما ينبغي، فلهذا ارتد جم غفير من العرب، وقالوا: لو كان نبياً ما مات، وجهلوا أو تجاهلوا أن الأنبياء قبله ماتوا عليهم الصلاة السلام، فجاهدهم الصديق رضي الله عنه والصحابة، وقتلوا من قتلوا على كفرهم وضلالهم، وهدى الله من هدى بعد ذلك من طوائف وقبائل العرب، من بني أسد ومن بني حنيفة ومن تميم ومن غيرهم من أبناء العرب وصنوف العرب، فهؤلاء المشار إليهم في الحديث.

وقد حملت الرافضة الحديث على خيار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير، وهذا من ضلالهم وجهلهم، بل إنهم هم الذين جاهدوا الكفار، هم الذين أرسوا دعائم الإسلام، هم الذين صبروا وجاهدوا، ولكن الرافضة من أجهل الناس وأضلهم.أهـ

❊ ❊ ❊

وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبدالله البجلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا فرطكم على الحوض»[1] والفرط: الذي يسبق إلى الماء. وروى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري، قال: قال رسول

(١) صحيح، متفق عليه، بل هو حديث متواتر، قد أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» عن تسعة من الصحابة (٧٣٦-٧٤٦) وزدت عليهم تسعة آخرين في «ظلال الجنة»(١/٣٤٧) مع تخريجها.أهـ ألباني

الله ﷺ: «إني فرطكم على الحوض، من مر علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم»[(١)] قال أبوحازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم. فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري، سمعته وهو يزيد: «فأقول: إنهم من أمتي فقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فقال: سحقاً سحقاً لمن غير بعدي» سحقاً: أي بعداً.

والذي يتخلص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر.

وفي بعض الأحاديث: أنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذه الإشارة الأخيرة تحتاج إلى نظر، في الأحاديث الصحيحة مما نعلم ليس فيها ذكر هذه الأشياء، وإنما يصب فيها ميزابان من الكوثر[(٢)]، ولا يزال عظيماً متسعاً يرده الناس، أما ما ينبت عليه من هذه الأشياء يحتاج إلى أحاديث صحيحة، يحتاج إلى أدلة صحيحة، لأن المقام ليس مقام سكنى، المقام

---

(١) صحيح، رواه مسلم أيضاً (٧/ ٦٦) وهو مخرج في «الظلال»(٧٤١، ٧٤٣).أهـ ألباني

(٢) رواه مسلم (٢٣٠١) كتاب الفضائل/ باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

مؤقت لأناس مؤقتين، ثم ينتقلون من هذا المكان العظيم إلى دورهم، ولكنه شراب طيب عظيم، فلا يستنكر أن ينبت عليه من الأشياء العجيبة، لكن إثباته يحتاج إلى دليل صحيح.

أما أبرد من الثلج لا أتذكرها الآن، لكن على كل حال هذه البرودة تليق بالمقام، إذا ثبت هذا في الحديث، فهذا يدل على أن برودته لا تمنعهم من الشرب ولا تؤذيهم، وهو وإن كان في الدنيا ثلج له شدة وله قوة، ولكن إن صحت اللفظة فهو برد لا يمنعهم، لأن أحوالهم في الآخرة غير أحوالهم في الدنيا، إن صحت اللفظة، أما قوله أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وريحه المسك وطوله شهر وآنيته عدد نجوم السماء، كل هذا ثابت(١). أهـ

* * *

وقد ورد في أحاديث: «أن لكل نبي حوضاً»، وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً(٢). جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

قال العلامة أبوعبدالله القرطبي رحمه الله في التذكرة: واختلف في الميزان والحوض: أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل: الميزان، وقيل:

(١) رواه البخاري (٦٥٧٩) كتاب الرقاق/ باب في الحوض من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما و(٦٥٨٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ورواه مسلم (٢٢٩٢) كتاب الفضائل/ باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، و(٢٣٠٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنها ، ورواه الترمذي (٢٤٤٤ـ٢٤٤٥) من حديث أبي ذر وثوبان رضي الله عنهما.

(٢) حسن، أخرجه الترمذي (٢/ ٦٧) طبع الهند، وقال: غريب، ثم ذكر أنه ورد مرسلا وقال: «وهو أصح» ورواه الطبراني أيضاً كما في «المجمع»(١٠/ ٣٦٣) وقال: «وفيه مروان بن جعفر السمري ،وثقه ابن أبي حاتم، وقال الأزدي: يتكلمون فيه، وبقية رجاله ثقات» ثم وجدت ما يقوي الحديث، فخرجته في الصحيحة (١٥٨٩).أهـ ألباني

الحوض. قال أبوالحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل.

قال القرطبي: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم، كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الظاهر والله أعلم أن العطش عام للمؤمنين وغيرهم، ولهذا يأتون إلى الحوض يشتهون الماء.اهـ

* * *

قال ابوحامد الغزالي رحمه الله، في كتاب كشف علم الآخرة: حكى بعض السلف من أهل التصنيف، أن الحوض يورد بعد الصراط، وهو غلط من قائله. قال القرطبي: هو كما قال،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لا شك أنه قبل الصراط، يأتيه الكافر والمسلم، لكن لا يمنع أن هناك حوضاً آخر بعد الصراط يرده المؤمنون عند القنطرة التي يقفون عندها ويحاسبون عندها، فإن المؤمنين إذا جاوزوا الصراط يقفون عند قنطرة بين الجنة والنار حتى يهذبوا وينقوا ويزال ما بينهم، ويدخلوا الجنة في غاية من الصفاء، صفاء القلوب وسلامتها، فإن ثبت شيء فهو هناك، إن ثبت شيء بعد الصراط فهو لأهل الإيمان خاصة.أهـ

* * *

ثم قال القرطبي: ولا يخطر ببالك أنه في هذه الأرض، بل في الأرض المبدلة، أرض بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد قط، تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء. انتهى .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨].أهـ

فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض، وأخلِقْ بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.

قوله: (والشفاعة التي ادخرها لهم حق، كما روي في الأخبار).

ش: الشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النوع الأول: الشفاعة الأولى، وهي العظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذه الشفاعة هي التي حصل فيها الإجماع بين أهل السنة وبين أهل البدعة، فهم مجمعون على هذه الشفاعة العظمى الأولى، وهي الشفاعة في أهل الموقف حتى يقضى بينهم، هذا قال به أهل السنة والجماعة وهكذا الخوارج والمعتزلة، ولم يختلف أهل القبلة فيها، لأن أمرها واضح، قد تواترت بها الأخبار عن رسول الله ﷺ ولهذا لم يستطيعوا أن ينكروها.أهـ

* * *

في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، أحاديث الشفاعة.

منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم، فدفع إليه منها الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون لم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في

صعيد واحد، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: جاء في الروايات الأخرى أن هؤلاء هم المؤمنون، الذي يتكلم بهذا الكلام هم أهل الإيمان، قال: فيفزعون ويقولون.أهـ

* * *

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبوالبشر، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا يدل على أنهم هم المؤمنون، هم الذين يعرفون هذه الأمور، أهل الإيمان هم الذين يعرفون هذه الأمور، أن الله خلقه بيده وأسجد له ملائكته.أهـ

* * *

فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي نفسي نفسي، اذهبوا

إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسي نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى: فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، قال: هكذا هو، وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ذنبك، ما تقدم منه وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم، فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، فيقول: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو

كما بين مكة وبصرى»[١].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني مسيرة شهر بين مصراعيه لسعة الباب، وليأتين عليه يوم مليء من الزحام لكثرة الداخلين، جعلنا الله وإياكم منهم.أهـ

❊ ❊ ❊

أخرجاه في الصحيحين بمعناه، واللفظ للإمام أحمد.

والعجب كل العجب، من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه، لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى، في مأتى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، كما ورد هذا في حديث الصور، فإنه المقصود في هذا المقام، ومقتضى سياق أول الحديث، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار، وكان مقصود السلف ـ في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث ـ هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم، فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث، وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصور، ولولا خوف الإطالة لسقته بطوله، لكن من مضمونه: أنهم يأتون آدم ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم يأتون رسول

(١) صحيح، وهو في المسند (٢/ ٤٣٥) بسند الصحيحين، وهو مخرج في «ظلال الجنة» في تخريج السنة (٨١١).أهـ ألباني

الله محمداً ﷺ، فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له: الفحص، فيقول الله: ما شأنك؟ وهو أعلم، قال رسول الله ﷺ: «فأقول: يا رب، وعدتني الشفاعة، فشفعني في خلقك، فاقض بينهم، فيقول سبحانه وتعالى: شفعتك، أنا آتيكم فأقضي بينهم، قال: فأرجع فأقف مع الناس، ثم ذكر انشقاق السموات، وتنزل الملائكة في الغمام، ثم يجيء الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، والكروبيون

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: المحيطون بالعرش يقال لهم الكروبيون، لقب لهم.أهـ

* * *

والملائكة المقربون يسبحون بأنواع التسبيح، قال: فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يقول: إني أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع أقوالكم، وأرى أعمالكم، فأنصتوا إلي، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، إلى أن قال: فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة، قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة؟ فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم، إنه خلقه الله بيده، ونفخ فيه روحه، وكلمه قبلاً، فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه، وذكر نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمد ﷺ.. إلى أن قال: قال رسول الله ﷺ: فآتي الجنة، فآخذ بحلقة الباب، ثم استفتح، فيفتح لي، فأحيا ويرحب بي، فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربي عز وجل خررت له ساجداً، فيأذن لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول الله لي: ارفع يا محمد، واشفع تشفع، وسل تعطه، فإذا رفعت رأسي، قال الله ـ وهو أعلم ما شأنك؟ فأقول: يا رب،

وعدتني الشفاعة، فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة، فيقول الله عز وجل: قد شفعتك، وأذنت لهم في دخول الجنة...» الحديث[١]. رواه الأئمة: ابن جرير في تفسيره، والطبراني، وأبويعلى الموصلي، والبيهقي وغيرهم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: حديث الصور هذا فيه ضعف عند أهل العلم، لأن فيه إسماعيل بن رافع الأنصاري، ضعيف عندهم، لكنه كأنه جمعه من روايات كثيرة من القصاص، لعله جمعه من روايات كثيرة، فلا يقتضي خروجه من طريق واحد، إنما المحفوظ ومما جاء فيه مسألة الشفاعة العظمى للاستراحة، وجاء فيه أيضاً ثلاث نفخات، تقع في النفوس نفختان، نفخة الفزع والصعق، والثالثة نفخة البعث والنشور، هذا هو الموجود في القرآن العظيم وفي الأحاديث الصحيحة نفختان، لكن زاد بعد نفخة الصور نفخة ثالثة، وزاد تفسير الشفاعة العظمى وهو ليس بذاك، ولا منافاة، فإن شفاعته وقوله «**أمتي أمتي أمتي**» لا يمنع أن تكون شفاعته في الموقف، لأن منهم أمته، «**ويقضى ما بينهم**» معناه: القضاء بين الناس، لأنهم أفضل أمة من الأمم قد وقفت في هذا الموقف العظيم، فالشفاعة لأمته حين يقول: «**أمتي أمتي أمتي**» معناه الشفاعة للجميع، فليس هناك ما يوجب أن هناك حذفاً، فالحاصل أن قوله

---

(١) ضعيف، أخرجه ابن جرير في تفسيره كما ذكر الشارح (٢/ ٣٣٠-٣٣١) و(٢٤/ ٣٠، ١٨٦، ١٨٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وإسناده ضعيف لأنه من طريق إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد بن أبي زياد، وكلاهما ضعيف بسندهما عن رجل من الأنصار، وهو مجهول لم يسم، وقول الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٤٨ و٤/ ٦٣): إنه حديث مشهور..إلخ، لا يستلزم صحته كما لا يخفى على أهل العلم.أهـ ألباني

«أمتي أمتي» أنهم الأهم والباقي تبع، فلهذا قال «أمتي أمتي» ، ثم شفعه الله في الجميع وقضى بين العباد سبحانه وتعالى، فشفاعته في أمته معناه شفاعته في الجميع، شفاعته في أن يقضى بين الناس.

الشفاعة في دخول أهل الجنة الجنة من خصائصه، الشفاعة العظمى أولاً، والشفاعة في أهل الجنة بعد الشفاعة الثانية، بعد القضاء بين الناس، الشفاعة في دخول أهل الجنة هي النوع الثاني من أنواع الشفاعة الخاصة له، والنوع الثالث شفاعته في أبي طالب، هذه الثلاث خاصة به، والبقية مشتركة.أهـ

* * *

النوع الثاني والثالث من الشفاعة: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار، أن لا يدخلونها.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذه ليست من خصائصه، هاتان الشفاعتان ليستا من خصائصه ﷺ، بل له ولغيره، الشفاعة لمن استوت حسناتهم وسيئاتهم، وفيمن استحقوا النار ألا يدخلوها، فيها الأفراط وفيها الملائكة وفيها الصالحون.أهـ

* * *

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث فيها.

النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن، حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير

حساب[١]، والحديث مخرج في الصحيحين.

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه[٢].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا خاص به، النوع الأخير خاص به عليه الصلاة والسلام وهو الشفاعة في أبي طالب، وهذا مستثنى من قوله جل وعلا ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر:٤٨] يعني الكفرة، وقوله جل وعلا ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨] هذه الآيات عامة، جاء ما يدل على استثناء أبي طالب منها، في التخفيف عنه فقط.أهـ

* * *

ثم قال القرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع: فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ﴾ قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا تأويل، والمعنى الثاني الاستثناء، ومعناه واضح ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ ﴾ [المدثر:٤٨] يعني نفعاً كاملاً، من باب نفع الخاص مثل ما قال المؤلف، التخفيف ليس نفعاً كاملاً.أهـ

* * *

(١) صحيح، متفق عليه، وهو الذي فيه قوله ﷺ: «سبقك بها عكاشة».أهـ ألباني

(٢) رواه مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدري وغيره، وقد خرجته في «الأحاديث الصحيحة» (٥٤ـ٥٥).أهـ ألباني

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، كما تقدم، وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول شفيع في الجنة»(١).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وفي رواية أخرى «أنا أول شافع وأول مشفع» وهذا أعم، يعني أول شافع للشفاعة العظمى عليه الصلاة والسلام. أهـ

* * *

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا أيضاً ليس خاصًا به ﷺ بل هو عام، يشفع فيهم الأنبياء والصالحون والملائكة والأفراط، وحظه من كل شيء أكبر عليه الصلاة والسلام، لكنه ليس خاصًا به عليه الصلاة والسلام، في الحديث الصحيح أنه قال: «يحد لي حدًّا فأخرجهم من النار ثم حدًّا ثم حدًّا» أربع مرات. أهـ

* * *

وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك، جهلاً منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ظنوا بالتخليد

---

(١) وأخرجه أحمد أيضاً (٣/ ١٤٠) وغيره، المصدر السابق برقم (١٥٧٠). أهـ ألباني

لجهلهم، وعقلاؤهم بلغتهم الأحاديث الصحيحة، أنه يشفع في أهل الكبيرة، ولكن أتباعهم لم يزالوا لا يؤمنون بهذا، فقد بلغتهم الأحاديث، لكن ظنوا لجهلهم أنها تخالف القرآن، قالوا إن الله يقول في القرآن ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٧] فظنوا أن هذه الآيات في العصاة، هذا من جهلهم، هذه الآيات في الكفار، هم الذين لا يخرجون من النار ولهم عذاب مقيم، أما العصاة فقد تواترت الأخبار بأنهم مهما طال مكثهم في النار فإنهم لا يخلدون تخليداً كاملاً، بل لابد لهم من خروجهم من النار للنصوص المتواترة، حتى ولو أطلق على معصيتهم الخلود، مثل ما في قاتل المؤمن بغير حق، قال الله ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ [النساء:٩٣] وقال فيمن يقتل نفسه أنه يعذب في النار خالداً مخلداً فيها[1]، هذا الخلود ليس هو خلود الكفار، بل هو خلود خاص، فالعرب تسمي الإقامة الطويلة خلوداً، مُقامك أَخلَدُ، يعني طوّل، سموا الإقامة الطويلة خلوداً، فكلما عظم الذنب واشتد قبحه صارت إقامته في النار أكثر، ومعلوم أن قتل النفس بغير حق من الكبائر العظيمة، فلهذا وصف أهلها بالخلود في النار، ولكنه خلود غير خلود الكفار.

فالخلود خلودان: خلود ليس معه خروج، بل هو خلود دائم أبد الآباد، فهذا خلود الكفار الذين قال الله فيهم ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ

---

(١) رواه مسلم (١٠٩) كتاب الإيمان/ باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، والترمذي (٢٠٤٣-٢٠٤٤) كتاب الطب/ باب: ما جاء فيمن قتل نفسه بسم أو غيره، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة:٣٧] وقال في حقهم ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء:٩٧] وقال في حقهم ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النبأ:٣٠] وقال في حقهم ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:١٦٧] هؤلاء هم الكفرة .

أما العصاة فخلودهم غير خلود الكفار، خلودهم مؤقت، يسمى خلوداً لطوله ولكنه ينتهي، هذا هو ما جاءت وتواترت به الأخبار عنه عليه الصلاة والسلام، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة، أجمع أهل السنة والجماعة على ذلك، بخلاف الخوارج الجهلة والمعتزلة.أهـ

* * *

وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً، وهذه الشفاعة تتكرر منه ﷺ أربع مرات، ومن أحاديث هذا النوع، حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[1] رواه الإمام أحمد رحمه الله، وروى البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزي، قال: اجتمعنا، ناس من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معنا بثابت البناني إليه، يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي الضحى، فاستأذنا، فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة، جاؤوك

---

(١) صحيح، وله طرق وشواهد «المشكاة» (٥٥٩٨،٥٥٩٩) وهو مخرج في «ظلال الجنة»(٨٣١،٨٣٢).أهـ ألباني

يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد ﷺ، قال: «إذا كان يوم القيامة، ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله، فيأتون موسى، فيقول: لست لها، لكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بـ محمد ﷺ، فيأتوني، فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها، لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعط، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعط، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل» قال: فلما خرجنا من عند أنس، قلت لبعض أصحابنا لو مررنا بالحسن، وهو متوار في منزل أبي خليفة، فحدثناه بما حدثنا به أنس بن مالك، فأتيناه، فسلمنا عليه، فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد، جئناك من عندك أخيك أنس بن مالك، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة، فقال: هيه؟ فحدثناه بالحديث، فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه؟ فقلنا لم يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثني وهو

جميع، منذ عشرين سنة، فما أدري، أنسي أم كره أن تتكلوا؟ فقلنا: يا أبا سعيد، فحدثنا، فضحك وقال: خلق الإنسان عجولاً! ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم، حدثني كما حدثكم به، قال: «ثم أعود الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي، لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله»[1] وهكذا رواه مسلم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: قوله حدثني وهو جميع يعني وهو مستكمل القوى، قبل شدة الشيخوخة، لأنه رضي الله عنه وأرضاه عاش إلى مائة سنة وسنتين أو ثلاث، وكان مجيء معبد بن غيلان وأصحابه في آخر حياته رضي الله عنه وأرضاه.

وهذه أربع شفاعات يحد الله له فيه حدًّا، حده الأول بالشعيرة، ثم بحبة الذرة أو الخردلة، ثم بأدنى أدنى حبة خردل، ثم بمن قال لا إله إلا الله في الرابعة التي قال لهم الحسن، والمعنى قالها وهو موحد، إذا قالها وأدى المعنى، وحد الله ولم يقلها ونقضها، بخلاف اليهود والمنافقين ومن شايعهم ممن يقول لا إله إلا الله ولكنه ينقضها بكفره وعناده، فإنها لا تنفعه هذه الكلمة ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء:١٤٥] فهم يقولون لا إله إلا الله ويقولون نشهد أن محمداً رسول الله لكن يقولونها كذباً ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٦٧] نسأل الله العافية.

---

(١) صحيح، كما ذكر المؤلف رحمه الله، من حديث أنس. أهـ ألباني

وفي هذا الحديث، حديث الإمام أحمد دلالة على أنه يشفع في أهل الكبائر، لأنه إنما يدخل النار أهل الكبائر، أما أهل الصغائر فإنه تغفر لهم سيئاتهم بما تجنبوا من الكبائر، كما قال عز وجل ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء:٣١] وفي الحديث الصحيح «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن ما لم تغش الكبائر**»(١) فدل ذلك على أن الذي يدخل النار هم أهل الكبائر، والنبي يشفع فيهم كل شفاعاته، فله الشفاعة العظمى في أهل الموقف، وله الشفاعة في أهل الجنة حتى يدخلوها، وله الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وله الشفاعات الأخرى السابقة، والشفاعة في أبي طالب بالتخفيف، وله هذه الشفاعة في أهل الكبائر، والشفاعة في أهل الكبائر هي الشفاعة التي فيها إخراجهم من النار، بخلاف أهل الإيمان والتوحيد والسلامة، فإن توحيدهم وإيمانهم وسلامتهم من الكبائر تغنيهم عن الشفاعة في دخول الجنة وفي استحقاق الجنة، وإن كانوا مع أهل الشفاعة في الإذن بالدخول.

وفي هذا من الفوائد أيضاً أن الإيمان قد ينقص ويتضاءل حتى يكون أقل من شعيرة وأقل من خردلة وأقل من ذرة في القلب لضعفه، ولهذا يدخل النار صاحبه بسبب تعاطيه الكبائر من الزنا والسرقة والربا وشرب الخمور وأشباهها من الكبائر التي تضعف الإيمان، حتى لا يقوى صاحبها على الامتناع منها، بل شهوته تغلبه على اقتراف هذه الكبائر لضعف الإيمان الرادع.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣)كتاب الطهارة/ باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم هذه الشفاعة لاتخصه عليه الصلاة والسلام، بل يشاركه فيها غيره من أهل الإيمان والملائكة والأفراط والرسل الآخرين.أهـ

وروى الحافظ أبو يعلى عن عثمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء**»(١).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وجاء في الحديث الصحيح يشفع المؤمنون عموما من العلماء والشهداء وغيرهم، يقول النبي ﷺ: «**يقول الله: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين**»(٢) سبحانه وتعالى، فيخرج من كان في النار من بقايا أهل التوحيد، الذين يقولون لا إله إلا الله وليس عندهم خير سوى نطقهم بهذه الشهادة، مع ما عندهم من توحيد وإيمان تمنعهم من مشابهة اليهود والمنافقين، فيخرجهم الله وهم آخر من يبقى في النار، آخر من يبقى في النار من أهل التوحيد، يخرجهم الله برحمته بعد شفاعة الشفعاء، ممن كان معدودا من أهل التوحيد ليس من أهل الشرك.

ورواية أبي يعلى لو صحت لا تخرج عن الأحاديث الصحيحة، لأن العلماء والشهداء من خواص المؤمنين.

وتارك الصلاة كافر عند المحققين من أهل العلم، أما تارك الزكاة

---

(١) موضوع، رواه ابن ماجه (٤٣١٣) والعقيلي في الضعفاء، ص (٣٣١) في ترجمة عنبسة بن عبد الرحمن القرشي، وقال: «لا يتابع عليه» وروي عن البخاري أنه قال: تركوه، وقال أبوحاتم: كان يضع الحديث، وهو مخرج في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»(١٩٧٨).أهـ ألباني.

وقال شاكر: هو حديث ضعيف جدا، في إسناده عنبسة بن عبد الرحمن الأموي، وهو واهي الحديث، رمي بالكذب والوضع.أهـ

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها/ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، وأحمد (٣/ ٩٤).

فالصواب أنه ليس بكافر ولكنه عاص معصية كبيرة، ولهذا يعاقب يوم القيامة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، والصيام كذلك والحج كذلك، إنما الخلاف الكبير في الصلاة، فذهب قوم من أهل العلم - وهم أهل التحقيق - إلى كفره، للأحاديث الصحيحة التي وردت في ذلك، وإن لم يجحد وجوبها، أما إذا جحد وجوها فهو كافر عند الجميع.

وقال آخرون: إنه إذا لم يجحد وجوبها يكون كفره كفراً دون كفر، وهو المشهور من مذاهب الأئمة الثلاثة مالك وأبي حنيفة والشافعي، المشهور من مذاهبهم أنه كافر كفراً دون كفر، يصلى عليه ويغسل، ولا يكون كافراً كفراً أكبر.

والأقرب والأظهر قول من قال إنه كفر أكبر.

وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧] من كفر يعني بجحده، جحد وجوبه وإنكاره لا بتأخيره، عند أهل العلم من كفر بجحده وإنكار وجوبه، أما من أقر به ولكنه تساهل فالمشهور عند أهل العلم أنه لا يكون كافراً بل يكون عاصياً، أما أثر عمر «ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين»(١) في صحته نظر، ولو صح فهو من باب الوعيد.أهـ

* * *

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً، قال: «فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري عن عمر ١/ ٢٩٣ وقال: وفيه انقطاع.

يعملوا خيرا قط»[1]، الحديث.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: في لفظ آخر «إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله».أهـ

* * *

ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال: فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم، يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا، والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لأن عقيدتهم أن من دخل النار لا يخرج منها، هذه عقيدة المعتزلة والخوارج، من دخلها لا يخرج، ويتأولون قوله تعالى ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٧] قالوا: هذا يعم من كفر ويعم أهل الكبائر، وهم كفار عند الخوارج، ولهم حكم الكفار عند المعتزلة، قولهم باطل، غلو وإفراط، بل هم تحت مشيئة الله، وأهل السنة والجماعة على خلاف قولهم.أهـ

* * *

وأما أهل السنة والجماعة، فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حداً، كما في الحديث الصحيح، حديث الشفاعة: إنهم يأتون آدم، ثم نوحاً، ثم

(١) صحيح، أخرجه مسلم (١/ ١١٥-١١٦) وأحمد (٣/ ٩٤).أهـ ألباني

إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيقول لهم عيسى عليه السلام: «اذهبوا إلى محمد، فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأذهب، فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً، فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي، لا أحسنها الآن، فيقول: أي محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأقول: ربي: أمتي، فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أنطلق فأسجد، فيحد لي حداً»[1] ذكرها ثلاث مرات.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الصواب أنه ذكرها أربع مرات، كما في رواية أنس من طريق الحسن، أربع مرات.أهـ

* * *

وأما الاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الدعاء، ففيه تفصيل: فإن الداعي تارة يقول: بحق نبيك أو بحق فلان، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين:

أحدهما: أنه أقسم بغير الله.

والثاني: اعتقاده أن لأحد على الله حقاً.

ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهناك وجه ثالث، وهو أن الدعاء من الأمور التوقيفية، كيفيات الدعاء والوسائل التي شرعها الله تتوقف على النقل، لا يجوز لأحد أن يجعل شيئاً من الوسائل ـ يطوّل

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.أهـ ألباني

الدعاء أو يكرر الدعاء - إلا بنص، فالأمور التوقيفية ليس لأحد التدخل فيها، والله شرع لنا التوسل بأسمائه وصفاته وبالأعمال الصالحة، فليس لأحد أن يزيد وسيلة أخرى، بحق فلان أو بجاه فلان إلا بدليل، ولم يرد دليل يدل على أن التوسل بالجاه أو بحق فلان مما شرعه الله، بل ذلك من البدع، ولهذا ذكر المؤلف وغيره إنكار هذه الوسيلة، التوسل بحق فلان أو بفلان، ذات فلان أو بحقه، فليس له أصل، فإذا دعي إقساماً على الله نهي عنه من باب أنه إقسام على الله، والإقسام في المخلوق، وأيضاً اعتقاد أن للمخلوق حقاً على الله، والله جل وعلا ليس عليه حق لأحد إلا ما جعله حقاً سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧] ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:١٢] **«حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»**(١) وما أشبه ذلك مما جاءت به النصوص.أهـ

* * *

وكذلك ما ثبت في الصحيحين من قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه، وهو رديفه: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقهم عليه أن لا

---

(١) رواه البخاري (٢٨٥٦) كتاب الجهاد والسير/ باب: اسم الفرس والحمار، و(٦٢٦٧) كتاب الاستئذان/ باب من أجاب بلبيك وسعديك، و(٦٥٠٠) كتاب الرقاق/ باب من جاهد نفسه في طاعة الله، و(٧٣٧٣) كتاب التوحيد/ باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ومسلم (٣٠) كتاب الإيمان/ باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

يعذبهم»[١] فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير، وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به، ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به، لأن السبب هو ما نصبه الله سبباً.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذه إشارة إلى الوجه الثالث، أنه لم يشرع جعله سبباً.أهـ

* * *

وكذلك الحديث الذي في المسند من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ، في قول الماشي إلى الصلاة: «أسألك بحق ممشاي هذا، وبحق السائلين عليك»[٢]،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا الحديث معروف ما فيه من ضعف، لكن لو صح فليس فيه إلا مجرد حق السائلين وحق الماشين، حق السائلين معناه الإجابة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦] وحق الماشين في طاعة الله الإثابة، فلو صح فهو توسل بصفات الله، لا بحق المخلوق الذي ليس له أصل، بل هو سؤال بحق السائلين وهو الإجابة، وحق الماشين في طاعة الله وهو الإثابة، لكنه ضعيف الإسناد.أهـ

* * *

(١) متفق عليه، حديث ابن عباس خرجته في «الإرواء»(٨٥٥).أهـ ألباني

(٢) ضعيف، وقد فصلت القول في ذلك في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (٢٤).أهـ الباني

فهذا حق السائلين، هو أوجبه على نفسه، فهو الذي أحق للسائلين أن يجيبهم، وللعابدين أن يثيبهم، ولقد أحسن القائل:

ما للعباد عليه حق واجب كلا، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا فبفضله وهو الكريم السامع

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: «وهو الكريم الواسع» «الواسع»: هذا هو المعروف.أهـ

* * *

فإن قيل: فأي فرق بين قول الداعي: «بحق السائلين عليك» وبين قوله: «بحق نبيك» أو نحو ذلك؟ فالجواب: أن معنى قوله: «بحق السائلين عليك» انك وعدت السائلين بالإجابة، وأنا من جملة السائلين، فاجب دعائي، بخلاف قوله: «بحق فلان» فإن فلاناً وإن كان له حق على الله بوعده الصادق ـ فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل، فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعاي ! وأي مناسبة في هذا واي ملازمة؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء ! وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، ولم ينقل عن النبي ﷺ، ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة رضي الله عنهم، وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطرقية .

والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتباع، لا على الهوى والابتداع .

وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان، فذلك محذور أيضاً، لأن الإقسام بالمخلوق لا يجوز، فكيف على الخالق ؟! وقد قال ﷺ: «من

حلف بغير الله فقد أشرك»[١].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ورواه أبوداود والترمذي أيضاً بإسناد جيد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما[٢].أهـ

❊ ❊ ❊

ولهذا قال أبوحنيفة وصاحباه رضي الله عنهم: يكره أن يقول الداعي: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام، والمشعر الحرام، ونحو ذلك، حتى كره أبوحنيفة ومحمد رضي الله عنهما أن يقول الرجل: اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك، ولم يكرهه أبويوسف رحمه الله لما بلغه الأثر فيه[٣]

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الأثر ليس بصحيح، ما فيه أثر صحيح، ولهذا كرهه أبوحنيفة رحمه الله، يقال: «معقد» ويقال: «معاقد العز من عرشك» فإذا أريد به اسمه هو سبحانه وتعالى فيسأل بعزته، كما جاء بها النص «بعزة الله» ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أما «معاقد» فلم ترد بهذا اللفظ.أهـ

❊ ❊ ❊

وتارة يقول: بجاه فلان عندك، يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك، ومراده أن فلاناً عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعاءنا،

---

(١) صحيح، رواه أحمد والحاكم وصححه، «الإرواء»(٢٥٦١).أهـ ألباني

(٢) رواه أبوداود (٣١٢١) كتاب الأيمان والنذور/ باب: في كراهية الحلف بالآباء، والترمذي (١٥٣٥) كتاب النذور/ باب ما جاء في أن من حلف بغير الله فقد أشرك، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) قلت: هو حديث مرفوع موضوع، كما بينه الزيلعي في «نصب الراية»(٤/ ٢٧٣).أهـ ألباني

وهذا أيضاً محذور، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه في حياة النبي ﷺ لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه، يطلبون منه أن يدعو لهم، وهم يؤمنون على دعائه، كما في الاستسقاء وغيره، فلما مات ﷺ قال عمر رضي الله عنه لما خرجوا يستسقون: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا»[١] معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله، ليس المراد أنا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبي ﷺ أعظم وأعظم من جاه العباس ..

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ولو كان المراد بالذات لكانت ذات النبي أفضل أيضاً، فيتوسلون بالدعاء لا بالذات والجاه، لو كان التوسل في حياته بالجاه وبالذات لكان بعد وفاته كذلك، إذ ذاته وجاهه لم يزالا عظيمين، وإنما كان التوسل بدعائه وشفاعته وهم يُؤَمِّنون، وهكذا ما جرى للأعمى في حديث الأعمى، هو توسل بدعاء النبي وشفاعة النبي ﷺ له[٢].

فالشفاعة لا تطلب من الأنبياء ولا من المؤمنين بعد وفاتهم، وإنما تطلب من الله، فتقول: اللهم شفع فيّ نبيك وعبادك المؤمنين، اللهم لا تخيب شفاعتهم، ولا تطلب من الأموات كما يفعله عباد القبور، يقولون

---

(١) رواه البخاري (١٠١٠) كتاب الاستسقاء/ باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، ورواه الخلال في السنة (٢٧) ١/ ٩.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٣٨، والترمذي (٣٥٧٨) كتاب الدعاء/ باب، من حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وكذا رواه ابن ماجه ١/ ٤٤١ (١٣٨٥) والطبراني في الكبير ٩/ ١٧ رقم (٨٣١١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٧٩).

للنبي ﷺ أو فلان أو فلان: اشفع لنا عند ربك، هذا لا يجوز، لأنه بعد الموت انقطع هذا العمل، فالشفاعة إنما تكون في حال الحياة، في الدنيا، وهكذا بعد الحياة يوم القيامة، أما في حال الموت فلا ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٤٤] فالميت انقطع عمله إلا من ثلاث «**صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**»(١) فلا تطلب من الأموات، لا من الرسل ولا من غيرهم، وإنما تطلب من الله جل وعلا، لكن الحي لا بأس، تقول للحي: يا أخي اشفع لي، سل الله لي، ادع الله لي، يوم القيامة يفزع الناس ويفزع المؤمنون ويأتون آدم إلى آخره، لأنهم أحياء ذلك الوقت حياة أعظم من حياتهم في الدنيا، وحديث عمر أخرجه البخاري في صحيحه.أهـ

* * *

وتارة يقول: باتباعي لرسولك ومحبتي له وإيماني به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم، ونحو ذلك، فهذا من أحسن ما يكون في الدعاء والتوسل والاستشفاع.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال، غلط بسببه من لم يفهم معناه، فإن أريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً، وهذا في حياته يكون، أو لكون الداعي محباً له، مطيعاً لأمره، مقتدياً به، وذلك أهل للمحبة والطاعة والاقتداء، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبة السائل واتباعه، أو يراد به الاقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه.

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية/ باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك السؤال بالشيء، قد يراد به التسبب به، لكونه سبباً في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأول: حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار، وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم، فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة، وكل واحد منهم يقول: فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[1] فهؤلاء: دعوا الله بصالح الأعمال، لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله، ويتوجه به إليه، ويسأله به، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

فالحاصل أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر، فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شفعة في الطلب، بمعنى أنه صار شفعاً فيه بعد أن كان وتراً، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه، وبشفاعته صار فاعلاً للمطلوب، فقد شفع الطالب والمطلوب منه،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني أنه ساعد الطالب بالشفاعة وساعد المطلوب، لأن المطلوب منه قد يخافه وقد يخشى من رده، فلهذا قد يجيبه الشفاعة خوفاً أو طمعاً، والله لا يخاف أحداً ولا

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر. اهـ الباني

والحديث رواه البخاري (٢٢١٥) كتاب البيوع/ باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي، و(٢٣٣٣) كتاب الحرث والمزارعة/ باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم وكان في ذلك صلاح لهم، و(٣٤٦٥) كتاب أحاديث الأنبياء/ باب حديث الغار، و(٥٩٧٤) كتاب الأدب/ باب إجابة دعاء من بر والديه، ورواه مسلم (٢٧٤٣) كتاب الرقاق/ باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يطمع بأحد، وإنما يجيب الشافع فضلا منه سبحانه وتعالى، فلا يستويان. أهـ

* * *

والله تعالى وتر، لا يشفعه أحد، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالأمر كله إليه، فلا شريك له بوجه، فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله: ارفع رأسك، وقل يسمع، واسأل تعطه، واشفع تشفع، فيحد له حداً فيدخلهم الجنة، فالأمر كله لله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فإذا كان لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته، كما قال ﷺ: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء»[1] وفي الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «يا بني عبدمناف، لا أملك لكم من الله شيئاً، يا صفية يا عمة رسول الله ﷺ لا أملك لك من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله، لا أملك لك من الله شيئاً»[2].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: قد أبلغ وأنذر عليه الصلاة والسلام، حتى لا يتعلق أولئك في القرابة، يقولون: هو قريبنا فيكفي، كما يظنه الجهال في قراباتهم، ولا سيما من ينتسب إلى النبي ﷺ ويظنون أن هذا الانتساب يكفيهم وإن أساءوا الأعمال، وإن ضلوا وأشركوا، وهذا من الجهل العظيم، ولهذا أبدى وأعاد عليه الصلاة والسلام في بيان أن هذه القرابة لا تكفي، بل لابد من العمل، ولهذا قال:

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى، وهو مخرج في الصحيحة (١٤٦٤). أهـ ألباني

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١٣٣) من حديث أبي هريرة بأتم منه مركباً من روايتين عنه. أهـ ألباني

«اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً» والله جل وعلا قال: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١] وقال عز وجل ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣] وقال ﷺ: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1] والأنساب لم يعلق الله بها النجاة، وإنما علق ذلك بالإيمان والعمل الصالح، فالأنساب والأموال والصحبة والخلة ونحو ذلك لا تنفع أهلها إلا ما كان لله وفي الله ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧] فالمحبة والإخاء والصداقة والأنساب والأموال وأشباه ذلك؛ كلها لا تغني عن أهلها شيئاً إلا إذا صرفوها في طاعة الله، واستعملوها في مرضاة الله، وصارت المحبة والصداقة في سبيل الله وفي طاعة الله سبحانه وتعالى.

والتوسل بأسمائه من أعظم الوسائل ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠] لكن نتكلم في مسألة ما يتعلق بالناس، بالمخلوقين، بأعمالهم ودعائهم وذواتهم وحقهم، أما يتعلق بالله فله الأسماء الحسنى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠] فالتوسل يكون بأسماء الله ويكون بتوحيده ويكون بالأعمال الصالحات ويكون بدعائه، يستشفع به، كل هذه وسائل.

وقوله: «والله تعالى وتر لا يشفعه أحد» مقصوده أن الشفيع شفع للداعي، والله جل وعلا لا شفع له، بل هو وتر دائماً دائماً، فلا يخاف

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩)كتاب الذكر والدعاء/ باب:فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ورواه أبوداود (٣٤٩٦)كتاب العلم/ باب الحث على طلب العلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أحداً ولا يرجو أحداً، ولا يكون الشافع شفعاً له، بل شفعاً للسائل فقط.

وإطلاق الوتر هذا من أسماء الله، في الحديث الصحيح: «إن الله وتر يحب الوتر»[1] .أهـ

* * *

وفي الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ: «لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، أو شاة لها يعار، أو رقاع تخفق، فيقول: أغثني أغثني، فأقول: قد أبلغتك، لا أملك لك من الله من شيء»[2] فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به: لا أملك لكم من الله من شيء فما الظن بغيره؟ وإذا دعاه الداعي، وشفع عنده الشفيع، فسمع الدعاء، وقبل الشفاعة، لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق، فإنه سبحانه وتعالى هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع، وهو الخالق لأفعال العباد، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه، وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر، وأن الله خالق كل شيء.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا بحث جيد في مسألة الوسيلة، رحمه الله وجزاه خيراً.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٧)كتاب الذكر والدعاء/ باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٢٦٦) ومسلم (٦/ ١٠) وأحمد (٢/ ٤٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.أهـ ألباني

قال شاكر: هو مختصر معنى حديث صحيح، رواه أحمد في المسند ٩٤٩٩، ورواه مسلم في صحيحه ٢/ ٨٣، ورواه أيضاً البخاري وغيره.أهـ

لم يذكروا الوسائل من باب الفروع، لكن لها صله بالعقيدة لأنها قد تجر إلى الشرك، الوسائل المبتدعة قد تجر إلى الشرك، وإلا فهي من باب الفروع، فاتصالها بالعقيدة لأنها قد تكون وسيلة، لأنه يتوسل بالجاه بجاه فلان، ثم غداً يدعوه ويستغيث به، فهو معروف عند العامة، التوسل بجاه فلان وحق فلان وسيلة للشرك به، لأنهم إنما توسلوا بجاهه وحقه لأنه عندهم عظيم، ولما استقر في قلوبهم عظمته؛ جرهم الشيطان من هذا إلى أن يدعوه ويستغيثوا به ويطلبوه المدد، فكما أنه بدعة ـ التوسل بجاه فلان أو فلان ـ فهو أيضاً من وسائل الشرك، هو بدعة ومن وسائل الشرك، مثل ما أن البناء على القبور والمساجد عليها وتجصيصها وأشباه ذلك هو بدعة وهو من وسائل الشرك أيضاً، لأنهم لما بنوا عليها وعظموها، وقع في قلوب العامة من تزيين الشيطان أن أهلها يعظمون بالدعاء والاستغاثة وطلب المدد، فوقع الشرك، ولهذا قال العلماء: إن البدعة أحب إلى الشيطان من كبائر الذنوب، وأنها في مرتبة بين الشرك وبين الكبائر، فأعظم الذنوب الشرك الأكبر بالله، وما يليه من الشرك الأصغر، ثم البدعة، فهي في مرتبة تلي الشرك، ثم الكبائر ثم الصغائر.

ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه «مفتاح دار السعادة» وفي غيره أن للشيطان عقبات، يقف للمسلم في كل عقبة يصده بها عن الحق، فأول عقبة الشرك، يصده بها عن التوحيد ويجاهده حتى لا يوحد الله، فإن عافى الله المسلم من ذلك وأعانه على التوحيد، وقف له في البدع، فدعاه إلى البدعة وزينها له، لعلمه بأنها تجره إلى الشرك وتجره إلى الكفر، فإذا اجتنب المؤمن البدعة ووقاه الله منها وأعانه على عدوه؛ وقف له في مرتبة ثالثة وهي الكبائر، ويقال لها العقبة الثالثة، وهي عقبة يجره بها ويصيده فيها ليحبط أعماله وليضعف إيمانه، فيزين له الكبائر ويدعوه إليها،

ويقول: إن الله غفور رحيم، مادام معك إيمان لا تضرك المعاصي، فيزين له الزنى والخمر وسائر أنواع الكبائر، ولا سيما ما له منه حظ وشهوة، فإن ظفر به فهذا هو المطلوب، وإن لم يظفر به وأنجاه الله منه جاءت العقبة الرابعة وهي الصغائر، فيدعوه إليها ويقول: إنها مغفورة، إنها بجنب الكبائر مغفورة، فيزين له الذنوب التي لا يظهر أنها من الكبائر، فإن عجز عنه وسلمه الله من ذلك وقف له في المكروهات، وصار يدعوه إلى المكروهات والمشتبهات حتى يجره بها إلى المعاصي، فإن سلم من المكروهات والمشتبهات؛ وقف له في شغله بالمفضول عن الفاضل، فيدعوه إلى المفضول حتى يضيع الفاضل، فيدعوه إلى أن يشتغل بالعبادة وقراءة القرآن ويدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقول له: إن هذا فيه كفاية، أن تعبد ربك وتصلي وتقرأ وتجلس في المسجد وفي بيتك، ولا يلزم أن تذهب مع الناس في الدعوة إلى الله وإنكار المنكر وكذا وكذا، فيثبطه، فإذا لم يستطع ذلك شغله بالفضول والمباحات وأنواع الشهوات المباحة ليصده بهذا عن العمل الذي يرضي الله ويقربه إليه.

قال أيضاً: وقد يحرك عليه الناس حتى يشغلوه عن طاعة ربه وعما أوجبه الله عليه، يحرك عليه الناس، يسبب له كثرة الأعداء وكثرة المشاغبين وكثرة المؤذين، حتى يثبطوه عما هو فيه من الخير والعلم والهدى، هذا كله واقع، من تأمل أحوال الناس وتأمل الشيطان وتأمل مكائده وطرقه الخبيثة وخطواته، ظهر له ما ذكره ابن القيم رحمه الله وغيره في هذه العقبات.أهـ

* * *

قوله: (والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق).

ش: قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم:

فمنها: ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: واد في عرفات.أهـ

* * *

يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾.. إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾»[1] ورواه النسائي أيضاً، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه سئل عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال:

(١) صحيح لطرقه وشواهده، وهو مخرج في الصحيحة (١٦٢٣).أهـ ألباني

وقال شاكر: هو في المسند بتحقيقنا ٢٤٥٥، تفسير الطبري ٩/ ٧٥-٧٦ (طبعة بولاق) ومجمع الزوائد ٧/ ٢٥ و٧/ ١٨٨-١٨٩ ونقله ابن كثير في التفسير ٣/ ٥٨٤-٥٨٥ وفي التاريخ ١/ ٩٠.أهـ

خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل: يا رسول الله، فقيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار»[1] ورواه أبوداود، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن حبان في صحيحه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: له عدة روايات، وهو لا شك صحيح، أشهر رواياته فيها انقطاع، والذي ثبت عن عمر رضي الله عنه غير منقطع، ولهذا المعنى شواهد كثيرة، وفي الصحيحين من حديث علي رضي الله عنه وأرضاه أن النبي ﷺ كان ذات يوم عند القبر ينتظر دفن الميت وينكت بعصا معه فقال عليه الصلاة والسلام «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**، قالوا: يا رسول الله فيم العمل؟ إذا كان الأمر قد قضي وفرغ منه ففيم العمل؟ قال: **اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم تلا قوله سبحانه** ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا ۝

---

(١) صحيح لغيره، إلا مسح الظهر، فلم أجد له شاهداً «الضعيفة»(٣٠٧٠). أهـ ألباني.

قال شاكر: هو في المسند برقم: ٣١١ ونقله ابن كثير ٣/ ٥٨٦ـ٥٨٧ وفي التاريخ ١/ ٨٩ـ٩٠ وقد صححناه هنا من المسند، والزيادتان هنا أثبتناهما من المسند. أهـ

مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝﴾ [الليل:٥-١٠]»[1] الآية، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة في إثبات القدر وأنه قد مضى ونفذ، وهكذا حديث ابن مسعود في الصحيحين في خلق النطفة ثم العلقة ثم المضغة[2].

ومسح الظهر أذكر فيه روايات أخرى غير رواية عمر، ولا أستبعد أن بعض أهل العلم جمع هذه الطرق وجمع هذه الروايات، لأن إثبات هذا من الأمر المهم، فلا أستبعد أن بعض أهل العلم قد جمع طرق هذا الحديث من روايات الصحابة المعروفين، ولعل ابن كثير رحمه الله قد استوفى شيئاً من هذا على هذه الآية الكريمة ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ [الأعراف:١٧٢] فإن ابن كثير رحمه الله في الغالب يعتني، وابن جرير كذلك.

والظاهر على ما هو معروف عند أهل السنة والجماعة، إذا صحت الرواية وجب التسليم لها، ويكون مسح الظهر مثل بقية الصفات وسائر الصفات، كأخذه الأرض بيمينه «**يطوي الله السماوات بيمينه والأرض بشماله ثم يهزهن فيقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون**»[3]

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٥،٤٩٤٦،٤٩٤٧،٤٩٤٨،٤٩٤٩)كتاب التفسير/ باب ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝﴾ ومسلم (٢٦٤٧)كتاب القدر/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٨)كتاب بدء الخلق/ باب ذكر الملائكة، و(٣٣٣٢)كتاب أحاديث الأنبياء/ باب خلق آدم وذريته، و(٦٥٩٤)كتاب القدر، و(٧٤٥٤)كتاب التوحيد/ باب قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ورواه مسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٦٥١٩)كتاب الرقاق/ باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة، و(٧٣٨٢)كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝﴾ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٧٨٧،٢٧٨٨،٢٧٨٩)كتاب صفة القيامة والجنة والنار، من حديث ابن عمر وابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهم.

وغير هذا من صفاته سبحانه وتعالى، كذلك حديث «**القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»[١] هي صفة حق تليق بالله، نمرها كما جاءت مع الإيمان والتسليم لما دلت عليه، وأنه ليس كمثله شيء لا في قبضه للأشياء ولا في هزه للأشياء ولا في أصابعه ولا في مسحه للظهر ولا في غير هذا، بل هي صفات تليق بالله، لا يعلم كيفيتها إلا هو سبحانه وتعالى. أهـ

* * *

وروى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح على ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم، فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، قال: رب، كم عمره؟ قال: ستون سنة، قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم، جاء ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال فجحد ! فجحدت ذريته، ونسي آدم، فنسيت ذريته، وخطئ آدم، فخطئت ذريته»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، والترمذي (٢١٤٠) كتاب القدر/ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، من حديث أنس رضي الله عنه واللفظ للترمذي.

(٢) صحيح، وجدت له أربعة طرق، بعضها عند ابن أبي عاصم في «السنة» (٢٠٤، ٢٠٥) بتحقيقي. أهـ ألباني

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يقال خَطِأَ بمعنى أثم، وأما أخطأ بمعنى خالف الصواب عن جهل ونسيان، فخطئ في العمد، وأخطأ في غير العمد، ولهذا يقول جل وعلا ﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة:٣٧] يعني الآثمون ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٣١] يعني إثماً كبيراً، فالثلاثي بمعنى أثم، والرباعي بمعنى غلط، وقوله: «من آخر الأمم» يعني من آخر أنبياء بني إسرائيل، قبل عيسى بقليل.أهـ

* * *

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: سبحان من لا يضل ولا ينسى، هذا يوجب لطالب العلم دائماً أن لا ييأس من شيء، وألا يعتمد على شيء من كلام الناس، ولو كان القائل كبيراً، فإذا قال مثلاً أحمد أو الشافعي أو مالك أو شيخ الإسلام ابن تيمية أو ابن القيم أو غيرهم: إنه ليس في هذا الباب رواية، أو ليس في هذا الباب حديث، أو ليس في هذا الباب أثر؛ فلا يؤخذ مسلّماً، بل لابد من تعب وعمل وتفتيش، لأن كل واحد له طاقة محدودة، وكل واحد له معلومات محدودة، لا يحصي كل شيء، مهما بلغ من العلم لا يحصي كل شيء، فلابد أن يكون طالب العلم لا يعتمد على زيد في النفي ولا في الإثبات، ولا سيما في النفي، النفي أخطرها، بل يعمل ويكدح ويفتش وينظر، فدائماً يجد ما يخالف هذا النفي.

ثم الإنسان مهما كان من العلم تعتريه الغفلة، يعتريه النسيان، يكتب وهو مشغول الفكر، يكتب وهو مشغول بأمر آخر من أمور دنياه أو من أمور آخرته فيغلط، وهذا مجرب مع الكبار ومع غير الكبار، فهذا يوجب لطالب العلم أن يكون دائماً يعتني، ولا يقول قال فلان وهذا يكفي، فلان واسع العلم فيكفي ولا نبحث، لا، بل لا بد من التفتيش والنظر والتماس ما هو بحاجة إلى طلبه.

وإذا قال المفتي: لا أعلم ذلك ورد عن الرسول فهذا طيب، لكن المصيبة إذا قال: لم يرد عن الرسول، ولا ينبغي استعمال قول ما ورد وإن قصد في حد علمه، بل ينبغي استعمال لا أعلم أو لا أعرف ذلك أو لم أقف على شيء من ذلك ونحو هذا.أهـ

* * *

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي شيئاً»[1] وأخرجاه في الصحيحين أيضاً .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذه الإرادة الشرعية لا القدرية، «**أردت منك أن لا تشرك بي شيئاً**» إرادة شرعية، لأنها هي التي تقع مخالفتها من العبد، أما الإرادة الكونية فلا تخالف، ما أراده الله كوناً لا بد أن يقع ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس:٨٢] «**أردت منك أن لا تشرك بي شيئاً**» يعني أمرتك وأوصيتك وحرضتك

(١) صحيح، متفق عليه، وهو في المسند (٣/ ١٢٩، ١٢٧).أهـ ألباني

ونحو ذلك، بهذا المعنى، أما الإرادة الكونية التي أرادها كوناً وشاءها كوناً فهذه لا تخالف.

وبهذا تعلم أن الإرادة إرادتان: إرادة شرعية دينية، فهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع من العبد، فالله أراد من العباد جميعاً أن يعبدوه ويطيعوا رسوله ﷺ، فمنهم من أطاع وهم القليل ومنهم من عصى وهم الأكثرون، هذه هي الإرادة الشرعية.

وأما الإرادة الكونية فلا يمكن أن يخالفها أحد، فقد أراد من الناس أن يموتوا فهم لا بد أن يموتوا كلهم، وأراد لهذه الدنيا أن لا تبقى ولا تدوم فهي لا تبقى ولا تدوم، وأراد من إبليس إرادة كونية أنه لا يهتدي فلم يهتد، وهكذا. أهـ

* * *

وذكر أحاديث أخرى أيضاً كلها دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل النار وأهل الجنة.

ومن هنا قال من قال: إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد، وهذه الآثار لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً، وغايتها أن تدل على أن باريها وفاطرها سبحانه صور النسمة وقدر خلقها وأجلها وعملها، واستخرج تلك الصور من مادتها، ثم أعادها إليها، وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له، ولا يدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً واستمرت موجودة ناطقة كلها في موضع واحد ثم يرسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة، كما قاله ابن حزم، فهذا لا تدل الآثار عليه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: لا وجه له، في بعضها أنه أعادها إلى صلبه، بعد ما أخذ عليها الميثاق أعادها إلى صلبه، وإرسال

الملك عند نفخ الروح، يرسل إليه فينفخ الملك الروح من جديد، فتكون مخلوقة من جديد.أهـ

* * *

نعم، الرب سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة، كما قاله على الوجه الذي سبق به التقدير أولاً، فيجيء الخلق الخارجي مطابقاً للتقدير السابق، كشأنه سبحانه في جمع مخلوقاته، فإنه قدر لها أقداراً وآجالاً، وصفات وهيآت، ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير السابق.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا مثل ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في الصحيح عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**»(١) وهذا معنى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد:٢٢] وهكذا قوله جل وعلا ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج:٧٠] فقد سبق علمه وكتابته في كل شيء، ثم يأتي المخلوق على حسب ما مضى في علم الله، تأتي هذه المخلوقات والحيوانات ومن أشياء أخرى، وجمادات، على حسب ما مضى في علم الله وكتابته، من جن وإنس وملائكة، وجمادات من جبال وأشجار وأحجار ومعادن وغير هذا.أهـ

* * *

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر/ باب: حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالآثار المروية في ذلك إنما تدل على القدر السابق، وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، وأما الإشهاد عليهم هناك، فإنما هو في حديثين موقوفين على ابن عباس وعمر رضي الله عنهم، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرتهم على التوحيد، كما تقدم كلام المفسرين على هذه الآية الكريمة في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومعنى قوله ﴿شَهِدْنَآ﴾: أي قالوا: بلى شهدنا أنك ربنا، وهذا قول ابن عباس وأبي بن كعب، وقال ابن عباس أيضاً: أشهد بعضهم على بعض، وقيل: ﴿شَهِدْنَآ﴾ من قول الملائكة، والوقف على قوله ﴿بَلَىٰ﴾، وهذا قول مجاهد والضحاك وقال السدي أيضاً: هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم، والأول أظهر، وما عداه احتمال لا دليل عليه، وإنما يشهد ظاهر الآية للأول .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والسياق كله فيهم، المستخرجون هم الذين قالوا ﴿شَهِدْنَآ﴾ قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢] يعني أقررنا واعترفنا، شهد على نفسه يعني أقر واعترف، مثل ما في قوله جل وعلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥] فالمعترف إذا قال عندي لفلان كذا واقترضت من فلان كذا؛ فمعناه الشهادة على نفسه بأنه مطلوب لفلان هذا الشيء.أهـ

* * *

واعلم أن من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم، كالثعلبي والبغوي وغيرهما، ومنهم من لم يذكره، بل ذكر أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم، كالزمخشري وغيره، ومنهم من ذكر القولين، كالواحدي والرازي والقرطبي وغيرهم، لكن نسب الرازي القول الأول إلى أهل السنة، والثاني إلى المعتزلة. ولا ريب أن الآية لا تدل على القول الأول، أعني أن الأخذ كان من ظهر آدم، وإنما فيها أن الأخذ من ظهور بني آدم، وإنما ذكر الأخذ من ظهر آدم والإشهاد عليهم هناك في بعض الأحاديث، وفي بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار، كما في حديث عمر رضي الله عنه، وفي بعضها الأخذ وإراء آدم إياهم من غير قضاء ولا إشهاد، كما في حديث أبي هريرة، والذي فيه الإشهاد - على الصفة التي قالها أهل القول الأول - موقوف على ابن عباس و عمر [(١)]، وتكلم فيه أهل الحديث، ولم يخرجه أحد من أهل الصحيح غير الحاكم في المستدرك على الصحيحين،

والحاكم معروف التساهل رحمه الله .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ينبغي أن يقال إنه لا منافاة بين كونه من ظهر آدم أو من ظهر بنيه، فالآية ﴿ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، والنصوص جاءت من ظهر آدم، وظهر أبيهم ظهرهم،

---

(١) قال شاكر: في الأصل: «عمر» وبعد الرجوع إلى المصادر اتضح أنه تحريف، حيث لم نجد لعمر رضي الله عنه حديثاً في الإشهاد، وبمثل ذلك ورد في بعض النسخ. أهـ

فإنهم خلقوا كلهم من ظهره، من صلبه تسلسلوا، فالأخذ من ظهر آدم أخذ من ظهورهم، فلا منافاة، فالحديث يفسر الآية، والآية توافق الأحاديث فلا منافاة.

ثم أيضاً ينبغي أن يفهم أن هذه الأشياء التي ذكرها جل وعلا وذكرتها الأحاديث ليست هي العمدة في التكاليف، وليست هي العمدة في إقامة الحجج، وإنما هذه أشياء للخاصية، وأشياء تمهيدية لما بعدها، ولهذا لم يكتف بها الرب عز وجل، بل بعث الرسل وأنزل الكتب، فالاعتماد على ما جاءت به الرسل لا على ما أخذ من ظهر آدم، وإنما هو خبر من الله أنه فعل هذا، وقرر هذا من قديم الزمان على أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، وأخبره بهذا الأمر، وأنهما قسمان فريق في الجنة وفريق في السعير، وهذا كله لا ينافي ما جاءت به الرسل وما نزلت به الكتب، فالاعتماد على ما جاءت به الرسل في إقامة الحجة والبرهان وفي قطع المعذرة لا على الأخذ الأول، ولهذا قال عز وجل: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥] وقال جل وعلا: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:١١٥] فهو سبحانه بين للناس بواسطة الرسل والكتب، فمن قبل من الرسل وأخذ من الكتب السماوية؛ هذا هو الناجي، ومن أبى قامت عليه الحجة واستحق العذاب، في الأولين والآخرين، في عهد آدم إلى يومنا هذا، فالذين عصوا نوحاً أهلكهم، والذين عصوا هوداً كذلك، قد بلغوا فأبوا وعذبوا، وهكذا قوم صالح، وهكذا لوط، هكذا قوم إبراهيم، هكذا قو م شعيب، هكذا فرعون وأصحابه، وهكذا هذه الأمة بلغت، فمن بلغه الأمر فأخذ به فهو الناجي، ومن حاد وأعرض فهو الهالك، وإن متع وإن أملي له كما أملي لغيره،

ومن لم تبلغه الحجة في أطراف الدنيا لا في الأولين ولا في الآخرين فله حكم آخر يوم القيامة، والمقصود من هذا كله أن الاعتبار بإقامة الحجج وقطع المعاذير بما جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب لا بالميثاق الأول، الميثاق الأول بيان من الله لنا أنه فعل وأخذ علينا الميثاق، ولكنه سبحانه لم يكتف به، لأنهم لا يفهمونه ولا يعقلونه بعد كبرهم وبعد وجودهم ولا يفهمونه، والحجة إنما تقوم عليهم بما يُعَرّفون به بعد عقولهم وبعد وجودهم في الدنيا وبعد تكليفهم يؤخذون بهذا، أما ذاك فهو حجة قديمة وتمهيد من الله عز وجل وإخبار منه لآدم، وأن هذا واقع في الزمان الآتي والمستقبل، فوقع كما أخبر.أهـ

* * *

سؤال/ حديث أنس: «يؤتى بالرجل يوم القيامة من أهل النار فيقول الله: قد أردت منك ما هو دون ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا الشرك» ألا يدل على أنه حجة مستقلة؟

أجاب سماحة الشيخ: الله يخبره بهذا، ولكن الحجة إنما قامت عليه بما جاءت به الرسل.أهـ

سؤال/ كأنه احتج عليه بهذا ؟

أجاب سماحة الشيخ: هو احتج بذلك لكن ليس به وحده، بل الأدلة الأخيرة ظاهرة أنه إنما أقام الحجة ببعث الرسل وإنزال الكتب لا بالميثاق الأول، يعني إنما أردت منك ما هو أسهل من ذلك وأنت في ظهر آدم، يعني من قديم وأنا أردت منك، وليس المعنى أني أردت منك بدون إرسال الرسل، يعني قد أردت منك هذا من قديم الزمان وأنت في ظهر

أبيك آدم، فأبيت إلا الشرك بعدما جاءت الرسل وأنزلت الكتب، بعد أن وجد في الدنيا وعاش في الدنيا وجاءت الرسالة وجاءت الكتب، فأصر على هذا الباطل.أهـ

سؤال/ إخراج الذرية حسي أو هو الفطرة كما قال بعضهم ؟

أجاب سماحة الشيخ: حسي بلا شك.أهـ

سؤال/ القول الراجح في أصحاب الفترة ومن لم تبلغه الدعوة ومن مات من أبناء المشركين ؟

أجاب سماحة الشيخ: القول الراجح أنهم تقام عليهم الحجة يوم القيامة، يمتحنون، كما ذكره ابن القيم رحمه الله ...وذكره ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥] وغيرهم.أهـ

❊ ❊ ❊

والذي فيه القضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار دليل على مسألة القدر. وذلك شواهده كثيرة، ولا نزاع فيه بين أهل السنة، وإنما يخالف فيه القدرية المبطلون المبتدعون .

وأما الأول: فالنزاع فيه بين أهل السنة من السلف والخلف، ولولا ما التزمته من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة في ذلك، وما قيل من الكلام عليها، وما ذكر فيها من المعاني المعقولة ودلالة ألفاظ الآية الكريمة.

قال القرطبي: وهذه الآية مشكلة، وقد تكلم العلماء في تأويلها، فنذكر ما ذكروه من ذلك، حسب ما وقفنا عليه. فقال قوم: معنى الآية: أن

الله أخرج من ظهر بني آدم بعضهم من بعض، ومعنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ دلهم على توحيده، لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً سبحانه وتعالى قال: فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، كما قال تعالى في السماوات والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، ذهب إلى هذا القفال وأطنب. وقيل: أنه [سبحانه وتعالى] أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها.

ثم ذكر القرطبي بعد ذلك الأحاديث الواردة في ذلك، إلى آخر كلامه.

وأقوى ما يشهد لصحة القول الأول: حديث أنس المخرج في الصحيحين! الذي فيه: «قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي»(١) ولكن قد روي من طريق أخرى: «قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل، فيرد إلى النار» وليس فيه: «في ظهر آدم» وليس في الرواية الأولى إخراجهم من ظهر آدم على الصفة التي ذكرها أصحاب القول الأول .

بل القول الأول متضمن لأمرين عجيبين: أحدهما: كون الناس تكلموا حينئذ وأقروا بالإيمان وأنه بهذا تقوم الحجة عليهم يوم القيامة.

والثاني: أن الآية دلت على ذلك، والآية لا تدل عليه لوجوه: أحدها:

---

(١) صحيح، وهو الذي قبله، والطريق الأخرى عند مسلم (٨/ ١٣٤،١٣٥) وكذا البخاري (٤/ ٢٣٩) ولا منافاة بينها وبين التي قبلها، لأن زيادة الثقة مقبولة كما لا يخفى، وفي هذا الحديث زيادات أخرى، وقد جمعتها في الحديث وخرجته في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (١٧٢) ثم تبينت أن الطريق الأخرى ليست التي هي عند الشيخين، وإنما هي عند أحمد والحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم، باللفظ الذي ذكره المؤلف حرفاً بحرف، وهي في «الصحيحة» (٣٠٠٨).أهـ ألباني

أنه قال: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل: من آدم. الثاني: أنه قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ ولم يقل: من ظهره، وهذا بدل بعض، أو بدل اشتمال، وهو أحسن.

الثالث: أنه قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ ولم يقل: ذريته.

الرابع: أنه قال: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ولا بد أن يكون الشاهد ذاكراً لما شهد به، وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار - كما تأتي الإشارة إلى ذلك - لا يذكر شهادة قبله.

الخامس: أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة للحجة عليهم، لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا عليها، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾.

السادس: تذكيرهم بذلك، لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ ومعلوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعاً ذلك الوقت، فهذا لا يذكره أحد منهم.

السابع: قوله تعالى ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ فذكر حكمتين في هذا الإشهاد: لئلا يدعوا الغفلة، أو يدعوا التقليد، فالغافل لا شعور له، والمقلد متبع في تقليده لغيره، ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة.

الثامن: قوله: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي توعدهم بجحودهم وشركهم لما قالوا ذلك، وهو سبحانه إنما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها

غافلون، وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل.

التاسع: أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه، واحتج عليه بهذا في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها، وذكرتهم بها رسله، بقولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

العاشر: أنه جعل هذا آية، وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها، وهذا شأن آيات الرب تعالى، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، فما من مولود إلا يولد على الفطرة، لا يولد مولود على غير هذه الفطرة، هذا أمر مفروغ منه، لا تبديل ولا تغيير، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا، والله أعلم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا كما تقدم، كله لا ينافي أن هذا الأخذ ليس هو المعتمد وحده، بل لا يكفي إلا بعد ما جاءت الرسل تذكر به وتدعو إليه وتأخذ به، حجة قديمة غفل عنها الناس، جاءت الرسل تذكر بها وتدعو إليها وتأخذ بها، فمن جاءته الرسل الموضحة والمرشدة إلى ما أخذه الله على الأوائل قامت عليه الحجة، ومن لا فلا، فالأولى قديمة أخذها الله عليهم وأوضح لهم أنه ربهم وإلٰههم الحق، من وجود آدم ومن شهادة آدم، هذه هم عنها غافلون ولم يعرفوها، لكن لما جاءت الرسل ذكرتهم، فصار هذا حجة وهذا حجة، مثل إنسان عليه بينة وعليه شهود بحق ونسي، ثم جاء من يذكره بهذه البينة

ويذكره بهؤلاء الشهود، ويقول: قد أخذ عليك الأمر وقد وجه لك الأمر وقد شهد عليك فلان وفلان، فقامت عليه الحجة في البينة الأخيرة العاجلة التي وضحت له الأمر الماضي، فصار عليه حجتان، حجة قديمة نسيها أو غفل عنها فذكر بها، وحجة جديدة هي التي جاءت بها الرسل وقامت بها البينات والأخيرة، فصار مأخوذاً بالأول والآخر، بالأول وإن لم يذكره لأنه ذكر به وبين له، وبالآخر لأنه حجة قائمة مستقلة.أهـ

سؤال/ هل استفدنا هذا الاستشهاد من الحديث وليس من الآية ؟

أجاب سماحة الشيخ: في القرآن الكريم والسنة شاهدة، والأحاديث زيادة.أهـ

سؤال/ رد المؤلف في قوله: ﴿ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ﴾ [الأعراف:١٧٢] ؟

أجاب سماحة الشيخ: هذه الفطرة فقط، هذا وجه الشاهد، والإشكال في أنهم ما عرفوا هذا الشيء ولا تقوم عليهم الحجة بهذا الشيء، ولكن يقال لهم: إنهم قامت عليهم الحجة بذلك الشيء بعد التذكير بالحجة الأخيرة، أما دون بعث الرسل لا، لكن المراد بعد الرسل وإنزال الكتب مقيمة للحجة، ويُكتفى بالأمر الماضي.أهـ

سؤال/ ظاهر الآية: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٢]؟

أجاب سماحة الشيخ: لئلا تقولوا، هذا معناه، ذكرناكم بذلك لئلا تقولوا ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٢].أهـ

* * *

وقد تفطن لهذا ابن عطية وغيره، ولكن هابوا مخالفة ظاهر تلك الأحاديث التي فيها التصريح بأن الله أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم. وكذلك حكى القولين الشيخ أبومنصور الماتريدي في شرح التأويلات ورجح القول الثاني، وتكلم عليه ومال إليه.

ولا شك أن الإقرار بالربوبية أمر فطري، والشرك حادث طارئ، والأبناء تقلدوه عن الآباء، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن، يقال لهم: أنتم كنتم معترفين بالصانع، مقرين بأن الله ربكم لا شريك له، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم، فإن شهادة المرء على نفسه هي إقراره بالشيء ليس إلا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وليس المراد أن يقول: أشهد على نفسي بكذا، بل من أقر بشيء فقد شهد على نفسه به، فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الذي شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة، تقليداً لمن لا حجة معه، بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية، فإن تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها، وفيه مصلحة لكم، بخلاف الشرك، فإنه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فساده وعدولكم فيه عن الصواب.

فإن الدين الذي يأخذه الصبي عن أبويه هو: دين التربيه والعادة، وهو لأجل مصلحة الدنيا، فإن الطفل لا بد له من كافل، وأحق الناس به أبواه، ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع أبويه على دينهما في أحكام الدنيا الظاهرة، وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه - على الصحيح -حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة، وحينئذ فعليه أن يتبع: دين العلم والعقل، وهو الذي

يعلم بعقله هو أنه دين صحيح، فإن كان آباؤه مهتدين، كيوسف الصديق مع آبائه، قال : ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ وقال ليعقوب بنوه: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ وإن كان الآباء مخالفين الرسل، كان عليه أن يتبع الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾ الآية .

فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم، بل يعدل عن الحق المعلوم إليه، فهذا اتبع هواه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾.

وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الإسلام، يتبع أحدهم أباه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب، وإن كان خطأً ليس هو فيه على بصيرة، بل هو من مسلمة الدار، لا مسلمة الاختيار، وهذا إذا قيل له في قبره: من ربك؟ قال؟ هاه هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

فليتأمل اللبيب هذا المحل، ولينصح نفسه، وليقم معه، ولينظر من أي الفريقين هو؟ والله الموفق، فإن توحيد الربوبية لا يحتاج إلى دليل، فإنه مركوز في الفطر، وأقرب ما ينظر فيه المرء أمر نفسه لما كان نطفة، وقد خرج من بين الصلب والترائب، والترائب: عظام الصدر، ثم صارت تلك النطفة في قرار مكين، في ظلمات ثلاث، وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق، ولو كانت موضوعة على لوح أو طبق، واجتمع حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئاً لم يقدروا، ومحال توهم عمل الطبائع فيها، لأنها موات عاجزة، ولا توصف بحياة، ولن يتأتى من الموات فعل

وتدبير، فإذا تفكر في ذلك وانتقال هذه النطفة من حال إلى حال، علم بذلك توحيد الربوبية، فانتقل منه إلى توحيد الإلهية، فإنه إذا علم بالعقل أن له ربًّا أوجده، كيف يليق به أن يعبد غيره؟ وكلما تفكر وتدبر ازداد يقيناً وتوحيداً، والله الموفق، لا رب غيره، ولا إله سواه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وبكل حال كل هذا الكلام ليس عليه المعول، وإنما المعول على بعث الرسل وإنزال الكتب، هذا هو الذي هدى الله به العباد، وجعله محكاً لمن حاد عنه أو استقام عليه، وما سبق وما ركز في العقول وما فطر عليه العباد حجة عليهم، لكنها غير كافية وغير مؤاخذين بها إلا بعد بعث الرسل وإنزال الكتب، فمتى عصوا الرسل وخالفوا الكتب أخذوا بهذا، وأما بدون ذلك فأمرهم إلى الله، ويوم القيامة يمتحنهم ويقضي بينهم بعلمه سبحانه وتعالى، وإنما في الدنيا يؤخذون بالرسل والكتب، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥].أهـ

سؤال/ مشركوا الجاهلية أليسوا في النار ؟

أجاب سماحة الشيخ: على حسب الحجة، من قامت عليه الحجة فهو من أهل النار، ومن لم تقم عليه الحجة فهو من أهل الفترات، فيهم الخلاف المعروف بين أهل السنة والجماعة، والصحيح أنهم يمتحنون يوم القيامة.أهـ

سؤال/ حتى أهل الشرك؟

أجاب سماحة الشيخ: من لم تبلغه الدعوة.أهـ

سؤال/ أبو الرسول ﷺ؟

أجاب سماحة الشيخ: ظاهرهم أنهم قد بلغتهم الدعوة، قال: «إن أبي وأباك في النار»[(١)] واستأذن ربه في زيارة أمه فأذن له، واستأذن في الاستغفار لها فلم يأذن في الاستغفار لها[(٢)]، فدل على أنها ماتت على الشرك، أما كونها تعذب في ذلك أو لا تعذب فهذا شيء آخر، المقصود أن أهل الفترات من أهل الشرك حكمهم حكم أهل الشرك في الدنيا، ولكن عند الآخرة والعذاب إلى الله سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

قوله: (وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه).

ش: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلاً وأبداً، لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة» قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على

(١) رواه مسلم (٢٠٣) كتاب الإيمان/ باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه وشفقته عليهم، وأبو داود (٤٥٥٣)كتاب السنة/ باب: في ذراري المشركين، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٩٧٦)كتاب الجنائز/ باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه، وأبو داود (٣١٠٤)كتاب الجنائز/ باب في زيارة القبور، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كتابنا وندع العمل ؟

فقال: «من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. ثم قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1] خرجاه في الصحيحين.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا الذي قاله المؤلف أمر معلوم، قد أجمع عليه أهل السنة والجماعة إجماعاً قطعياً للنصوص، كل معروف، أهل الجنة معلومون وأهل النار معلومون، وكل ميسرٌ لما خلق له، قدر الله نافذ في عباده، وعلمه محيط بهم سبحانه وتعالى ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ﴾ [الطلاق:١٢] فعلمه لا يتغير فيهم، من علم أنه يكون سعيداً فهو سعيد، ومن علم أنه يكون شقياً فهو شقي، لا يمكن أن يكون الواقع على خلاف علمه سبحانه وتعالى، إذ لو وقعت الأمور على خلاف علمه لكان علمه جهالة، والله يتنزه عن ذلك سبحانه وتعالى، فعلمه سابق فيهم، والواقع مطابق لعلمه عز وجل، ولكن هذا لا يمنع أن يكونوا مخاطبين ومأمورين ومنهيين ومخيرين، لهم عقول ولهم إرادات ولهم مشيئة ولهم أسماع وأبصار، كما قال عز وجل: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] وقال

---

(١) متفق عليه، وهو مخرج في «ظلال الجنة» (١٧١).أهـ ألباني

جل وعلا ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [المدثر:٥٥-٥٦] وقال جل وعلا ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٧] وقال ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران:١٥٣] ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل:٩١] إلى غير ذلك مما ينسب إليهم سبحانه وتعالى من أفعالهم وأقوالهم وإراداتهم ومشيئاتهم.

هنا عبارة كثيراً ما تقول: هل العبد مخير أو مسير؟

والجواب أن هذا واقع وهذا واقع، عبارة الشارع «**ميسرون**» أحسن من «مسير» وهو مسير، الله مسير عباده إلى ما يشاء سبحانه وتعالى، قضاؤه نافذ فيهم، فالعبد ميسر ومسير ومخير، فهو مخير لما أعطاه الله من العقول والإرادة والمشيئة والبصيرة والضار والنافع والخير والشر، فهو يختار هذا على بصيرة ويختار هذا على بصيرة، فيفعل ما أراد من المعصية والطاعة، ويترك ما أراد من المعصية والطاعة، فله مشيئة وله اختيار، قد علقت بها التكاليف، وتعلق بها استحقاق الجزاء.

وهو مسير بمعنى أنه لا يخرج عن علم الله فيه وعما مضى في علم الله وسبق في علم الله، فهو مسير بذلك وميسر له «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[1]. أهـ.

* * *

قوله: (وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله).

ش: تقدم حديث علي رضي الله عنه وقوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث علي رضي الله عنه، وقد تقدم.

لما خلق له» وعن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير» قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت. ما قال؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر»[1] رواه مسلم.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»[2] خرجاه في الصحيحين وزاد البخاري: «وإنما الأعمال بالخواتيم».

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والمعنى في هذا أن الإنسان قد يعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس من ظاهر حاله من معاصٍ وسيئات، ثم يتوب الله عليه ويختم له بالخاتمة الحسنة فيصير إلى الجنة، كما قد تمضي عليه حياته الطويلة في الكفر بالله والضلال، ثم عند قرب الأجل يوفق للدخول في الإسلام والتوبة إلى الله، فيموت على الإسلام في مدة قصيرة، يغفر الله سيئاته، ويدخله الجنة بتوبته وإسلامه، وهكذا العكس، يكون الإنسان يتظاهر بالخير لأسباب ما وعمل ما، ثم يرجع إلى حاله السيئة التي في باطنه والتي يعتقدها، فيموت على ذلك فيكون من أهل النار، نسأل الله العافية.

(١) أخرجه مسلم في «القدر» (٨/ ٤٨) وأحمد أيضاً (٣/ ٢٩٢-٢٩٣) وصححه ابن حبان (١٨٠٨و١٨٠٩).أهـ ألباني

(٢) متفق عليه، وهو مخرج في «الظلال» (٢١٦).أهـ ألباني

ورواية أبي الزبير عن جابر الأصل فيها الاتصال، وهو مدلس عند أهل العلم إذا عنعن، ولكن تحملوها عنه، والحديث صحيح عند مسلم، ذكر أهل العلم أن المدلسين فتشوا روايتهم ورووا عنهم ما ثبت لديهم السماع في الصحيحين، أما في غير الصحيحين فتناقش ويقبل ما يدل على السماع. أهـ

* * *

وفي الصحيحين أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[1] والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكذلك الآثار عن السلف.

قال أبو عمر بن عبد البر في التمهيد: قد أكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه، وأهل السنة مجتمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق[2].

---

(١) متفق عليه، وهو مخرج أيضا في «الظلال» (١٧٥-١٧٦). أهـ ألباني

(٢) التمهيد ١٤/ باب النهي عن القول بالقدر، الحديث الثاني (٣٨٢).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: صدق رحمه الله، كلام أبي عمر كلام جزل طيب، أهل السنة والجماعة متفقون ومجتمعون على الإيمان بما جاء في القدر والفصل من أمر الله سبحانه وتعالى، وأنه العلّام بكل شيء والحكيم في كل شيء سبحانه وتعالى، وأن العبد ينعم ويعذب بأعماله وأسبابها، وقد يمنّ الله على العبد ويوفقه في آخر حياته للتوبة والاستقامة، فيمحو عنه سيئاته التي مضت ويكفرها له سبحانه وتعالى فضلاً منه وإحساناً، كما أنه قد ينشيء لأهل الجنة قوماً ما عملوا خيراً قط، ينشئهم للجنة ويدخلهم فيها لما فضل منه عن أهل العمل.أهـ

* * *

وقوله: (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فان الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب، كان من الكافرين).

ش: أصل القدر سر الله في خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى، قال علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه: القدر سر الله فلا نكشفه.

والنزاع بين الناس في مسألة القدر مشهور.

والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر

ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كوناً، ولا يرضاه ديناً.

وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة، وزعموا: أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر، فردوا إلى هذا لئلا يقولوا: شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه! ولكن صاروا: كالمستجير من الرمضاء بالنار! فإنهم هربوا من أشياء فوقعوا فيما هو شر منه ! فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه ـ على قولهم ـ والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى!! وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: «فرَدوا إلى هذا أو رُدوا»: يعني رجعوا إلى هذا الشيء أو صاروا إلى هذا الشيء، لئلا يقولوا: هذا هو المقصود، يعني أن المعتزلة والذين رجعوا إلى هذا القول بزعمهم، لئلا يقولوا: شاء الكفر من الكافر والمعصية وعذب عليها، فيكون خلاف العدل، فلزمهم أن تكون مشيئة المخلوق غلبت مشيئة الله، وأنه لو أراد شيئاً والله أراد خلافه فوقعت مشيئة المخلوقين ولم تقع مشيئة الله، هذا ما يفهم من الضلال والباطل.

وهذا مقام خطير، مقام القدر مقام خطير، ولهذا ذكر المؤلف أن الخوض فيه والتعمق فيه يفضي إلى خطر عظيم وإلى شر كثير وإلى التكذيب والزندقة، نسأل الله السلامة، وأكثر العقول التي ما عندها بصيرة ولا عندها تفقه في الدين لا تتحمل هذا الأمر، والله جل وعلا يقول: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام:٣٥] ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة:١٣] ﴿ وَلَوْ

شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ ﴾ [يونس:٩٩] والآيات في هذا واضحة في أنه سبحانه وتعالى شاء ما وقع من كفر الكافر وإيمان المؤمن كوناً وقدراً، ولم يشأ ولم يرضه ديناً وشرعاً، لأن الإرادة إرادتان، وبعضهم جعل المشيئة كذلك ـ بمعنى الإرادة ـ مشيئتان: مشيئة شرعية وإرادة شرعية، هذه عامة، الله سبحانه أراد من جميع الجن والإنس أن يعبدوه وأن يطيعوه، فمنهم من أجاب، وهي بمعنى الأمر والرضا، فمنهم من أطاع الأمر وأجاب إلى هذا الشيء وهم الأقل، ومنهم من أبى وتابع الهوى وهم الأكثرون.

أما الإرادة الثانية والمشيئة الثانية فهي الإرادة الكونية، هذه لا يتخلف عنها المراد ولا يقع في العالم شيء خلافها، وهي المرادة في قوله جل وعلا ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس:٨٢] وفي الحديث «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»(١) فالمشيئة الكونية والإرادة الكونية لا يتخلف مرادهما أبداً، أما الإرادة الشرعية والمشيئة الشرعية ـ على خلاف من قسم المشيئة إلى قسمين ـ فهذه بمعنى الرضا وبمعنى الأمر وبمعنى المحبة، يقع مرادها من الشخص تارة ولا يقع تارة، يقع مرادها تارة إذا شاء الله ذلك كوناً، ولا يقع مرادها إذا لم يشأ الله سبحانه وتعالى كوناً، ولهذا يقال لأبي طالب ويقال لأبي لهب ويقال لأبي جهل وأشباههم إنهم مأمورون بطاعة الله، مأمورون بالتوحيد والإخلاص، أراد الله منهم ذلك بما جاء على لسان رسوله وبلغهم رسوله عليه الصلاة والسلام، لكن سبق في علم الله أنهم لايستجيبون، في إرادة

(١) رواه أبو داود (٤٩١٠) كتاب الأدب / باب: ما يقول إذا أصبح، عن عبد الحميد مولى بني هاشم عن أمه عن بعض بنات النبي ﷺ، قال المنذري: وأخرجه النسائي وقال الألباني: ضعيف ٤/ ٣١٩ سنن أبي داود.

الله الكونية الماضية التي مضى فيها قدره أنهم لا يؤمنون، فلهذا نفذت فيهم مشيئة الله وماتوا على دين قومهم ولم يستجيبوا للداعي، وهكذا أشباههم كفرعون، دعاه موسى وألح عليه موسى وغيره من آل فرعون، فقامت عليهم الحجة ونفذت فيهم الإرادة الشرعية والأمر الشرعي، ولكنهم لم يستجيبوا لأن الإرادة الكونية السابقة قد غلبت عليهم ومضت فيهم، وهكذا قوم صالح وقوم هود وقوم نوح وغيرهم من الأمم الكافرة، نفذت فيهم إرادة الله الكونية، ولم يقبلوا الإرادة الشرعية والأمر الشرعي.

ولهذا قال أهل الإيمان، أهل العلم والسنة: إن الإرادتين تجتمعان في حق المؤمن والمطيع، تجتمع فيه الإرادتان، الإرادة الشرعية والإرادة الكونية، فإنه وافق مراد الله شرعاً ونفذ فيه مراد الله كوناً، ففعلوا ما فعلوا من توحيد الله وطاعته، وتنفرد الإرادة الكونية والمشيئة الكونية في حق الكافر وفي حق العاصي، فإنه لم يقع منه ما وقع إلا عن مشيئة وإرادة مضى بها علم الله وقدره سبحانه وتعالى، ولكنه لم يوافق المشيئة الشرعية والإرادة الشرعية، بل خالفهما بعصيانه وكفره، وقد يُهدى ويوفق فيهتدي ويسلم ويطيع ويتوب، فتقع الإرادة الثانية حينئذ، الإرادة الشرعية وموافقة الأمر لما تاب ورجع.

فالمؤمن توجد فيه الإرادتان: الإرادة الشرعية لأنه وافق الشرع، والإرادة الكونية لأنه لم يفعل ذلك إلا بما أراده الله سبحانه وتعالى، لا يكون في ملك الله ما لا يريده سبحانه.

أما سؤالهم كيف يريد منه ذلك ويعذبه؟

فيقال: إن ربك حكيم عليم، أراد هذا الأمر كوناً، وعذبه عليه لأسباب اقتضتها حكمته سبحانه وتعالى، من كونه علم منه أنه لا يقبل الخير وأنه يريد الشر، ولأعماله التي سار عليها ومشى عليها وقد أعطي

العقل والإرادة والمشيئة، فاختار هذا دون هذا، فهو عذب بما اختاره من الشر وبما فعله من الشر.

المجبرة يقولون: إنه كالريشة في الهواء، يتصرف فيه كيف يشاء سبحانه وتعالى، ليس له فعل ولا اختيار.

وآخرون يقولون: له فعل واختيار، ولكنه تابع لاختيار الله، كما هو قول أهل السنة.

ويقولون أيضاً: لا تعلل الأحكام، وهذا غلط، بل تعلل، كما قال ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٣٩] وذكر عللاً أخرى في كتابه العظيم سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

روى اللالكائي، من حديث بقية عن الأوزاعي، حدثنا العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد المكي: عن ابن عباس قال: قيل لابن عباس: إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه، وهو يومئذ قد عمي، فقالوا له: ما تصنع به؟ فقال: والذي نفسي بيده، لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته بيدي لأدقنها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات» هذا أول شرك في الإسلام، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدر الخير، كما أخرجوه من أن يقدر الشر(١)

(١) ضعيف، وعلته العلاء بن الحجاج، فإنه في عداد المجهولين، ولم يوثقه أحد، حتى ولا ابن حبان! بل ضعفه الأزدي، كما قال الذهبي، وتضعيفه وإن كان مغموزاً فيه، فهو معتبر ههنا لأنه لم يخالف بذلك توثيق أحد، ولذلك فإن تحسين الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى لمثل هذا إسناد، من تساهله الذي عرف به عند أهل العلم بهذا الشأن، وقد أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٧٩).أهـ ألباني. =

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا ضعيف، لأن بقية ابن الوليد الحمصي معروف بتدليس التسوية، وإذا لم يصرح بالسماع فروايته ضعيفة، وهنا عنعن عن الأوزاعي، وفي متنه نكاره، فإن عض الأنف ودق الرقبة ليس من القتل الشرعي، القتل الشرعي أن يقتل بالسيف كما هو معروف، أو بما هو أسرع إراحة، وأما عض الأنف ودق الرقبة، وإن كان قد يحمل على قصد التشديد وليس الفعل؛ لكن هذا من نكارة المتن.

والخلاصة أن مداره على العلاء بن الحجاج، وذكر الشيخ ناصر والذهبي بأنه مجهول لا يعرف حاله ولم يوثقه أحد، فيكون الأثر ضعيفاً من هذه الحيثية، من جهة العلاء بن الحجاج، وفي متنه نكارة، وبكل حال

= قال شاكر: هذا الحديث نقله المؤلف من كتاب اللالكائي، من رواية بقية بن الوليد عن الأوزاعي، ولعل زاعما يزعم تعليله بأن بقية مدلس، وليس أمامنا إسناد اللالكائي حتى نعرف: أصرح بقية بن الوليد بالتحديث أم لم يصرح؟ ولكنها علة ذاهبة، فلم ينفرد بقية بروايته عن الأوزاعي، فقد رواه الإمام أحمد مرتين في المسند: ٣٠٥٥ـ٣٠٥٦ فقال في أولاهما: «حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، عن بعض إخوانه، عن محمد بن عبيد المكي، عن عبد الله بن عباس» إلخ، وقال في الأخرى: «حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، حدثني العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد المكي، عن ابن عباس، بهذا الحديث» فالأسناد الأول أبهم فيه شيخ الأوزاعي، ثم بين في الثاني أنه العلاء بن الحجاج، وقد فصلنا القول فيه في شرحنا للمسند، وقلنا إن إسناده حسن على الأقل، ووقع في إسناده ـ هنا ـ ومتنه غلط كثير، صححنا ما استطعنا من رواية المسند، فكان هنا «محمد بن عبد الملك» بدل «محمد ابن عبيد المكي» وكان «وهو يومئذ أعمى» وكتب «الثن» في الموضعين «لأن» وكان أيضاً «كأني بنساء بني فهم يطفن بالخروج تصطل إلياتهن» وهو كلام لا معنى له، وكان «لينتهي» بدل «لينتهين». أهـ

ثم وجدت الإسناد الذي فيه بقية، فرواه أبو بكر الآجري في كتاب (الشريعة) ص: ٢٣٨، عن الفريابي عن أبي حفص عمر بن عثمان الحمصي، «قال: حدثنا بقية بن الوليد، قال حدثنا أبو عمرو، يعني الأوزاعي» إلى آخره، بهذا الإسناد. ولكن مع شيء من الاختصار. أهـ

ما له حاجة، فالأدلة في القدر واضحة، ليس هناك حاجة إليه.أهـ

سؤال/ القدرية مجوس هذه الأمة ؟

أجاب سماحة الشيخ: جاء في عدة أحاديث، ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنها بمجدوعها يشد بعضها بعضاً، لأنهم أنكروا بعض أفعال الله، والمجوس قالوا بالإلهين، ولهذا شابهوا المجوس.أهـ

* * *

قوله: «وهذا أول شرك في الإسلام» إلى آخره، من كلام ابن عباس، وهذا يوافق قوله: «القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده»[(١)]

وروى عمرو بن الهيثم قال: خرجنا في سفينة، وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي: أسلم، قال المجوسي: حتى يريد الله فقال القدري: إن الله يريد ولكن الشيطان لا يريد ! قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان ! هذا شيطان قوي[(٢)] ! ! وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما!![(٣)].

---

(١) ضعيف موقوفاً ومرفوعاً، أما الموقوف فرواه اللالكائي في «شرح السنة» (١/ ١٤٢/ ١، ٦/ ٢٦٢/ ٢) وفيه من لم يسم، وأما المرفوع فرواه بنحوه الطبراني في «الأوسط» وفيه هانيء ابن المتوكل، وهو ضعيف، وهو مخرج في «الضعيفة» (٤٠٧٢).أهـ ألباني

(٢) قال شاكر: هذا الأثر رواه الآجري في كتاب الشريعة ٢٤٤ بإسناده إلى عمرو بن الهيثم بنحوه.أهـ

(٣) الإبانة لابن بطة (١٩١٣) ٢/ ٢٧٩ باب جامع في القدر وما روي في أهله، ورواه الخلال في السنة (٥٦٠) ٥/ ٩٦٢ باب ترك البحث والتنقير عن النظر في أمر القدر كيف؟ ولم؟ بل الإيمان به والتسليم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: فتح له باب الشر، نسأل الله العافية.أهـ

* * *

ووقف أعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد، فقال: يا هؤلاء إن ناقتي سرقت فادعوا الله أن يردها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت، فارددها عليه ! فقال الأعرابي: لاَ حاجة لي في دعائك ! قال: ولم؟ قال: أخاف ـ كما أراد أن لا تسرق فسرقت ـ أن يريد ردها فلا ترد!![1].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: إذا كانت المشيئة النافذة لا تنفع !! وهذا عامي غلب هذا المتعلم، والمقصود أن مشيئته نافذة سبحانه وتعالى وإرادته الكونية نافذة، ولكنه سبحانه قد يبتلي بعض الناس ويمتحنهم بما يشاء من أمراض ومصائب وكفر إلى غير ذلك، وهو سبحانه له الحكمة البالغة والحجة الدامغة، فلا يلزم من كونه أراد كذا وأراد كذا أن يكون سبحانه وتعالى لا حكمة له، قد يخفى على العباد، حسبهم أن يطيعوا الأوامر ويمتثلوها، وينتهوا عن النواهي، وأن يقفوا عند حدهم، لأن حكمة الله جل وعلا وعلمه فوق ذلك سبحانه وتعالى، فوق معلوماتهم وفوق نظرهم وتعليلهم وما يدعونه من حكمة، فالواجب مثل ما قال أهل السنة: الواجب التسليم لله والإيمان بما سبق به علمه، وعدم التفتيش والنظر في الحكم، فإن الحكم تخفى عليهم كثيراً، ولا يعلمون منها إلا ما أطلعهم الله عليه سبحانه وتعالى، ولهذا لما بلغ ابن عمر عن

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة (١٩١٤) ٢/ ٢٨٠ باب جامع في القدر وما روي في أهله.

ناس ينكرون القدر، وأخبره بذلك يحيى بن معمر ومن معه، قال: «أخبروهم أني بريء منهم وهم برؤاء مني والله لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ماقبله الله منه حتى يؤمن بالقدر» ثم ذكر حديث عمر في سؤال جبرائيل(١).أهـ

* * *

وقال رجل لأبي عصام القسطلاني: أرأيت إن منعني الهدى وأوردني الضلال ثم عذبني، أيكون منصفا؟ فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئاً هو له فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء(٢).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: حجة أهل السنة قائمة.أهـ

* * *

وأما الأدلة من الكتاب والسنة: فقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ **وقال تعالى:** ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ **وقال تعالى:** ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ **وقال تعالى:** ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ **وقال تعالى:** ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ

(١) رواه مسلم (٨)كتاب الإيمان/ باب أول من قال بالقدر.

(٢) الإبانة لابن بطة (١٩١٤) ٢/ ٢٨٠ باب جامع في القدر وما روي في أهله.

صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ومنشأ الضلال: من التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضى، فسوى الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا، فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوباً مرضياً، وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدرة ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: كلهم قد ضلوا عن السبيل، الجهمية والمعتزلة، الجهمية المجبرة والقدرية النفاة، كلهم ضلوا عن السبيل، ووفق الله أهل السنة والجماعة للحق والهدى، فالمعاصي والكفر قد شاءها المولى جل وعلا لحكمة بالغة، مع أنه لا يرضاها سبحانه وتعالى، كما قال تعالى ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر:٧] وقال ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥] وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢] فهو سبحانه يرضى العمل الصالح ويحبه، ولا يرضى الكفر والمعاصي ولا يحب ذلك، ولكنه قضى ما قضى وقدر ما قدر لحكمة بالغة وعواقب حميدة يعلمهما هو سبحانه وتعالى، وإن كنا لا نعلم الكثير منها. أهـ

سؤال/ هل نضرب لهم مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ أن الرجل المريض قد يشاء الدواء وهو لا يحبه لأنه يؤلمه، ولكن يشاؤه لأن فيه شفاءه، فالله حكيم عليم، يوقع هذه المعاصي والكفر لحكمة يعلمها سبحانه وإن كان لا يرضاها شرعاً، هل يكون هذا المثال وارداً؟

أجاب سماحة الشيخ: لا أراه، لأن المريض يضطر إلى هذا الشيء، ولهذا يفعله وهو لا يرضاه، وأما الله سبحانه وتعالى فإنه يفعله عن اختيار لا عن اضطرار له وكراهة له، وإنما يكرهها لحكمة أخرى، وهو سبحانه قادر على كل شيء، أما المريض فقد يضطر، فهذا يخالف هذا.أهـ

سؤال/ ما الفرق بين الإرادة والمشيئة ؟

أجاب سماحة الشيخ: الإرادة إرادتان: شرعية وقدرية، فالإرادة الشرعية توافق الأمر والرضى والمحبة، مثل قوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء:٢٦] وقال جل وعلا ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣] هذه إرادة شرعية بمعنى الأمر وبمعنى الرضا.

والإرادة الكونية بمعنى المشيئة، كما في قوله سبحانه ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس:٨٢] هذه معناها المشيئة ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام:١٢٥] هذه الإرادة الكونية وأشباهها كثير، غالب الإرادات في القرآن كونية.

وبعضهم جعل المشيئة قسمين مثل الإرادة، وبعضهم اقتصر بهذا على الإرادة فقط، أما المشيئة فلا تكون إلا كونية، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولكن لو ورد الاثنان أحياناً بمعنى الإرادة الشرعية فلا مانع، الإرادة الشرعية والمشيئة الشرعية معناهما واحد، فإنه يقال إنه سبحانه شاء شرعاً وأراد شرعاً من العباد أن يعبدوه وأن يطيعوه، ولكنه أراد وشاء كوناً من الكافر أن يكفر ومن العاصي أن يعصي لحكمة بالغة.أهـ

* * *

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة، أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب، فقد تقدم ذكر بعضها، وأما نصوص المحبة والرضى، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الله سبحانه وتعالى كما أنه له المشيئة النافذة والإرادة النافذة؛ فله أيضاً وصف المحبة كما يليق به، وله أيضاً وصف الرضا كما يليق به، ووصف الكراهة والسخط كما يليق به، فله إرادة نافذة كاملة ومشيئة نافذة كاملة لا راد لها ولا معقب لها، وهو سبحانه يحب ويرضى ويكره ويسخط، وكل ذلك يليق به سبحانه، لا يشابه خلقه في شيء من ذلك، كما أنه لا شبيه له في ذاته وإرادته ومشيئته وعلمه وسمعه وبصره وكلامه وحياته، فكذلك لا شبيه له في غضبه ورضاه ومحبته وكراهته وضحكه ويده وقدمه وأصابعه واستوائه وغير ذلك، الباب واحد، بابها عند أهل السنة باب واحد، كله يجب فيه الإثبات كما جاء في النصوص، وإمرار الصفات كما جاءت، مع الإيمان بها وإثباتها واعتقاد أنها حق، وتنزيه الرب عن مشابهة الخلق، فأهل السنة والجماعة يثبتون أسماء الرب وصفاته إثباتاً بريئاً من التنزيه، وينزهون الله عز وجل عن مشابهة خلقه بذاته أو صفاته تنزيهاً بريئاً من التعطيل، فلا تمثيل ولا تعطيل عند أهل السنة والجماعة، بخلاف أهل البدع، فإنهم بين ممثل وبين معطل، إما تعطيلاً كاملاً كالجهمية والمعتزلة، فإنهم عطلوا كل الصفات، أو تعطيلاً جزئياً كما يقع للأشعرية

وجماعة، والمشبهة مثلوا الله بخلقه وشبهوه بخلقه، فخسر الجميع وضل الجميع عن سواء السبيل، ووفق الله أهل السنة وثبتهم على الحق، فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله عليه الصلاة والسلام في الأحاديث الصحيحة، سواء كانت آحاداً أو متواترة، أثبتوها لله، إذا استقام الإسناد وصح الإسناد أثبتوا ما دل عليه الخبر لله عز وجل في جميع أنواع الصفات الذاتية والفعلية، كلها يثبتونها لله سبحانه وتعالى على الوجه اللائق به، إثباتاً بريئاً من التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل، هذا هو الواجب على كل مسلم، وهذا هو القول الحق الذي لا حق سواه، وما سواه باطل، ومن خالف هذا الأصل وهذا الأساس وهذا الطريق وهذا السبيل تناقض، أو خالف النصوص مخالفة ظاهرة علنية، فالجهمية عطلوا وهلكوا، والمشبهة مثلوا وهلكوا، وأهل السنة والجماعة أثبتوا لله ما جاءت به النصوص، فلم يشبهوا الله بخلقه ولم يعطلوا صفاته، ففازوا ونجوا، وصاروا أحق الناس بالرسل عليهم الصلاة والسلام، وأولاهم باتباعهم والسير على منهاجهم، جعلنا الله وإياكم منهم.أهـ

* * *

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(١).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا الحديث ورد بلفظين «كره لكم» و«سخط لكم» و«يكره لكم» و«يسخط لكم» وكلا ذلك حق، فهو يسخط ما يخالف شرعه ويكره ذلك، كما أنه يحب

---

(١) صحيح، متفق عليه، البخاري في «الاستقراض» ومسلم في «الأقضية».أهـ ألباني

ويرضى ما يوافق شرعه سبحانه وتعالى، لكن محبته ورضاه وكراهته وسخطه تليق به سبحانه وتعالى، لا تشبه صفات المخلوقين.أهـ

* * *

وفي المسند: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»[1] وكان من دعائه: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[2] فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضى من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول: الصفة، والثاني: أثرها المرتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فإعاذتي مما أكره ومنعه أن يحل بي، هي بمشيئتك أيضاً، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا معنى «أعوذ بك منك»، «أعوذ بك» لأنه المجيب والعاصم والحافظ، «منك» لأن كل شيء بمشيئته وإرادته سبحانه وتعالى، فالمؤمن يستجير بالله ويعوذ به منه، يعني يعوذ بصفات الرضا وصفات المحبة وصفات العفو وصفات الجود والكرم، من صفات الغضب والانتقام والعذاب ونحو ذلك.أهـ

* * *

فعياذي بك منك، وعياذي بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون

---

(١) صحيح، رواه أحمد وغيره بسند صحيح، وهو مخرج في «إرواء الغليل» (٥٦٤).أهـ ألباني.

(٢) صحيح، وتقدم، وهو مخرج في «صحيح أبي داود» (٨٢٣).أهـ ألباني.

بحولك وقولك وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك، بل هو منك، فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته.

فإن قيل: كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكراهته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتباينت طرقهم وأقوالهم.

فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره، قد لا يكون مقصوداً لما يريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه، وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتأكل، إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا تمثيل تقريبي، لأن هذا يقرب للعقلاء، فإن الشيء قد يراد لغيره لا لذاته، كقطع العضو المتآكل والدواء المكروه، لما يرجى من ورائه ظناً أو علماً من المصلحة،

فهو مراد غير مراد، مراد من جهة ما يرجى من ورائه، غير مراد ولا محبوب لما فيه من الكراهة والأذى، وهذا في حق المخلوق الضعيف القليل العلم، فكيف بالرب عز وجل، الذي يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية سبحانه وتعالى؟

فهو سبحانه قد يريد أشياء مكروهة له سبحانه وتعالى، لكن لها عواقب ولها غايات يحبها سبحانه وتعالى ويرضاها، ولهذا أرادها من زيد وعمرو، وإن كانت مكروهة في نفسها، لكن هناك ما توصل إليه من الغايات المحمودة، من انتقام ممن خالف أمره وعصاه وارتكب نهيه وآذى عباده، وغير هذا من الغايات التي يعلمها سبحانه وتعالى، فقد يصيب الإنسان ويقدر على الإنسان مرضاً وأذى من بعض الخلق، وإن كان مكروهاً له ذلك الشيء من فاعل ذلك الأذى، وإن كان المرض في نفسه ليس مطلوباً ومقصوداً، لكن وراءه أشياء من صبر المبتلى ورضاه واحتسابه وقيامه بما شرع الله له، فيكون وراء ذلك خير عظيم وفوائد جمة من هذا المصاب، وفيها ما يرضي الله ويقرب إليه سبحانه وتعالى، وهكذا ما يصيب الإنسان من أذى من بعض الناس أو سجن أو قتل أو غير ذلك فهو مقدر، وللذي أصابه ذلك - إن كان على الحق والهدى - من الخير والفلاح والفائدة العظيمة والعواقب الحميدة ما لا يحصيه إلا الله عز وجل.أهـ

سؤال/ يقولون: إنه يلزم من نزول الله أن يخلو منه المكان، لأن النزول يكون من أعلى إلى أسفل ؟

أجاب سماحة الشيخ: النزول في لغة العرب يكون من أعلى إلى أسفل، ولهذا استدل العلماء بقوله سبحانه ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ

ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ [الزمر:١] ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٣] وما أشبهه على أن القرآن كلامه سبحانه وتعالى، وعلى علوه سبحانه وتعالى، فربنا ينزل كل ليلة نزولاً يليق بالله لا يشابه خلقه سبحانه وتعالى في ذلك، فالنزول على قاعدته وعلى بابه، لكن ربنا لا يشابه خلقه حتى يقال إن هذا من جنس المخلوقين، وأنه متى نزل عن العرش خلا ذلك المكان، كما أن الشخص إذا نزل من السطح إلى الأرض صارت الأرض تحت السطح، هذا شيء يليق بالمخلوقين، أما ربنا عز وجل فله صفات تليق به لا يعلم كيفيتها إلا هو، وإلا فهو ينزل كما قال وكما يشاء سبحانه وتعالى، ولا نعلم كيفية هذا النزول، بل نكلها إليه سبحانه وتعالى، لأنه أخبرنا بالنزول ولكن لم يخبرنا بالكيفية، كما أخبرنا بالاستواء ولم يخبرنا بالكيفية كيف استوى، وأخبرنا أنه يسمع ولم يخبرنا كيف يسمع، وهكذا كيف يبصر وهكذا كيف يتكلم، إلى غير ذلك، فعلينا أن نمسك عما أمسك الله عنه، وعلينا أن ننطق بما نطق الله به، وبهذه الصفات العظيمة الخطيرة التي ضل فيها أمم وهلك فيها فرق، فطريق السلامة أن نقف حيث وقف الله ورسوله، وأن ننطق حيث نطق الله ورسوله، وبذلك تحصل السلامة مع إثبات الحق.أهـ

* * *

فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوقه، من ذلك: أنه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه، ومع هذا فهو وسيلة إلى

محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها، منها: أنه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات، التي هي أخبث الذوات وشرها، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبرائيل، التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك خالق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والدواء والداء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، والخير والشر، وذلك أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابلها بعضها ببعض، وجعلها محال تصرفه وتدبيره، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير ملكه.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع العقاب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل. فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٨/ ٩٤) عن أبي هريرة وأبي أيوب نحوه، وهما مخرجان في «الصحيحة» (٩٦٨، ٩٦٩) وله فيه شواهد (٩٦٧و٩٧٠).أهـ ألباني

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والمقصود من هذا كله أن يبين قدرته العظيمة، لو كان الناس شيئاً واحداً وصفةً واحدةً وطبيعةً واحدةً؛ لم تظهر آثار قدرته وتصرفه وقدرته على تنويع الأشياء وتقسيم الأشياء وإيجاد المضاد إلى غير ذلك، لو كان الناس طبيعة واحدة وحالاً واحدة لم تظهر قدرته سبحانه وتعالى على التصرف في أحوال عباده، فلما جعل هذا عاصيا وهذا مطيعاً، وهذا حسناً وهذا قبيحاً، وهذا سريع الغضب وهذا بطيء الغضب، وهذا أسود وهذا أبيض، وهذا كذا وهذا كذا، صار ذلك أوضح شيء على قدرته العظيمة وعلمه الكامل وإرادته النافذة، وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير، الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك، فلو قدر عدم الأسباب المكروهة، لتعطلت حكم كثيرة، ولفاتت مصالح عديدة، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر، لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح، التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالات لله سبحانه

وتعالى والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه، إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها.

فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب ؟

فهذا سؤال فاسد! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قيل: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضي إليه من الحكم، فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه، أم هي مسخوطة من جميع الوجوه؟

هذا السؤال يرد على وجهين: أحدهما: من جهة الرب تعالى، وهل يكون محباً لها من جهة إفضائها إلى محبوبه، وإن كان يبغضها لذاتها؟

والثاني: من جهة العبد، وهو أنه هل يسوغ له الرضى بها من تلك الجهة أيضاً؟ فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه.

مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه، وحركتها من حيث هي حركة: خير، وإنما تكون شراً بالإضافة، لا من حيث هي حركة، والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء في غير محله، فلو وضع في موضعه لم يكن شراً، فعلم أن جهة الشر فيه

نسبية إضافية، ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محالها خيراً في نفسها، وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذي حلت به، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شراً بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه في موضعه، فإنه سبحانه لم يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك، فلا يكون في جناب الحق تعالى أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه، لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه الخير كله بيديه، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شراً، فتأمله، فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شراً.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا مقام عظيم بحثه ابن القيم رحمه الله في كتابه «شفاء العليل» وفي غيره، والخلاصة أن ما يقع من الشرور والمعاصي وما يعده العبد شراً فهو نسبي، أما بالنسبة إلى الله فهو خير، فإنه إنما قدر العقوبات وقدر المعاصي لحكم بالغة، ابتلاءً وامتحاناً، ليتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر والمجتهد في طلب الحق من غيره، فهي بالنسبة إليه سبحانه وتعالى خير، حيث قضى ما قضى وقدر ما قدر من المعاصي والسيئات والكفر ونحو ذلك، بالنسبة إليه خير، لأنه حكيم عليم بما يقضي ويقدر سبحانه وتعالى، أما بالنسبة للمخلوق وما حصل له بسببها من الشقاء، فهي شر بالنسبة إليه، لكونه عصى ربه وخالف أمره، فهي شر بالنسبة إليه وخير بالنسبة إلى الله عز وجل، لكونه قضاها وقدرها لحكمة بالغة سبحانه وتعالى، فانقطع عنها الخير بفعل العبد لها، ولم ينقطع عنها الخير بالنسبة لحكمة الله عز وجل

وإرادته سبحانه وتعالى، فالشر ليس إليه، لا يتقرب به إليه ولا يضاف إليه، ولهذا قال عز وجل لما ذكر عن الجن المؤمنين قال: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ ﴾ [الجن:١٠] فنسبوا الرشد إليه ولم ينسبوا الشر إليه من أدبهم وفقههم، لما فيه من الإجمال، وإن كان خالقه، هو خالق الشر وخالق الخير سبحانه وتعالى، خلق المعصية وخلق الكفر وخلق الإيمان من العبد، الله خلق العبد وأفعاله من خير وشر وإيمان وكفر، ولكنه علمه الإيمان وخلق فيه ما خلق من أعمال الإيمان، وهو يحب ذلك ويرضاه، وعلمه الشر ونهاه عنه وكره منه ما فعله من ذلك الشر، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة في تقديره وإيجاده سبحانه وتعالى ذلك.

وقول بعض العلماء: إن القدر سر الله في خلقه، يعني الحكم والأسرار، لا يعلم غالب الأسرار وغالب الحكم إلا هو سبحانه وتعالى، والتعمق في ذلك كرهه أهل العلم، لأن التعمق قد يفضي إلى الشك والريب وسوء الظن، يكفي العبد أن يقول إن الله حكيم عليم، وأنه قضى ما قدر وقدر ما شاء لحكمة بالغة، قد تظهر للعباد وقد لا تظهر.أهـ

* * *

فإن قيل: لم تنقطع نسبته إليه خلقاً ومشيئة؟ قيل: هو من هذه الجهة ليس بشر، فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشر، والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء، حتى ينسب إلى من بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك، فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد، والإعداد، والإمداد، فإيجاد هذا خير، وهو إلى الله، وكذلك إعداده

وإمداده، فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل، وإنما إليه ضده.

فإن قيل: هلا أمده إذا أوجده؟ قيل: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده، وإنما اقتضت إيجاده وترك إمداده، فإيجاده خير، والشر وقع من عدم إمداده.

فإن قيل: فهلا أمد الموجودات كلها؟ فهذا سؤال فاسد، يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة ! وهذا عين الجهل ! بل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الذي بين الأشياء، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه تفاوت، والتفاوت إنما وقع لأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس في الخلق من تفاوت، فإن اعتاص عليك هذا، ولم تفهمه حق الفهم، فراجع قول القائل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

فإن قيل: كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟ قيل: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ..﴾ الآيتين، فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله، وهو طاعة، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسوله، فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أي فساداً وشراً، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي سعوا بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي قابلون منهم مستجيبون لهم،

فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه، فاجعل هذا المثال أصلاً، وقس عليه.

وأما الوجه الثاني، وهو الذي من جهة العبد: فهو أيضاً ممكن، بل واقع، فإن العبد يسخط الفسوق والمعاصي ويكرهها، من حيث هي فعل العبد، واقعة بكسبه وإرادته واختياره، ويرضى بعلم الله وكتابه ومشيئه وإرادته وأمره الكوني، فيرضى بما من الله ويسخط ما هو منه، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان. وطائفة أخرى كرهتها مطلقاً،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والصواب الأول، أن ما كان من جهة الله فهو محمود، لأن له الحكمة البالغة سبحانه وتعالى، فهو محمود على ما شرع وعلى ما قضى وقدر، لعظيم حكمته وكمال علمه ونظره لعباده، أما ما يتعلق بفعل العبد لها ووقوعها منه فهو مكروه مسخوط، لأن الله جل وعلا لا يرضى منه ذلك، بل نهاه عن ذلك، فهي من حيث وقوعها من العبد مكروهة مسخوطة، ومن حيث أن الله قدرها وسبق بها علمه محمودة، لما لله فيها من الحكم والأسرار والتمييز بين العباد، وبيان صالحهم وطالحهم ومحسنهم ومسيئهم، والراغب في الخير من غيره، والصادق من الكاذب، وظهور آثار أسماء الله سبحانه وتعالى من العفو والتواب والغفور والرحيم وغير هذا.أهـ

* * *

وقولهم يرجع إلى هذا القول، لأن إطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب وكتابه ومشيئته.

وسر المسألة: أن الذي إلى الرب منها غير مكروه، والذي إلى العبد مكروه.

فإن قيل: ليس إلى العبد شيء منها، قيل: هذا هو الجبر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق، والقدري المنكر أقرب إلى التخلص منه من الجبري. وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية أسعد بالتخلص من الفريقين.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والجبري ما يرى للعبد فعلاً ولا اختياراً، ويراه كالريشة يقلبها الهواء، وكاليد المرتعشة، وقولهم من أفسد الأقوال وأضلها، فسلبوا العبد قدرته واختياره، وما جعلوا له قدرة ولا اختياراً، وهذا باطل، والواقع شاهد ببطلان قولهم.

والقدرية النفاة نفوا خلق الله لأفعالهم، وقالوا إن العبد يستقل، وأن الأمر أنف وهذا باطل أيضاً.

وأهل السنة والجماعة وفقوا للتوسط، فآمنوا بأن الله سبق علمه وتقديره وكتابته، والعبد له فعل وله اختيار، ولكن لا يشاء إلا أن يشاء الله، فهو ملوم من جهة اختياره وفعله لما فعل من الشر، وهو الزاني وهو السارق وهو العاصي وهو الكافر، وهو قد مضى فيه علم الله وسبق فيه علم الله سبحانه وتعالى، فلله سبحانه وتعالى الحكمة البالغة والحجة الدامغة فيما شاء وقدر سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

فإن قيل: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير، ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟ قيل: هذا هو الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على غير ما هو عليه، فرأى تلك الأفعال طاعات،

لموافقته فيها المشيئة والقدر، وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته!
وفي ذلك قيل:

أصبحت منفعلاً لما يختاره   مني، ففعلي كله طاعات!

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا قول القدرية المرجئة، وهو قول أهل وحدة الوجود، وهذا من أبطل الباطل، فإن القدر نافذ وليس للعبد فيه حجة، وهو مأمور ومنهي ومسئول عن اختياره ومشيئته. أهـ

* * *

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية، فإن الطاعة هي موافقة الأمر الديني الشرعي، لا موافقة القدر والمشيئة، ولو كان موافقة القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين له، ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون كلهم مطيعين ! وهذا غاية الجهل، لكن إذا شهد العبد عجز نفسه، ونفوذ الأقدار فيه، وكمال فقره إلى ربه، وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين؛ كان بالله في هذه الحال لا بنفسه، فوقوع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال البتة، فإن عليه حصناً حصيناً، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، فلا يتصور منه الذنب في هذه الحال، فإذا حجب عن هذا المشهد وبقي بنفسه، استولى عليه حكم النفس، فهنالك نصبت عليه الشباك والأشراك، وأرسلت عليه الصيادون، فإذا انقشع عنه ضباب ذلك الوجود الطبعي، فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية محجوباً بنفسه عن ربه، فلما فارق ذلك الوجود صار في وجود آخر، فبقي بربه لا بنفسه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: «وأرسلت عليه الصيادون» أرسل: أحسن، لأنه جمع مذكر سالم.

ومعنى الكلام الأخير: أن العبد إذا استحضر عظمة الله واستقام على أمره وحافظ على دينه؛ فإنه حينئذ يكون في حفظ الله وكلاءته، كما في الحديث «**فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي**»(١) يعني حين استحضاره عظمة الله وحين قيامه بأمر الله، وحين ضمه النوافل إلى الفرائض عن رغبة ورهبة، وعن استحضار وشهود عيان، فإنه بهذا لا تقع منه المعصية، لأن ما في قلبه حينئذ من خوف الله وتعظيمه والإقبال عليه وجمعه عليه يمنع من ذلك، فإذا غفل ومال إلى شهواته وجاء حجاب الغفلة وحجاب الإعراض، قد تقع منه حينئذ المعصية، وقد ينال منه عدوه بسبب الغفلة.أهـ

* * *

فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرهه ؟!

فالجواب: أن يقال أولاً: نحن غير مأمورين بالرضى بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة، بل من المقضي ما يرضى به، ومنه ما يسخط ويمقت، كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه، بل من القضاء ما يسخط، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم.

ويقال ثانياً: هنا أمران: قضاء الله، وهو فعل قائم بذات الله تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة النحل، آية: ٧٧ ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ وشيخ الإسلام ابن تيمية في الاحتجاج بالقدر (٦٧) وابن رجب في كلمة الإخلاص وصححه الألباني فيهما (٣٤).

ومقضي: وهو المفعول المنفصل عنه.

فالقضاء كله خير وعدل وحكمة، نرضى به كله، والمقضي قسمان: منه ما يرضى به، ومنه ما لا يرضى به.

ويقال ثالثاً: القضاء له وجهان: أحدهما: تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليه، فمن هذا الوجه يرضى به.

والوجه الثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به وإلى ما لا يرضى به .

مثال ذلك: قتل النفس، له اعتباران: فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلاً للمقتول ونهاية لعمره؛ يرضى به، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله؛ نسخطه ولا نرضى به.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والوجه الثاني مع الثالث متقاربان، والخلاصة أن على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره، كما أن عليه أن يصبر، فالسنة للمؤمن أن يرضى، والصواب عند العلماء أن الرضى سنة ومستحب، والصبر واجب على المقضيات المكروهات، الصبر عليها واجب والرضا بها مستحب، كما في حديث أنس «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط**»[1] وإسناده مقارب، وقوله جل وعلا ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١] وفي الحديث الصحيح «**فإن**

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٦)كتاب الزهد / باب ما جاء في الصبر على البلاء، من حديث أنس رضي الله عنه وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجه ٢/ ١٣٣٨ الفتن / باب الصبر على البلاء وقال الألباني: حسن صحيح ٤/ ٦٠١ سنن الترمذي.

أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل» يعني سلّم لأمر الله وقل: «قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[١] ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦] يعني سلموا لله ولم يعترضوا، وكما جاء في الأحاديث «أنا بريء من الصالقة والحالقة»[٢] إلى آخره «ليس منا من ضرب الخدود»[٣] إلى آخره، فالمقصود أن الصبر واجب على ما يقضيه الله ويقدره من أمور يكرهها الإنسان، كموت قريب، والمرض والفقر والجراحات التي تؤذيه وما أشبه ذلك، لكن لها وجهان:

من حيث أنها فعل الله وقضاؤه يرضى بها، لأنه سبحانه وتعالى ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، فهو قضى هذه الأشياء وقدرها لحكمة بالغة، يرضى بها المؤمن ويقر بها ويعلم أنها عدل وحكمة، وأن الله سبحانه وتعالى يثنى عليه بها ويمدح بها لكونه الحكيم العليم جل وعلا.

ومن حيث أنها تصدر من المخلوق على وجه لا يرضاه الله، تكره من هذه الحيثية، تكره المعاصي والشرور والكفر وأنواع الضلال، تكره

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر / باب الإيمان بالقدر والإذعان له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٠٤) كتاب الإيمان/ باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (١٢٩٧) كتاب الجنائز / باب ليس منا من ضرب الخدود، و (١٢٩٨) باب ماينهى من الويل ودعوى الجاهلية عند المصيبة، و (٣٥١٩) كتاب المناقب / باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان / باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وتسخط من هذه الحيثية، من حيث صدرورها من المخلوق وكونه عصى الله جل وعلا بها، فهي مكروهة من المخلوق وبالمفعولات، ولكنها مرضية بالنسبة إلى الفعل، فهنا فاعل وفعل ومفعول:

فالفاعل هو الله سبحانه وتعالى.

والفعل وصفه من خلق وتقدير وغير ذلك.

والمفعول هو الواقع من كفر العبد ومعصيته وظلمه للعباد ونحو هذا.

هذا المفعول وقع بقضاء الله وقدره، فهو مفعول مخلوق لله عز وجل، ولكنه أيضاً ينسب إلى العبد كسباً وفعلاً، فهو مسخوط من هذه الحيثية، من حيث أن العبد اقترفه على وجه لا يرضاه الله سبحانه وتعالى، فنحن نكرهه من العبد ونسخطه من العبد ونذمه عليه، ويستحق عليه القصاص، القتل والحدود الشرعية لما يوجب الحدود، إلى غير ذلك، ولكنه مرضي من جهة أن الله قدره، فالله سبحانه وتعالى هو الحكيم العليم، فنؤمن بهذا ونرضى به قدراً، ونصف الله بما يستحقه من ذلك، لكونه العدل الحكم الحكيم فيما يقضيه ويقدره، كما أنه الحكيم فيما يشرعه لعباده ويأمر به سبحانه وتعالى، وهذه نكتة عظيمة للفطن، قل من يفرق بها ويفطن لها.أهـ

* * *

وقوله: «والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان» آخره.

التعمق: هو المبالغة في طلب الشيء، والمعنى: أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان.

الذريعة: الوسيلة، والذريعة والدرجة والسلم متقاربة المعنى، وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقاربة المعنى أيضاً، لكن

الخذلان في مقابلة النصر، والحرمان في مقابلة الظفر، والطغيان في مقابلة الاستقامة.

وقوله: «فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة».

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال: «وقد وجدتموه»؟ قالوا: نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان»(١) رواه مسلم، الإشارة بقوله: «ذلك صريح الإيمان» إلى تعاظم أن يتكلموا به،و لمسلم أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة؟ فقال: «تلك محض الإيمان»(٢) فهو بمعنى حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان و محض الإيمان.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني ليست الوسوسة هي صريح الإيمان، وإنما صريح الإيمان مدافعتها واستعظامها واعتبارها عظيمة لا ينبغي أن يتكلم بها، هذه الوسوسة التي يلقيها الشيطان في القلوب نحو الله ونحو رسوله ونحو شرعه ونحو الإيمان بالبعث والنشور والجنة والنار، وما يتضمن التشكيك بذلك والاعتراض في ذلك، هذه من وساوس الشيطان، تقع على الصالحين وغير الصالحين، فالصالحون يستعظمونها ويرونها شراً عظيماً وبلاءً كبيراً، ويوقنون أنها من الشيطان، فاستعظامهم لها وتيقنهم أنها من عمل الشيطان ذاك صريح الإيمان، وفي

(١) أخرجه مسلم (١/ ٨٣) وكذا أحمد (٢/ ٤٥٦). أهـ ألباني

(٢) رواه مسلم عنه، وأحمد (٦/ ١٠٦) من حديث عائشة. أهـ ألباني

رواية «**إن أحدنا ليجد في نفسه ما أن يخر من السماء أحب إليه من أن ينطق به**»(١) وروي «**ما نتعاظم أن ننطق به**»(٢) من خبث وشر وما يفضي إليه من التشكيك بالله وفي دينه وبالبعث والنشور والجنة والنار وفي صدق الرسول وغير هذا من هذه الأجناس، ومن هذا الباب ما ثبت في الحديث الصحيح في الصحيحين عن النبي ﷺ «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: هذا الله خلق كذا وخلق كذا فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فلينته**»(٣) وفي اللفظ الآخر «**فليقل آمنت بالله ولينته**»(٤) وفي لفظ آخر «**فليستعذ بالله ولينته**»(٥) وقد وقع هذا لأبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه، جاءه رجلان يسألانه عن هذا السؤال فحصبهما وقال: صدق خليلي صدق خليلي، ثم ذكر الحديث(٦)، هذا من جنس الوسوسة التي تقع، ومن جنس حديث الشيطان الذي يقع لبعض الناس، فإذا وجد الإنسان هذه الأشياء من التشكيك في الله، أو التشكيك بالبعث والنشور أو الجنة والنار، أو صدق الرسول أو صدق القرآن أو أنه كلام الله، أو ما أشبه ذلك من الأمور المعروفة المقطوع بها، التي هي من أسس الإيمان؛

---

(١) رواه مسلم (١٣٢) كتاب الإيمان/ باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤٨) كتاب الأدب/ باب: في رد الوسوسة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (١٣٤) كتاب الإيمان/ باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (١٣٤) كتاب الإيمان/ باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه مسلم (١٣٤) كتاب الإيمان/ باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) رواه مسلم (١٣٥) كتاب الإيمان/ باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها.

فليعلم أنه من الشيطان، وليحذر ذلك وليعرض عن ذلك، وليقل آمنت بالله ورسله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هذا هو صريح الإيمان، استعظامك لهذا الشيء وإنكاره واستقباحه، وما يقع منك من قول: آمنت بالله ورسله والتعوذ بالله من الشيطان، هذا كله من صريح الإيمان، ومن الدلائل على قوة الإيمان واستقامة العبد وبعده عن الاستجابة لعدو الله الشيطان. أهـ

* * *

هذه طريقة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، ثم خلف من بعدهم خلف، سودوا الأوراق بتلك الوساوس، التي هي شكوك وشبه، بل وسودوا القلوب، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولذلك أطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[1] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم» قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم أشهده، بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده[2]. ورواه ابن ماجه أيضاً.

---

(١) متفق عليه. أهـ ألباني

وقال شاكر: رواه أحمد والشيخان وغيرهم. أهـ

(٢) صحيح، رواه أحمد وغيره بسند جيد. أهـ ألباني

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا إسناد جيد حسن، لأن أبا معاوية وداود بن أبي هند كلاهما ثقة ظاهر معروف، فهو من رجال الحسن.أهـ

* * *

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ الخلاق: النصيب، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي استمتعتم بنصيبكم كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم وخضتم كالذي خاضوا، أي كالخوض الذي خاضوه، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذي خاضوا، وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض، لأن فساد الدين إما في العمل وإما في الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثاني من جهة الشبهات.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال: «لتأخذن أمتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع» قالوا: فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا أولئك»[(١)] وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتي من يصنع ذلك، وإن بني اسرائيل تفرقوا على اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[(٢)] رواه الترمذي.

---

(١) أخرجه البخاري في «الاعتصام» وكذا أحمد (٢/ ٣٦٧، ٣٢٥).أهـ ألباني

(٢) ضعيف بهذا السياق، وقد حسنه الترمذي في بعض النسخ، وهو ممكن باعتبار شواهده، ولذلك أوردته في «صحيح الجامع» (٥٢١٩) «الصحيحة» (١٣٤٨).أهـ ألباني

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا الحديث له طرق كثيرة في المسند والسنن، حديث عبدالله وغيره، عدة أحاديث يشد بعضها بعضاً، وإن كان الإفريقي يطعن فيه لسوء الحفظ، وهو إمام كبير، قاضي إفريقيا، لأن جماعة من أهل العلم وثقوه وعظموا شأنه، وآخرون نقدوه في حفظه بعض الشيء، والحديث له طرق جيدة، جاء عن عدة من الصحابة، كلها تدل على صحة هذا الافتراق وأنه واقع، وأنه لا عصمة ولا سلامة إلا بالثبات على ما كان عليه النبي وأصحابه، وبقية الطرق كلها هلاك ومفضية إلى النار، إلا من سلك مسلك النبي ﷺ ومسلك أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم.أهـ

* * *

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[1] رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا فيه شك، ولكن المحفوظ: اليهود إحدى وسبعون، والنصارى ثنتان وسبعون، وهذه الأمة ثلاث وسبعون.أهـ

* * *

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة

(١) صحيح، وهو مخرج في «الصحيحة» (٢٠٣).أهـ ألباني

ستفترق على ثلاث وسبعين ملة[١]. ـ يعني: الأهواء ـ، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة».

وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة: مسألة القدر، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا الافتراق الذي وقع في الأمة ابتلاء وامتحان، ولو شاء ربك لم يقع، ولكنه سبحانه ابتلى هؤلاء بهؤلاء وهؤلاء بهؤلاء، فصار طالب الحق يحتاج إلى عناية وإلى صبر وإلى تفتيش عن الحق بأدلته، حتى يسلم من هذه الطرق المعوجة المنحرفة، وبهذا يعلم طالب العلم أن المقام عظيم، وأن الواجب عليه كبير، حتى يحتاط لنفسه، وحتى يأخذ بالأدلة الكافية في جميع شؤون الدين، وأن لا يرضى بالهوينة أو بالتقليد الأعمى أو بالكسل والضعف، بل يشمر ويعتني بالأدلة الشرعية، ويعنى بالقرآن العظيم الذي هو أصل العصمة، وهو أصل كل خير، وهو الهادي إلى سبل الرشاد، فعليه العناية العظيمة بالقرآن تدبراً وتعقلاً وحفظاً وتكراراً للتلاوة وتدبراً للمعاني ومراجعة لكلام أهل التفسير، حتى يطمئن إلى كل شيء.

وهكذا السنة والعناية بها وحفظ ما تيسر منها والإكثار من القراءة والمراجعة، فقد يراجع الإنسان الحديث مرات بعد مرات ثم يضيع عليه، كما قد يعتني بالقراءة والحفظ ثم تضيع عليه بعض الآيات وبعض الكلمات، فلا يمل أبداً، لا يمل من الدراسة والعناية والمراجعة والتلاوة ومراجعة الأحاديث وهكذا، هكذا مراجعة كلام أهل العلم المعروفين

---

(١) صحيح، وهو مخرج في المصدر المذكور (٢٠٤).أهـ ألباني

بالاستقامة والسنة والرد على أهل البدع، حتى يزداد علمه وحتى يطمئن قلبه، وحتى يكون على بينة في رده على الخصوم.أهـ

* * *

وقوله: «فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين».

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمه عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما في الإنجيل: «يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا» ولهذا كان سلف هذه الأمة، التي هي أكمل الأمم عقولاً ومعارف وعلوماً ـ لا تسأل نبيها: لم أمر الله بكذا؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم، فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر عن القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأموراً، بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته ـ فإن ظهرت له فعله وإلا عطله، فإن هذا ينافي الانقياد، ويقدح في الامتثال.

قال القرطبي ناقلاً عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهماً راغباً في

العلم ونفي الجهل عن نفسه، باحثاً عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه فلا بأس به، فشفاء العي السؤال، ومن سأل متعنتاً غير متفقه ولا متعلم، فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره[١].

قال ابن العربي: الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة، وإيضاح سبل النظرة، وتحصيل مقدمات الاجتهاد، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد.

قال: فإذا عرضت نازلة، أتيت من بابها، ونشدت من مظانها، والله يفتح وجه الصواب فيها. انتهى[٢].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والمعنى في هذا أن الواجب على الأمة التصديق والتسليم والانقياد، وعدم البحث عن العلل والحكم، لأن الذي إنما يتبع ما ظهرت له حكمته وعلته؛ معناه إنما اتبع رأيه وهواه، ما اتبع الأوامر، والمطلوب اتباع الأوامر والانقياد لها مطلقاً، وإن لم تعرف العلة والحكمة التي من أجلها جاء الأمر، لأن إيمانك يلزمك إلى هذا، فإنك مؤمن، فإنك عبد مأمور وعليك الامتثال، ومؤمن بأن ربك حكيم عليم، ليس بسفيه ولا عابث ولا جاهل، بل يأمر عن حكمة وينهى عن حكمة ويدعو إلى الخيرات، فهو سبحانه العالم بكل ما يأمر به وينهى عنه، وهو الحكيم العليم، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:٨٣] ولما ذكر الفرائض والمواريث قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) تفسير القرطبي ٦/ ٣٠٦، سورة المائدة/ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (١٠١)، وقد ذكره ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٣٩٧ كتاب الكلام/ باب ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين.

(٢) تفسير القرطبي ٦/ ٣٠٦ سورة المائدة/ آية (١٠١).

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١١] وهو سبحانه عليم بما يأمر به وينهى عنه حكيم في ذلك، قال جل وعلا: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ [المؤمنون:١١٥] ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة:٣٦] ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص:٢٧] فهو سبحانه ليس بعابث، ولا يفعل شيئاً عبثاً ولا باطلاً، ولا يأمر بشيء عبثاً ولا باطلاً، فتعين حينئذ الإيمان بأن جميع الأوامر والنواهي كلها عن حكمة، وعن غايات محمودة، وعن مقاصد رفيعة، فلا يوجه إليه السؤال، إنما السؤال عن الحكمة في أمر من يخطئ ويصيب، في أمر من قد يجهل ويعبث، أما الحكيم العليم الذي لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء، وهو الحكيم في أقواله وأعماله؛ فلا وجه للسؤال ولا حاجة للسؤال، ولهذا قال سبحانه: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٣] يعني لكمال حكمته وكمال علمه لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون لضعفهم وجهلهم وخطئهم، لكن كما قال ابن عبد البر: من سأل من باب العلم والاستفادة عما يظهر من الحكم، مع إيمانه بأن ربه حكيم عليم، وأن الامتثال واجب، لكن سأل من باب التبصر ومن باب الفائدة، من باب تثبيت العلم، فهذا لا بأس على وجه الاستفادة والعلم، لا على وجه الاعتراض أو التوقف عند عدم وضوح العلة، بل هو مستمر منفذ عازم على فعل ما أمر الله به ورسوله مصمم على ذلك، ولكن قد يسأل عن بعض الفوائد ليعلم بها الحكمة والأسرار التي تعين ضعفاء العلم وضعفاء البصيرة، تعينهم على الامتثال وعلى الإيمان بحكمة الله، وعلى حسن الظن بالله سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

وقال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[١] رواه الترمذي وغيره، ولا شك في تكفير من رد حكم الكتاب، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له، بين له الصواب ليرجع إليه، فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل، لكمال حكمته ورحمته وعدله، لا لمجرد قهره وقدرته، كما يقول جهم وأتباعه، وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله».

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني إلا إذا استحل الذنب، من زنى لا يكفر إلا إذا استحل الزنا، من سرق لا يكفر إلا إذا استحل السرقة، من عق والديه لا يكفر إلا إذا استحل العقوق، قال إنه حلال ما فيه بأس، نسأل الله السلامة، وهكذا.أهـ

* * *

قوله: (فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب العلم المفقود).

ش: الإشارة بقوله: «فهذا» إلى ما تقدم ذكره مما يجب اعتقاده والعمل به، مما جاءت به الشريعة.

وقوله: «وهي درجة الراسخين في العلم» أي علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلاً، نفياً وإثباتاً.

---

(١) صحيح، روي عن جمع من الصحابة، خرجته في «الروض النضير» (٣٢١،٢٩٣).أهـ ألباني

ويعني بالعلم المفقود: علم القدر الذي طواه الله عن أنامه، ونهاهم عن مرامه.

ويعني بالعلم الموجود: علم الشريعة، أصولها وفروعها، فمن أنكر شيئاً مما جاء به الرسول كان من الكافرين، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته، ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات، التي لا يعلم منها إلا المضرة: لم ينف أن يكون الله تعالى خالقاً لها، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا، لأن عدم العلم لا يكون علما بالمعدوم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا كله واضح، فإن إنكار العلم الموجود ـ وهو علم الشريعة ـ أو عدم الإيمان به كفر وضلال، فالله جل وعلا بعث الرسل بشرائع وأحكام يجب على الخلق التزامها، وعلى رأسهم مقدمهم وإمامهم محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام، أرسله الله إلى الناس عامة بما جاء به من علم العقائد وعلم الأحكام، فوجب الإيمان بذلك وتلقيه بالقبول، فإنكاره كفر وضلال وردة عن الإسلام ممن انتسب إليه.

أما العلم المفقود فعلم الغيب، علم ما قدر الله للعباد، وما مضى في علمه سبحانه وتعالى مما يكون في العالم، ومما يكون في الآخرة، هذا

إليه سبحانه وتعالى ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل:٦٥] هو العالم بكل شيء جل وعلا، فليس لأحد أن ينكر العلم الموجود، وليس لأحد أن يدعي العلم المفقود، بل عليه أن يسلم لأمر الله، وأن ينقاد لحكم الله، ويقف عند الحد الذي حده الله، مع الإيمان بأن الله حكيم عليم في كل شيء، حكيم عليم في خلقه، جميع المخلوقات، ما ظهرت حكمته وماخفيت حكمته، ولهذا كرر سبحانه وتعالى في آيات كثيرات هذا الأمر العظيم، هذا الأصل الكبير ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٢٨] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١١] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:٨٣] إلى غير ذلك، كل هذا يبين أن أفعاله وتدبيراته وشرائعه؛ كلها صادرة عن علم لا عن جهل، وعن حكمة لا عن عبث، فالعلم شامل، والغايات والحكم عظيمة، والقدرة كاملة، وإذا أشكل عليك شيء في هذه الأمور فقل كما قالت الملائكة: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:٣٢] سواء ما ذكره المؤلف هنا من حكمة الحيات والعقارب والفأر والحشرات الأخرى أو غير ذلك.

وقد يقال كما قال جمع من أهل العلم: إنها لبيان أن هذه الدار ليست دار خلد وليست دار نعيم، ولكنها دار منغصة، منغصة بالحر والبرد والأمراض والأكدار، وهذه الحشرات التي تؤذي الكثير من الناس وتنكد عليهم بعض معيشتهم، فلله الحكم والأسرار العظيمة في خلق ما خلق من السباع والكائنات المفترسة، ومن هذه الحشرات التي يقذرها الناس وتؤذي الناس، من البعوض والذباب والذر والحشرات الأخرى والحيات والعقارب وغير ذلك، فله فيها الحكمة البالغة والحجة

الدامغة، سواء عرفنا ذلك أو لم نعرف ذلك، ولا شك أن فيها تنغيصاً لهذه الدار وتكديراً لهذه الدار، وبياناً بأنها ليست دار نعيم وليست دار سرور، ولكنها دار منغصة بأنواع المنغصات، ليطلب العاقل داراً غير هذه الدار، وليلتمس ذو البصيرة داراً سليمة مما ينغص، وليس هناك دار سليمة من المنغصات إلا الجنة، والطريق إليها هو امتثال ما جاءت به الرسل، والأخذ بما جاءت به الرسل، وحظنا منهم ونصيبنا هو نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فلا طريق إلى الجنة والكرامة والسلامة من هذه المنغصات إلا بالتمسك بما جاء به هذا النبي العظيم، من الشرع القويم والصراط المستقيم قولاً وعملاً وعقيدة، والدعوة إليه والصبر عليه، هذا هو الطريق ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام:١٥٣] ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة:٦] ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٧] هذا الطريق، وهذا الطريق يشمل أداء فرائض الله وترك محارم الله والوقوف عند حدود الله والدعوة إلى الله والصبر على ذلك، كله داخل في الطريق، والله المستعان.أهـ

* * *

قوله: (ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رقم).

ش: قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني بسنده إلى النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خلق لوحاً محفوظاً، من درة بيضاء، صفحاتها ياقوتة حمراء، قلمه نور وكتابه نور، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة، يخلق ويرزق ويميت ويحيي،

ويعز ويذل، ويفعل ما يشاؤه»(١).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

وقول المحشي: إن زياد بن عبدالله البكائي ضعيف، ليس بجيد، أما ليث بن أبي سليم ضعيف لسوء حفظه واشتغاله بالعبادة، أما زياد بن عبدالله البكائي راوي السيرة عن أبي إسحاق، هو عندهم جيد لا بأس به، أقل أحواله أن يكون حسناً، وقول المحشي: كلاهما ضعيف، ليس بجيد، والحافظ ذكر أن في روايته عن غير أبي إسحاق بعض اللين، وأنه ثبت في روايته عن أبي إسحاق في المغازي، وهو صدوق، فإطلاق الضعف عليه مطلقاً ليس بجيد.

والحديث لا بأس به، بالطريقين جيد، والموقوف لا مجال للرأي

(١) ضعيف، رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٦٥/ ١) وفيه زياد بن عبد الله وهو البكائي، عن ليث، وهو ابن أبي سليم، وكلاهما ضعيف، وقد رواه (٣/ ٨٨/ ٢) من طريق أخرى نحوه عن ابن عباس موقوفاً عليه، وإسناده يحتمل التحسين، فإن رجاله كلهم ثقات غير بكير بن شهاب وهو الكوفي، قال فيه أبو حاتم: «شيخ»، وذكره ابن حبان في «الثقات» (٢/ ٣٢).

(تنبيه): كان الحديث محرفاً في مطبوعة أحمد شاكر، وكان هو صححه من مجمع الزوائد الذي أورد الحديث عن ابن عباس موقوفاً، وصححناه نحن من حديثه المرفوع من «المعجم» وهو الصواب، لأن المؤلف ساقه من الطريق المرفوعة، فلا يصح تصحيح ما وقع فيه من التحريف من الطريق الموقوفة، كما لا يخفى، لاختلاف لفظيهما، كما أشرت إلى ذلك بقولي: «نحوه». أهـ ألباني

وقال شاكر: هذا الحديث محرف جداً في المطبوعة، وفيها زيادة ونقص، وقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٩٠-١٩١ وصححناه منه، ولكنه فيه موقوف من كلام ابن عباس، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني من طريقين، ورجال هذه ثقات» فلعل الشارح نقله من الرواية الأخرى التي أعرض عنها الهيثمي. أهـ

فيه، له حكم المرفوع إذا لم يتلق عن بني إسرائيل.أهـ

❊ ❊ ❊

اللوح المذكور هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله وكتب به في اللوح المذكور المقادير، كما في سنن أبي داود، عن عبادة بن الصامت، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»(١).

---

(١) صحيح، غير أني متوقف في صحة الحرف الذي استدل به المؤلف، وهو «فقال» فقد جاء في بعض الروايات بلفظ: «ثم قال» فأخرجه أبو داود (٤٧٠٠) من طريق أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت فذكره بلفظ «فقال..».

قلت: وأبو حفصة اسمه حبيش بن شريح الشامي، لم يوثقه غير ابن حبان، وفي التقريب: «مقبول» يعني عند المتابعة، وإلا فلين الحديث كما نص عليه في المقدمة، وقد توبع، لكن الطريق إلى المتابع لا يصح، فقال الطيالسي (٥٧٧) حدثنا عبد الواحد بن سليم عن عطاء بن أبي رباح، حدثني الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه به .. ومن طريق الطيالسي رواه الترمذي (٢/ ٢٣٢) وقال: «حديث حسن غريب، وفيه عن ابن عباس».

قلت: وعبد الواحد هذا ضعيف كما في التقريب.

وقد خالفه أيوب بن زياد فقال: حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني أبي به، لكنه قال: «ثم قال: اكتب..».

وهذا أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧) وسنده حسن، رجاله كلهم ثقات معروفون، غير زياد هذا، وقد روى عنه جماعة، ووثقه ابن حبان، فهو حسن الحديث إن شاء الله تعالى، لكن قد أخرجه الآجري في كتاب الشريعة، ص (١٧٧) من طريق بلفظ: «فقال له اجر..» ورواه يزيد ابن أبي حبيب عن الوليد بن عبادة به بلفظ: «ثم قال له اكتب» ورجاله ثقات غير ابن لهيعة فإنه سيء الحفظ.

ويشهد له حديث أبي هريرة بلفظ: «**إن أول شيء خلق الله عز وجل القلم، ثم خلق النون وهي الدواة، ثم قال اكتب..**» الحديث.

رواه الآجري والواحدي في تفسيره (٤/ ١٥٧/ ٢) وفيه الحسن بن يحيى الخشني، مختلف فيه، وفي التقريب «صدوق كثير الغلط». =

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الحديث بالجملة جيد لا بأس به، وإنما الخلاف هل هو أول المخلوقات أم لا ؟

وشيخ الإسلام ابن تيمية والجماعة يرون أنه أول المخلوقات المشاهدة التي يشاهدها الناس، أما أول المخلوقات في الجملة فالله أعلم، وابن القيم رحمه الله ذكر عن الهمداني قال:

والناس مختلفون في القلم الذي كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده؟ قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبل لأنه حين الكتابة كان ذا أركان

.. يشير إلى قول النبي ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**»[1] فظاهر النصوص أن العرش متقدم قبل خلق القلم، وروايات خلق القلم فيها اختلاف في ألفاظها، فلا تقوى على الحكم بأن القلم قبل ذلك، فإن في رواية «**فقال**» ورواية أخرى «**ثم قال**» وفي رواية «**قال له**» من غير فاء ولا ثم، «**إن أول ما خلق الله القلم قال له اكتب**» يعني حين خلقه قال له اكتب، يعني في حين خلقه قال له اكتب «**فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة**» فالأمر في هذا واسع، والله أعلم.

= وبالجملة، فالروايات في هذا الحرف مختلفة، ولذلك فإنه لا يتم للمصنف الاستدلال بالرواية الأولى على تقدم خلق العرش على القلم، حتى يثبت أرجحيتها على الأخرى: «ثم قال..» وإذا كان لابد من الترجيح بينهما، فالأخرى أرجح من الأولى لاتفاق أكثر الرواة عليها، ولأن لها شاهداً عن أبي هريرة كما تقدم، ولأنها تتضمن زيادة في المعنى، وعليه فلا تعارض بين الحديث على هذه الرواية، وبين حديث عبد الله بن عمرو، لأن حديثه صريح في أن الكتابة تأخرت عن خلق العرش، والحديث على الرواية الراجحة صريح في أن القلم متقدم على العرش، والله أعلم. أهـ ألباني

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد تقدم.

يميل ابن القيم إلى أن المقصود: المخلوقات المشاهدة، ليس كل شيء، بل المشاهدة التي يشاهدها الناس من السماء والأرض، فهو خلق قبلها، بخلاف المخلوقات التي لا يشاهدها الناس، كالعرش وغير ذلك من المخلوقات التي يعلمها الله سبحانه وتعالى.

وبعضهم أجاب بأن الرواية **«قال له»** بغير فاء ولا ثم **«إن الله أول ما خلق القلم قال له»** يعني في أول خلقه قال له، والأمر في هذا واسع، والله أعلم سبحانه وتعالى.

وهذا الاختلاف قد لا يسمى اضطراباً، لأن المقصود حاصل «إن أول ما خلق الله القلم فقال» أو **«ثم قال»** أو **«قال له»** فالمقصود حاصل سواء كان بفاء أو ثم أو بإسقاطهما، والحاصل أن القلم قيل له اكتب وأنه جرى بالقدرات، سواء كان قبل ذلك شيء أو لم يكن.

وقول المحشي: حسن إن شاء الله، التقييد بالمشيئة لأن عنده نوع شك، في رواته بعض الشك.أهـ

* * *

واختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات، أو العرش؟ على قولين، ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمداني، أصحهما: أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح من حديث عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»(١) فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، بحديث عبادة هذا، ولا يخلو قوله: «أول ما خلق الله القلم» إلخ ـ إما أن يكون

---

(١) صحيح، وتقدم.أهـ ألباني

جملة أو جملتين، فإن كان جملة، وهو الصحيح، كان معناه: أنه عند أول خلقه قال له: اكتب، كما في اللفظ: «أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب» بنصب أول والقلم، وإن كان جملتين، وهو مروي برفع أول والقلم، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق الحديثان، إذ حديث عبدالله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «لما خلق الله القلم قال له: اكتب» فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

والقلم الثاني: قلم الوحي: وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبي ﷺ لله ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها[1]، أمر العالم العلوي والسفلي.

قوله: (فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن، ليجعلوه غير كائن ـ لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه، ليجعلوه كائناً ـ لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة).

ش: تقدم حديث جابر عن رسول الله ﷺ، قال: جاء سراقة بن مالك ابن جعشم، فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما استقبل؟ قال:

(١) لعله يدبر بها.ابن باز.

«لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير»[١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «يا غلام ألا أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»[٢] رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وفي رواية غير الترمذي: «احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً».

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وفي آخر اللفظ الأول في حديث سراقة قالوا: ففيم العمل؟ سألوه، مادام أن الأمور قد جرت بها المقادير وجفت بها الأقلام ففيم العمل يا رسول الله؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[٣]، وفي هذا المعنى من رواية علي أيضاً في الصحيحين أنه ﷺ جاء يشيع جنازة فجلس عند القبر ولما يلحد فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار» قالوا يا رسول الله: ففيم العمل إذاً؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون

---

(١) صحيح، وتقدم. أهـ ألباني

(٢) صحيح لغيره، وقد خرجته في السنة لابن أبي عاصم (٣١٦-٣١٨). أهـ ألباني

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٨) كتاب القدر / باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه.

لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠]»[1] والأحاديث في هذا كثيرة في مسألة القدر وسبقه، وأنه أمر مضى، وأن العباد يجرون في أمر قد فرغ منه، وأن الله سبحانه وتعالى ييسر أهل السعادة للسعادة وييسر أهل الشقاوة للشقاوة، وأن على كل مكلف أن يعمل ويجتهد، ويسأل ربه التوفيق، فسوف ييسر لما خلق له.أهـ

* * *

وقد جاءت الأقلام في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة، فدل ذلك على أن للمقادير أقلاماً غير القلم الأول، الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ.

والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة، وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم ذكره:

القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح.

القلم الثاني: خبر خلق آدم، وهو قلم عام أيضاً، لكن لبني آدم، ورد في هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم، عقيب خلق أبيهم.

القلم الثالث: حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث علي رضي الله عنه، وقد تقدم.

سعيد(١)، كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة.

القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه، الذي بأيدي الكرام الكاتبين، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: قوله: «القلم الثاني خبر خلق آدم» يقصد لما لام موسى آدم، قال: إن الله قد كتبها قبل أن يخلقني، كذلك إخراج ذريته من ظهره كتب ما كتب، قد يريد هذا، لكن بكل حال هذه الأقلام ليس بلازم أن تكون أربعة، الأقلام لا يحصيها إلا الله جل وعلا، فالجزم بأنها أربعة ليس بجيد، والأقلام لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر ابن القيم في بعض كتبه كذلك: الأقلام الأربعة، ولكن ليس المعنى أنه ليس هناك قلم آخر، قال: هي أقلام أربعة، قد قيل: إن هناك قلم خامس وهو ما يكتب به الحوادث في السنة، فإن في السنة ليلة القدر فيها لله سبحانه وتعالى تقادير، قد جاء في الآثار عن ابن عباس وغيره أن الله جل وعلا يقدر فيها ما يكون من حوادث السنة(٢).

فالحاصل أن الأقلام لا يجوز الجزم بأنها أربعة فقط، فالأقلام كثيرة، والله هو الذي يعلمها ويحصيها سبحانه وتعالى، ولهذا قال في حديث المعراج: «**يسمع به صريف الأقلام**»(٣) الأقلام التي تكتب لا

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود، وقد مضى بتمامه. أهـ ألباني

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد عند قوله تعالى ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ الرعد (٣٩) وعند قوله تعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ رواه عن قتادة وأبي مالك، وذكره ابن كثير في تفسيره عند آية الرعد السابقة.

(٣) رواه مسلم (١٦٣) كتاب الإيمان / باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، قد تكون أربعة وقد تكون مائة وقد تكون آلافاً، الله الذي يعلمها سبحانه وتعالى، قد يكون لكل شيء قلم خاص، فربنا هو العالم بهذه الأشياء سبحانه وتعالى.أهـ

سؤال/ حج آدم موسى بأمرين ما هما ؟

أجاب سماحة الشيخ: «فحج آدم موسى فحج آدم موسى»[1] أحدهما: أنه لامه على أمر ليس من صنعه، صنعه الذي يلام عليه: الذنب، وأما كونه أنزل إلى الأرض لحكمة بالغة فلا يلام على هذا، ولا إخراجه من الجنة، إنما اللوم على فعله المعصية، أما ما رتب الله عليها فهو الحكيم العليم سبحانه وتعالى.

والأمر الثاني: أنه لامه بعد التوبة، والإنسان بعد التوبة لا يلام، إنما يلام قبل أن يتوب، يلام ويقرّع حتى يتوب، أما إذا تاب فإنه لا يلام، بعد التوبة لا يقال للإنسان سيئته، قد يشكر على توبته ويدعى له ويشجع على الثبات عليها.أهـ

* * *

وإذا علم العبد أن كلاً من عند الله، فالواجب إفراده سبحانه بالخشية والتقوى، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ ﴿ وَإِيَّىَ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩) كتاب أحاديث الأنبياء/ باب وفاة موسى وذكره بعده،و (٤٧٣٦) كتاب التفسير/ باب قوله ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ و (٤٧٣٨)و (٦٦١٤) كتاب القدر/ باب: تحاج آدم وموسى عند الله و(٧٥١٥) كتاب التوحيد/ باب: ما جاء في قوله عز وجل ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ ومسلم (٢٦٥٢) كتاب القدر/ باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وكذا رواه اللالكائي (١٠٣٢) ٢/ ٦٤٢.

فَٱرۡهَبُونِ﴾ ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾.

ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة، ولا بد لكل عبد أن يتقي أشياء، فإنه لا يعيش وحده، ولو كان ملكاً مطاعاً فلا بد أن يتقي أشياء يراعي بها رعيته، فحينئذ فلا بد لكل إنسان أن يتقي، فإن لم يتق الله اتقى المخلوق، والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم، بل الذي يريده هذا يبغضه هذا، فلا يمكن إرضاؤهم كلهم، كما قال الشافعي رضي الله عنه: رضى الناس غاية لا تدرك، فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه، ودع ما سواه فلا تعانه، فإرضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور، وإرضاء الخالق مقدور ومأمور.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ومن أراد رضا الخلق هلك، لأنهم لا يرضون إلا بما يوافق أهواءهم، فالحزم والواجب العناية بإرضاء الله، والقيام بأمره سبحانه وتعالى، والوقوف عند حدوده، رضي الناس أو كرهوا، هذا هو طريق النجاة، طريق النجاة: العناية بأسباب رضا الله، وذلك باتباع أوامره وترك نواهيه والوقوف عند حدوده واتباع ما شرع، و محبة الناس على قدر قيامهم بأمر الله، فيحبون في الله ويبغضون في الله، ويرضى منهم ما يرضي الله ويكره منهم ما يكرهه الله، هذا هو طريق النجاة، وهو الطريق الذي جاءت به الرسل ودل عليه القرآن العظيم.أهـ

* * *

وأيضاً فالمخلوق لا يغني عنه من الله شيئاً، فإذا اتقى العبد ربه كفاه مؤنة الناس، كما كتبت عائشة إلى معاوية، روي مرفوعاً، وروي موقوفاً

عليها: «من أرضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله، عاد حامده من الناس له ذاماً»(١).

(١) صحيح، رواه الترمذي (٢/ ٦٧) من طريق عبد الوهاب بن الورد عن رجل من أهل المدينة قال: كتب معاوية إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما أن اكتبي لي كتابا وصيني فيه، ولا تكثري علي، فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضى الله بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس**» والسلام عليك.
ثم رواه من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها كتبت إلى معاوية، فذكر الحديث بمعناه، ولم يرفعه.
قلت: والمرفوع إسناده ضعيف لجهالة الرجل الذي لم يسم.
وأما الموقوف فسنده صحيح، رجاله كلهم ثقات.
ورواه عثمان بن واقد عن أبيه عن محمد بن المنكدر عن عروة بن الزبير به مرفوعاً بلفظ: «**من التمس رضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**».
رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (ق٤٢/ ٢) مشرق بن عبد الله في «حديثه» (ق/ ٦١/ ٢) وابن عساكر (١٥/ ٢٧٨/ ١).
قلت: وهذا سند حسن، رجاله كلهم ثقات معروفون، وفي عثمان بن واقد كلام لا ينزل حديثه عن رتبة الحسن، وفي «التقريب»: «صدوق ربما وهم».
وروى بعضه ابن بشران في «الأمالي» (١٤٤/ ١٤٥) وابن الأعرابي في «معجمه» (٨٢/ ١) وأبو القاسم المهراني في «الفوائد المنتخبة» (٣/ ٢٣/ ١) وابن شاذان الأزجي في «الفوائد المنتقاة» (١/ ١١٨/ ٢) والقضاعي (٤٢/ ٢) عن قطبة بن العلاء بن المنهال الغنوي، ثنا أبي عن هشام بن عروة به بلفظ: «**من طلب محامد الناس بمعصية الله عاد حامده ذاماً**».
قال المهراني: «حديث غريب، لا أعلم رواه عن هشام غير العلاء بن منهال».
وروي عنه بلفظ: «**من التمس محامد الناس بمعاصي الله تعالى عاد حامده من الناس ذاماً له**».
رواه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٢/ ٥/ ٢) والعقيلي في «الضعفاء» (٣٢٥) وابن عدي في «الكامل» (ق٢٧٢/ ٢) وأبو الحسن بن الصلت في حديث ابن عبد العزيز الهاشمي (ق٧٦/ ١) وقال العقيلي: «العلاء بن المنهال لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به» وقال ابن عدي: «وليس بالقوي».
قلت: وأما ابن حبان فذكره في «الثقات»! =

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وقد صح عن ابن حبان مرفوعاً أيضاً.أهـ

* * *

فمن أرضى الله كفاه مؤنة الناس ورضي عنه، ثم فيما بعد يرضون، إذ العاقبة للتقوى، ويحبه الله فيحبه الناس، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله العبد نادى: يا جبرائيل، إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبرائيل، ثم ينادي جبرائيل في السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[1] وقال في البغض مثل ذلك.

فقد بين أنه لا بد لكل مخلوق من أن يتقي إما المخلوق، وإما الخالق، وتقوى المخلوق ضررها راجح على نفعها من وجوه كثيرة، وتقوى الله هي التي يحصل بها سعادة الدنيا والآخرة، فهو سبحانه أهل التقوى، وهو أيضاً أهل المغفرة، فإنه هو الذي يغفر الذنوب، لا يقدر مخلوق على أن يغفر الذنوب ويجير من عذابها غيره، وهو الذي يجير ولا يجار عليه.

قال بعض السلف: ما احتاج تقي قط، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا

= ثم قال العقيلي: «ولا يصح في الباب مسند، وهو موقوف من قول عائشة».
قلت: الصواب عندي أن الحديث صحيح موقوفاً ومرفوعاً، أما الموقوف فظاهر الصحة، وأما المرفوع، فلأنه جاء من طريق حسنة عن عثمان بن واقد كما تقدم، فإذا انضم إليه طريق الترمذي ارتقى الحديث إن شاء الله إلى درجة الصحة.أهـ ألباني

(١) متفق عليه عن أبي هريرة، وهو مخرج في «الضعيفة» تحت حديث آخر عن أنس، مخالف لهذا في اللفظ.أهـ ألباني

يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللاً، فليستغفر الله وليتب إليه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي فهو كافيه، لا يحوجه إلى غيره.

وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب ! وهذا فاسد، فإن الاكتساب: منه فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، كما قد عرف في موضعه، وقد كان النبي ﷺ أفضل المتوكلين، يلبس لأمة الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ ولهذا تجد كثيراً ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يرزقون على يد من يعطيهم، إما صدقة، وإما هدية، وقد يكون ذلك من مكّاس، أو والي شرطة، أو نحو ذلك، وهذا مبسوط في موضعه، لا يسعه هذا المختصر.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا القول من أفسد الأقوال، فإن التوكل ما يتم إلا بالأسباب، والتوكل يجمع أمرين: أحدهما: الثقة بالله والاعتماد عليه، والإيمان بأنه مسبب الأسباب ورازق العباد، وأن كل شيء مضى بقدره سبحانه .

والأمر الثاني: التعاطي للأسباب، فالجنة لها أسباب والنار لها أسباب والرزق له أسباب وكلها مقدرة، قد مضى في علم الله أعمال العباد من طاعة ومعصية وأكساب حلال وحرام، كلها مضى في علم الله أمرها، ولكن العبد مأمور مفروض عليه أن يتعاطى ما أوجب الله عليه، وأن يدع ما حرم الله عليه، ويطلب الرزق حتى لا يحتاج إلى الناس وحتى لا

يموت جوعاً وظمئاً، وفطر الله العباد على ذلك، العباد والحيوان كلهم مفطورون على هذا الأمر، فهذا القول لا يقوله من يعقل ولا من يفهم، بل هو قول فاسد صدر عن عقول فاسدة وعن تصورات فاسدة.

وقوله: «**وقد يكون ذلك من مكّاس، أو والي شرطة**» يعني قد يأتيه برزق غير طيب، المكّاس معروف حاله، ووالي الشرطة قد يأخذ المال بغير الحق.أهـ

* * *

وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الأقوال التي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وأما قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ فقال البغوي: قال مقاتل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت ! قال المفسرون: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق، ويعز قوماً ويذل آخرين، ويشفي مريضاً، ويفك عانياً، ويفرج مكروباً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنباً، إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا هو معنى قوله جل وعلا: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩] يعني أنه سبحانه له شؤون في عباده لا تحصى، وهذه الشؤون لا تنافي القدر السابق، فإن التقادير اليومية التي تطابق القدر السابق، فهو سبحانه وتعالى بكل يوم له شؤون، من شفاء مريض ومن زوال ملك ومن إعطاء ملك ومن قيام دولة وسقوط دولة، ومن غير هذا من الشؤون، وتوسيع على قوم وتضييق على قوم، وإعزاز قوم وإذلال قوم، إلى غير

ذلك، مثل ما تقدم في الأثر، أثر ابن عباس المرفوع الموقوف أن الله جل وعلا له في كل يوم نحو ثلاثمائة وستين نظرة «لله في كل يوم في اللوح المحفوظ ثلاثمائة وستون نظرة يخلق في كل نظرة ويعطي ويمنع ويذل ويعز»[1] إلى غير ذلك، فالمقصود أن قوله: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩] أمر واسع، لو صح الأثر عن ابن عباس فهو يدل على أنه جل وعلا لا أحد يتحجر عليه سبحانه وتعالى، بل تصرفه مطلق في كل وقت وحين، وهذا التصرف المطلق الذي صدر عنه قوله جل وعلا: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩] لا ينافي ما سبق به علمه ومضى به قدره، فكل ما يقع تنفيذ وإظهار لما سبق به علم الله في هذا الكون وفي هذه الحياة وفي هذه العاجلة.

سؤال/ قول بعض المفسرين: شأن يبديه ويبتديه؟

أجاب سماحة الشيخ: قول بعض المفسرين: شأن يبديه ويبتديه، مرادهم ملكاً جديداً، يعني مرادهم أنه مضى فيه علمه وقدره سبحانه وتعالى، فيبديه يعني يظهره، ولا يبتدؤه ما سبق به القدر، كل شيء قد سبق به القدر، إن أرادوا هذا فلا بأس.أهـ

* * *

قوله: (وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه) .

ش: هذا بناء على ما تقدم من أن المقدور كائن لا محالة، ولقد أحسن القائل حيث يقول:

ما قضى الله كائن لا محاله | والشقي الجهول من لام حاله

---

(١) قال الألباني: ضعيف، رواه الطبراني في الكبير.

والقائل الآخر:

اقنع بما ترزق يا ذا الفتى فليس ينسى ربنا نمله
إن أقبل الدهر فقم قائماً وإن تولى مدبراً نم له

قوله: (وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب ولا مزيل ولا مغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه).

ش: هذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات، وأنه قدر مقاديرها قبل خلقها، كما قال ﷺ: «قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء»(١).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا أمر مجمع عليه بين أهل السنة والجماعة، وإنما خالف في هذا القدرية النفاة والمعتزلة ومن قال بقولهم، أما أهل السنة والجماعة من أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان، كلهم مجمعون على أن الله جل وعلا علم كل شيء وقدر كل شيء وكتب كل شيء سبحانه وتعالى، ليس بينهم في هذا نزاع، والقرآن واضح في ذلك ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:١٢] ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢] سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠ ﴾ [الحج:٧٠] ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ ﴾ [الحديد:٢٢]

---

(١) صحيح، وتقدم. أهـ ألباني

والقرآن الكريم واضح في أنه علم كل شيء وقدر كل شيء، ولايقع في ملكه شيء لا يعلمه ولا يريده، بل لا يقع شيء في ملكه إلا وقد علمه وكتبه سبحانه وتعالى وشاءه عز وجل، ولهذا في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»[١]. أهـ

* * *

فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصير موجودة لأوقاتها، على ما اقتضته حكمته البالغة فكانت كما علم، فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً في الأزل، وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا ! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروا كفروا[٢].

فإن الله تعالى يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه، وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه، فإنما يعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة، وقد علم الله ذلك منه، ومن لا يستطيع لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه.

---

(١) رواه مسلم وقد تقدم.

(٢) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى ٢٣/ ٣٤٩، وابن القيم في طريق الهجرتين ١/ ٢٤٣، وابن رجب في جامع العلوم والحكم «حديث جبريل».

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: كلام الشافعي مع اختصاره كلام عظيم، الشافعي: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس، من بني المطلب بن عبد مناف، كانت وفاته سنة أربع ومائتين، ومولده سنة خمسين ومائة، وعمّر أربعاً وخمسين سنة، مات وهو في قرب الكهولة، المقصود أنه - رحمة الله عليه - قال كلاماً جيداً، ناظروهم بالعلم، يعني القدرية النفاة، نفاة القدر، فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه كفروا، والمعنى قولوا لهم: هل الله يعلم هذه الأشياء الموجودة من أعمالنا من طاعات ومعاصٍ أو لا يعلمها؟

فإن قالوا لا يعلمها، فقد وصفوه بالجهل فيكفرون، فإنهم إن قالوا لا يعلمها، فمعناه أنه جاهل بأحوال عباده، لا يعلمها حتى تقع، فهذا معناه وصفه بالجهل، ووصفه بالجهل تنقص له سبحانه وطعن في ربوبيته وكمال صفاته، فيكون كفراً وضلالاً عند الجميع.

وإن قالوا: يعلم أنه يعمل كذا ويعمل كذا ويعلم أعمالهم خصموا، لأنهم إذا قالوا يعلم، لا يمكن أن تقع الأشياء على خلاف علمه، لكن يعلم أحوالهم وأعمالهم وجميع ما يصدر منهم، فإنه لا يمكن أن يقع الشيء على خلاف علمه، فإنه إذا وقع على خلاف علمه صار جهلاً، لأن العلم لابد أن يطابق الواقع، فإذا كان الواقع لا يطابق العلم صار العلم جهلاً، فمن قال مثلاً: إني أعلم أن زيداً قد مات أو قد تزوج، ثم ظهر أنه ما مات ولا تزوج، ماذا يكون علمه؟ يكون جهلاً، قال على غير علم، فإذا كانت الوقائع خلاف العلم المدعى صار جهلاً.

وبهذا يعلم أنهم مخصومون، إذا أقروا بالعلم خصموا في نفي القدر، وإن جحدوه كفروا لوصفهم الله سبحانه وتعالى بما لا يليق.

فقد اتضح صحة قول أهل السنة والجماعة، وهم أصحاب النبي ﷺ ومن سار على نهجهم، وهو قول الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام، فإن الرسل جميعاً وصفوا الله بما يليق به من العلم والحكمة، ونزهوه عن كل ما لا يليق به، وهكذا أصحابهم المؤمنون بهم وصفوا الله بما يليق به، فجاءت الجهمية وجاءت المعتزلة وجاءت طوائف الشر على خلاف ما عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، في شبه داحضة وتأويلات سفيهة ساقطة لا وجه لها ولا قيمة لها، وقد تواترت الأخبار عن رسول الله عليه الصلاة والسلام بأن العلم قد سبق، فالله قد علم الأشياء وكتبها سبحانه وتعالى، فذلك مطابق لما جاء في القرآن الكريم، وقد جاء هذا من عدة أحاديث، من حديث علي رضي الله عنه ومن حديث عمر ومن حديث أبي مسعود البدري ومن حديث عبد الله بن عمرو ومن أحاديث كثيرة، كلها دالة على سبقِ العلم.أهـ

* * *

وإذا قيل: فيلزم أن يكون العبد قادراً على تغيير عالم الله، لأن الله علم أنه لا يفعل، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله؟ قيل: هذه مغالطة،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني كونه يقدِر وكونه له مشيئة وكونه له اختيار، ما يلزم من ذلك أن يستقل، فالله جل وعلا له مشيئة واختيار سابق عليه، ومشيئة الله غالبة وإرادته غالبة سبحانه وتعالى، فلا يشاء العبد إلا ما شاءه الله، هو الذي يوقع في قلبه ما يشاء سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان:٣٠] ولكن أهلها يغالطون.أهـ

* * *

وذلك أن مجرد مقدرته على الفعل لا تستلزم تغيير العلم، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لا عدم وقوعه، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه، بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع، وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع، ونحن لا نعلم علم الله إلا بما يظهر، وعلم الله مطابق للواقع، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهكذا ما يقع من الغرق والحرق وقتل القاتل، قتل الذي يُقتل، كله قد سبقه فيه علم الله، وأن آجالهم مربوطة بهذا وأن أعمارهم تنتهي عند هذا، كتب عمره كذا وكذا وأنه ينتهي بكذا وكذا، فالله قد سبق علمه لما يحدث في العالم، فمن مات بالقتل فقد قدر الله ذلك وأنه يموت بالقتل، ومن مات بالغرق فقد سبق علم الله بأنه يموت بالغرق، وأن عمره ينتهي هناك، ومن مات بالحرق كذلك، وهكذا من مات بافتراس السباع أو مات بغير ذلك، كله قد سبق به علم الله، وأن هذا الإنسان المعين فلان بن فلان سوف يموت في كذا بسبب كذا، فسبحان الحكيم العليم.أهـ

* * *

والعبد الذي لم يفعل لم يأت بما يغير العلم، بل هو قادر على فعل لم يقع، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع، لا أنه لا يقع.

وإذا قيل: فمن عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع، فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم؟

قيل: ليس الأمر كذلك، بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يوقعه، ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن

المعلوم إلا وقوعه، وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه ! وهو فرض محال، وذلك بمنزلة من يقول: افرض وقوعه مع عدم وقوعه ! وهو جمع بين النقيضين .

فإن قيل: فإذا كان وقوعه مع علم الرب عدم وقوعه محالاً لم يكن مقدوراً؟

قيل: لفظ المحال مجمل، وهذا ليس محالاً لعدم استطاعته له ولا لعجزه عنه ولا لامتناعه في نفسه، بل هو ممكن مقدور مستطاع، ولكن إذا وقع كان الله عالماً بأنه سيقع، وإذا لم يقع كان عالماً بأنه لا يقع، فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالاً من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال ! مما يلزم هؤلاء: أن لا يبقى أحد قادراً على شيء، لا الرب، ولا الخلق، فإن الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزم من علمه ذلك انتفاء قدرته على تركه، وكذلك إذا علم من نفسه أنه لا يفعله لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله، فكذلك ما قدره من أفعال عباده، والله تعالى أعلم .

قوله: (وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ .

ش: الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨] يعم أمره الكوني وأمره الشرعي، فأموره الشرعية

مقدرة ومحكمة، وأموره القدرية كلها محكمة ومقدرة، وهكذا قوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢] يدل على إحكام وإتقان من جميع الوجوه، وأن هذا شيء قد سبق به علم الله سبحانه وتعالى، فخلقه كما شاء سبحانه وتعالى، فأمر الله كذلك ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، قدراً سابقاً، ومقدوراً على هيئة وصفة خاصة لا يتجاوزها، هكذا يبين سبحانه وتعالى، ثم يقول في الآيات الأخرى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ﴾ [الحج:٧٠] فمع القدر شيء قد كتب وفرغ منه ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ﴾ [الحج:٧٠] ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [الحديد:٢٢] هذا كله واضح في أنه سبق العلم وسبقت الكتابة وسبق التقدير من جميع الوجوه.أهـ

* * *

قال ﷺ في جواب السائل عن الإيمان: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١) وقال ﷺ في آخر الحديث: «يا عمر أتدري من السائل»؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبرائيل، أتاكم يعلمكم دينكم» رواه مسلم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا يبين أن الإيمان بالقدر من الدين، قال «**أتاكم يعلمكم دينكم**»(٢) فدل ذلك على أن ما ذكر

(١) صحيح، رواه مسلم عن عمر، والبخاري ومسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه نحوه.أهـ ألباني

(٢) رواه مسلم من حديث ابن عمر، والبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه نحوه.

في الحديث كله من الدين، الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر، وهكذا الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهكذا عدم العلم بأشراط الساعة ولكن يعلم أماراتها، كل هذا دين، قال «**أتاكم يعلمكم دينكم**» فدل ذلك على أن ما ذكر في الحديث من الدين، يدان الله به، يعني يعبد الله به ويتقرب إليه به سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

وقوله: «والإقرار بتوحيد الله وربوبيته» أي لا يتم التوحيد والإقرار بالربوبية إلا بالإيمان بصفاته تعالى، فإن من زعم خالقاً غير الله فقد أشرك، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله؟ ! ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة، وأحاديثهم في السنن، وروى أبو داود عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[(١)].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: أحاديث المجوس متعددة، ولهذا هي ثابتة في الجملة، وسموا مجوس هذه الأمة لأن المجوس قالوا بالإلهين: النور والظلمة، فشابهوهم، فهم قالوا: العبد يخلق فعله، ومنهم من قال: أفعاله كلها من حسن وقبيح وسيئات وحسنات، ومنهم من قال: يخلق السيئ فقط، ولا يخلق الحسن غير الله، وأما السيئ فمن عند غيره، وقد تشبثوا بقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ

(١) إسناده ضعيف، لكن له طرق يتقوى بها، ثم خرجته في «ظلال الجنة في تخريج السنة» (٣٣٨-٣٤٢).أهـ ألباني

قال شاكر: أبو داود ٤٦٩١ .أهـ

حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩] وضلوا عن قوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٧٨] فالحاصل أن القدرية النفاة شابهوا المجوس من هذه الحيثية، من حيث أنهم جعلوا مع الله شريكاً في خلق بعض الأشياء، وهو الإنسان يخلق فعله، سواء مطلقاً أو الفعل السيئ فقط، وكل هذا باطل، الله خالق كل شيء سبحانه وتعالى ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر:٦٢] خلق الإنسان وخلق عمله ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات:٩٦] سبحانه وتعالى. أهـ

* * *

وروى أبو داود أيضاً عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال»[1] وروى أبو داود أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم»[2] وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من بني آدم ليس لهم في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية»[3].

---

(١) إسناده ضعيف، وقد خرجته في المصدر المذكور رقم (٣٢٩). أهـ ألباني

قال شاكر: أبو داود ٤٦٩٢. أهـ

(٢) إسناده ضعيف، وهو مخرج في «المشكاة» (١٠٨) و«الظلال» (٣٣٠). أهـ ألباني

قال شاكر: أبو داود ٤٧١٠ وهو في المسند ٢٠٦ ورواه ابن حبان بتحقيقنا ٧٩ ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٨٥. أهـ

(٣) إسناده ضعيف، ولا يغتر بتصحيح صاحب «التاج الجامع للأصول» إياه، ثم خرجته في «تخريج السنة» (٣٤٤-٣٤٥). أهـ ألباني

لكن كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة، وإنما يصح الموقوف منها: فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده»[١] وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم وما أظهر من علمه الذي لا يحاط به وكتابة مقادير الخلائق، وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم، ممن ينكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك، فإن ذلك كله مما يدخل في التكذيب بالقدر، وأما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدرية جملة، حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد، فأخرجوها عن قدرته وخلقه.

والقدر، الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه، وأن الذي جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع: هو ما قدره الله من مقادير العباد.

وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء، كقول ابن عمر رضي الله عنهما، لما قيل له: يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف: «أخبرهم أني منهم بريء وأنهم مني براء».

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: تقدم قول الشافعي: «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا» وجاء عن أحمد رحمه الله أنه قال: «القدر قدرة الله، ومن أنكر القدر فقد أنكر قدرة الله»[٢].

(١) ضعيف موقوفاً ومرفوعاً كما سبق بيانه.أهـ ألباني

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة (١٨٧٩) ٢/ ٢٦٢، ورواه الآجري في الشريعة (٢٢١)، ورواه ابن بطة بسند آخر، لكن إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وهذا لازم لهم، لأنهم إذا أنكروا علم الله بالأشياء وإحصاءه لها، فقد نسبوه إلى العجز والجهل، فيكون هذا إنكارا لقدرة الله، وإنكاراً لعلمه سبحانه وتعالى، فتطابق ما قاله الشافعي وقاله تلميذه أحمد في هذا الباب، فإنكار القدر إنكار لقدرة الله وإنكار لعلم الله، فإن جحدوا هذين الأمرين كفروا كفراً ظاهراً، وإن أقروا بهما بأنه قادر، على كل شيء قدير وبكل شيء عليم خصموا أنفسهم وبطل قولهم.أهـ

* * *

والقدر، الذي هو التقدير المطابق للعلم: يتضمن أصولاً عظيمة: أحدها: أنه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها، فيثبت علمه القديم، وفي ذلك الرد على من ينكر علمه القديم.

الثاني: أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات، ومقاديرها هي صفاتها المعينة المختصة بها، فإن الله قد جعل لكل شيء قدراً، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فالخلق يتضمن التقدير، تقدير الشيء في نفسه، بأن يجعل له قدراً، وتقديره قبل وجوده، فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذي يخصه في كميته وكيفيته، كان ذلك أبلغ في العلم بالأمور الجزئية المعينة، خلافاً لمن أنكر ذلك وقال: إنه يعلم الكليات دون الجزئيات! فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وبهذه الشبه كرر الله سبحانه وتعالى علمه بكل شيء، وكرر قدرته على كل شيء، ففي القرآن الكريم ما لايحصى من الآيات ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٠] وقوله سبحانه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٣٥]

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٩] ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ﴾ [الطلاق:١٢] هذه الآيات وأشبهها لا تبقي شبهة لمشبه.أهـ

* * *

الثالث: أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخباراً مفصلاً، فيقضي[1] أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علماً مفصلاً، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم، فإنه إذا كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو ؟!

الرابع: أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله، محدث له بمشيئته وإرادته، ليس لازما لذاته.

الخامس: أنه يدل على حدوث هذا المقدور، وأنه كان بعد أن لم يكن، فإنه يقدره ثم يخلقه.

قوله: (فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفكاً أثيماً) .

ش: اعلم أن القلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ أي كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان، فالقلب الصحيح الحي إذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:

---

(١) لعل الصواب: فيقتضي، ابن باز.

هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر[١].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وأصل هذا الأثر أنه قال له بعض الناس: يا أبا عبدالرحمن: هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر، فلابد أولاً من كون الإنسان يعرف المعروف وينكر المنكر بقلبه، ثم ينتج عن هذا بعد ذلك الأمر والنهي، فإن الأمر والنهي لا يكون إلا عن بصيرة وعن علم وعن هدى، فإذا كان القلب حياً نيراً بالعلم والإيمان؛ عرف المعروف وأنكر المنكر بما جعل الله فيه من القوة الإيمانية والبصيرة، وإذا كان جاهلاً لم يجز له أن يتقدم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لعدم وجود الأساس وهو المعرفة بالمعروف والمعرفة بالمنكر، فإذا كان القلب سقيماً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً فكيف يأمر وينهى صاحبه؟

لا يجوز له أن يأمر وينهى على غير علم - على جهالة - والله جل وعلا بيّن أن الناس في ظلمة وموت، هذه حال الناس، أموات ليس عندهم بصيرة ولا نور، إلا من رزق البصيرة بما جاء به النبي ﷺ وقبله واهتدى به، فهذا هو الحي النير المهدي، أما من فقد هذا الوحي فإنه لا نور عنده ولا حياة عنده، ولهذا قال عز وجل: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [الأنعام:١٢٢] يعني بدخوله في الإسلام وقبوله الحق، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام:١٢٢] يعني بالوحي وما

(١) ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/ ٢٠ الباب الرابع: في أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته.

جاء به المصطفى من القرآن والسنة ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام:١٢٢] يعني كالذي في الظلمات، ظلمات طبعه وجهله، لا سواء، هذا على نور وعلى بصيرة وعلى صراط مستقيم، وذاك على غير هدى، وفي ظلمة دامسة لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، فالكافر ميت وحياته بالإسلام، وفي ظلمة ونوره بما في القرآن والسنة، ومن هذا الباب قوله جل وعلا في سورة الشورى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى:٥٢] فجعل الوحي روحاً ونوراً، فالروح يحصل به الحياة، والنور يحصل به البصيرة والعلم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى:٥٢] يعني من وحينا ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢] فجعل القرآن والسنة روحاً، ومن لا روح فيه فهو ميت، فالروح القرآن والسنة، الوحي المنزل على الرسول ﷺ من السماء، هذا هو الروح، فمن قبله وآمن به واهتدى به صار حيا بعد الموت، وإذا تبصر وعلم وتفقه صار له نور بعد الظلمة، فالحياة والنور في قبول ما جاء به المصطفى عليه الصلاة والسلام والأخذ به والتفقه به، والظلمة والموت في ضد ذلك وخلاف ذلك.

فما أولى المسلم وما أحق الإنسانية بأن تشغل بهذا الأمر وتنتبه لهذا الأمر، فجميع أنواع الإنسان وأنواع الجن وصنوفهم كلهم في ضلال، كلهم في موت، كلهم أموات في ظلمات، فلا حياة لهم ولا نور لهم ولا بصيرة إلا بقبول الحق الذي جاء به نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، والأخذ به والتفقه فيه والتبصر، حتى يحصل له بذلك الروح، يعني

الحياة الطيبة، وحتى تحصل له البصيرة في هذا النور، ومن هذا قوله جل وعلا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤] فالحياة الكاملة فيها النور والهدى، فالحياة بما جاء به المصطفى عليه الصلاة والسلام، الحياة بهذا الوحي بهذا الإيمان بهذا القرآن والسنة، والرسول دعا الناس إلى ما فيه حياتهم ونورهم ونجاتهم وهداهم، ودعاة الكفر يدعونهم إلى بقائهم في الموت وبقائهم في الظلمة، ومن هذا قوله جل وعلا: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧] فالحياة الطيبة بالإيمان والنور والهدى والاستقامة، فمن عمل الصالحات التي جاء بها المصطفى عليه الصلاة والسلام عن إيمان وعن قبول للحق وعن هدى؛ صارت له الحياة الطيبة في الدنيا وفي الآخرة، ومن فاته هذا النور وفاتته هذه الروح؛ بقي في ظلماته وجهالته وموته إلى أن ينقل من هذه الدار إلى دار الهوان ودار الجحيم، نسأل الله العافية.أهـ

* * *

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

ومرض القلب نوعان، كما تقدم: مرض شهوة، ومرض شبهة، وأردؤها مرض الشبهة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: مرض الشهوة مرض أهل المعاصي، كالزنا والخمور، هذا مرض الشهوات، ومرض الشبهة مرض أهل البدع والكفر، لأنه نشأت بدعهم عن شكهم وريبهم وقلة

علمهم، وصاحب الشهوة أقرب إلى الهدى وأقرب إلى التوبة، وصاحب مرض الشبهة أبعد، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة:١٠] يعني أهل النفاق، نسأل الله العافية، وأما مرض الشهوة فالمذكور بقوله جل وعلا: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب:٣٢] مرض الشهوة والميل للنساء. أهـ

* * *

وأردأ الشبه ما كان من أمر القدر، وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذه مصيبة عظيمة، الإنسان قد يموت قلبه، قد يمرض ولا يشعر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، الإنسان قد يموت قلبه، قد يقطع عليه، قد يسود عليه ولا يشعر، لأنه في غفلة وصدود وإعراض، لا يفكر في شيء ينفعه في الآخرة، قد يكون كثير الجراحات مثقلاً بالجراحات مثخناً بالجراحات ولا يفطن، في عماه وفي ظلمته من المعاصي الكثيرة المتراكمة، قد اسود قلبه بسببها ولا يشعر بذلك، لأنه سكران، سكران الشهوات، والسكران في الشهوات المحرمة أعظم من سكر الخمر، لأن سكر الخمر يفيق صاحبه بين وقت وآخر وينتبه، لكن من سكر بالشهوات والإقبال على الدنيا في الغالب لا يفيق إلا في عسكر الموتى، مع أهل النار، نسأل الله العافية،

عندما يكون في قبره ويمسه العذاب، نسأل الله العافية.أهـ

* * *

فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته، و ما لجرح بميت إيلام.

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس له أنفع منه، وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه، لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل في طريق مخوف مفض إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى في الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها، ولاسيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول: أين ذهب الناس فلي أسوة بهم! وهذه حال أكثر الخلق،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: هذا كله ساقه المؤلف من كلام ابن القيم رحمه الله.أهـ

* * *

وهي التي أهلكتهم، فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ومن هذا الباب قول

بعض السلف: لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، وأبلغ من هذا قوله في الحديث الصحيح: **«والنبي ومعه الرجل والرجلان»**(١) لم يستوحشوا، بعض الأنبياء ما يتبعه إلا رجل واحد، لم يستوحش، بل صبر على الحق، بعضهم ما تبعه إلا رجلان، وكل قومه أبوا وردوا عليه ما جاء به، فهذان الرجلان لم يستوحشا، بل صبروا على الحق وثبتوا عليه حتى لقوا ربهم عز وجل.

وهكذا في آخر هذا الزمان في غربة الإسلام، قد يكون الإنسان في بعض القرى أو في بعض القبائل ليس معه مرافق، بل هو على الحق وحده، فينبغي له الصبر ويجب عليه الصبر، فإذا تيسر له الانتقال والهجرة إلى محل آخر أحسن من محله فعل ذلك، ومن هذا الباب قول النبي ﷺ لما قال: وهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: **«نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»** لأن حذيفة قال: كان الناس يسألون عن الخير وكنت أسأل عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله: كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير - يعني الذي معك - فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال النبي ﷺ: **«نعم»** قلت: يا رسول الله: فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: **«نعم وفيه دخن»** قلت: وما دخنه؟ قال: **«قوم يهدون بغير هديي ويستنون بغير سنتي تعرف منهم وتنكر»** قلت: يا رسول الله فهل بعد هذا الخير من شر؟ - بعد هذا الخير الذي فيه دخن وهو التغير - قال: **«نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»** قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: **«قوم من جلدتنا**

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤١) كتاب الرقاق / باب: يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، و(٥٧٠٥) كتاب الطب / باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ويتكلمون بألسنتنا» يعني من العرب، دعاة على أبواب النار، من الشيوعيين والاشتراكيين، وغيرهم من الإباحيين وأشباههم من دعاة النار، قلت: فما تأمرني يا رسول إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» وهذا يشمل كل جماعة، أي جماعة من المسلمين في أي مكان يلزمهم صاحب الحق إذا وجدهم، ويلزم إمامهم، أميرهم، ولو كانوا قليلين، في أي مكان، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ يعني ما وجدت أحدا لا جماعة ولا إمام، ما وجدت أحداً، قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها ـ يعني جميع فرق الضلالة ـ ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يأتي الموت وأنت على ذلك»[1].

أمره أن يلزم الحق ولو كان وحده، ولو خالفه الناس كلهم، وهذا واضح في لزوم الحق، ومن هذا قول عمرو بن ميمون عن ابن مسعود: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك[2].أهـ

❊ ❊ ❊

وما أحسن ما قال أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة ـ في كتاب الحوادث والبدع ـ: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل

---

(١) رواه البخاري (٧٠٨٤)كتاب الفتن / باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟ ومسلم (١٨٤٧) كتاب الإمارة / باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) الباعث على إنكار البدع والحوادث/ ٢٢، واللالكائي (١٦٠) ١/ ١٠٥ سياق ماروي عن النبي ﷺ في الحث على اتباع الجماعة.

بعدهم، وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: السنة - والذي لا إله إلا هو- بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعتهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك فكونوا[1].

وعلامة مرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة، إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن دوائه النافع، إلى دوائه الضار، فههنا أربعة أشياء: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مهلك، فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي، على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك، وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء، فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين وأضل الضالين،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا شيء واضح، فإن الجسم الصحيح يطلب ما يلائمه، والمريض كذلك يطلب ما يلائمه، فالمرض الحقيقي والصحة الحقيقية ما يتعلق بالقلوب، فإذا استقام القلب وصح، انتفع بالدواء المناسب، وإذا مرض بالكفر والنفاق والمعاصي والسيئات، صارت له أغذية أخرى تناسبه مما يضره ولا ينفعه، فالغذاء النافع الملائم للقلب الصحيح غذاء الإيمان والتقوى والهدى والصلاح، ودواؤه النافع لما قد يقع له من انحراف دواء القرآن والسنة وما فيهما من الأوامر والنواهي، فإذا انحرف صار يتغذى بما

(١) رواه الدارمي في السنن (٢١٦) ١/ ٨٣ باب في كراهية أخذ الرأي.

يضره ويتداوى بما يضره، ثم يتغذى بالخبائث ويتداوى بالسموم وأنواع المضار، فيجني على نفسه ويضرها من حيث يظن أنه ينفعها ويعطيها ما يلائمها، فأولى للمؤمن وأولى بعبد الله الذي يريد النجاة أن يعنى بالغذاء الشرعي، الغذاء النافع، الذي يقوي الإيمان في القلوب، ويوجد أسباب السعادة من خوف الله ومراقبته وتعظيم حرماته والأنس بذكره وطاعته، ويتعاطى الأدوية الشرعية التي تمنع من الشر، من ذكر الله وقراءة القرآن والإقبال على طاعة الله والاستغفار من الذنوب والتوبة النصوح، حتى تمحى عنه تلك الأدواء، ويحذر ما يضر قلبه من الكفر والنفاق وسائر المعاصي والسيئات، فإنها أمراض خطيرة، وبعضها أشد من بعض، وغذاؤها بالمزيد منها، نعوذ بالله، ودواؤها الضار أن يتداوى بما يزيدها شراً وقوة في إهلاكه من المعاصي والسيئات وصحبة الأشرار والأخذ بآرائهم الفاسدة، والإعراض عن الدواء الناجع المفيد.أهـ

* * *

فإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ **وقال تعالى:** ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

و «من» في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ **لبيان الجنس، لا للتبعيض، وقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ **فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل للاستشفاء به، وإذا**

أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه: لم يقاوم الداء أبداً، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها ؟! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه، لمن رزقه الله فهما في كتابه .

وقوله: «لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً» أي طلب بوهمه في البحث عن الغيب سراً مكتوماً، إذا القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب، وقد قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إلى آخر السورة، وقوله: «وعاد بما قال فيه» أي في القدر: «أفاكاً كذاباً أثيماً» أي مأثوماً .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني إذا قال في القدر بما يخالف الشرع المطهر، هذا المقصود، يعني أراد بهذا التماس الغيبيات، أو أراد بذلك خلاف أمر الله، من نفي القدر وإنكاره كما تفعله المعتزلة والقدرية النفاة، أو أراد بالقدر إثبات جبرة العبد وأنه لا مشيئة له ولا اختيار كما تقوله الجبرية، فالمراد بهذا: من رام بالقدر شيئاً يخاف أمر الله، فإنه يعود بهذا أفاكاً أثيماً، كذاباً آثماً، أما من رام في آيات القدر وأحاديث القدر بيان الحق والهداية إليه؛ فهو يعود بهذا مأجوراً موفقاً مهدياً، قد وافق ما ينبغي وأرشد إلى ما ينبغي، فيكون بهذا مأجوراً وقد عاد بخير كثير وأجر عظيم، لكونه دل على الخير وأرشد إليه وأخذ بالحق وثبت عليه.أهـ

* * *

وقوله: (والعرش والكرسي حق).

ش: كما بين تعالى في كتابه، قال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ في غير ما آية من القرآن: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وفي دعاء الكرب المروي في الصحيح: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم»(١). وروى الإمام أحمد في حديث الأوعال عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض»؟ قال: قلنا الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين ركبهن وأظلافهن -كما بين السماء والأرض، [ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض] والله فوق ذلك، ليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء»(٢) ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

---

(١) متفق عليه من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وهو مخرج في «الضعيفة» (٥٤٤٣) لزيادة منكرة وقعت في آخره عند الطبراني وغيره.أهـ ألباني

(٢) ضعيف الإسناد، وهو مخرج في «ظلال الجنة» (٥٧٧).أهـ ألباني

قال شاكر: حديث الأوعال هذا رواه الإمام أحمد في المسند بإسنادين ضعيفين ١٧٧٠-١٧٧١=

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: كِثَف بالثاء والفاء، يعني غلظ، وزناً ومعنى، هذا الظاهر، وما رأيناها مضبوطة كما ينبغي، حتى «أحمد شاكر» ذكرها هكذا، لكن هذا هو مقتضى اللغة، معنى كثف غلظ ومتن وثخانة، يقال: كثُف يكثُف كثافة وكثيف، يعني غليظ.

ويحتمل كَثْف، بفتح فسكون، بالصرف الميزاني يحتمل، مثل ما يقال: ضخُم زيد فهو ضخْم، قد يحتمل هذا، غلُظ فهو غليظ، يقال جسم هذا غِلَظ كذا وكذا، فهو بين كَثْف وبين كِثف، كِثف بمعنى غِلَظ، وبين كثيف، كلها جاءت بها اللغة، والمعنى متقارب.

والحديث اختلف الناس فيه، منهم من حسنه كالذهبي رحمه الله وجماعة حسنوه، وجماعة ضعفوه، لأنه من طريق عبدالله بن عميرة عن الأحنف بن قيس، بعضهم زعم أن عبدالله مجهول، وبعضهم حسن حديثه، والمعتمد فيه أنه حسن الحديث، وله شواهد، إنما الغريب فيه هو جعل الأوعال فيه، أما المسافات فله شاهد من حديث ابن مسعود موقوفاً عليه بإسناد جيد، وهو بين الحسن والضعف، من باب الحسن لغيره، ما يتعلق بالأوعال هو محل النظر، هذه الزيادة هي محل النظر والاستنكار من بعض أهل العلم، لأنه انفرد بها عبدالله بن عميرة عن الأحنف عن العباس، فالحديث يدور عليه.أهـ

* * *

وروى أبو داود وغيره، بسنده إلى رسول الله ﷺ، من حديث الأطيط، أنه ﷺ قال: «إن عرشه على سمواته لهكذا» وقال بأصابعه، مثل

= ولكن رواه أبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك بأسانيد صحاح، كما بينا ذلك في شرح المسند، والزيادة التي زدناها في متن الحديث هي من نصه في المسند، ولم تذكر في المطبوعة، وحذفها خطأ.أهـ

القبة الحديث[1]،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: قول المحشي: «ولا يصح في أطيط العرش حديث» هذا محل نظر، لأن جماعة من أهل العلم حسنوه أيضاً، وهو من رواية جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، وجبير هذا مقبول، وله شواهد من حديث «**أطت السماء وحق لها أن تأط ما فيها موضع أربع أصابع..**»[2] فالعرش لا يمتنع أن يأط، وليس هناك مانع، والله ليس بحاجة إليه سبحانه وتعالى، لكن السبب ليس في ذلك، وصنف ابن عساكر كتاباً سماه: الأغلاط والتغليط ـ أو نحو هذه العبارة ـ في بطلان حديث الأطيط، مؤلف مستقل، والحديث سنده ليس بذاك، لأن جبير بن محمد بن جبير ليس مشهوراً بالرواية ولا معروف بالثقة، ومداره عليه، وأظنه قال في التقريب: مقبول.

ووجه النكارة فيه أنه سبحانه ليس بحاجة إليه، فكيف يأط؟

والأطيط يكون من الثقل، والله ليس بحاجة إليه ولا إلى غيره، هو الذي أقام العرش ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم:٢٥] هو الذي أقام كل شيء سبحانه وتعالى، وهو في غنى عن كل شيء، وليس بحاجة إلى شيء من خلقه سبحانه وتعالى، فاستنكروا هذا،

(١) ضعيف الإسناد، ولا يصح في أطيط العرش حديث، وهو مخرج في «الظلال» (٥٧٥ـ٥٧٦) وانظر فيه الحديث الذي قبله.أهـ ألباني

قال شاكر: هذا جزء من حديث طويل، رواه أبو داود في كتاب السنة من سننه برقم :٤٧٢٦(٤/ ٣٦٩ـ٣٧٠ من عون المعبود).أهـ

(٢) رواه أحمد في المسند ٥/ ١٧٣، والترمذي (٢٣١٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه ابن ماجة ٢/ ١٤٠٢ رقم (٤١٩٠)، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥١٠ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عليه الذهبي.

لكن العبرة بالرواية، بالسند، إذا صح السند فلا وجه للاستنكار، لأنه لا مانع من أطيط مع الغنى.أهـ

سؤال/ وجه الشاهد من حديث «أطت السماء» أليس هذا متعلقاً بالملائكة؟

أجاب سماحة الشيخ: بلى، لكن وإن كانت السماوات أعظم شيء إحكاماً وقوة، فكونها تئط أو كون العرش يئط لا مانع، لأن الله جل وعلا هو الذي أمسكها سبحانه وتعالى، وأطيطها لا يمنع من كونها ممسكة عظيمة قوية، الله أمسكها جل وعلا، وليس يدل على أن هذا ممتنع، فهي أطت كما أنها قوية ممسكة، فالعرش قد يأط، كما أنه ممسك قوي قد يأط من تعظيم الله، من خوف الله لكبريائه، لا لأنه محتاج شيئاً، قد تأط من خوفها ومن تعظيمها لله، والعرش من تعظيمه لله، من خجله، لا شيء في ذلك، الإنسان قد يتحرج قد يرتعد لا عن ثقلٌ عليه، ولكن لتعظيم وخجل، أو لأمر آخر من الأمراض العارضة، فالعرش مخلوق من المخلوقات، قد يأط لأسباب كثيرة لا للثقل ولا للحاجة.

وإذا استقام السند فلا حاجة إلى التأويل، والأطيط هو الاهتزاز والحركة لثقل ما عليه، أو من رعدة أو من خوف أو نحو ذلك، قريب من معنى الصرصرة، إذا حمل الإنسان شيئاً من الثقل مثل الشداد والمسامة وأشبهها، قد يكون لها حركة وصوت من ثقل ما عليها، والسقف الضعيف كذلك إذا وضع عليه الأشياء الثقال.أهـ

❊ ❊ ❊

وفي صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا سألتم الله

الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[(١)] يروى وفوقه بالنصب على الظرفية، وبالرفع على الابتداء، أي: وسقفه[(٢)].

سؤال/ قال الحافظ ابن حجر بأن فوقه هنا بمعنى دونه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أي فما دونها.

أجاب سماحة الشيخ: هذا ليس على كل حال، أهل التفسير اختلفوا بمعنى ﴿ فَوْقَهَا ﴾ [البقرة:٢٦] المراد به فوقها أو بما دونها ما هو أصغر منها، جماعة من المفسرين قالوا: ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ يعني من الذباب وما فوق الذباب، وفي لغة العرب ما فوق الواحد يعني من جهة العلو.أهـ

* * *

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه: الفلك الأطلس، والفلك التاسع! وهذا ليس بصحيح، لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ: «فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي

---

(١) صحيح، وأخرجه الإمام أحمد أيضا، وهو مخرج في «الصحيحة» (٩٢١) «والظلال» (٥٨١). أهـ ألباني

قال شاكر: هو جزء من حديث رواه البخاري (١٣/ ٣٤٩-٣٥٠ من فتح الباري).أهـ

(٢) قال شاكر: رواية ضبط «فوقه» بالرفع، نقلها الحافظ في الفتح عن المشارق للقاضي عياض: أنها ضبط الأصيلي، ثم نقل عن القاضي أيضا أنه أنكرها في المطالع، وأنه قال: «إنما قيده الأصيلي بالنصب، كغيره».أهـ

أم جوزي بصعقة الطور»[(١)]

والعرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وليس هو فلكاً، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات، فمن شعر أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيراً
بالبناء العالي الذي بهر النا ... س وسوى فوق السماء سريراً
شرجعاً لا يناله بصر العـ ... ـين ترى حوله الملائك صوراً

الصور هنا: جمع: أصور، وهو: المائل العنق لنظره إلى العلو، والشرجع: هو العالي المنيف، والسرير: هو العرش في اللغة.

ومن شعر عبدالله بن رواحة رضي الله عنه، الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا

ذكره ابن عبدالبر وغيره من الأئمة، وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[(٢)] ورواه

---

(١) متفق عليه، وتقدم نحوه. أهـ ألباني

قال شاكر: انظر صحيح مسلم ٢/ ٢٢٦-٢٢٧. أهـ

(٢) صحيح، رواه أبو داود وغيره، وقد خرجته في «الصحيحة» (١٥١). أهـ ألباني

قال شاكر: أبو داود في سننه برقم ٤٧٢٧. أهـ

ابن أبي حاتم ولفظه: «تخفق الطير سبعمائة عام»

وأما من حرف كلام الله، وجعل العرش عبارة عن الملك، كيف يصنع بقوله تعالى: ﴿ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية؟! وكان ملكه على الماء! ويكون موسى عليه السلام آخذاً من قوائم الملك؟! هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول؟!

وأما الكرسي فقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾وقد قيل: هو العرش، والصحيح أنه غيره، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

روى ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش، والحاكم في مستدركه، وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى»[1] وقد روي مرفوعاً، والصواب أنه موقوف على ابن عباس.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله : لكن هذا قد يقال فيه إنه مما لا يقال بالرأي، فله حكم المرفوع، وقد يقال: إن هذا مما تلقاه

(١) صحيح موقوفاً، وأما المرفوع فضعيف، كما بينته في تخريج كتاب «ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان» للآلوسي، وقد طبعه المكتب الإسلامي، وراجع له «الظلال» (١٠٢/ ٣٦).أهـ ألباني

قال شاكر: المستدرك للحاكم ٢/ ٣٨٢ موقوفا، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.أهـ

وقد رواه ابن بطة في الإبانة (٢٦٩) ٣/ الرد على الجهمية.

عن بني إسرائيل من كتبهم، فإن القول بأنه موضع القدمين يحتاج إلى نص صريح ثابت عن النبي ﷺ لا يحتمل، وأما هذا الأثر فمحتمل، قد يكون من أخبار بني إسرائيل وليس من كلام النبي ﷺ وليس مما سمعه ابن عباس، فإن الله جل وعلا فوق العرش بالنصوص القطعية، والكرسي تحت البحر الذي فوقه العرش، فيحتاج إلى نص صريح صحيح يدل على ما ذكره، وإلا فهو محل نظر، و محتمل أن يكون مما تلقاه عن بني إسرائيل، كما تلقى عبدالله بن عمرو أشياء كثيرة من أخبارهم.

وكتاب الألوسي «ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان» رأيته قديماً، بينت فيه أغلاط الهيئة في دوران الأرض ودوران الشمس حولها، نبهت على هذا، وذكرت شيئاً في الرد على من قال بدوران الأرض، كتيب جمعناه وطبعناه، ذكرنا فيه الأدلة النقلية والحسية على سكون الأرض وعلى دوران الشمس حولها، دوران الشمس، والألوسي تبعهم في هذا ونقل كلامهم، فيطلب، وتعليق الشيخ ناصر عليه ينفع كثيراً لما ذكر فيه من الأحاديث والآثار.أهـ

سؤال/ كونها سبع أرضين كيف ذلك؟ هل غير أرضنا التي نحن عليها، وهل كل أرض مستقلة ؟

أجاب سماحة الشيخ: في نفس القرآن ولا يمنع ذلك، يقول الله ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] والفاصل بينهما الله أعلم به، كل واحدة مفتوحة على الأخرى، لكن هل هي مفصولات ببحر أو غير ذلك؟

الله أعلم، وفي الأحاديث الصحيحة «من اقتطع شبرا بغير حق طوقه الله يوم القيامة من سبع أرضين»[1] رواه الشيخان من حديث عائشة ومن حديث سعيد بن زيد.أهـ

* * *

وقال السدي: السماوات والأرض في جوف الكرسي بين يدي العرش. وقال ابن جرير: قال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[2] وقيل: كرسيه علمه، وينسب إلى ابن عباس، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة، كما تقدم.

ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن، والظاهر أنه من جراب الكلام المذموم، كما قيل في العرش، وإنما هو - كما قال غير واحد من السلف: بين يدي العرش كالمرقاة إليه .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الذي أعتقده أن هذا الأثر عن ابن عباس لا يكفي في إثبات أن الكرسي موضع القدمين، لأن هذا ليس بصحيح ولا صريح عن النبي ﷺ، وأما قول ابن عباس هذا لا يكفي، لأن هذا من الصفات، صفات الله جل وعلا ما يكفي فيها إلا نص من القرآن والسنة، ثم كلام ابن عباس محتمل أن يكون مما قاله تابعاً

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٢) كتاب المظالم / باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، ومسلم (١٦١٠) كتاب المساقاة والمزارعة / باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(٢) صحيح، كما بينته في المصدر السابق، وهو مخرج في «الصحيحة» (١٠٩).أهـ ألباني
قال شاكر: تفسير الطبري ج٣ ص٨ طبعة بولاق.أهـ

لهم النبي ﷺ، ويحتمل أنه مما تلقاه عن بني إسرائيل، ومع الشك لا يثبت هذا، فالتفصيل أن يقال مثل ما قال جل وعلا في الكرسي: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة:٢٥٥] والكرسي، الله سبحانه وتعالى أعلم بصفته وكيفيته، وهو مخلوق عظيم دون العرش، قال جماعة إنه العرش، والصحيح عند أهل السنة أنه غير العرش، والجزم بأنه موضع القدمين محل نظر، هذا المقام مقام عظيم يحتاج إلى دليل.أهـ

سؤال/ من المعلوم أن الصحابة أعلم الناس بالكتاب والسنة، فكيف يتلقون عن بني إسرائيل؟

أجاب سماحة الشيخ: قد تلقوا كثيراً من أخبار الآخرة وأخبار الجنة وأخبار النار وأخبار السماوات وأخبار الأرض، لقول النبي ﷺ: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»(١).

أخبار بني إسرائيل على أقسام ثلاثة :

١) قسم وافق الكتاب والسنة فيقبل .

٢) وقسم خالف الكتاب والسنة فيطرح .

٣) وقسم لم نجد شيئاً يدل على موافقته أو مخالفته، فيكون مما يحكى ولا يصدق ولا يكذب، مثل ما قال: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ولا تصدقوهم**» وفي الحديث الآخر «**ولا تصدقوهم ولا**

---

(١) رواه أبو داود (٣٥١٥) كتاب العلم / باب الحديث عن بني إسرائيل، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(٣٥١٦) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، والترمذي (٢٦٦٩) كتاب العلم / باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي :حديث حسن صحيح. وقال الألباني: صحيح ٣/ ٣٢٢ سنن أبي داود.

تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم»[١] وهذا عند أهل العلم إلا الشيء الذي دل شرعنا على تصديقه أو تكذيبه، فالذي لا يصدق في هذه الأمور هو الشيء الذي ما عندنا فيه دليل على صدقه أو كذبه، وبهذا تكون أخبارهم ثلاثة أقسام، كما نص على هذا أبو العباس بن تيمية وابن كثير وغيرهم.أهـ

❊ ❊ ❊

قوله: (وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الاحاطة خلقه).

ش: أما قوله: «وهو مستغن عن العرش وما دونه» فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا، لأنه لما ذكر العرش والكرسي، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش، ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه، ليس لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل، لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالي، محيطاً به، حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه، فانظر إلى السماء، كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها؟ فالرب تعالى أعظم شأناً وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل، وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته عز وجل به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش، وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش، وعدم إحاطة العرش به،

---

(١) رواه عبدالرزاق في مصنفه (٦/ ١١١) رقم (١٠١٦١) من طريق عطاء بن يسار مرسلاً، وابن أبي شيبة ٥/ ٣١٣ (٢٦٤٢٢) عن عطاء.

وحصره للعرش، وعدم حصر العرش له.

وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا يعمه قوله: ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت:٥٤] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨] إلى غير ذلك، فإنه سبحانه وتعالى هو الذي أمسك السماوات وأمسك الأرض وأقام الجميع ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم:٢٥] والسماء كل ما علا وارتفع، والعرش مما سما والكرسي مما سما، فهو الذي أقام الجميع سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [فاطر:٤١] فهو الممسك لها والمقيم لها والحامل لها بقدرته العظيمة سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس:٧١] وهو الغني الكامل بذاته عن كل ما سواه جل وعلا.

واستنباطهم هذا من النصوص العامة، لأن أهل البدع زعموا أن هذا يلزم، فنفوا علوه واستواءه على العرش، لئلا يلزم من حاجته إلى هذه الأشياء، وهذا باطل لا يلزم منها شيء، لا يلزم أن تكون محيطة به ولا أن يكون محتاجا لها، ولا أن تكون حاوية له في جوفها، لا يلزم هذا كله، ولهذا قال ابن المبارك: «نعرف ربنا بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه»[1] يعني منفصل. أهـ

* * *

ونفاة العلو، أهل التعطيل، لو فصلوا بهذا التفصيل، لهدوا إلى سواء

---

(١) رواه عبدالله بن أحمد في السنة، وقد تقدم.

السبيل، وعلموا مطابقة العقل للتنزيل، ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل، فضلوا عن سواء السبيل، والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رحمه الله، لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وغيرها: كيف استوى؟

فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول.

ويروى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي ﷺ[1].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهكذا قال ربيعة بن أبي عبدالرحمن أيضاً شيخ مالك رحمه الله، والمشهور عن مالك، ولكنه محفوظ عن أم سلمة وعن ربيعة أيضاً من كلامهما.أهـ

* * *

وأما قوله: «محيط بكل شيء وفوقه» وفي بعض النسخ: محيط بكل شيء فوقه، بحذف الواو من قوله: فوقه، والنسخة الأولى هي الصحيحة، ومعناها: أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء. ومعنى الثانية: أنه محيط بكل شيء فوق العرش.

وهذه - والله أعلم - إما أن يكون أسقطها بعض النساخ سهواً، ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة، أو أن بعض المحرفين الضالين أسقطها قصداً للفساد.

وإنكار لصفة الفوقية! وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات، فلا يبقى لقوله: محيط -

---

(١) لا يصح، والصواب موقوف على مالك وأم سلمة، والأول أشهر.أهـ ألباني

بمعنى: محيط بكل شيء فوق العرش، والحالة هذه: معنى!

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني ما يبقى له معنى على ما بينا من أن العرش سقف المخلوقات، ليس فوقه شيء يحيط به، بل الله هو العالي فوق العرش، لكن القصد من هذا الكتاب الذي كتبه عنده سبحانه، هذا نص عليه الرسول ﷺ، فقد ثبت في الصحيحين «إن الله كتب كتاباً عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي»[1] فهذا يستدل به على العموم.أهـ

* * *

إذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحيط به، فتعين ثبوت الواو، ويكون المعنى: أنه سبحانه محيط بكل شيء، وفوق كل شيء.

أما كونه محيطاً بكل شيء، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما المراد: إحاطة عظمته، وسعة علمه وقدرته، وأنها بالنسبة إلى عظمته

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٤) كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ و(٧٤٠٤) كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ و(٧٤٢٢) باب «وكان عرشه على الماء» و(٧٤٥٣) باب قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ و(٧٥٥٣-٧٥٥٤) باب قول الله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

ومسلم (٢٧٥١) كتاب الذكر والدعاء/ باب سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كخردلة، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم» ومن المعلوم - ولله المثل الأعلى - أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو في الحالين مباين لها، عال عليها فوقها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف، فلو شاء لقبض السماوات والأرض اليوم، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة، فإنه لا يتجدد به إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق سماواته؟ أو يدني إليه من يشاء من خلقه؟ فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره.

وفي حديث أبي رزين المشهور الذي رواه عن النبي ﷺ في رؤية الرب تعالى: فقال له أبو زرين: كيف يسعنا - يا رسول الله - وهو واحد ونحن جميع؟ فقال: «سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله: هذا القمر، آية من آيات الله، كلكم يراه مخلياً به، والله أكبر من ذلك»(١) وإذا أفل تبين أنه أعظم وأكبر من كل شيء، فهذا يزيل كل إشكال، ويبطل كل خيال.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني إذا أفل القمر مع سعته ومع عمومه الأرض واستوى عن الأرض واطلع عليه الناس كلهم،

---

(١) ضعيف الإسناد، حسن المتن، كما هو مبين في «الظلال» (٤٥٩-٤٦٠). أهـ ألباني

قال شاكر: هذا معنى جزء من حديث طويل، رواه عبدالله بن أحمد في مسند الإمام أحمد رقم ١٦٢٧٥ (ج٤ ص١٣-١٤ من طبعة الحلبي) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٨-٣٤٠ ونسبه إليه وإلى الطبراني، وقال: «وأحد طريقي عبدالله إسنادها متصل، ورجالها ثقات». أهـ

وهو مخلوق من مخلوقات الله ومن صغير مخلوقات الله عز وجل، فإذا أفل غاب عن الناس في آخر الشهر أو عند الغيم، فما للرب عز وجل المطلع على كل شيء ويعلم كل شيء ومحيط بكل شيء أعظم وأكبر، هذا القمر الذي هو نير عن الشمس النيرة العظيمة، إذا أصابها شيء من سحاب أو غيره ذهب النور، أو كان عند غروبها هكذا عند وجود آفة بها، مع عظمها بالنسبة إلى غيرها من المخلوقات الصغيرة، دل ذلك على أن لله سبحانه دليل، فهو يعلم كل شيء ويطلع على كل شيء ولاتخفى عليه خافية فوق ذلك وأعظم من ذلك سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

وأما كونه فوق المخلوقات، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ وقال ﷺ في حديث الأوعال المتقدم ذكره: «والعرش فوق ذلك، والله فوق ذلك كله»[(١)].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ظاهر طرقه كما قال الهيثمي أنه من طريق وكيع بن حدس، ووكيع وإن كان غير مشهور، لكن صاحب التقريب قال فيه ـ كما أظن ـ أنه مقبول، والظاهر أنه له كلام، وابن القيم تكلم عليه في حادي الأرواح أو في الهدي.

وقول الشيخ ناصر في الصحيحة «صحيح» أو في الضعيفة «ضعيف» أو غيرها من كتبه، لا يعني أن يؤخذ هذا مسلما، فطالب العلم لابد أن يراجع ويعتني، مثل ما إذا ضعف الحافظ ابن حجر وغير الحافظ أو الهيثمي، لا يؤخذ كلامهم على الإطلاق، فكل واحد له أوهام وله

---

(١) ضعيف، وتقدم قريبا.أهـ ألباني

أغلاط في ما يحكم عليه، تارة يهم ويغلط في التصحيح، وتارة يهم ويغلط في التضعيف، فينبغي لطالب العلم أن لا يأخذه مسلماً إذا نقله عن هؤلاء، الحافظ ابن حجر أو الهيثمي أو غيرهما، أو الشيخ الألباني من باب أولى، لابد أن يكون عند طالب العلم همة فوق ذلك، يراجع ما ذكروا ويراجع في الأصول المعتبرة حتى يتبين له الحقيقة، فقد يوافقهم وقد يخالفهم، لأن الأدوات معروفة ومصطلح الحديث معروف، وأسباب التصحيح والتضعيف، معروفة فلا بد من عناية، فتراجع الأصول المعتبرة التي خرجت الحديث وروت الحديث، تراجع حتى يعرف أصل الحديث، هل هو صحيح أو ضعيف؟ أو الذي حكم عليه بالصحة أو الضعف قد وهم.

والشيخ ناصر تارة يتساهل وتارة يتشدد، تارة يتساهل في التصحيح والتضعيف وتارة يتشدد، والطريقة فيها بعض النظر.

وقد يحكم الإنسان على الحديث بما في ظنه، يكون بعيداً عن مراجعة الطرق ويحكم على الحديث بما في ظنه، ثم بعد المراجعة لو راجعه لاتضح له عدم صحة ما قال.

التضعيف على حسب الأسانيد التي اطلع عليها العبد، فيقول ضعيف بهذا السند، يقول ابن تيمية: إذا كان ضعيف السند فقل ضعيف، أي بهذا السند، ولا تضعفه مطلقاً.. فلابد من التحرز، فيقال إنه ضعيف بالنسبة للمسند الذي عند ابن سعد أو بالنسبة للإسناد الذي عند أحمد أو بالنسبة للإسناد الذي عند ابن ماجه، إلا إذا كان الرجل قد أحصى الأسانيد وتتبعها وخرجها، فهو محل الحكم عليه.أهـ

* * *

وقد أنشد عبدالله بن رواحة شعره المذكور بين يدي النبي ﷺ، وأقره على ما قال: وضحك منه[(١)].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

وظاهر كلام الشيخ ابن القيم صحته.

وكل هذا، لا كلام ابن عبدالبر ولا كلام الذهبي ولا كلام الشيخ ناصر، طالب العلم يحكم عليه بميزانه هو. أهـ

* * *

وكذا أنشده حسان بن ثابت رضي الله عنه قوله:

شهدت بإذن الله أن محمداً ... رسول الذي فوق السماوات من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما ... له عمل من ربه متقبل
وأن الذي عادى اليهود ابن مريم ... رسول أتى من عند ذي العرش مرسل
وأنا أخا الأحقاف إذ قام فيهم ... يجاهد في ذات الإله ويعدل

فقال النبي ﷺ: «وأنا أشهد»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: أن رحمتي سبقت غضبي»[(٣)] وفي رواية: تغلب غضبي رواه البخاري وغيره. وروى ابن

---

(١) ضعيف، وقول ابن عبدالبر: «رويناه من وجوه صحاح» فيه نظر، فقد قال الذهبي في «العلو» (١٠٦) معقبا عليه: «روي من وجوه مرسلة..» ثم ذكرها. أهـ ألباني

(٢) ضعيف، رواه ابن سعد في «الطبقات» بسند ضعيف ومنقطع. أهـ ألباني

(٣) متفق عليه، هو مخرج في «الظلال» (٦٠٨-٦٠٩). أهـ ألباني

ماجه عن جابر يرفعه، قال: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا إليه رؤوسهم، فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه»(١).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: نظره إليهم سبحانه من فوقهم هذا ثابت في الصحاح وغير الصحاح.أهـ

* * *

وروى مسلم عن النبي ﷺ، في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»(٢) والمراد بالظهور هنا: العلو، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوه.

فهذه الأسماء الأربعة متقابلة: اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته، واسمان لعلوه وقربه .

---

(١) ضعيف، وتقدم، وقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: «وإسناده جيد» غير جيد، لما ذكرته هناك.أهـ ألباني

قال شاكر: ابن ماجه رقم ١٨٤، وإسناده جيد.أهـ

(٢) صحيح، وتقدم الحديث.أهـ ألباني

قال شاكر: هو جزء من دعاء النوم، ورواه مسلم ٢/ ٣١٥ وليس في صحيح مسلم ما يشير إلى أنه تفسير للآية، ولم يروه في باب التفسير، ولكن المفهوم أنه معنى هذه الأسماء الحسنى المذكورة في الآية.أهـ

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الأول والآخر: يدل على أنه موجود دائماً، وأنه لم يزل موجوداً سبحانه وتعالى، وهكذا لا يزال موجوداً، والظاهر: يدل على علوه وفوقيته، والباطن: يدل على علمه الكامل وإحاطته بكل شيء سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده، قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي، فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك! أتدري ما تقول»؟ وسبح رسول الله ﷺ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «ويحك! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك! أتدري ما الله؟ إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته، وقال بأصابعه! مثل القبة عليه، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب»(١).

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: تقدم لكم أن هذا إسناده ليس بذاك، وجبير بن محمد ليس بذاك المعروف، وإن قال الحافظ فيه: «مقبول» لكن المقام مقام عظيم لا يكتفى فيه بمثل هذا، وصنف ابن عساكر كتاباً أظنه سماه: «الإيهام والتغليط في بطلان حديث الأطيط»، فالمقصود أن إسناده ليس بذاك، ولكن المعنى صحيح، المعنى أن الله فوق العرش وعرشه فوق سماواته السبع، والعرش سقف

---

(١) ضعيف، وتقدم.أهـ ألباني

قال شاكر: أبو داود ٤٧٢٦ .أهـ

المخلوقات وأعلاها، والله فوق ذلك سبحانه وتعالى، وأنه لا يستشفع بالله على خلقه، أما الاستشفاع بالخلق على الله، وكون المسلم يطلب من أخيه أن يدعو له، أو المسلمون يطلبون من إمامهم وخطيبهم أن يدعو لهم، فهذا لا إشكال فيه، وقد جاءت فيه النصوص عن النبي ﷺ، فالمعنى صحيح بدونه، لكن الإشكال في قوله: «**يئط به أطيط الرحل بالراكب**» فإن هذا يوهم لمن لا يفهم النصوص أن الرب بحاجة إليه، وأنه لو سقط لسقط معه، ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى خلقه، حتى لو ما ثبت الأطيط، فقد يكون الأطيط ليس من الثقل وليس من الحاجة، قد يكون من جهة الخوف والتعظيم، كما يصير للإنسان عند رؤية من يحذره ويعظمه رعشة ومخافة، وقد علم المسلمون قاطبة بالإجماع أن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى خلقه، وأنه هو الذي أقام العرش وأقام السماوات وأقام الأرض، وهذا معلوم، ولكن الاعتبار بصحة الإسناد واستقامة الإسناد، وأما أنه يستشفع بالله على خلقه فهذا هو الذي أنكره النبي عليه الصلاة والسلام، ولو صح الحديث لكان الأمر واضحاً، وقد جاءت النصوص: «**من سأل بالله فأعطوه**»[1] والسؤال بالله نوع من التشفع بالله، صح من حديث ابن عمر: «**من سأل بالله فأعطوه**» وفي قصة الأبرص والأقرع والأعمى في الصحيحين: «**أسألك بالذي أعطاك البصر، أعطاك اللون الحسن، أعطاك المال**»[2] الشاهد

---

(١) رواه أبو داود (١٦٠٤) كتاب الزكاة / باب عطية من سأل بالله عز وجل، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه النسائي كذلك.

(٢) رواه البخاري (٣٤٦٤) كتاب الأنبياء / باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل،و (٦٦٥٣) كتاب الأيمان والنذور / باب: لا يقول ما شاء الله وشئت، وهل يقول أنا بالله وبك؟ ومسلم (٢٩٦٤) كتاب الزهد، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سؤاله بالذي أعطاه، والسؤال في ذلك يشبه الاستشفاع بالله.أهـ

* * *

وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة، لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، فقال النبي ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات»(١) وهو حديث صحيح، أخرجه الأموي في مغازيه، وأصله في الصحيحين

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: علو الله على سماواته واستواؤه على العرش وارتفاعه فوق الجميع؛ هذا أمر مسلم ومجمع عليه بين أهل السنة والجماعة.أهـ

* * *

وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها، أنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات(٢).

وعن عمر رضي الله عنه: أنه مر بعجوز فاستوقفته، فوقف معها يحدثها، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، حبست الناس بسبب هذه العجوز؟ فقال: ويلك! أتدري من هذه؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق

---

(١) صحيح، بدون قوله: «فوق سبع سماوات» كذلك هو في الصحيحين والمسند، وأما هذه الزيادة فتفرد بها محمد بن صالح النمار، كما في العلو (١٠٢) وقال: «وهو صدوق» وفي التقريب: «صدوق يخطئ» قلت: فمثله لا يقبل تفرده، وإن صححه المؤلف وكذا الذهبي، وفي إثبات الفوقية أحاديث صحيحة تغني عن هذا، وسيذكر المؤلف بعضها، وانظر تخريج الحديث في «مختصر العلو» (٨٧/ ١١).أهـ ألباني

(٢) صحيح، وهو عند البخاري في «التوحيد» من حديث أنس قال: فكانت زينب تفتخر..إلخ، فليس هو من مسند زينب نفسها كما يفيده صنيع المؤلف رحمه الله.أهـ ألباني

سبع سماوات، هذه خولة التي أنزل الله فيها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أخرجه الدارمي[(١)].

وروى عكرمة عن ابن عباس، في قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ قال: ولم يستطع أن يقول من فوقهم، لأنه قد علم أن الله سبحانه من فوقهم[(٢)].

ومن سمع أحاديث الرسول ﷺ وكلام السلف، وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر، ولا ريب أن الله سبحانه لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك، فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، فتعين أنه خلقهم خارجاً عن ذاته، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم، لكان متصفاً بضد ذلك، لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وضد الفوقية: السفول، وهو مذموم على الإطلاق، لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده.

فإن قيل: لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها، قيل: لو لم يكن قابلاً للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها، فمتى أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه، غير مخالط للعالم، وأنه موجود في الخارج، ليس وجوده ذهنياً فقط، بل وجوده خارج الأذهان قطعاً، وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو: إما داخل

---

(١) ضعيف، أخرجه أبو سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٦) طبع المكتب الإسلامي، من طريق أبي يزيد المدني عن عمر به، قال الذهبي (١١٣) «وهذا إسناد صالح فيه انقطاع، أبو يزيد لم يلحق عمر». أهـ ألباني

(٢) رواه اللالكائي (٦٦١) ٣/ ٣٢٦ سياق ما روي في قوله تعالى ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝﴾، وابن كثير في تفسيره، سورة الأعراف / آية (١٧).

العالم وإما خارج عنه، وإنكار ذلك إنكار ما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب، فلا يستدل على ذلك بدليل إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه، وأوضح وأبين، وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه، ولا يستلزم نقصاً، ولا يوجب محذوراً، ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً، فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلاً، فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله، والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله ـ: إلا بذلك؟ فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه، وكونه فوق عباده، التي تقرب من عشرين نوعاً:

أحدها: التصريح بالفوقية مقروناً بأداة: «من» المعينة للفوقية بالذات، كقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾.

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.

الثالث: التصريح بالعروج إليه نحو: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ وقوله ﷺ: «يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم»[1].

الرابع: التصريح بالصعود إليه، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾.

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه، كقوله تعالى:

---

(١) متفق عليه، وهو قطعة من حديث لأبي هريرة رضي الله عنه، أوله «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار..» وهو مخرج في الظلال (٤٩١).أهـ ألباني

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

السادس: التصريح بالعلو المطلق، الدال على جميع مراتب العلو، ذاتاً وقدراً وشرفاً، كقوله تعالى :﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وقد بسطها ابن القيم رحمه الله في النونية، ساقها وأطال في ذلك رحمه الله.أهـ

* * *

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ﴿حمٓ (١) وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذه كلها طرق وأدلة العلو المتنوعة الكثيرة، كل طريق تحته أنواع من الأدلة، فالنزول لهذا الكتاب العظيم جاءت في آيات، وهو أحد الطرق الدالة على علو الله وفوقيته سبحانه وتعالى، وأنه جل وعلا فوق جميع العالم، فوق العرش وعلمه محيط بعباده سبحانه وتعالى، فهو فوق العرش جل وعلا قد استوى عليه كما أخبر عن نفسه، ومع ذلك لاتخفى عليه خافية جل وعلا،

علمه في كل مكان سبحانه وتعالى.أهـ

❊ ❊ ❊

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ ففرق بين من له عموماً وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصاً، وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه: أنه عنده فوق العرش[1].

التاسع: التصريح بأنه تعالى في السماء، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون «في» بمعنى على، وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز الحمل على غيره.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا هو الحق، لأن قوله جل وعلا: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] فإن الله قال: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ له عند أهل السنة وجهان:

أحدهما: أن يكون المراد ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ العلو، يعني في العلو، وتصير ﴿فِى﴾ على بابها، ظرفية، فهو سبحانه في السماء، في العلو، وكل ما علا فهو سماء، السماوات سماء وما فوقها سماء وما فوق العرش سماء، فهو في العلو جل وعلا، وهذا حق.

والمعنى الثاني: أن المراد بالسماء السماوات المبنية، فتكون ﴿فِى﴾ بمعنى على، يعني من على السماء، أأمنتم من على السماء، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى

(١) متفق عليه، وتقدم الحديث.أهـ ألباني

ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الأنعام:٣] أي على السماء وفوقها، كما قال عز وجل: ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [التوبة:٢] أي على الأرض، وكما في قوله جل وعلا: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه:٧١] أي على جذوع النخل، وكله وارد في اللغة، على حسب القرائن والسياق ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك:١٦] واضح أن الله في العلو، وهكذا قوله: ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [التوبة:٢] ليس المراد الدخول في وسطها والحفر فيها، ولكن سيحوا في الأرض يعني فوقها وعلى ظهرها لينظروا آيات الله، وهكذا قوله: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه:٧١] ليس معنى التصليب في الجذوع أنه يدخلهم في الجذوع، لا، المراد تصليبهم فوقها.أهـ

* * *

العاشر: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة على مختصاً بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحباً في الأكثر لأداة: «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة.

الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى، كقوله ﷺ: «إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً»[(١)].

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: الحكم على هذا الحديث بالصحة لا أعلم عنه شيئاً، مع العلم بأن الشيخ ناصر يتساهل في التصحيح، لا يعتني بالاصطلاح المعروف، يطلق الصحيح على الحسن وعلى الجيد، لا يتقيد بالاصطلاح المعروف، الضعيف كذا، والحسن كذا، والصحيح لغيره كذا، يتوسع في مسألة الصحيح، لأن

---

(١) صحيح، أخرجه الحاكم وغيره وصححه الذهبي، ومن قبلهما ابن حبان.أهـ ألباني

المعروف عند أهل المصطلح أن المقبول أربعة أقسام: صحيح لذاته وصحيح لغيره، وحسن لذاته وحسن لغيره، فقد يتوسع ويقول: صحيح، وإن كان من باب الحسن، وإن كان من باب الحسن لغيره، قد يطلق الصحيح على جنس الثابت، سواء سمي بالاصطلاح حسناً لذاته أو حسناً لغيره أو صحيحاً لذاته أو صحيحاً لغيره، بالاستقراء من طريقته، واصطلاح الأولين يطلقون الصحيح على جنس الثابت، ويطلقون الحسن على جنس الثابت، ما هناك تقيد بقيد، والضعيف قد يطلقونه على ما فيه نقص وضعف، وإن كان يصلح للاحتجاج.أهـ

* * *

والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط ـ باطل بالضرورة والفطرة، وهذا يجده من نفسه كل داعٍ، كما يأتي إن شاء الله تعالى .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهذا يقوله المحرفون، يقولون: السماء قبلة الدعاء فلا حجة فيه للعلو، وهذا غلط، من قال إن السماء قبلة الدعاء؟

قبلة الدعاء الكعبة، كان النبي ﷺ يستقبلها كثيراً في دعائه ومناجاته، فلا يلزم من هذا أن تكون السماء قبلة الدعاء، وإنما السماء موقع البصر إليه للإشارة إلى العلو فقط، كما في كثير من خطبه إذا ذكر علو الله وذكر بعض الأحكام وذكر البلاغ رفع إصبعه إلى السماء «**اللهم اشهد**»[1] يشير للعلو.

والمأولون كابروا النصوص وكابروا المعقول، الله فطر العباد على

---

(١) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة والدارمي، وقد تقدم.

الإيمان بالعلو، وجاءت الأدلة التي لا تحصى الدالة على العلو، ولكن هؤلاء الجهمية والمعتزلة ومن سار في ركابهم كابروا المعقول وكذبوا المنقول، فلا فازوا بما تقتضيه العقول الصحيحة والفطر السليمة، ولا سلموا من تكذيب النقول - والعياذ بالله - وتأويلها على غير تأويلها، نسأل الله العافية.أهـ

* * *

الثاني عشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وإن كان نزوله سبحانه لا يشابه نزول المخلوقين، لكن هذا معروف من جهة اللغة، الله يخاطب الناس بما يفهمون ويعقلون، فدل ذلك على أنه في العلو سبحانه وتعالى، فإنه ذكر النزول في قوله ﷺ: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له**»[(١)] وفي اللفظ الآخر: «**فيقول: هل من تائب فيتاب عليه هل من سائل فيعطى سؤله هل من مستغفر فيغفر له**»[(٢)] دل ذلك على علوه سبحانه وتعالى وأنه في العلو جل وعلا، وهذا النزول نزول حقيقي ليس مجازاً، بل حقيقية تليق بالله لا نعلم كيفيتها،

(١) رواه البخاري (١١٤٥) كتاب التهجد / باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل،و (٦٣٢١) كتاب الدعوات / باب الدعاء نصف الليل،و (٧٤٩٤) كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين / باب الترغيب في صلاة التراويح، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٧٥٨) كتاب صلاة الليل من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهو نزول يليق بالله، كالاستواء والرحمة والغضب والرضى والمجيء يوم القيامة وغير ذلك، كله شيء يليق بالله، لا نفهم كيفيته ولا نعقلها، بل نقول: ينزل كما يشاء وكما يعلم سبحانه وتعالى، لا يعلم كيفية صفاته إلا هو جل وعلا، وهذا الباب واحد، طريق واحد ليس فيه اختلاف عند أهل السنة والجماعة في جميع الصفات، الإيمان بها واجب، وهي معلومة المعنى، والكيفية غير معلومة، كما قالت أم سلمة وربيعة بن أبي عبدالرحمن ومالك وغيرهم من أهل العلم: الاستواء معلوم والكيف مجهول، هذا يقال في الصفات كلها، هي معلومة والإيمان بها واجب لأنها معلومة، السمع غير البصر والبصر غير الرحمة والرحمة غير الرضا والعلم غير الكلام وهكذا، فهي صفات معلومة، ولكن الكيفية غير معلومة، لا يعلم كيفية صفاته إلا هو سبحانه وتعالى، والإيمان واجب بذلك كله على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى في جميع الصفات، بابها واحد، كما قيل في مسألة القرآن، إن نزول القرآن يدل على العلو ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء:١٩٣] ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر:١] ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [فصلت:٢] وهكذا، وهكذا العروج والصعود كله يدل على العلو، من عروج الملائكة إليه وصعودهم إليه ورفع العمل الصالح والكلم الطيب، كل هذا يدل على علوه سبحانه وتعالى، وهكذا ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء:١٥٨] ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران:٥٥] هذه كلها طرق وأنواع من الأدلة الدالة على علو الله وفوقيته سبحانه وتعالى.

وأما قول: هل يخلو منه العرش عند النزول؟

هذه أقوال ذكرها جماعة، ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله في شرح

حديث النزول، ولكن هذه الأقوال لا حاجة إليها، فلا نقول: يخلو العرش ولا نقول: لا يخلو، بل نسكت عن هذا كله، ونقول إنه ينزل سبحانه وتعالى ونزوله يليق به، لأن هذا نوع من التكلف والنظر في الكيفية، والكيفية محجوبة عنا.

وأما قول: إذا نزل يلزم خلو المكان، فهذا يلزم بالنسبة للمخلوقين، وأما الخالق فلا يلزم، بالنسبة للمخلوق يلزم من نزوله عن السطح أن يكون في الأسفل وأن يكون السطح خالياً، لكن صفات المخلوقين لا تلزم في الرب عز وجل، لأن صفاته تليق به سبحانه وتعالى، فلا نلزمه ولا نقيسه علينا.أهـ

* * *

الثالث عشر: الإشارة إليه حساً إلى العلو، كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر، لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله،

في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم، قال لهم: «أنتم مسؤولون عني، فماذا أنتم قائلون»؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت[١]، فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء، قائلاً: «اللهم أشهد» فكأنا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله، وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع أصبعه إليه: «اللهم أشهد»

(١) صحيح، وهو قطعة من حديث جابر الطويل في حجة النبي ﷺ، رواه مسلم وأبو داود والدارمي وابن ماجه وغيرهم، وقد أفردته في جزء لطيف، وضممت إليه كل ما وقع لي من الروايات والزيادات الثابتة عن جابر رضي الله عنه في سياق واحد، وعلقت عليه بتعليقات مفيدة.أهـ ألباني

ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: نحن نشهد بذلك أيضاً، نشهد بهذا وكل مسلم له أدنى معرفة يشهد بهذا، نشهد أنه بلغ البلاغ المبين وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد في كل مكان يكون فيه عليه الصلاة والسلام، هذا المكان العظيم في عرفة، وقد اجتمع في هذا المجمع أئمة الناس، لا يجتمع لأحد مثله، اجتمع فيه أئمة الناس كأبي بكر وعمر ومن بعدهم.أهـ

* * *

فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه إلى تنطع المتنطعين، وحذلقة المتحذلقين! والحمد لله رب العالمين.

الرابع عشر: التصريح بلفظ: الأين كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح، بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه: «أين الله»[(١)] في غير موضع.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ومن هذا قوله للجارية «أين الله»؟

(١) صحيح، رواه مسلم (٢/ ٧١) وغيره، عن معاوية بن الحكم السلمي أن النبي ﷺ قال للجارية: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة. وهو مخرج في «الظلال» (٤٨٩-٤٩٠) وفي «مختصر العلو» (٨١) وقال الذهبي فيه: «حديث صحيح أخرجه مسلم..».أهـ ألباني

قالت: في السماء[1]، دل على أنه في جهة معلومة، وهو معروف المحل سبحانه وتعالى، وهو في السماء في العلو، لا كما يقول المتكلمون والنفاة، منزه عن الجهات كلها حتى جهة العلو، نسأل الله السلامة.أهـ

* * *

الخامس عشر: شهادته ﷺ لمن قال إن ربه في السماء ـ بالإيمان.

السادس عشر: إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء، ليطلع إلى إله موسى فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السماوات، فقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾. فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني، ومن أثبته فهو موسوي محمدي.

السابع عشر: إخباره ﷺ: أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة، فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرار[2].

الثامن عشر: النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى، من الكتاب والسنة، وإخبار النبي ﷺ أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب، فلا يرونه إلا من فوقهم، كما قال ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم،

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧) كتاب المساجد / باب تحريم الكلام في الصلاة، عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه، انظر سياقه في مختصر العلو رقم (١٧).أهـ ألباني

ثم قرأ قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ ثم يتوارى عنهم، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»[١] رواه الإمام أحمد في المسند وغيره من حديث جابر رضي الله عنه.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: في تضعيفه نظر، ولعل المحشي ما تتبع طرقه، هذا حديث عظيم عن النبي ﷺ في رؤية الله جل وعلا، وأنه يسطع لهم نور من فوقهم فيرفعون إليه رؤوسهم، جاء هذا المعنى فيما أعلم من عدة وجوه، ذكرها ابن القيم رحمه الله وغيره، فلتراجع.أهـ

* * *

ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية، ولهذا طرد الجهمية الشقين،

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني نفوا الرؤية ونفوا العلو، نسأل الله العافية.أهـ

* * *

وصدق أهل السنة بالأمرين معاً، وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلو مذبذباً بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء! وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله! وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك!

وكلام السلف في إثبات صفة العلو كثير جداً: فمنه: ما روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه الفاروق، بسنده إلى أبي مطيع

(١) ضعيف، وتقدم.أهـ ألباني

البلخي: أنه سأل أبا حنيفة عمن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض؟

فقال: قد كفر، لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ وعرشه فوق سبع سماواته، قلت: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟

قال: هو كافر، لأنه أنكر أنه في السماء، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والمعنى في هذا واضح، هذا من الأمور الضرورية التي لا تحتاج إلى إقامة دليل على من كان من المسلمين، لأن هذا معروف في القرآن العظيم أو في السنة، فلا يحتاج إلى إقامة دليل، بل من أنكر هذا فهو كافر لظهور تكذيبه للقرآن والسنة، نسأل الله العافية، لكن لو فرض أنه في محل يخفى عليه مثل هذا؛ فإنه ينبغي أن تقام عليه الحجة، ثم يكفّر إذا أصر.أهـ

* * *

وزاد غيره: لأن الله في أعلى عليين، وهو يدعى من أعلى، لا من أسفل. انتهى.

ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم، مخالفون له في كثير من اعتقاداته، وقد ينتسب إلى مالك والشافعي وأحمد من يخالفهم في بعض اعتقاداتهم، وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي، لما أنكر أن يكون الله عز وجل فوق العرش ـ: مشهورة، رواها عبدالرحمن بن أبي حاتم وغيره.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: قد يقع من أتباعهم من ليس على عقيدتهم، يوافقهم في الفروع ولكنه يخالفهم في الأصول، والمقصود أتباعهم ولو كانوا من غير التلاميذ، ولو كانوا بعدهم بأزمان.أهـ

❊ ❊ ❊

ومن تأول فوق، بأنه خير من عباده وأفضل منهم، وأنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم ـ: فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة، وتشمئز منه القلوب الصحيحة! فإن قول القائل ابتداء: الله خير من عباده، وخير من عرشه: من جنس قوله: الثلج بارد، والنار حارة، والشمس أضوأ من السراج، والسماء أعلى من سقف الدار، والجبل أثقل من الحصى، ورسول الله أفضل من فلان اليهودي، والسماء فوق الأرض!! وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه! فكيف يليق بكلام الله، الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ؟! بل في ذلك تنقص، كما قيل في المثل السائر :

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ولو قال قائل: الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك! لضحك منه العقلاء، للتفاوت الذي بينهما، فإن التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم، بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك، بأن كان احتجاجاً على مبطل، كما في قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات.

ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص، وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه.

فإن قالوا: بل علو المكانة لا المكان؟ فالمكانة: تأنيث المكان، والمنزلة: تأنيث المنزل، فلفظ المكانة والمنزلة تستعمل في المكانات النفسانية والروحانية، كما يستعمل لفظ المكان والمنزل في الأمكنة الجسمانية، فإذا قيل: لك في قلوبنا منزلة، ومنزلة فلان في قلوبنا وفي نفوسنا أعظم من منزلة فلان، كما جاء في الأثر: «إذا أحب أحدكم أن يعرف كيف منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله في قلبه، فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه»[١] .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني على حسب تعظيمك لله يكون تعظيم الله لك ومحبته لك، ومن أحب الله وعظمه باتباع أوامره وترك نواهيه والوقوف عند حدوده والخوف منه؛ فله من المنزلة عند الله كذلك، على حسب تعظيمه لربه وقيامه بحقه سبحانه وتعالى، ولعله من كلام بعض السلف، وكونه أطلق الأثر، بعض أهل العلم سماه الأثر، يطلقون على كلام التابعين وكلام الصحابة ويسمونها آثارا، وقد يطلق على الحديث لكنه قليل.أهـ

* * *

(١) لا أعرفه، ثم وجدته بدلالة بعض الإخوان جزاهم الله خيراً في مستدرك الحاكم (١/ ٤٩٤-٤٩٥) بنحوه وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه عمر بن عبدالله مولى غفرة، ضعيف، ومن طريقه أخرجه أبو يعلى وغيره، وهو مخرج في «الضعيفة» (٥٤٢٧).أهـ ألباني

فقوله: «منزلة الله في قلبه» هو ما يكون في قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغير ذلك، فإذا عرف أن المكانة والمنزلة: تأنيث المكان والمنزل، والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى، وتابع له، فعلو المثل الذي يكون في الذهن يتبع علو الحقيقة، إذا كان مطابقاً كان حقاً، وإلا باطلاً.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: في الآية الكريمة: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الروم:٢٧] يعني الوصف الأعلى من كل الوجوه سبحانه وتعالى.أهـ

* * *

فإن قيل: المراد علوه في القلوب، وأنه أعلى في القلوب من كل شيء.

قيل: وكذلك هو، وهذا العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء، فإن لم يكن عالياً بنفسه على كل شيء، كان علوه في القلوب غير مطابق، كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى.

وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع، ثابت بالعقل والفطرة، أما ثبوته بالعقل فمن وجوه:

أحدها: العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين، إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر قائماً به كالصفات، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر.

الثاني: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجاً عن ذاته، والأول باطل: أما أولاً: فبالاتفاق، وأما ثانياً: فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والثاني يقتضي كون العلم واقعاً خارج ذاته، فيكون منفصلاً، فتعينت المباينة، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه - غير معقول.

الثالث: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية، لأنه غير معقول: فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه، والأول باطل فتعين الثاني، فلزمت المباينة.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ومن كلام السلف كما قال ابن المبارك وغيره: «نعرف ربنا سبحانه بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه»[1] يعني منفصل عنهم، الله سبحانه فوق الجميع كما أنه إله الجميع سبحانه وتعالى.

وقوله: «البديهي» البدهي أضبط للقاعدة، بالنسبة إلى بديهة بدهي، مثل طبيعة طبعي، ومثل قبيلة قبلي، ومثل حنيفة حنفي، هذا هو الأصل، وقد يتسامح في هذا فتثبت بالياء بديهي طبيعي. أهـ

* * *

وأما ثبوته بالفطرة، فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى.

وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين، وهو يتكلم في نفي صفة العلو، ويقول: كان الله ولا عرش وهو الآن على ما

---

(١) رواه عبدالله بن أحمد في «السُّنة»، وقد تقدَّم.

كان! فقال الشيخ أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا؟ فإنه ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا؟ قال: فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل! وأظنه قال: وبكى! وقال: حيرني الهمداني حيرني! أراد الشيخ: أن هذا أمر فطر الله عليه عباده، من غير أن يتلقوه من المرسلين، يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو.

وقد اعترض على الدليل العقلي بإنكار بداهته، لأنه أنكره جمهور العقلاء، فلو كان بديهياً لما كان مختلفاً فيه بين العقلاء، بل هو قضية وهمية خيالية؟

والجواب عن هذا الاعتراض مبسوط في موضعه، ولكن أشير إليه هنا إشارة مختصرة، وهو أن يقال: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أقبل، وإن رد العقل قولنا فهو لقولكم أعظم ردا، فإن كان قولنا باطلاً في العقل، فقولكم أبطل، وإن كان قولكم حقاً مقبولاً في العقل، فقولنا أولى أن يكون مقبولاً في العقل. فإن دعوى الضرورة مشتركة، فإنا نقول: نعلم بالضرورة بطلان قولكم، وأنتم تقولون كذلك، فإذا قلتم: تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا هي من حكم الوهم لا من حكم العقل؟ قابلناكم بنظير قولكم، وعامة فطر الناس - ليسوا منكم ولا منا - موافقون لنا على هذا، فإن كان حكم فطر بني آدم مقبولاً ترجحنا عليكم، وإن كان مردوداً غير مقبول بطل قولكم بالكلية، فإنكم إنما بنيتم قولكم على ما تدعون أنه مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية، وبطلت عقلياتنا أيضاً، وكان السمع الذي جاءت به الأنبياء معنا لا معكم، فنحن مختصون بالسمع دونكم، والعقل مشترك بيننا وبينكم.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: ثم السمع الذي لا نزاع فيه يؤيد الفطرة السليمة والعقل الصحيح في إثبات العلو لله عز وجل وطلبه من أعلى، فإذا شك هؤلاء أو هؤلاء أو اعترض هؤلاء أو هؤلاء، فالذين معهم السمع هم الموفقون، لأن السمع معصوم وعقول الناس غير معصومة، فيها الصحيح والباطل، وهكذا فطرهم قد تختلف، لأنها جاءتها الشياطين من الجن والإنس وغيروها، فالعقل يتغير ويضطرب والفطر كذلك، بأسباب الجلساء وما يسمعه الناس من أقوال الشياطين والمنحرفين، فيبقى السمع سليماً مؤيداً للعقل الصحيح والفطرة السليمة في الإيمان بالله واعتقاد علوه وفوقيته سبحانه وتعالى فوق جميع خلقه عز وجل، والرد على الجهمية والمعتزلة وأشباههم، والأصل في هذا هو النقل، والله جل وعلا فطر العباد وأعطاهم من العقول ما يشهد بصحة النقل وسلامته وثباته، لأنه عرف من الأدلة الشرعية القاطعة أن الرسول ﷺ لا يأتي إلا بحق، وأن القرآن حق، فما دل عليه الحق فهو حق، وكلام أهل البدع أظهر شيء وأبطله، نسأل الله العافية.أهـ

* * *

فإن قلتم: أكثر العقلاء يقولون بقولنا؟

قيل: ليس الأمر كذلك، فإن الذين يصرحون بأن صانع العالم شيء موجود ليس فوق العالم، وأنه لا مباين للعالم ولا حال في العالم ـ: طائفة من النظار، وأول من عرف عنه ذلك في الإسلام جهم بن صفوان وأتباعه.

واعترض على الدليل الفطري: أن ذلك إنما لكون السماء قبلة للدعاء، كما أن الكعبة قبلة للصلاة، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على

الأرض مع أنه ليس في جهة الأرض؟

وأجيب على هذا الاعتراض من وجوه:

أحدها: أن قولكم: إن السماء قبلة للدعاء ـ لم يقله أحد من سلف الأمة، ولا أنزل الله به من سلطان، وهذا من الأمور الشرعية الدينية، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها .

الثاني: أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة، وكان النبي ﷺ يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة[1]، فمن قال إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة، أو أن له قبلتين: إحداهما الكعبة والأخرى السماء ـ: فقد ابتدع في الدين، وخالف جماعة المسلمين .

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: والمعنى في هذا أن من أسباب قبول الدعاء ومن صفاته التي يشرع ملاحظتها؛ استقبال القبلة في الدعاء، ولكن ليس بشرط، له أن يدعو جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً في جميع الأحوال، كما دلت عليه السنة، فهو ﷺ لم يكن يتقيد بذلك، بل يدعو في أي جهة استقبل عليه الصلاة والسلام، ولكن إذا تحرى في دعائه كما في خطبة الاستسقاء، وكما في أوقات كثيرة، فهذا حسن، فلهذا ثبت عنه ﷺ في أوقات كثيرة أنه دعا وهو غير مستقبل القبلة عليه الصلاة والسلام، بل قد أعطى الناس وجهه إلى غير القبلة وجعل القبلة خلفه في مواطن كثيرة، فالمقصود أن زعمهم أن الدعاء يفرد به السماء،

---

(١) صحيح، والأحاديث في ذلك كثيرة، منها حديث عبدالله بن زيد قال: «خرج النبي ﷺ إلى هذا المصلى يستسقي، فدعا واستسقى، ثم استقبل القبلة» متفق عليه، وترجم له البخاري في «الدعوات» بـ«باب الدعاء مستقبل القبلة».أهـ ألباني

وأن السماء قبلة الدعاء ليتملصوا بهذا عن الإيمان بالعلو، هذا قول فاسد.

ثم السجود في الأرض للخضوع، شرع الله السجود لما فيه من الخضوع لله والانطراح بين يديه والانكسار، وتعفير الوجه الذي هو أشرف الأعضاء الظاهرة على الأرض، طاعة لله وتعظيماً له، ولما كان هذا قد يشَبّه على بعض الناس أو يستنكره بعض الناس من جهة العلو، وأن الله يدعى من أعلى سبحانه وتعالى، شرع فيه سبحانه ما يزيل هذه الشبهة ويرفع هذا الوهم بقول «**سبحان ربي الأعلى سبحان ربي الأعلى**» شرع هذا الذكر العظيم لإيضاح أن المقصود من السجود ليس هو أن الله أسفل أو في الأرض، وإنما شرع للخضوع لله، والسجود غاية الخضوع لله والذل والاستكانة، وشرع فيه من الذكر ما يبين أنه ليس المقصود أن الله في الأرض، وإنما هو في السماء، قال: سبحان ربي الأعلى سبحان ربي الأعلى ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ﴾ [الأعلى:١]. أهـ

* * *

الثالث: أن القبلة: هي ما يستقبله العابد بوجهه، كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء، والذكر والذبح، وكما يوجه المحتضر والمدفون، ولذلك سميت وجهة، والاستقبال خلاف الاستدبار، فالاستقبال بالوجه، والاستدبار بالدبر، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة، لا حقيقة ولا مجازاً، فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها، وهذا لم يشرع، والموضع الذي ترفع اليد إليه لا يسمى قبلة، لا حقيقة ولا مجازاً، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع، ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل السماء بوجهه، بل نهوا عن ذلك.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وفي الصحيح «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم»(١) وفي لفظ «أو لتخطفن أبصارهم»(٢) شرع الله طرح الأبصار في الصلاة والخضوع في الصلاة، وأن لا ترفع الأبصار إلى السماء، وإذا رفع بصره إلى السماء من باب الإشارة إلى العلو؛ هذا لا بأس به، كما فعل النبي ﷺ حينما خطب الناس في حجة الوداع واستشهدهم على تبليغه وما أداه من النصيحة، رفع إصبعه «اللهم اشهد اللهم اشهد»(٣).أهـ

* * *

ومعلوم أن التوجه بالقلب، واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري، يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل، وأكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله، كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله، مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل، كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة، وأمر التوجه في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك، بخلاف الداعي، فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه، ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده، وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له، لا أن يميل إليه إذ هو تحته! هذا لا يخطر في قلب ساجد، لكن يحكى عن بشر المريسي أنه سمع وهو يقول في

---

(١) رواه مسلم (٤٢٨) كتاب الصلاة / باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٧٥٠) كتاب الأذان / باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة، ومسلم (٤٢٩) كتاب الصلاة / باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة والدارمي، وقد تقدم.

سجوده: سبحان ربي الأسفل!! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، وإن من أفضى به النفي إلى هذه الحال حري أن يتزندق، إن لم يتداركه الله برحمته، وبعيد من مثله الصلاح، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله: يعني من حاد عن الحق وأعرض عنه مع العلم، لهوى في نفسه ولغرض خسيس، أو للمكابرة والمجادلة بالباطل، أو للتكبر والعناد، أو لأسباب أخرى خبيثة، فإن هذا حري بأن يزاغ قلبه، نسأل الله العافية، ويخذل غاية الخذلان، لكونه حاد عن الحق بعد العلم، قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقال سبحانه ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠] وقال جل وعلا: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل:١٤] فلما جحدوا الحق، علواً وتكبراً، أصيبوا وهلكوا وخسروا في الدنيا والآخرة.أهـ

* * *

فمن لم يطلب الاهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان، نسأل الله العفو والعافية.

وقوله: «وقد أعجز عن الإحاطة خلقه» أي لا يحيطون به علماً ولا رؤية، ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة، بل هو سبحانه محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء.